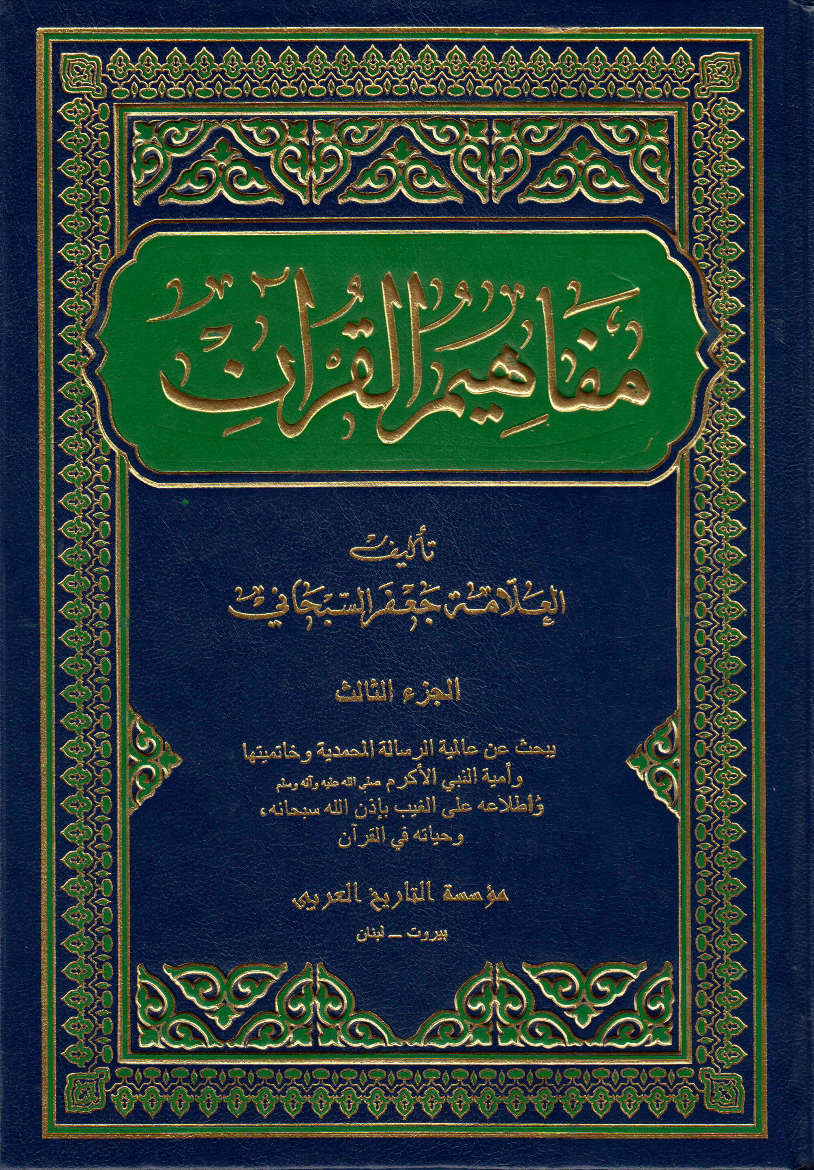

مفاهيم القرآن
تأليف
العلامة جعفر السبحاني
الجزء الثالث
يبحث عن عالمية الرسالة المحمدية وخاتميتها
وأمية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم
واطلاعه على الغيب بإذن الله سبحانه،
وحياته في القرآن
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت — لبنان



تأليف

العلامة جعفر السبحاني

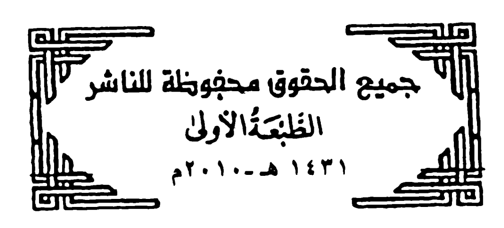
الجزء الثالث

يبحث عن عالمية الرسالة المحمدية وخاتميتها
وأمية النبي الأكرم ﷺ ، واطلاعه على الغيب
بإذن اللله سبحانه ، وحياته في القرآن

مؤسسة التاريخ العربي

بيروت ــ لبنان





الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

THE ARABIC HISTORY
Publishing & Distributing

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٠١/٥٤٠٠٠٠ - ٠١/٤٥٥٥٥٩ - فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/540000 - 01/455559 - Fax: 850717 - p.o.box 7957/11

لقد وافتنا رسائل من الشخصيات البارزة المتبحّرة بعلوم القرآن و تفسيره تشجّعنا على مواصلة العمل و نحن نتقدم إليهم بالشكر و ننشر كلماتهم فيما يأتي من الأجزاء مشفوعاً بالتقدير و الإكبار.

كلمة قيّمة للمفكّر الإسلامي الكبير والمفسّر القدير العلّامة السيّد محمد حسين الطباطبائي ـ قدّس سرّه ـ مؤلّف الكتاب القيّم «الميزان في تفسير القرآن».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد، فإنّ الكتاب الذي بين يديك سلسلة بحوث قيّمة في القرآن الكريم وتفسيره على أساس «الوحدات الموضوعية» فيه. ويلاحظ الباحث فيها أنّها تعتمد، قبل كل شيء على الاستفادة من نفس مفاهيم القرآن الكريم في عرض المواضيع كما يلاحظ الروح الموضوعية الهادفة والأُسلوب الفخم، والتتبع الدقيق، والإسهاب في البحث، والاستيفاء الكامل لكلّ جوانب الموضوع. فأسأل الله أن يوفّق مؤلّفنا الموفّق لتنقيح سائر المواضيع في الأجزاء الآتية، انّه سميع بصير.

محمد حسين الطباطبائي

عام ١٣٩٣ هـ

قم ـ إيران

اكبار وتقدير لهذه الموسوعة القرآنية من المحقق المتتبع العلامة الكبير الشيخ محمد تقي التستري دام ظله، صاحب كتاب «قاموس الرجال».

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة العلاّمة فخر الأيام الشيخ جعفر السبحاني دامت بركاته.

وصلني كتابكم الميمون ففتح علينا أبواب البهجة والسرور، كما وصلني مؤلّفكم القيّم «مفاهيم القرآن» وقد طالعته من أوّله إلى آخره والحق أنّكم بحثتم فيه عن موضوعات كثيرة وعالجتم فيه المسائل الإسلامية معالجة جديدة، بعيدة عمّا حولها من آراء وأفكار مهجورة فجزاكم الله عن الإسلام والدين والعلم خير الجزاء.

والعجب أنّكم رغم نشأتكم في إيران أخذتم بناصية اللغة العربية كأديب مصري أو بغدادي، فأتيتم بتعابير عصرية رائجة، أدام الله في تأييدكم وزاد في تسديدكم.

الشيخ محمد تقي التستري

التفاتة كريمة وكتاب مبارك من الأُستاذ الفذ سماحة العلاّمة الحجة الشيخ محمد الكرمي دام ظله الوارف نقتطف منه ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هزتني طرّة عنوانه لأنّه مبتكر في بابه

كم بت أتململ ساعات طوالاً من الليل، وآناء كثيرة من أطراف النهار أجول بفكري في غضون الحياة لعلّي أطّلع من بعض منافذها على بصيص أجعله مناراً للخروج من حيرتي لأنّي أعرف للفضيلة مفهوماً ولا أراه بين الناس، وللدين أهمية عظمى ولا أجدها ظاهرةً بينهم.. نعم قد تقع العين أحياناً على فاضل متزن وكاتب متقن وكتاب متشخص فيلوح في الآفاق كما تلوح النجمة اللامعة في شاشة الظلام الأدكن ويحصل منها بصيص للدرب يهوّن على سالكه المسير فلا يكون كخابط في ليلة ظلماء.

وفي مثل هذا الوقت المتلوي والظرف الحرج يتحفني صديق لي حميم وهو الأُستاذ جعفر السبحاني بالجزء الأوّل من تفسيره الموضوعي للقرآن الكريم «فهزّتني طرة عنوانه لأنّه مبتكر في بابه» فانّ كل من كتب في التفسير كتب على طبق تسلسل السور من الفاتحة إلى المعوذة بالترتيب الموجود للمصحف الشريف، أمّا صديقنا الفاضل فقد حاول خطة أُخرى هي بنظري آصل من الخطط الدارجة وهي إلمامه بجميع ما في

القرآن من أهـداف وموضوعات تحدّث القـرآن الكريم عنها و إشخـاص كل هدف في باب خاص والإفاضة عنه با لآيات التي رمت إليه في أيّة سورة كانت.

... لقد أتحفنـي صديقي السبحـاني بالجزء الأوّل مـن تفسيره الموضوعي فقـرأت مقدمته لأستجلي من مجملها تفاصيل ما دوّن أو يـريد تدوينه، فوقفت على مجمل مفعم با لمطالب الـدقيقة وفتحت الكتاب عفواً فوقعت عيني على عنـوان اُمّية النبي في القرآن وسرحتها قصداً لترتع في هذه الجنائن النـاظرة والحدائق الغنّاء فكان و الحق يقال محققاً لمادة المطلب مفتشاً على كل مظنة توفي بها على ما يـوخّى من بحثه وبعد ذلك مطبقاً لما علّق بنظره مبرهناً عليه طارداً للشبه والاشكالات التي توجّه إليه.

فالسبحـاني و إن كان كتـب في أبواب شتى وطـرق مواضيـع عديـدة وساعـدته الظـروف فنشر ما كتب إلاّ أنّـه في كتابـه هذا إذا وفّـق لإتمامه على اُسلـوب فأنجز منـه يكون قد جاء ببيت قصيده وأسعفه الحظ بمقصوده ولا استكثر عليه ذلك.

لقد أتحفني صـديقي الفاضل السبحاني كما ذكـرت بالجزء الأوّل من موسـوعته فرأيـت لزامـاً عليّ أن أقدم لجزئه الثـاني الجاهز للطبع وأعـرب عن الحق الـذي تضمّنه كتابه لا عن تذوقي وحده. فجدير بالناشئة المؤمنة أن تطالع هذا الكتاب وتشبع بعض نهمتها منه وجدير بالاُستاذ المؤلّف أن يتـابع خطوه في إتمام هذه الموسوعة التي تتقاضى منه جداً وجهداً وزمنـاً و إذا ماطل هذه الصعوبات وانتصر عليها يكون قـد فاز برضى من ربّه وهذه هي الجائزة الموقّرة... والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

محمد الكرمي

٢١/ ج١/ ١٣٩٤ هـ

عـواطف خـالصـة يجود بها علينـا أخ في الله كـريم وعلم من أعلام الفكر والدين فضيلة الشيخ حسن طراد العاملي نزيل النجف الأشرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة العـلاّمة الجليل المجاهـد الكبير سماحة الشيخ جعفـر السبحاني المحترم دام حفظه وتأييده.

تحية حب و إخلاص وتقدير و إجلال.

وبعد: فقـد وصلتني هديتـك الثمينة التي تفضّلـت بها «مفاهيم القـرآن». وقد كان لهذه الهدية الفكـرية مدلول رائع ومحتـوى مزدوج سامٍ، فهي تعبّر من جهـة فكرية عن فكر عميق ونظـر دقيق وسعة إطلاع وفصاحة بيان وسـداد منطق كما تعبّر من جهة روحية عن سمـوّ خلق ودماثة طبع ورحـابة صدر وسماحة نفـس ولهذا وذلك كان لهذه التحفة السنية بما عبّرت عنـه ودلّت عليه أبلغ الأثر في نفسي حيـث جعلت لك عندي منزلة سامية ومكانة مرموقة تستوجب التقدير والإجلال، كما بعثت وكوّنت لك في قلبي حبّاً عميقاً و إخـلاصاً وثيقاً يجذبني إليك بسلك الـوفاء والولاء وقد كان مـن نتائج هذا التقديـر وذلك الحب مقطوعـة شعرية نظّمتهـا بوحي مـن اعجابي بفضلك وتقـديري

لشخصك وإخلاصي لك وهي:

سر للأمام مؤيّداً بعزيمة	كالطود لا تثنى ولا تتقهقر
وأنشر من الدين الحنيف معارفاً	غراء تسطع بالرشاد وتزهر
وأكشف دياجير الضلال بساطع	من نور فكرك بالهدى يتموّر
فالليل لا يجلوه إلاّ كوكب	بشعاعه ظل الدجى يتبخّر
والغي لا يمحوه إلاّ كاتب	بفنون دستور السما متبحّر
نشر الحقائق في العقول فأشرقت	وعياً وأضحت بالهدى تتنوّر
ليظل دستور العقيدة مشرقاً	تزهو بروعة ما حواه الأعصر

وختاماً أشكر هديتك القيّمة وأُقدر أخلاقك السامية وجهادك المثمر البنّاء والسلام عليك وعلى سائر الأعلام المجاهدين في حوزة قم المقدسة.

حسن طراد العاملي نزيل النجف الأشرف

٧/ ربيع الآخر/ ١٣٩٤ هـ

مقدّمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث عن التفسير الموضـوعي ذو شجون و هو يقابـل التفسير الترتيبي الذي يتخذ المفسّر، القرآن مـوضوعاً لتفسيره مبتدئاً من سورة الحمد و منتهيـاً إلى سورة الناس وربّما لا يرافقه التوفيق لتفسير جمع السور فيكتفي بتفسير البعض.

وأمّا التفسير الموضـوعي فيجعل المفسّر الموضوعـات الواردة في الكتاب العـزيز محوراً للدراسـة و يجمع شتيت آيـاته مـن السور المختلفـة فينظر إلى الكل بنظـرة ثاقبـة ويخرج بنتيجة واحدة يجعل البعض قرينة للبعض الآخر.

وكان المألـوف بين المفسّرين هو النمط الثاني وإن كـان النمط الأوّل غير مغفول عنه في بعض صـوره، كالبحث عن الآيات الـواردة حول الأحكام الفقهيـة من الطهارة إلى الديات، والآيات الواردة حول المثل والأخلاق.

وأوّل من فتح هذا البـاب على وجه موجز في غيرواحد من المواضيع هـو العلاّمة المجلسي ـ قـدّس سرّه ـ حيث أصـدر في موسوعتـه عن هذا اللـون من التفسير في جميع الأبواب في مجالي العقيدة و الشريعة و الحوادث الكونية غير انّه لا يخرج في تفسيرها عن إطـار مـا في التفـاسير المعـروفة كمجمـع البيـان للطبرسي وأنوار التنـزيل للبيضـاوي وغيرهما. وممّا يدعـوا إلى إكبار عمله أنّه قـام بجمع آيات الموضوعـات الواردة في القرآن الكريـم مع عدم توفّـر المعاجم الموجـودة في عصرنا هذا، فإنّها بـلا شك خير معين لمن يريد الخوض في هذا المجال.

وقد قمت بحمد الله بهذا العبء الفادح حسب المستطاع فجعلت العقيدة هي المحور الأوّل للتفسير مقدماً لها على الأحكام و الأخلاق وما يرجع إلى الكون والطبيعة وخلق الإنسان.

والجزء الأوّل يحتوي على مباحث في التوحيد واقسامه، والشرك وألوانه ولمّا انتهينا في هذاالجزء إلى التوحيد في الحكومة وأنّه لا حاكم في المجتمع البشري سوى الله سبحانه وانّ حكومة غيره لابدّ أن تكون مستمدة من حكومته سبحانه وتعالى. خصّصنا الجزء الثاني من هذه الموسوعة في الحكومة الإسلامية، وما ورد حولها من الآيات في مواضيع مختلفة.

وكان الأنسب للبحث في الجزء الثالث هو دراسة أسمائه وصفاته، ثمّ البحث عن النبوّة العامّة إلى أن ننتهي إلى معالم النبوّة الخاصة ولكن كانت الحاجة في المجتمع الإسلامي ماسّة للبحث عن النبوّة الخاصة ركّزنا البحث على مواضيع ترجع إليها واستغرقت تلك البحوث الجزء الثالث والرابع والخامس نعم درسنا صفاته سبحانه في الجزء السادس دراسة معمّقة تليق بهاو درسنا حياة النبي الأكرمﷺ في القرآن في الجزء السابع.

وما ذكرنا فهرس موجز لهذه الأجزاء السبعة وأرجو منه سبحانه أن يوفّقني لدراسة المواضيع الباقية من العقائد والمعارف. إنّه قريب مجيب.

وها نحن نعيد طبع الجزء الثالث في حلّة قشيبة وقد مضى على الطبع الأوّل قرابة عشرين سنة وما زال الطلب يصل إلينا ويشجعنا على مداومة العمل. واستيعاب المواضيع الباقية في المعارف الواردة في القرآن الكريم ونرجو الله تعالى أن يوفقنا لإكمال هذه الموسوعة التي تهدف إلى التعرّف على الأُصول والعقائد عن طريق الوحي والتنزيل.

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

جعفر السبحاني

٣شهر رمضان المبارك عام١٤١٣

مقدمة الطبعة الثانية



القرآن
كتاب القرون والأجيال

القرآن معجزة خالدة

لما كانت رسالة النبي الكريم محمد ﷺ أبدية خالدة إلى يوم القيامة لأنّها خاتمة الرسالات، ونبوّته خاتمة النبوّات.. وكانت النبوّة والرسالة الخالدة بحاجة إلى المعجزة الخالدة لاقناع الأجيال المتلاحقة، امتازت معجزة الرسول الكريم محمدﷺ عن معاجزه غيره من الرسل الكرام بكونها خالدة خلود النبوّة المحمدية، باقية بقاء الرسالة الإسلامية، التي هي خاتمة الرسالات والحلقة الأخيرة المتكاملة في سلسلة الشرائع الإلهية.

وهذا أمر يؤيّده العقل، ويؤكده البرهان. فالأنبياء والرسل السابقون، رغم أنّهم كانوا أصحاب معاجز كثيرة وعديدة، لكن تلك المعاجز كانت مؤقتة، لأنّ رسالتهم كانت منحصرة على عصورهم وأجيالهم أو تمتد إلى عصور بعدهم بقليل ولذلك كانت معاجزهم باقية في الأذهان بقدر طول مدة نبوّتهم ورسالتهم فكانت تختفي بانتهاء مدة

نبوّاتهم ـ عليهم السلام ـ ولم يبق منها إلاّ أخبار وقصص في بطون الكتب، وطيات التاريخ المدوّن.

أمّا الرسالة التي كلّف بابلاغها الرسول الخاتم ﷺ فإذ لم تكن محدودة بزمن دون آخر، ولا مقصورة على جيل دون آخر، فهي الرسالة الخالدة وهي الدعوى الموجهة إلى جميع الأجيال البشرية إلى يوم القيامة، كان من الضروري والبديهي أن تقترن بمعجزة خالدة، تشهدعلى صدق صاحب الدعوة وحامل تلك الرسالة، في جميع القرون والأعصار، ولتكون (حجة) على جميع الأجيال المخاطبة بها، والمدعوّة إليها، لأنّ المعجزة وثيقة إثبات لا يمكن تصديق رسالة ونبوّة بدونها.

وكانت هذه المعجزة الخالدة التي زوّد الله تعالى بها خاتم الأنبياء محمداً ﷺ هي (القرآن الكريم) الذي بقى على مرّ العصور والأزمنة يشهد ـ بقوّة ووضوح ـ على صدق النبوّة المحمدية وعلى صلته ﷺ بالله سبحانه وتعالى.

والجدير بالذكر أنّ إعجاز القرآن الكريم لا يقتصر على جهة دون جهة، بل هو معجزة بمجموعه وفي جهات شتى نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

أوجه الإعجاز القرآني

انّ القرآن الكريم معجزة مستمرة وخالدة:

أولاً / من حيث فصاحته وبلاغته التي أخرست البلغاء والفصحاء، لا في عصر نزوله خاصة، بل في جميع الأزمنة والدهور، وأعجزتهم عن معارضته، وتحدّتهم في معاقلهم، وعقر دورهم.

ثانياً/ من حيث احتوائه على أفضل القوانين والنظم، وأرقى التشريعات في جميع المجالات الحيوية، وإتيانه بما عجز عن الإتيان به أرقى الحضارات البشرية حتى يومنا هذا.

ثالثاً/ من حيث إخباره بالأُمور المستقبلية واحتوائه على الأُمور الغيبية، إذ أخبر

عن وقائع وحوادث مستقبلية تحققت بعده حرفاً بحرف.

رابعاً/ من حيث سلامته عن التناقض والاختلاف في النظم والأُسلوب، وفي المعنى والمضمون رغم تدرّجه في النزول على النبي ﷺ وتنزّله في ظروف مختلفة متباينة كيفاً وحالاً، وخلال ثلاث وعشرين سنة محفوفة بالمشاكل الجسيمة، والتطورات العنيفة.

خامساً/ من حيث تناوله الدقيق للوقائع التاريخية الماضية، حيث قصّها على نحو خال عن شائبة الأساطير والخرافات، وهو أمر يمكن معرفته بمقارنة القرآن الكريم مع التوراة والانجيل.

سادساً/ من حيث اشتماله على إشارات رائعة عميقة إلى حقائق كثيرة من العلوم الطبيعية التي توصل إليها العلم الحديث ــ في هذا العصر ــ بفضل الجهود الطويلة المضنية، وبواسطة المختبرات، والوسائل العلمية والتجارب والاختبارات العديدة.

سابعاً/ من حيث قوّة احتجاجه على خصومه ومعارضيه، وما جاء به من حجج لم يسبق لها نظير في علم المناظرة والاحتجاج وكانت ـ ولا تزال ــ أنجح الحجج في إفحام الخصوم وإسكات المجادلين، والمشككين، بل وهدايتهم في أغلب الأحيان.

ثامناً/ من جهة ما جاء به في مجال الأخلاق والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع حيث استقصى الأخلاق الفاضلة وحثّ على التزيّن بها بما توجبه الحكمة من البعث والترغيب، وأحصى الأخلاق الرذيلة وزجر عن التلوّث بها بما توجبه الحكمة، ويقتضيه الاصلاح من التخويف والتنفير وسلك في ذلك كلّه طريقة فريدة لها أبلغ الأثر حتى في أشد القلوب قساوة.

تاسعاً/ من حيث روحانيته البالغة التي تنفذ إلى الأعماق، وتأخذ بمجامع القلوب، وتستميل المشاعر، فإذا بآياته روح تحيا بها نفوس الخلق، ونور يضيء الوجود الإنساني كما تضيء الشمس الآفاق، فتنشط الأحياء، وتتحرك الطبيعة.

عاشراً/ من حيث تناوله لأدق المعارف العقلية، والقضايا الاعتقادية الرفيعة التي لا تصل إليها أفكار البشر، ولا تبلغها علومهم، ممّا يتعلّق بالله سبحانه وصفاته وأسمائه وأفعاله، وما أخبر به من عوالم غيبية في الملأ الأعلى، والنشأة الأُخرى.

إلى غير ذلك من الجهات والوجوه التي يقصر البيان عن الأحاطة بها، واحصائها في هذا المختصر.

غير أنّ الجهة الأخيرة من هذه الجهات وهي التي كان يتوجب تناولها بالدراسة الوافية والتحليل الشامل، وخاصة في عصرنا الحاضر، قد أُهملت في مؤلّفات المفسّرين غالباً فهم لم يدرسوها بجامعية تليق بالموضوع وتناسب أهميته، وتعطي حقه من العناية والبحث.

ولعلّ عذرهم في ذلك هو أنّ تفسيرهم للكتاب العزيز كان على وجه التفسير التدريجي للقرآن، أي التفسير سورة فسورة، وآية فآية، ولم يتبادر إلى أذهانهم إنّ هناك نوعاً آخر من التفسير هو التفسير الموضوعي الذي يفسّر الكتاب العزيز حسب المفاهيم والموضوعات، وهو النمط الذي أشرنا إليه في مقدمة الجزء الأوّل من هذه السلسلة القرآنية.

* * *

لزوم الاهتمام بالمعارف الإلٰهية

وإنّما ينبغي إعطاء المزيد من الاهتمام بالمعارف الإلٰهية التي ترتبط بالله سبحانه، وأسمائه وصفاته وأفعاله وغير ذلك ممّا تناوله القرآن بالدقة المشهودة لأنّ تناول القرآن لهذه المعارف بهذا الشك يدل ـ بوضوح لا يقبل الجدل ـ على أنّ النبيّ الأُمّي ﷺ لم يأخذ هذه المعارف إلاّ من مستقى (الوحي)، إذ من المستحيل لابن الجزيرة الخالية من أيّة حضارة وثقافة أن يأتي ـ في كتابه ـ بما أبهر عقول الفلاسفة والمفكّرين، في القديم والحديث، وذلك من لدن نفسه وصنع فكره، أو يكون قد تلقّاها في مدرسة، أو اقتبسها من معلّم في أرض لم يعرف أهلها إلاّ الأوهام، ولم يؤمنوا إلاّ بالخرافة، فلا ثقافة

ولامثقّفين، اللّهمّ إلاّ بضعة أشخاص [١] لم ينالوا من الثقافة إلاّ صبابات هي إلى الجهل أقرب منها إلى العلم والمعرفة.

أنّ القرآن جاء بأُصول وأفكار في مجال المعارف العقلية العليا لم يقف عليها حتى النوابغ من الفلاسفة، في الشرق والغرب، إلاّ عن طريق ذلك الكتاب الالٰهي وهدايته.

انّ من الظلم الفضيع إهمال دراسة هذه المعارف العليا بحجة أنّها مسائل غيبية يجب الاعتقاد بها اجمالاً، وترك دراستها ومناقشتها وتحليلها.

والعجب أنّه روي عن الإمام مالك أنّه جاء إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟

فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء. ثم قال:

«الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلاّ مبتدعاً».

فأمر به أن يخرج [٢].

ونحن نعتقد أنّه كان على الإمام أن يجيب على سؤال السائل ويهديه إلى مراده سبحانه من هذه الآية بدل رميه بالإبتداع وإخراجه من المجلس.

كما أنّ من الظلم أيضاً ما يرتكبه بعض كتّابنا المسلمين المعاصرين، حيث أخذ يفسّر هٰذه المعارف العقلية الإلٰهية بالأُمور المحسوسة ويحاول تطبيقها على الشؤون المادية فصار فعله بذلك من أوضح مصاديق (تفسير القرآن بالرأي) الذي تواترت الأحاديث

---

(١) لقد نقل البلاذري في كتابه فتوح البلدان أنّ الذين كانوا يعرفون الكتابة في مكة ـ آنذاك ـ لا يتجاوزون سبعة عشر شخصاً، وفي المدينة أحد عشر شخصاً، وإليك نصّ ما قاله في هذا المجال:

«دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب» ثمّ عدهم وذكر أسماءهم وقال:

«كان الكتّاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلين ... فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون» ثمّ ذكر أسماءهم راجع ص ٤٥٦ ـ ٤٥٩ باب في أمر الخط، فتوح البلدان.

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ج ١ ص ٤٤٣.

الشريفة من الرسول الأعظم ﷺ على نهيه.

من أجل هذا، ولكي نسلم من التخبّط والعشوائية في معرفة هذه المعارف والقضايا الاعتقادية يتعيّن علينا أن ندرسها بعناية بالغة على نمط (التفسير الموضوعي) من دون فرق بين موضوع وآخر، حتى نقف ـ من هذا السبيل ـ على واحدة من أهم جهات الإعجاز القرآني، ونكون من المتعمّقين في القرآن ومعارفه. وما روي عن الإمام علي بن الحسين السجاد ـ عليه السلام ـ إذ قال، لمّا سئل عن التوحيد:

«انّ الله ـ عزّ وجلّ ـ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: **﴿قل هو الله أحد﴾** والآيات من سورة الحديد إلى قوله: **﴿وهو عليم بذات الصدور﴾** فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[١].

أقول: انّ ما روي عنه ـ عليه السلام ـ لا يعني أنّ الإمام أراد حصر الآيات الباحثة عن المعارف والقضايا الاعتقادية في هذه الآيات بل لمّا كان ما جاء في هذه الآيات في القمّة من تلك المعارف، أشار إليها الإمام خاصّة دون إرادة الحصر.

ولأجل هذا جعلنا وجهة البحث في تفسيرنا منذ أن شرعنا في هذا النمط صوب: (المعارف الاعتقادية) على ضوء القرآن، مبتدئين بالتوحيد وماضين في هذا السبيل إلى ما شاء الله...

* * *

تقديم مباحث النبوّة على الصفات

ولمّا انتهى البحث عن (التوحيد) وأقسامه في الجزء الأوّل من كتابنا الذي انتشر باسم «معالم التوحيد في القرآن الكريم»، وفرغنا من عرض أهم أصل من أُصول الدين الإسلامي، وانجرّ البحث عن توحيد حاكميته سبحانه إلى توضيح صيغة الحكومة الإسلامية وخصصنا لبيانها جزءاً مستقلاً وانتشر بإسم: «معالم الحكومة الإسلامية» كان البحث الضروري والمهم بعد ذلك الفصل هو البحث عن معالم النبوّة مطلقاً، ونبوّة

---

(١) الكافي ج ١ باب النسبة الحديث ٣.

نبيّنا محمد ﷺ خاصّة واستعراض ما جاء حولها من المسائل والمباحث التي يجب الاعتقاد بها حسب نصوص القرآن الكريم وآياته.

نعم كان اللازم بعد البحث عن وجوده سبحانه وتوحيده هو البحث عن سائر صفاته الجمالية من علمه وقدرته وحياته إلى غير ذلك من الصفات الثبوتية، أو البحث عن صفاته الجلالية من كونه ليس بجسم، ولا عرض، إلى غير ذلك من الصفات السلبية[١].

نعم كان اللازم تقديم البحث عن صفاته على بحث النبوّة، غير أنّه لما كان أهم صفاته هو التوحيد وقد أشبعنا الكلام فيه ضمن فصول، قدّمنا بحث النبوّة .

وإنّما اخترنا مبحث النبوّة، بعد استيفاء البحث في توحيد الله سبحانه، لأنّه الأصل الثاني لتحقق الإسلام، حيث كان الرسول الأعظم ﷺ يقبل إسلام من يعترف بالشهادتين: الشهادة بتوحيد الله سبحانه، والشهادة برسالة نبيّه ﷺ .

نعم سنقوم، بعد استيفاء البحث عن النبوّة، بالبحث عن (المعاد في يوم القيامة)، لأنّ أي مسلك ودين لا يمكن أن يصطبغ بصبغة الدين الالٰهي بدون الاعتقاد بـ (المعاد).

وتدل على انحصار المهم من الاعتقاد في هذه الأُمور والأُصول الثلاثة روايات وأحاديث منها ما عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنّه قال:

«لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي محمد رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر»[٢].

كما روي أنّ رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله بجارية له سوداء فقال: «يارسول الله علي رقبة مؤمنة أفأعتق هذه؟ فقال لها رسول الله:

---

(١) خصصنا الجزء السادس بالبحث عن أسمائه و صفاته سبحانه كما خصصنا الجزء السابع لبيان دعوة النبيّ الأكرم و حياته في القرآن.

(٢) أخرجه الترمذي راجع جامع الأُصول ج ١ ص ١٤٥ .

أتشهدين أن لا إله إلاّ الله؟

قالت: نعم.

قال: أتشهدين أنّ محمداً رسول الله؟

قالت: نعم.

قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟

قالت: نعم.

قال رسول الله: اعتقها»[١].

مباحث النبوّة

انّ البحث عن (النبوّة) يقع في موردين:

١ـ النبوّة العامّة.

٢ـ النبوّة الخاصّة.

والمراد من البحث في (النبوّة العامّة) هو دراسة ظاهرة «النبوّة»، ذلك الفيض الالٰهي الجاري من جانب الله سبحانه إلى البشر بواسطة الأنبياء والرسل من آدم ـ عليه السلام ـ إلى خاتم النبيين ﷺ .

وفي مجال النبوّة العامّة لابدّ من البحث في الأُمور التالية التي يتكفل مجموعها شرح هذه الحقيقة الكبرى، وبيانها:

الأوّل: لزوم بعث الأنبياء إلى البشر.

الثاني: الشرائط العامّة اللازمة في النبي كالعصمة والخلو عن النقص والعيب.

الثالث: كيفية أخذ الأنبياء الأحكام عن الله سبحانه، وما هو الوحي.

الرابع: ما يعرف به النبي الحقيقي ويمتاز عن مدّعي النبوّة كذباً، ومنتحلها

---

(١) أخرجه صاحب الموطأ راجع ج١ ص ١٤٥.

زوراً، ويبحث فيه عمّا يسمّى بدلائل النبوّة التي منها «المعاجز».

تلك هي عناوين الأبحاث في «النبوّة العامّة» التي تعرّض لها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من سوره وآياته.

وإنّما يجب البحث عن الموضوع الأوّل (أعني لزوم إرسال الرسل وبعث الأنبياء) دفعاً للمزاعم الواهية المنقولة عن البراهمة والبوذيين الذين أنكروا ضرورة إرسال الرسل بوجوه ذكرها علماء الكلام في مؤلّفاتهم الاعتقادية[1].

وأمّا البحث عن الموضوع الثاني فلأجل توضيح أنّ النبوّة لا تعطى إلاّ لمن تتوفّر فيه صفات خاصّة، ومؤهّلات معيّنة وهو بحث يتطلبه مبحث النبوّة العامّة لمعرفة أهمية مسألة النبوّة، وأنّ هذا المنصب العظيم لم يعهد إلاّ لمن تتوفّر فيه صفات معيّنة.

ويتناول العنوان الثالث بالبحث لمعرفة أنّ أهمية النبوّة وامتيازها عن أيّة ظاهرة فكرية بشرية إنّما هي بالوحي، الذي هو كيفية اتصال الأنبياء بالله سبحانه، وهو الأمر الذي يدحض الزعم الباطل القائل بأنّ الأنبياء مجرد نوابغ وأنّ ما يأتي به الأنبياء نظريات بشرية نابعة من صميم أفكارهم.

ويتناول الموضوع الرابع بالدراسة لأنّ معرفة النبيّ الصادق عن المتنبئ الكاذب متوقف على ما يتحقق عل يد النبي من معاجز تثبت تأييد الله سبحانه له وإن كانت هناك طرق أُخرى لتمييز النبي الحقيقي عن المتنبئ أيضاً وسيوافيك بيانها في محلها.

وهذه العناوين وإن كان البحث عنها مهماً وضرورياً لمعرفة حقيقة النبوّة بصورة عامة لكنّنا نقدم الحديث عن معالم النبوّة الخاصّة ـ أعني نبوّة الرسول الأعظم محمدﷺ ـ نظراً لشدة الحاجة إلى ذلك فعلاً، وسنردف البحث هذا، بدراسة الفصول، والمسائل المتعلّقة بالنبوّة العامّة التي ذكرناها عمّا قريب.

---

(١) ذكر بعضها المحقق الطوسي في تجريد الاعتقاد وشرحه تلميذه العلاّمة الحلي في كشف المراد راجع ذلك الكتاب ص ٢٧٥ طبعة صيدا.

نعم كـان الأولى في البحث عـن النبوّة الخاصّـة تقديـم البحث عن دلائل نبـوّة سيدنا محمد ﷺ .

غير أنّه لما كتبت في هـذا الموضوع مؤلّفات، ورسائل، وكـان البحث عن إعجاز القرآن بوجوهها العشرة الماضيـة أحسن دليل على صحة رسالته ﷺ وقد استوفى علماؤنا البحث عن ذلك قديماً وحديثاً وجدنا قرّاءنا في غنى عن تكراره.

ولأجل ذلك طرحنا بحـوثاً أُخرى ترجع إلى صفات رسالته ونبـوّته أو إلى حالاته الخاصة الواردة في الكتاب العزيز، والتي لم تبحث إلى الآن بصورة مشبعة ومنقّحة.

فلأجل ذلك نبحث في هذا الجزء عن الأُمور التالية:

١ـ رسالته ﷺ عالمية وليست إقليمية ولا قومية وأنّه مبعوث إلى البشر كافة.

٢ـ إنّ رسالته خاتمة الرسالات ونبوّته خاتمة النبوّات، وكتابه خاتم الكتب.

وهـذان البحثـان يـرجعان إلى البحـث عن أوصـاف رسـالتـه، من عمـوميتهـا وخصوصيتها.

٣ـ أنّه ﷺ كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب.

٤ـ أنّه ﷺ كان مطّلعاً على الغيب باذنه سبحانه.

وهذان البحثان يرجعان إلى أوصافه الواردة في القرآن الكريم.

٥ـ بيان أسمائه وصفاته ﷺ الواردة في القرآن الكريم.

نسأل الله سبحانه أن يـوفّقنا لتوضيح هذه المعالم التي نوّه بها سبحـانه وذكرها في كتابه العزيز، وأن يوفّق قرّاءنا للاستفادة من هذه البحوث القرآنية انّه خير معين.

قم المشرفة

١٠ ربيع الثاني من شهور عام ١٤٠٢

مقدمة الطبعة الأُولى



منهج متكامل
في
عالم التفسير

الإسـلام دين الله الأبـدي الخالـد وشريعتـه الـدائمـة البـاقيـة مع مـرّ العصـور والأزمان، ولابد لهذه الشريعة الباقية من سنـد قوي يسندها، ودليل واضح يدل على أنّها حق لا يتسرّب إليه أي شـك أو شبهة، فكان ذلك السنـد والدليل هو القـرآن الكريم، الذي لا يـأيته الباطـل من بين يديـه ولا من خلفه، وهـو المعجزة الخالـدة التي ستبقى سنداً حياً للشريعة الإسلامية إلى يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين.

لقد كانت المعاجز التي ظهرت على أيدي موسى بن عمـران والمسيـح بن مريم ـ عليهم السلام ـ ، معاجز تخص عصرهما، فلم يشاهـد منها شيء في العصور المتأخّرة عنهما، ذلك لأنّ شريعتيهما كـانتـا خاصّـة بفترة زمنية معيّنـة محدودة بحـدود مؤقتـة، فكـانت معاجزهما كافية لتلك الفترة التي تسري فيها شريعتهما.

أمّا نبوّة نبي الإسلام محمد ﷺ التي هي آخر النبوّات، وشريعته التي هي خاتمة الشرائع، فلا بـد لها من معجزة تنـاسبها، وتواكب سيرهـا الزمني لتكـون النبراس الذي

يضيء الطريق للجيل المعاصر للرسول والأجيال التي ستأتي بعده إلى ما شاء الله تعالى، ويمحو صدأ الشكوك عن أذهان كافة البشر، ويدلّهم دلالة واضحة إلى طريق الحق اللاحب والصراط المستقيم.

القرآن وآفاقه اللامتناهية

لم يمض من نزول القرآن نصف قرن، إلاّ وقد وضع علماء الإسلام علوماً جمة لفهمه وكشف أسراره ومعانيه، ولو أمعنا النظر لرأينا أنّ كثيراً من العلوم، وضعت أوّلياتها لاستيضاح مداليل آيات القرآن وما يمكن أن يستخرج من جملها وعباراتها وذلك كالنحو، والصرف، واللغة، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءة، والتجويد، وقصص القرآن، وشأن نزول الآيات.

مع هذه الجهود الجبارة المبذولة من قبل أعلام العلماء طيلة القرون الأربعة عشر الماضية، ومئات المؤلفات الكبيرة والصغيرة المدوّنة في سبيل الكشف عن الأسرار الكامنة في الآيات القرآنية..

مع كل هذه المساعي، لم يصلوا إلى أعماق ما في القرآن من عجائب الأسرار وغرائب الحكم الكامنة فيه.

يسير الانسان حثيثاً في استجلاء معارف القرآن الفكرية وقوانينه الاجتماعية والأخلاقية وسائر تعاليمه العالية..ولكنه لم يزل، يجد الجديد فيه عندما يتعمق في البحث، ويرى ما قد غفل عنه الأقدمون ولم يصلوا إليه.. كأنه أمام بحر مواج بالحقائق العلمية لا يدرك غوره، ولا يتوصل إلى أعماقه، ولا يمكن معرفة ما فيه من الأسرار والعجائب.

كأن القرآن الكريم، هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة، الواسع الأطراف، الذي لا يزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه وأسراره، إلاّ معرفة أنّه لا يزال الانسان في الخطوات الأُولى من التوصل إلى مكامنه الخفية في أغواره.. فإنّ كتاب الله تعالى كذلك،

لا يتوصل إلى كل ما فيه من الحقائق والاسرار، لأنّه منزل من عند الله الذي لا تتصور له نهايـة، ولا يمكن تحديـده بحدود وأبعـاد، فيجب أن تكـون في كتابـه لمعة مـن لمعاتـه، ويثبت بنفسه أنّـه من عنده، ويتوفر فيـه ما يدل على أنّه كتـاب سماوي ليس من صنع البشر، وهو خالد إلى ما شاء الله تعالى.

أنّ نبي الإسلام العظيم ﷺ هو أوّل مـن لفت الأنظار إلى تلكم المزيّـة وأنّ هذه المزيّة مـن أهم خصائصـه، حيث يقـول في وصفه لـه: «له ظهـر وبطن وظاهـره حكم وبـاطنه علـم، ظاهـره أنيق وبـاطنـه عميق، لـه نجـوم وعلى نجومـه نجـوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة» (١).

وبعـد النبي يأتي دور أول تلميـذ لمدرستـه وهو الإمـام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ليصف القـرآن بقولـه: «أنزل عليـه الكتاب نـوراً لا تطفأ مصابيحـه، وسراجاً لا يخبـو توقده، وبحراً لا يـدرك قعره... ـ إلى أن قال ـ: وينابيع العلـم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسـلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفـه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون» (٢).

وسأل رجل علي بن موسى الـرضا ـ عليه السلام ـ فقال: ما بال القـرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلاّ غضـاضة؟ فقـال: «أنّ الله تعالى لم يجعله لـزمان دون زمـان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» (٣). نرى أن الرضا ـ عليه السلام ـ لا يشير في هـذا الحديث إلى موضـوع خلود القرآن فقط، بـل يشير أيضاً إلى سر خلوده وبقائه غضاً جديداً لا يتطرق إليه البلى والذبول.

ويجب أن نذكر القارئ بأنّ النبي وأئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ لم يكونوا وحدهم هم الذين لفتوا الأنظار إلى موضوع آفاقـه اللامتناهية، بل عظماء العرب والعارفون منهم

---

(١) الكافي، كتاب القرآن ج ٢ ص ٥٩٩.
(٢) شرح نهج البلاغة لعبده ج ٢ ص ٢٠٢.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢٨.

أدركوا هذه الحقيقـة في أيام الإسلام الأُولى، واعترفوا بعجزهم عن الـوصول إلى أغوراه، والتوصل إلى ما فيه من الأسرار والحكم.

هـذا الوليـد بن المغيرة حكيـم العـرب وريحانتهم وخطيبهم المنطيـق يجلس إلى النبي ليستمع مـا كان يتلوه من آيـات «سورة غافـر»، وبعد هنيئة ذهب إلى قـومه «بني مخزوم» ليقول لهم مصـارحاً: (والله لقـد سمعت من محمد آنفـاً كلامـاً ما هو مـن كلام الانس ولا من كلام الجن، وأنّ له لحلاوة، وأنّ عليه لطـلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وأنّ أسفله لمغدق، وأنّه ليعلو وما يعلى) [١].

يمكن اعتبـار قولـة الوليـد هذه، أول تقـريظ بشري صدر مـن انسان واع أدرك بفطرته وذوقه السليم أنّ القرآن (أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وأنّه يعلو وما يعلى).

التفسير في مختلف الاتجاهات

في القـرن الثالث الهجـري ـ عنـدما قطعـت العلوم الإسـلامية أشـواطاً بعيـدة، ووصلت إلى مراحل عـالية من النضج والرقي ـ حـدث في علم التفسير تطوّر ملموس، فإنّه قبل هـذه الفترة كان التفسير منحصراً بنقل أحاديث مـروية عن النبي ﷺ أو آراء بعض الصحابـة والتابعين وأحيانـاً بعض أهل الكتاب الـذين اعتنقوا الإسـلام، أمّا في هـذا القرن ومـا بعـده فقد أدخـل كل ذي إختصـاص المبـاحث العـائدة إلى موضـوع اختصاصـه، في التفسير، بل ربّما لا يكتب بعضهـم إلاّ ما يـدخل في اطار العلـم الذي أصبح له اليد الطولى فيه.

فأعـلام الأدب العربي خصصـوا كتبهم التي تتنـاول القـرآن بمباحث الاعـراب واللغة والاشتقـاق، كما صنع الـزجاج والواحـدي مؤلّف كتـاب «البسيط» وأبـو حيان مؤلّف كتاب «البحر والنهر».

وشيوخ البلاغة اهتموا بصورة خاصّـة بما يتعلّق بفصاحة القرآن وأسراره البلاغية

---

(١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧.

التي كـانت العرب تدركهـا بفطرتها السليمة، وذوقهـا المرهف، وحاول هـؤلاء الشيوخ اثبات إعجـاز القرآن من هذه الزاويـة التي تعود إلى اللفظ والتركيب. ومن بـاب المثال نذكر منهم الزمخشري وكتابه «الكشاف».

والفلاسفـة والمتكلّمون والمتصوفة أطـالوا الكلام في الآيات التي تـوافق اتجاههم الفكري ولم يهتمـوا اهتماماً كبيراً بالجوانب الأُخـرى من المباحث التفسيريـة، بل نرى في كثير من كتاباتهم أنّهم أوّلوا بعض الآيات تـأويلات بعيدة لا يحتملها الذوق الخالي عن المسبقات الـذهنية الفلسفيـة والكلاميـة والصوفيـة، وذلك كما صنع الفخـر الرازي في كتابـه «مفاتيح الغيب» ومحي الدين بـن العربي في التفسير المنسوب إليه، وعبـد الرزاق الكاشاني في كتابه «تأويل الآيات» وقبلهم اخوان الصفا في رسائلهم المشهورة.

والفقهاء توفروا في تفـاسيرهم على آيات الأحكام فأشبعوها بحثـاً ودراسة، ومرّوا على بقية الآيات مروراً سريعاً كما صنع القـرطبي في تفسيره، بل خص جماعة من الفقهاء كتبهم بتفسير آيات الأحكام فقـط ولم يتناولوا بقية الآيات أصلاً كـالجصاص والفاضل المقداد والمقدس الأردبيلي والشيخ أحمد الجزائري.

وجماعة آخـرون خدموا القـرآن بجمع قصصه ومـا يتعلّق بأسباب نـزول الآيات والقراءات واختلاف القرّاء والقواعد التجويديـة، كالواحدي في كتابه «أسباب النزول» والـداني في كتـابه «التيسير» والجزري في «المقـدمـة الجزريـة» والسجـاوندي في كتـابـه «الوقوف» وغيرهم.

وقـد خطا فـريق من المفسّريـن خطوات أوسـع، فحاولـوا التوفّـر على كل هـذه الأبحاث ودرجها بصورة مختصرة في تفاسيرهـم، ومن هؤلاء الشيخ الطوسي في «التبيان» والطبرسي في «مجمع البيان» والنيسابوري في «غرائب القرآن» والآلوسي في «روح البيان».

المنهج الصحيح في التفسير

المفسّـر الحقيقي هو الـذي يتجرّد عن ميوله الخاصّـة، وعقائده الشخصية تجرّداً

كاملاً ويعرض آراءه على الآيات القرآنية لا الآيات على ما يعتقده.

والطريق المفيد لتفسير القرآن، أن لا يروم المفسّر، تفسير كتاب الله سبحانه وقلبه ممتلئ بآراء وأفكار تخصّه، ولا يتقدم إليه باحثاً عمّا قد يؤيد آراءه وأفكاره بل أن يتقدم إليه ليكتشف مقاصده ومراميه، فإنّ العقيدة التي يمتلئ بها الشخص تملك عليه كل تفكيره، ولا تترك له سبيلاً إلى المقاصد التي يستهدفه الكتاب.

انّ أحسن المناهج المتّبعة في التفسير، عرض بعض الآيات على بعضها والاستمداد من الأحاديث الإسلامية الصحيحة لاستخراج المعاني والمفاهيم القرآنية استخراجاً صحيحاً. فيجب لاتّباع الطريقة المستقيمة في التفسير مراعاة الشرطين التاليين:

١ـ تفسير القرآن بالقرآن:

انّ القرآن الكريم يؤكد بأنّه تبيان لكل شيء حيث يقول: ﴿**ونزّلنا عليكَ الكِتٰبَ تِبيٰناً لِكُلِّ شيءٍ**﴾(النحل: ٨٩)، فالقرآن حيث يكون موضحاً لكل شيء كما هو مصرّح في هذه الآية، فهو موضح لنفسه أيضاً، إذ لا معنى لأن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه فلابد أن يوضح أيضاً ما يبدو أنّه غامض في نفسه، ومعنى هذا، أنّه يمكن استيضاح بعض الآيات لفهم المراد من البعض الآخر.

القرآن كلّه «هدى» و «بيّنة» و «فرقان» و «نور» كما في قوله تعالى: ﴿**شَهرُ رَمضانَ الّذي أُنزلَ فِيهِ القرءَانُ هُدىً للناسِ وبيّنٰتٍ مِنَ الهُدى والفُرقانِ**﴾ (البقرة: ١٨٥) وقوله تعالى: ﴿**وأنزَلنَا إليكُم نوراً مُبيناً**﴾ (النساء: ١٧٤).

والكتاب الذي يحتوي على هذه المزايا لا محيص من الاعتراف بأنّه يرفع عن نفسه ما يظن فيه من الالتباس والغموض، ذلك لأنّه لا يمكن أن يكون كتاباً فارقاً بين الحق والباطل، ونوراً هادياً للبشرية، وبرهاناً مرشداً إلى ما فيه الصواب ثم يكون في جملة من آياته تعقيد يتيه الانسان في فهمه والتوصل إلى مفاهيمه. وعليه يجب الرجوع إلى الآيات نفسها لفهم ما أُشكل من الآيات الأُخرى التي تشبهها.

قال النبي ﷺ: «انّ القرآن يصدق بعضه بعضاً».

وقال منعاً لحشر الآراء والنظريات الشخصية في التفسير وحملها على الآيات حملاً: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار»[1].

انّ تفسير القرآن الكريم بعضه ببعض، وعرض الآيات على ما يشبهها في المنطوق أو الهدف، هو الطريقة المأثورة عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ. فإنّ الدقة في الأحاديث التفسيرية المروية عن الأئمّة تثبت بوضوح ما نقول، وتدل على أنّ هذا المنهج كان المنهج المحبّب إليهم في إيضاح النصوص القرآنية لتلامذة مدرستهم.

انّ الآحاديث التفسيرية المروية عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ تدل دلالة واضحة على أنّهم استعانوا بنفس الآيات وعرض بعضها على بعض، في تفسيرها وبيان معانيها وإيضاح مداليلها ومفاهيمها ولم يتصدوا في وقت من الأوقات لحمل آرائهم الشخصية على الآيات الكريمة حملا، بل استنتجوا من مقارنة الجمل والكلمات والالفاظ الموجودة في بعض الآيات لاستيضاح آيات أُخرى مشابهة لها في المنطوق أو المفهوم.

يقول علي ـ عليه السلام ـ في كلام له يصف فيه القرآن: «كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بمصاحبه عن الله»[2].

ولا بأس أن نقدم هنا نموذجاً من تفسير القرآن بعضه ببعض ليرى القارئ الكريم كيف يمكن رفع الالتباس عن الآيات بهذه الطريقة:

يقول تعالى في سورة الشعراء ـ ١٧٣ في قوم لوط: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ**﴾ أنّ هذه الآية واضحة كل الوضوح من جهة المفهوم ولكن فيها غموض من جهة المصداق، فإنّ الانسان يتحير من المعنى المراد من المطر السوء، إلاّ أنّ الآية

(١) حديث متفق عليه بين الفريقين.

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٢ الخطبة ١٢٩.

٧٤ من سورة الحجر، تبيّن هذا المعنى عندما تقول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ﴾.

انّ إتّباع هذه الطريقة تكشف كثيراً من الحقائق الخفية وتلقي أضواء على ما أُبهم من الآيات، شريطة أن يجعل الانسان الصبر على البحث، والدقة الكاملة والتأنّي في إصدار الحكم، رائداً له.

٢ـ على ضوء الأحاديث الإسلامية الصحيحة:

انّ بعض الآيات تصرح بأنّ النبي الكريم ﷺ هو المبيّن للقرآن والمعلّم لآياته، فيقول تعالى: ﴿وَأنزَلنا إليكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّل إليهم﴾ (النحل: ٤٤) ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيهِم ءايٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتٰبَ﴾ (الجمعة:٢).

من هاتين الآيتين نعرف أنّ ما أُبهم من القرآن لمصالح لا نعلمها نحن، يجب الرجوع للكشف عن غوامضها إلى النبي وأهل بيته الذين هم عدل القرآن بشهادة حديث الثقلين المتفق على روايته عن الرسول ﷺ.

ولابد هنا أن نلفت الأنظار إلى أهمية معرفة الأحاديث الصحيحة، والتمييز بينها وبين الأحاديث غير الصحيحة، وأنّه لا يمكن الاعتماد على ما نقل عن الصحابة والتابعين في التفسير بصورة مرسلة غير مسندة، بل يجب التثبت فيها والتأكد من أنّها واجدة لشرائط الحجية التي هي مذكورة في محالها من مباحث علوم الحديث، وإلاّ فلا يحسن الاستناد إليها في كشف ما أُبهم من القرآن، بسبب بعد العهد من عصر الوحي أو كون الآيات نزلت مجملة كذلك لمصالح خاصة ليس هنا محل تفصيلها [1].

ولقد أثرت عن أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ في هذا المجال أحاديث لوحظ في أكثرها جانب التربية والتعليم والمحاولة لتقريب استفادة المعاني والنكات إلى الأذهان، (من

---

(١) مثل الآيات التي ذكرت فيها الصلاة والصوم والزكاة والحج و...

دون حشر رأي خاص فيها وحمله على الذي يستعرضه) بتدبّر ودقة، وهذا موضوع يتضح جلياً لمن أمعن النظر في تلك الأحاديث التفسيرية. وهذه الأحاديث لها قيمتها الخاصة وإن لم يصح إسناد بعضها، لمجانبتها عن التفسير التعبدي ومحاولتها التعليم وإرشاد القارئ إلى كيفية استفادة المعاني من الآية نفسها من دون إستناد إلى شيء آخر.

تأثير الحضارة الغربية في المنهج التفسيري

لقد أثّرت ترجمة الفلسفة اليونانية وعلومها إلى العربية في فهم معاني الآيات والمفاهيم القرآنية تأثيراً بعيد المدى، فقد ادخلت في التفسير جملة من المسائل الفلسفية والطبيعية التي لا تمت إليه بصلة، وحملت عليه حملاً لا يمكن تقبّلها لو تجردنا عن الاتجاه الفلسفي اليوناني الوافد.

انّ بعض المفسّرين أوّلوا كثيراً من الآيات حسب المفاهيم الفلسفية الوافدة من المشائيين والاشراقيين وعلى ضوء القواعد البطليموسية في الهيئة القديمة وعلم الفلك، وللتوفيق بين هذه الآراء والآيات القرآنية والأحاديث التفسيرية، تشبّثوا بنظريات بعيدة كل البعد عن السياق والمفهوم القرآني، وكانت محاولتهم فاشلة، بعد تبدل النظريات العلمية والمكتشفات التجريبية.

وقد واجه القرآن هذه المشكلة أيضاً بل أعمق منها بكثير عندما وسّعت أُوربا الخطوات إلى المدنية الحاضرة وكانت لها آراء حديثة في النظريات الفلكية والطبيعية والرياضية وغيرها وسخّرت بمكتشفاتها العلمية الجديدة البحار والوديان، وراحت لتسيطر على ما في أجواء السماء.

وانتقل كثير من هذه النظريات الحديثة إلى الشرق ممزوجاً بشيء من سوء الظن بالنسبة إلى المسائل الدينية والأُصول المذهبية، ذلك لأنّ أُوربا اتخذت التجربة والحس قاعدة أساسية لعلومها، وأهملت اهمالاً كلّياً كل ما يتعلّق بما وراء الطبيعة وربّما عملت على إنكارها وإبادتها وإبعادها عن المجالات العلمية.

انّ وفود هذا النوع من الفكر المزيج بسوء الظن بالمسائل الغيبية والمعارف الالهية، دعا البعض إلى الابتعاد عن الدين، والالحاد فيه، كما دعا البعض الآخر إلى تأويل الآيات بما يوافق الاتجاه الفكري المعاصر، وآل بهم الأمر إلى أن يأوّلوا الآيات المصرّحة بمعاجز الأنبياء، والروح، والجن، والبرزخ، بتأويل يوافق الأُسس المادية والطبيعية[1].

كما أنّ تقدم العلوم الطبيعية في مجالات مختلفة، دفع بعض الباحثين إلى أن يفرطوا في تأويل الآيات حسب الأُسس الطبيعية والنواميس الكونية، كأنّ القرآن كتاب في الكيمياء والفيزياء وليس له أهداف أُخرى.

وفي مطاوي بعض الكتب التفسيرية المؤلّفة في هذا القرن، نرى الإتجاه العلمي والفكري الغربي بوضوح، في عرض المسائل القرآنية وتحليلها، وهي تحاول بكل ما تملك من القوى أن توفق بين المفاهيم القرآنية الاجتماعية والأخلاقية، وبين النظريات الغربية، كأنّها كتبت للتوفيق بين المدرسة الإلٰهية والمدرسة الأُوروبية المعاصرة.

أنّ هذا الفريق من الباحثين جلبتهم العقيدة الدينية بالقرآن الكريم وتقديسه والاذعان به، وانجرفوا من جهة أُخرى في تيار المدينة الغربية المبنية على أساس إنكار المقدسات والمعنويات أو إرضاء لميولهم الخاصة نحو هذه المدينة، عملوا جادين في تأويل الآيات بالطريقة التي ذكرناها.

نزول القرآن نجوماً

لا شك أنّ الآيات القرآنية نزلت تدريجياً، على قلب الرسول ﷺ طيلة ثلاث وعشرين سنة، ولا نريد في هذا المجال، الحديث عن علة نزول القرآن هكذا، لأنّه

(١) هذه الظاهرة المادية تبرز بوضوح في تفسير السيد أحمد خان الهندي والطنطاوي وفي «المنار» وتلامذة مدرسته قليلاً.

تحدث هو عن هذا في بعض الآيات [١].

وإنّما الذي يهمّنا الحديث عنه هنا هو: أنّ القرآن لم يكن كتاباً من صنع البشر يتكوّن من أبواب وفصول ويبحث في كل موضوع عن نقطة خاصة، وإنّما هو كتاب سماوي أنزله الله تعالى لإرشاد البشر إلى المبدأ والمعاد والتكامل الروحي والجسمي، ولا يحتاج مثل هذا الكتاب إلى التنظيم والالتزامات المتبعة في المؤلّفات الأُخرى ولأجل ذلك فله خصائص لا توجد في غيره ونشير إلى بعضها فيما يلي:

١ـ تنتقل الآيات من موضوع إلى موضوع آخر لمناسبات تستدعي الانتقال إذ ربّما تذكر عدة مواضيع في سورة واحدة، هدفها الوعظ، والإرشاد، وإيقاظ الضمير، والعطف نحو العقل والحكمة، فجاءت تلكم المواضيع واحدة بعد أُخرى، يجمعها ذلك الهدف الخاص، ولكن يسبق إلى أذهان بعض أنّه لا ربط وثيق بينها، إلاّ أنّه يجد عند الدقة والتدبّر، نوعاً خاصاً من الارتباط الذي يسلك عقودها في سلك واحد ووجود هذا القسم من الآيات الكثيرة، من الوفرة بحيث يغنينا عن التمثيل لها هنا.

٢ـ أهمية توجيه الفكر الإنساني، وفطرته نحو الهدى والحق من جانب وإيقاظ الضمائر الميتة الكامنة في نفوس مريضة من جانب آخر، تستدعي تكرار بعض الموضوعات في مناسبات شتى، والعود إليها بمختلف الأساليب البيانية، وهذا في تكرار الخطابات من الأهمية بمكان وهو من المحسنات التي لابد منها في الكلام الموجه إلى الناس بشكل عام.

مثلاً أنّنا نرى القرآن الكريم يكرّر في مناسبات شتى موضوع الاعتبار من حياة الأُمم السالفة والملوك والجبابرة والطغاة الماضين كما أنّه يذكر موضوع: ﴿سيروا في الأرض﴾ في أكثر من مناسبة واحدة، وفلسفة هذا التكرار والعود إلى الموضوع مرّة بعد أُخرى هي ما ذكرناه.

---

(١) ﴿وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا﴾ (الفرقان ـ ٣٢).

٣ـ ربّما يتحدث القرآن الكريم في سورة عـن جانب خاص من جوانب قصة أو موضـوع متعدد الجوانب، واسـع الأطراف لتعلّق ذاك الجانب الخاص فقـط بما يقصده من الكلام دون سائر جـزئياتها وتفاصيلها، ثم يعود في سـورة أُخرى إلى تلك القصة أو ذلك الموضـوع ليذكرهـا بتفاصيلها وجـزئياتها. وأكثر مـا نشاهد هـذا في قصص الأُمم الماضية لـلاعتبار بها، وهذه طـريقة ضرورية لكتـاب أُنزل لهداية النـاس وانتشالهم من الضلال.

٤ــ يتبع القرآن طـريقـة التدرّج، في بيـان مفاهيمـه العقليـة ومعارفـه التربويـة فيستدل مثلاً على مفهوم من مفاهيمه في بعـض السور باستدلال، ثم يعود إلى استدلال آخـر لنفس المفهوم في سـورة أُخرى. وبهذا تـوزع الأدلّـة في عدة أمكنـةوتذكـر حسب المناسبات التي تقتضي ذلك.

مثلاً أنّ موضوع المعاد والرجوع إلى حياة جـديدة من المسائل الإسلامية والقرآنية المهمة التي ركّز على إثباتها القرآن، فاستدل له بأدلّة ستة [١] ولكنّها موزّعة، لكل واحدة

---

(١) انّ الفكـرة تتضح أبعـادهـا، وتنكشف جـوانبهـا، إذا تعـددت الاستـدلالات عليهـا من طـرق شتى، والمثال على ذلك حديـث البعث والمعاد في القرآن الكريم، فقد استـدل القرآن على امكانه وقـوعه بطـرق ستة، ونحن نـذكرهـا في المقـام على وجه الاجمال ونكتفي في بيـان كل طـريق، بآيـة واحدة، مع كثرتها في كل باب:

١ــ الاستدلال بعمـوم قدرتـه على كل شيء كما في قولـه سبحانـه: **﴿أوَلم يروا أنّ الله الـذي خلق السمٰـوات والأرض ولم يعـي بخلقهنّ بقـادر على أن يحي الموتـى بلى إنّـه على كـلّ شيء قـديـر﴾ (الأحقاف ـ ٣٣).**

٢ـ قياس الاعادة على الابتداء كما في قوله سبحانه: **ما بدأنا أوّل خلق نعيده﴾** الأنبياء ـ ١٠٤).

٣ــ الاستدلال على امكـان احياء الموتى، بـاحياء الأرض بعـد موتها بـالمطر والنبـات كما في قولـه سبحانه: **﴿ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾** (الروم ـ ١٩).

٤ـ قياس قـدرة الاعادة على قدرة اخراج النار من الشجر الأخضر كما في قوله سبحانه: **قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكل خلق عليم* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً إذا أنتم نه توقدون﴾** (يس: ٧٩ ـ ٨٠).

منها في مكانها نكتة خاصة.

* * *

هـذه الخصائص القـرآنية التي استعـرضنا بعضهـا، تدفعنـا إلى أن نشبّه القـرآن الكريم بحديقة غنّـاء مليئة بالأزهار الملوّنة، والورود المنوّعة، وقـد وزعت توزيعاً طبيعياً جميلاً تأخـذ بالأبـصار، فهي بالـرغم من أنّها موزّعة إلاّ أنّ فيهـا طرافة وظـرافة، لأنّ كل واحد منها وضع في مكانه اللائق به.

الجمود في التفسير

انّ استعراض كتـب التفسير وملاحظتها بشيء من الامعـان، توصلنـا إلى حقيقة غير خافية، وهي: أنّ علماء الإسلام مع شدّة إهتمامهم بالتفسير وفهم الآيات والكشف عن معانيهـا، لم تتطور مؤلّفـاتهم التفسيرية بالقـدر الذي يجب أن تتطور طيلـة القرون الأربعة عشر الماضية.

فمع غض النظر عن طائفة من التفاسير المهمة المعاصرة، نرى أنّ التفسير لم يتم ولم يتكامـل عند السنّة والشيعـة منذ تفسير «الطبري» إلى «المنـار» وتفسير «التبيان» إلى «الميزان».

ومن العوامل التـي سبّبت الجمود المذكور، أنّ التفاسير سـارت على وتيرة واحدة في تفسير القـرآن سـورة فسـورة، ففسّروهـا من البـدء إلى الختـم أو فسّروا بعضهـا على

ۖ وسيوافيك في بحث المعاد أنّ لـلآية معنى آخر ألطف بكثير مما ذكره المفسرون، ورائدنـا فيه التدبر في ذيل الآية، ومـا كشفه العلم الحديث في حقيقة الحرارة الكـامنة في الأشجار وحقيقة انطـلاقها منها عند الاحتراق.

٥ــ الاستدلال بـالوقـوع على الامكان فإنّ أدل دليـل على امكان الشيء وقـوعه ولأجل ذلـك نقل سبحانه قصة بقرة بني اسرائيل (البقرة ٦٧ـ٧٣) ، وحديث عزير (البقرة ـ ٢٥٩).

٦ـ الاستدلال ببعض المنامات الطويلـة التي امتدت ثلاثمائة سنين فإنّ النوم أخو الموت ولا سيما الطويل منه كما أنّ القيام منه يشبه تجدد الحياة وتطورها.

الترتيب المذكور، ولم يهتمّوا في كتابة التفسير بالتفسير الموضوعي [١] الذي يقتضيه نزول يات نجوماً وتوزع الآيات الراجعة إلى أكثر الموضوعات في أمكنة وسور القرآن.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

وما ذكرناه حول نزول القرآن التدريجي وألمعنا إلى ما فيه من الخصائص يقتضي أن يفسر القرآن أيضاً حسب الموضوع إلى جانب تفسيره على ترتيب السور، فتجمع آيات كل موضوع في مكان وتفسر مجموعتها لئلاّ تتشتت الجوانب المختلفة.

مثلاً المفسر الذي يحاول التعمّق في الحديث عن السماء والأرض على ضوء القرآن الكريم، أو يريد أن يبحث بحثاً مستوفى عن المعاد، أو يستعرض قصص بني إسرائيل، أو يحكم في أفعال الانسان من جهة الجبر والاختيار، أو يكشف عن المعارف الإسلامية المتعلّقة بأفعال الله تعالى من قبيل الإرادة والهداية والضلال والقضاء والقدر... لابد أن يتبع الطريقة الموضوعية التي ذكرناها ليتمكن من جمع أطراف الموضوع جمعاً كاملاً شاملاً.

من جملة الأسباب التي دعت إلى ظهور عقائد مختلفة بين المسلمين، وتشبّث كل صاحب عقيدة بطائفة من الآيات، أنّهم وجهوا اهتمامهم إلى آيات خاصة لتركيز معتقداتهم، وأهملوا الآيات التي تكشف لهم آفاقاً أُخرى، وتوضح لهم النقاط التي زلّوا فيها، ولو أنّهم كانوا يلاحظون في كل مسألة من المسائل العقائدية الآيات بمجموعها لدرأوا عن أنفسهم الوقوع في هذه المهاوي السحيقة.

ومن باب المثال نذكر بهذا الصدد أصحاب مذهب الجبر في أفعال الانسان أو مذهب التفويض فيها فإنّهم ابتلوا بما ذكرناه وخبطوا خبط عشواء في فهم المقاصد الإلهية وتفسيرها.

---

(١) نريد من «التفسير الموضوعي» تفسير القرآن على حسب الموضوعات التي وردت فيه وبحث القرآن في مواضع مختلفة مقابل تفسيره على حسب السور والآيات.

أجـل يمكن القـول بـأنّ العـلاّمـة المجلسي هـو أوّل من استعمـل إجمالاً هـذه الطريقة (التفسير حسب الموضـوع)، فإنّه في كتابه «بحار الأنوار» جمع الآيـات المربوطة بكل مـوضوع في أوّل الأبـواب، وفسّرها تفسيراً سريعـاً بلا استنتـاج منه. وهـذه الخطوة القصيرة خطـوة جليلـة في عـالم التفسير نـأسف على أنّ المفسريـن بعـده لم يسيروا على ضـوئها، ولا يمكن تفسير القـرآن بـالقرآن، والاستفـادة الكاملـة منـه وتلقّي مفاهيمـه العالية الصحيحة إلاّ بالمنهج المذكور.

أوّليات الطريقة الموضوعية في التفسير

لا شك أنّ الطـريقة الموضـوعية في التفسير التي نتحـدث عنها في هـذا المجال طـريقة، لم ينهجهـا علماء التفسير حتى الآن، كما قلنـاه وعليه نعتقـد أنّ فيهـا كثيراً من الصعوبات التي تعترض سيرهـا، فإنّ تنظيم الآيات وتقسيمها حسب الموضـوعات أمر لا يتم بعمـل فردي، بـل لابد مـن لجنة تتـولّى هـذا العمـل، ويجب أن يكـون أعضـاء اللجنـة أُناسـاً علماء لهم الخبرة الطـويلة، والاختصـاص في الفـروع العلمية المختلفـة، وممارسة طـويلة في الآيات القرآنية وفهم معـانيها واستنباط مقاصدهـا ودرك مفاهيمها العالية.

ونقترح أن تتبع هذه اللجنة الإرشادات التالية:

١ ـ تقـرأ الآيات واحدة واحدة بـدقة وامعان لافرازهـا موضوعياً، ثـم يهيّأ فهرس دقيق للموضوعات الواردة في القرآن والمبحوث عنها في آياتها ليعلم بصورة مؤكدة عدد ما جاء فيها من المباحث المختلفة، وما ورد في كل واحد منها، من الآيات.

٢ ـ تهيّأ بطـاقات خاصة بكل مـوضوع، لتكتب فيها آياتـه. والأحسن في هذا أن تصـو ر هـذه البطاقـات في عدة نسـخ، لتوضع في متنـاول أيدي البـاحثين والمحققين ليقرأوها ثم يبدوا ملاحظاتهم وانتقاداتهم، وبعد المداولة في شأنها من قبل العلماء، تطبع بصورة نشرات حسـب الحروف الهجائية وتـوزّع في إطار واسع ليطّلع عليهـا المعنيون في

الأقطار

٣ـ وبعد أن تنتهي اللجنة من فهرسة الآيات كما ذكرناه، يدعى كبار الشخصيات الإسلامية العلمية ليتولّى كل واحد منهم، موضوعاً حسب اختصاصه، فتقدم اللجنة لهم الموضوعات التي تم فهرستها، ليختار هو الموضوع الذي جمعت آياته في البطاقات الخاصة به، ويكتب حولها ما يرى من البحوث والدراسات.

والنتيجة الحاصلة من هذه الجهود المشتركة المبذولة من قبل كبار علماء الإسلام أنّه تكتب للقرآن الكريم دائرة معارف كبيرة ملؤها التحقيق والبحث العلمي لتبرز ما فيه من الحقائق التي لا زالت خفية حتى الآن.

انّ هذا العمل الجبار (بالاضافة إلى ما يحتاج من ميزانية ضخمة) رهن لجنة مركزية تكون همزة وصل بين علماء الإسلام القاطنين في أقطار نائية بعيدة الأطراف فإنّه لا يتم عمل كبير كهذا العمل إلاّ باللجنة المركزية، فهي التي تنتخب الأعضاء الذين يقومون بفهرسة الآيات، وهي التي تصوّر البطاقات وتعرضها على الباحثين والناقدين وبعد التنسيق الدقيق تنشرها في نشرات متسلسلة، وهي التي تتصل بالشخصيات العلمية لكتابة التفسير كما ذكرناه.

انّ هذا الاقتراح ربّما يكون كبيراً وغير قابل التنفيذ في رأي البعض، إلاّ أنّه بسيط عند ذوي الهمم العالية والعاملين في حقول العلم والثقافة، فقد قامت جمعيات دينية قبل هذا بأعمال مشابهة، لكتبهم المنسوبة إلى السماء، وكان جهدهم من الطرافة بحيث أظهر كتبهم المحرّفة بحلل زاهية تأخذ بالأبصار وتثير إعجاب القارئين لها.

ونحن نأمل أن يتصدى مراجع الدين وكبار العلماء لتحقيق هذه الأُمنية، فيتداولوا بينهم الأمر لإزالة العوائق عن الطريق وتيسير المقدمات الأوّلية وتعيين نقطة الإنطلاق لهذا المشروع الديني العلمي.

منهجنا في هذا الكتاب

بعد أن أمضى مؤلـف هذا الكتاب خمس عشرة [١] سنة في دراسة القـرآن الكريم دراسة مستوعبـة وكتابة تفاسير لبعـض السور، أجمع عزمه على كتـابة نماذج من التفسير الموضوعي المقترح، ليعبّد الطريق للمحققين الـذين يحلو لهم السير في هذا السبيل ومن الطبيعي أنّ مثل هذا العمل الإسلامي الكبير خـارج عن نطاق شخص واحد، ويحتاج إلى ذوي الاختصاص من العلماء كما ذكر سـابقاً، ولكن بدئ به من زاويـة، كان المؤلف قد أشبعها بحثاً ودراسة وهيّأ موادها من ذي قبل.

انّه فكّـر في نفسه، ربّما لا يتحقق هـذا الأمل الجديد، أو لا يسعفـه الأجل في أن يرى انجازه كما يتصوره ويود إنجازه، فعزم على أن يخطو خطوة نحوه ورائده «الميسور لا يسقط بـالمعسـور» وعنـدمـا يهيء الله تعـالى جماعـة مـن محققي الإسـلام لهذا المشروع، يمكنهم اعتبـار هذا الكتـاب جزءاً من دائرة معـارف القرآن بعـد سد مـا يرون فيـه من النقص الذي هو من لوازم عمل الفرد.

لقـد اخترنـا من بين الموضـوعـات الكثيرة التـي تـرجع إلى النبـيّ الأكـرم هـذه المواضيع:

١ـ الإسلام شريعة عالمية لا اقليمية.

٢ـ الخاتمية في الذكر الحكيم وأنّ الرسول الأعظم هو خاتم الأنبياء.

٣ـ النبي الأُمّي في القرآن المجيد.

٤ـ علم الغيب في الكتاب العزيز.

٥ـ أسماء النبي وصفاته في القرآن العزيز.

---

(١) بـدأ المؤلف بالبحـث عن خصوص هـذا النمط من التفسير منـذ عام ١٣٨٨ هـ بعدمـا صرف شطراً من عمره في تفسيره على النمط الآخر أعني تفسير القرآن على حسب السور.

ولما خرج هذا الجزء إلى البياض، عرضته على الأُستاذ العلاّمة، المفكر الإسلامي الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي ـ قدس سرّه ـ مؤلف الكتاب القيّم «الميزان في تفسير القرآن» وغيره من الآثار الخالدة، فقدّره واستحسنه وشجعني على مواصلة العمل، وتفضل بكلمة [١] سجلتها في صدر الكتاب لتبقى ذكرى خالدة من عواطفه الكريمة المبذولة لأحد تلامذة مدرسته وللأُستاذ ـ روحي فداه ـ منّي تحية عبقة وتمنيات خالصة.

وفي الختام لو ترتب ثواب على عملي الضئيل فإنّما اهديه:

إلى من أنا مدين له في كل شيء حتى في هذه الدراسات التي بين يديك.

إلى أوّل من فتح قلبي على أشعة نور القرآن وأرشد عقلي إلى الاهتداء بهداه.

إلى سيدي الوالد آية الله الشيخ محمد حسين السبحاني [٢] تغمده الله برحمته والله ولي التوفيق...

قم ـ إيران

جعفر السبحاني

٢٠ جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ

---

(١) وقد أتتنا كتب ورسائل من الشخصيات العلمية بعد انتشار هذا الجزء لأوّل مرة نشرنا بعضها في مقدّمة الجزء الثاني وقد وافاك بعضها في أول هذا الجزء من هذه الطبعة.

(٢) لبّى دعوة ربّه ضحوة يوم الحادي عشر من شهور عام ١٣٩٢، سعيداً نقي الصحيفة ودفن في مقبرة العلماء بقم بعد أن شيّع جنازته الزكية حشد من العلماء وشيوخ الحوزة العلمية وقد حك على صخرة قبره هذان البيتان:

انّ الذي صنع الجميل مخلّد ... لا سيما في العلم والعرفان

فإذا انقضت أيام مدة عمره ... فجميل صنع المرء عمر ثان

تجد ترجمته الضافية في مقدمة كتابه «نخبة الأزهار» بقلم العلاّمة الحجة السيد أحمد الأشكوري دام ظله، رحم الله الماضين من علمائنا العاملين ووفقنا للاهتداء بهداهم والسير على ضوء تعاليمهم. والله خير موفق ومعين.

❁ الفصل الأوّل ❁

عالمية الإسلام
على
ضوء القرآن الكريم

الحديث عن دعوة الرسول ﷺ متعددة الجوانب، واسع الأبعاد، بعيد الأغوار، وبالرغم من سعة مجالات القول، وجوانب البحث فيها، فانّنا نحاول بهذه النظرة الثاقبة الفاحصة، أن نتحدث عن ناحية خاصة لدعوة الرسول ﷺ وأنّها دعوة عالمية لا اقليمية، وهي من أبرز الخطوط التي يستهدفها القرآن بشأن دعوته ورسالته.

نحن في رحاب القرآن الكريم، نسمع نداءه العالمي، وإن فصلتنا عنه حقب بعيدة من الزمان، ونعي صراحته ومجاهرته: بأنّ الإسلام عقيدة لا ينفرد بها شعب أو مجتمع بعينه، ولا يختص ببلد، أو بلاد معينة، بل هو دين ذو قوانين تسري على الأفراد على اختلافهم: في العنصر ، والوطن، واللسان، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين بني الانسان، ولا يعترف بأية فواصل وتحديدات جنسية، أو اقليمية.

فهذا تاريخ دعوته، وسيرته في نشر دينه، نتطلّع إليه بشوق ولهفة، حيث يبدد الدياجير من أمام أبصارنا، وبصيرتنا، ويقرّب لنا الواقع دونما تكلّف، أو اصطناع.

كانت دعوة الرسول ﷺ في بدء أمرها تدور بين أهله وعشيرته، ممتثلاً لما أمره الله سبحانه بذلك، بقوله: ﴿وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأقرَبينَ﴾ (الشعراء ـ ٢١٤)، والسر في ذلك أنّ النفوذ في الآل والعشيرة ألزم وأسهل من الأجانب والأباعد.

مضى رسول الله ﷺ في دعوته السرية ثلاث سنين، وهو ينذر طيلة تلك المدة قومه وعشيرته، ويؤمي إلى عموم دعوته تارة، ويجاهر بذلك أُخرى، ويستنتج أنّ دعوته وشريعته عالمية، سوف تعم العالم كله، ولا تحبس بإطار خاص.

قال ﷺ في خطاب ألقاه في داره، حينما وفد إليه أعمامه وأخواله ومن كانت له به صلة:

«والله الذي لا إله إلاّ هو، أنّي رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة [١] والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وأنّها الجنّة أبداً، والنار أبداً» [٢].

ثم إنّه كان ينتهزالفرص، التي تسنح له للاجهار بدعوته، إلى أن أمره تعالى بأن يصدع بما أُمر به، وأن ينادي الناس عامّة باتباع دينه وشريعته، امتثالاً لما أمره سبحانه به، بقوله:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤمَرْ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ﴾ (الحجر ـ ٩٤).

فصعد رسول الله ﷺ على الصفا وهو يهتف ويقول: واصباحاه ! فاجتمع الناس حوله، فقال: إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تكذّبوني؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، فقال: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً، انّي لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد، إنّما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله فخشى أن

(١) أليس هذا تصريحاً بعمومية رسالته في بدء دعوته.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤١.

يسبقوه إلى أهله، فجعل يقول: يا صباحاه يا صباحاه اوتيتم اوتيتم[1].

هكذا بدأت الدعوة الإسلامية، وهو ﷺ يخطو خطوات قصيرة، يجابه ضوضاء الالحاد بحكمه وعظاته حتى دخل في الإسلام بعض الشخصيات البارزة ممن كانت لهم مكانة مرموقة بين الناس، وانجذبت إليه قلوب كثير من الشبان وأصبحت أفئدتهم تهوى إليه، غير أنّ الجو المفعم بالاحن والضغائن عرقل خطى دعوته، وتفاقمت جرائم قريش نحوه، فأجمعوا أمرهم على أن يخفقوا ندائه، بإنهاء حياته و إطفاء نوره، حيث اجتمع سادتهم في دار الندوة، وأجمعوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، ويسلّموا له سيفاً صارماً، وأوصوا هؤلاء الشباب بأن يضربوه ضربة رجل واحد، حتى يموت، فيستريحوا منه، وبذلك يتفرّق دمه في القبائل جميعاً، ولا يقدر بنو هاشم، على حربهم.

ولكنّ الله ردّ كيدهم، وصدّهم عن ذلك، وخيّب حيلتهم، وأخبر الرسول ﷺ عن المكيدة الداهمة، فغادر مكة متوجهاً إلى «يثرب» حتى دخلها، فاجتمع حوله رجال من الأوس والخزرج، وبايعوه، ووعدوه بالنصر، والمؤازرة والحراسة.

والرسول ﷺ وإن غادر مكة، وترك قومه، إلاّ أنّ قومه لم يتركوه، بل أجّجوا نار الشحناء عليه، ودارت بينهم وبين الرسول حروب دامية، وحملات طاحنة، وبذلت قريش آخر ما في وسعها، ورمت كل ما في كنانتها، وبالغت في تقويض الإسلام، وهدم بنائه، إلى أن دخل العام السادس، من الهجرة، فتعاهد الفريقان في أرض الحديبية على هدنة تدوم عشر سنوات، بشروط خاصة.

هذا الحلف الذي تحالف به المسلمون في الحديبية، انقلب إلى فتح مبين للإسلام، فانتهز الرسول ﷺ الفرصة لنشر دعوته في البلاد البعيدة، فبعث سفراءه وفي أيدي كل واحد كتاب خاص إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، وعظيم القبط، وملك الحبشة، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة،

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢١ المقصود: هوجمتم من قبل العدو.

بل إلى رؤساء العرب، وشيوخ القبائل، والاساقفة، والمرازبة، والعمال، يدعوهم ى دين سلام، الذي هو دين السلام، ورسالته من الله وما أُنزل إليه من ربّه.

وهذه المكاتيب أول دليل على أنّ رسالتـه، عالمية لا تحدد بحد، بل تجعل الأرض كلها مجالاً لإقامة هذا الدين، ودونك نماذج ممّا ورد في تلكم الرسائل:

١ـ كتب إلى كسرى ملك فارس:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى... أدعـوك بدعايـة الله فإنّـي أنا رسـول الله إلى الناس كافـة، لأُنذر من كان حيّاً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»[١].

٢ـ وكتب ﷺ إلى قيصر ملك الروم:

«بسم الله الرحمٰن الـرحيم، إلى هرقل عظيم الروم: سـلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بـدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مـرّتين فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الاريسيين»[٢].

وما ذكرناه نماذج من رسائله، وكتاباتـه الابلاغية، وفيه وفي غيره مصارحة شديدة بأنّه رسول الله إلى العرب والعجم، وإلى النـاس كلهم، من غير فرق بين اللون والجنس، والعنصر والوطـن، ويمتد شعاع رسـالته بامتـداد الحضارة، ووجود الانسـان، وأنّه ﷺ يكافح كل مبدأ يضاد دينه، وكل رسالة تغاير رسالته، وقد جرى الرسول ﷺ عليه طيلة حياته الرسالية، حتى إلتحق بالرفيق الأعلى.

يقول سير تـوماس ارنولد: «انّ هـذه الكتب قد بدت في نظـر من أُرسلت إليهم ضرباً مـن الخرق، فقد برهنت الأيـام على أنّها لم تكن صادرة عـن حماسة جوفـاء. وتدل هذه الكتب دلالـة أكثر وضوحـاً وأشد صراحة على ما تـردد ذكره في القرآن من مطـالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام».

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص ٢٩٥، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦١ وغيرهما.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٥، مسند أحمد ج ١ ص ٢٦٣ وغيرهما.

فقد قال الله تعالى في سورة ص ٨٧ـ ٨٨: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَـٰلَمِينَ* وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين﴾.

وفي سورة يس ٦٩ـ٧٠: ﴿وَمَا علَّمنهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرءَانٌ مُبِينٌ* لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَـٰفِرِينَ﴾.

وفي سورة الفرقان١: ﴿تبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيراً﴾ .

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَـٰكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾سورة سبأ ٢٨.

وقال سبحانه:﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾سورة الأعراف١٥٨.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَـٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَـٰسِرِينَ﴾ سورة آل عمران ٨٥.

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبرٰهِيمَ حَنِيفاً﴾ سورة النساء ١٢٥ .

وقال سبحانه: ﴿قَـٰتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِاللهِ ولا باليَومِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَـٰبَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ* وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيرٌ ٱبنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَـٰرَى المَسِيحُ ٱبْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوٰهِهِمْ يُضَـٰهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهاً وَاحِداً لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَـٰنَهُ عَمَّا يُشرِكُونَ* يُرِيدُونَ أن يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَـٰفِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ التوبة ٢٩ـ٣٣.[1]

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤.

تأثير تلكم الكتب:

وممّا يدل على أنّ هذه الكتب لم تصدر عن حماسة جوفاء، أنّه قد كان لها أثر بديع في أكثر هـذه الأوساط، إذ تجاوبت معهـا شعـور كثير منهـم، فهبتهم مـن رقـدتهم، وانهضتهم من كبوتهم، فأصبحوا متفكّرين من ملبّ لدعـوته، وخاضع لرسالته، ومؤمن بما أتاه، إلى معظّم لرسله، ومجيز لهم، ومكبّر إيّـاه بإرسال التحف الثمينة، ودونك صورة مصغّرة ممّـا أثارتـه تلكم الكتب في هـذه البيئات، وقـد روى أصحاب السير والتـاريخ اُموراً كثيرة يطول بنا المقام بذكرها:

قال قيصر لأخيـه ـ حين أمـره برمي الكتـاب ـ: أتـرى أرمي بكتاب رجل يـأتيه الناموس الأكبر، وقال لأبي سفيان: إن كان ما تقوله حقّاً فإنّه نبي، ليبلغنّ ملكه ما تحتي قدمي.

وخرج ضغاطـر أسقف الروم بعد قراءة الكتاب، إلى الكنيسـة وقال في حشد من الناس: يا معشر الروم أنّه قد جاءنـا كتاب أحمد، يدعونا إلى الله وأنّي أشهد أن لا إلـٰه إلاّ الله وأنّ أحمد رسول الله.

وقال المقوقس: انّي قد نظرت في أمر هذا النبي، فـوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده ساحراً ضالاً، ولا كاهناً كذّاباً.

وكتب فروة عامل قيصر بعمان إلى رسول الله كتاباً، أظهر فيه إسلامه، فلمّـا اطّلع عليه قيصر أخذه واستتابه، فأبى فأمر بقتله ، فقال حينما يقتل:

بلّغ سراة المسلمين بأنّني سلم لربّـي أعظمي وبناني

وكتب هوذة بن علي ملك اليمامة إلى رسول الله: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله.

ولبّى المنذر بن ساوى ملك البحرين دعوة الرسول وأظهر إسلامه.

وأجـابـه ملـوك حُمير، وأساقفـة نجـران، ولبّـاه عمّـال كسرى بـاليمن، واقيـال

حضرموت، وملك ايلة ويهود مقنا بالإسلام، أو بإعطاء الجزية.

وكتب النجاشي ملك الحبشة، كتابه المعروف، وأظهر إسلامه إلى درجة صلّى عليه النبي ﷺ عندما بلغه موته [١].

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، من تأثير دعوته العالمية ورسالته العامّة.

نعم قد شذ منهم كسرى ـ ومن لف لفه ـ وهو ذلك الملك الذي ورث السلطة والحكم عن أجداده من آل ساسان، فأبى أن يكون تابعاً للعرب، وخشى من هذا الدين على شخصه وملكه.

ولأجل ذلك لا تعجب إذا ثارت ثائرة كسرى، فمزّق كتاب الرسول، وأرسل إلى باذان، عامله باليمن، وكتب إليه: «ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين فليأتياني به» [٢].

هذه صورة اجمالية من بدء دعوته إلى ختامها، أتينا بها بصورة مصغّرة، ليقف القارئ على أنّ دعوته لم تكن مقصورة على بلد خاص، أو شعب خاص بل كانت عالمية غير محدودة، وأنّ مرماه كان هو القضاء على جميع النزعات الاقليمية والمحلية والأديان السالفة وتذويبها في اطار رسالته العالمية الواسعة النطاق، وأنّه ﷺ كان يصرّح بذلك في بدء دعوته، وأثنائها... ومختتم أمره.

النصوص القرآنية في عالمية رسالته:

هلم معنا نتلو عليك نصوص القرآن الدالّة على أنّ رسالته، رسالة عالمية وأنّ دعوته لا تختص بإقليم خاص، أو أُمّة معيّنة، وإنّ مرماه هو إصلاح المجتمع البشري على وجه الاطلاق، ويمكن الاستدلال على ذلك بوجوه:

---

(١) راجع لمعرفة نصوص ما دار بينهم وبين الرسول ﷺ إلى كتاب « مكاتيب الرسول».

(٢) الكامل ج ٢ ص ٨١، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٨ إلى غير ذلك.

الأوّل: انّ كثيراً من الآيات تصرّح بـأنّ رسالته عـالمية، وأنّه رسـول الله إلى الناس جميعاً، وأنّ الله أرسله رحمة للعالمين، وأنّـه بشير ونذير للناس كافة، وأنّه ينـذر بقرآنه كل من بلغـه كتابـه وهتافـه، من غير فـرق بين شخص وشخص، أو عنصر وآخـر، ودونك بعض النصوص من هذا القسم:

١ـ ﴿**قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إنّي رسُولُ اللهِ إلَيكُمْ جَميعاً**﴾ (الأعراف ـ ١٥٨).

٢ـ ﴿**وَمَا أَرسَلنـٰكَ إلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً**﴾ (سبأ ـ ٢٨).

٣ـ ﴿**وَأَرْسَلنـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً**﴾ (النساء ـ ٧٩).

٤ـ ﴿**وَمَا أَرْسَلنـٰكَ إلاّ رَحمَةً للعالَمِينَ**﴾ (الأنبياء ـ ١٠٧).

٥ـ ﴿**تَبَارَكَ الّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَـى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾(الفرقان ـ ١).

٦ـ ﴿**وَأُوحِيَ إِليَّ هَـٰذا القُرءَانُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** ... ﴾ (الأنعام ـ ١٩).

ـ أي كل من بلغه القرآن، ووصلت إليه هدايته في أقطار الأرض ـ.

٧ـ ﴿**هُوَ الّذِي أَرْسَـلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِيـنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَـى الدِّيـنِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشرِكُونَ**﴾ (الصف ـ ٩).

٨ـ ﴿**يَـٰأَيُّهَا النَّـاسُ قَدْ جَاءَكُـمُ الرَّسُولُ بِـالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ فَآمِنُـوا خَيْراً لَكُمْ**...﴾ (النساء ـ ١٧٠).

٩ـ ﴿**الر كِتَـٰبٌ أَنْزَلْنَـٰهُ إِلَيكَ لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾ (إبراهيم ـ ١).

١٠ـ ﴿**هَـٰذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران ـ ١٣٨).

وهذه الآيـات ونظائرهـا ممّا لم ننقلها ، صريحة في أنّ هتـاف النبي ﷺ لا يختص بأُمّة دون أُمّة، وأنّه بعث إلى الناس كافة مبشّراً ومنذراً لهم جميعاً.

الثاني: انّ القرآن كثيراً ما يوجّه خطابـاته إلى الناس غير مقيّدة بشيء، وهذا دليل

واضح على أنّ هتافاته وتوجيهاته تعم الناس كافة، ودونك نماذج من هذا القسم:

١ـ ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ـ ٢١).

٢ـ ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا ممَّا فِي الأَرْضِ حَلَـٰلاً طيّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ـ ١٦٨) إلى غير ذلك ...

فترى أنّه يخاطب الناس، ويقول: يا أيّها الناس ... تصريحاً منه على أنّ رسالته السماوية إلى الناس كلهم، لا إلى صنف خاص منهم.

فلو كان الإسلام ديناً اقليمياً، ورسالته طائفية، فلماذا تأتي هتافاته بلفظ: ﴿يا أيّـها الناس﴾ ؟!.

فقد تكرر هذا النداء في الكتاب ست عشرة مرة.

بل لماذا يخاطب أهل الكتاب ويناديهم بقوله: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ؟ فقد ورد هذا الخطاب في الذكر الحكيم اثنتي عشرة مرة.

وربّما يستدل في المقام بالخطابات الواردة في القرآن موجهة إلى بني آدم لكن الاستدلال بها لا يخلو من الاشكال، كما سيوافيك بيانه عند البحث عن ختم الدين والرسالة [1].

الثالث: انّ القرآن ربّما يأخذ العنوان العام موضوعاً لكثير من أحكامه، من غير تقييد بلون، أو عنصر،أو شعب أرض خاصة، وهذا يكشف عن أنّه بعث إلى اصلاح المجتمع البشري في مشارق الأرض ومغاربها، وأنّ الرسالة التي اُلقيت على عاتقه لا تحدد بحد، ودونك نماذج من هذا القسم:

١ـ ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنِ استَطَاعَ إليهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران ـ ٩٧).

فقد أوجب حج البيت على الناس إذا استطاعوا إليه،عرباً كانوا، أم غير عرب،

---

(١) لاحظ الفصل الثاني ـ في هذا الكتاب ـ ص١١٣.

فلم يقل: لله على الأمّة العربية ـ مثلاً ـ حج بيته.

٢ـ ﴿وَالمَسجِدِ الحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَكِفُ فِيهِ وَالبَادِ﴾ (الحج/ ٢٥).

٣ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ﴾ (لقمان ـ ٦). فالجملة الخبرية بمعنى الانشاء وتحريم الاشتراء ولذا استدل الفقهاء بها على حرمة كسب المغنّيات تبعاً للسنّة [1].

فذم سبحانه كل من اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله كائناً من كان إلى غير ذلك من الآيات.

الرابع: يقضي صريح القرآن بأنّ هدايته لا تختص بمجتمع خاص، بل تعم كل من تظلّه السماء، وتقلّه الأرض. ودونك بعضها:

١ـ ﴿يَـأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرهَـنٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (النساء/ ١٧٤).

٢ـ ﴿شَهرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾ (البقرة ـ ١٨٥).

٣ـ ﴿ولَقَد ضَرَبْنَا للنَّاسِ فِي هَـذا القُرءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر/ ٢٧).

٤ـ ﴿ الر كِتَـابٌ أَنْزَلنَـهُ إِلَيكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـتِ إلى النُّورِ﴾ (إبراهيم ـ ١).

أليست هذه الآيات صريحة في أنّ القرآن نور وهدى للناس كله، لا للعرب خاصة، ومع ذلك كيف يمكن أن نحمل رسالته على أنّها مختصة بأُمّة دون أُمّة. هذا ونجد سبحانه يقول: ﴿وآخَرينَ مِنهُمْ لمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكيم﴾ (الجمعة ـ ٢) وما المراد من الـ: ﴿آخرينَ منهم﴾ أي من المؤمنين؟ أليس المراد كل من جاء بعد

---

[1] راجع المكاسب ص ٣٨ للشيخ الأعظم الأنصاري.

الصحابة إلى يوم القيامة من العرب والعجم [١] فالآية دالة على عمومية الرسالة مضافاً إلى خاتميتها.

هذه جوانب تلقي ضوءاً على البحث، وتهدف إلى أمر واحد: وهو أنّ رسالته ذات نزعة عالمية، غير محدودة بحد، فلا يحدها قطر، ولا يقيّدها شيء آخر من ألوان التحديد والتقييد، نعم مبدأ البرهان في كل واحد منها يختلف مع ما في الآخر ـ كما يظهر ذلك بالامعان والتدبّر ـ [٢].

البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر:

وهناك لون آخر من البحث يتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعة الإسلام، وبفكرته الكلية، عن الكون والحياة والانسان، ونظرته الوسيعة الثاقبة في التقنين والتشريع وإن شئت فاجعله خامس الوجوه:

بيانه: أنّ الحقائق الراهنة التي جاء بها الصادع بالحق، في مختلف الأبواب والفصول، لا تستهدف سوى تبنّي الواقع، ولا تأخذ غيره دعامة، ولا تخضع لشرط من الشرائط الزمانية إلاّ لنفس الأمر.

وإن شئت فقل: انّ الإسلام لا يعتمد في أحكامه وتشريعاته وما يرجع إلى الانسان في معاشه ومعاده، إلاّ على مقتضى الفطرة التي فطر عليها كل بني الانسان والسائدة في كافة أفراده، في عامة أقطار الأرض جميعاً، وإذا كان الحكم والتشريع موضوعاً على طبق الفطرة الانسانية السائدة في جميع الأقطار والأفراد، فلا وجه

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٨٤.

(٢) هذه الوجوه الأربعة تختلف في طريق البرهنة على المطلب، فقد استدل في الوجه الأوّل بتصريح القرآن على عموم رسالته، واعتمد في الثانية على شمولية هتافات القرآن وعمومية خطاباته في الفروع والأُصول، وفي ثالثها على أنّ القرآن كثيراً ما يتخذ العنوان العام لموضوع أحكامه، وفي رابعها على نص القرآن بأنّ هدايته وانذاره لا يختص بشعب خاص.

لاختصاصه بإقليم دون إقليم، أو بشعب دون شعب [١]

ولا يجد الباحث ـ مهما أُوتي من مقدرة علمية كبيرة ـ في ما جاء به نبي الإسلام ﷺ، على سعة نطاقه، وبحثه في شتى الجهات، ومختلف النقاط أيّ طابع اقليمي، أو صبغة طائفية، وتلك آية واضحة على أنّ دعوته دعوة عالمية لا تتحيز إلى فئة معيّنة، ولا تنجرف إلى طائفة خاصة.

هذا هو الإسلام وتعاليمه القيّمة ومعارفه الاعتقادية، وسننه التشريعية فأمعن فيها النظرة مرة بعد أُخرى، فهل تجد فيه ما يشير إلى كونه ديناً اقليمياً خاصاً، أو شريعة لفئة محدودة، فإنّ للدين الاقليمي علائم وامارات، أهمها أنّه يعتمد في معارفه وتشريعاته على خصوصيات بيئية، أو ظروف محلية، بحيث لو انقلبت تلكم الخصوصيات إلى غيرها، أصبحت السنن والطقوس المعتمد عليها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وصار النافع منها ضاراً، فهل تجد أيّها الباحث في ما جاء به الإسلام شيئاً من تلكم الامارات.

هلم معي نحاسب بعض ما جاء به الإسلام في مجالات العلم والعمل، ونضعها على طاولة الحساب، فنكون على بصيرة كاملة في هذا الموضوع: فقبل كل شيء، لاحظ كتاب الله العزيز، ومعجزة الإسلام الخالدة، فقد انبثق نوره منذ أربعة عشر قرناً، حين كانت البشرية تسبح في ظلام دامس مخيف، ضاعت فيه كرامة الانسان وحريته، وساد العداء والتنازع بين الناس، وكان نظام الغاب وحده، مفزعاً للناس وملجأ إليهم.

وفي تلك الظروف جاء القرآن نوراً يستضيئ به العالم، ويعيد للانسان كرامته ومكانته وحريته، مؤسّساً لمجتمع قائم على أساس وطيد من العدالة الاجتماعية، سواء في ذلك انسان الجزيرة العربية أم غيرها.

هلم معي نستعرض تعاليمه، فهل نرى آية من آياته الباهرة، أو قانوناً من قوانينه، أو حكمة من حكمه ومعارفه،أو سنّة من سننه، أو فريضة من فرائضه تنفع في

---

(١) سوف نرجع إليه في ختام البحث، ونجعله دليلاً مستقلاً على عمومية رسالته.

مجتمع دون آخر؟ تفيد في اقليم دون اقليم؟ تبلغ بمجتمع خاص إلى قمّة الرقي والحضارة، وتسف بجماعة أُخرى إلى هوة الضلال والجهل؟!

ليت شعري ماذا يريد القائل من كلمته القارصة، أو فريته الشائنة؟: «الإسلام دين طائفي، أو مبدأ اصلاح اقليمي، لا يصلح لعامة المجتمعات، ولا يصلح لعامة القارات، ولا تسعد به الانسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها».

ليت شعري ماذا يريد منها؟ أيريد معارفه العليا في باب الصانع وصفاته، وما جاء في ذلك الباب من الحقائق الغيبية، والكنوز العلمية، التي لم تحم حولها فكرة انسان قبله، ولم توجد في زبر الاوّلين مثلها، أو شبهها.

فلو أراد ذلك، فتلك فرية بيّنة، إذ الإسلام قد أتى بفلسفة صحيحة وعرفان رصين وتوحيد خالص، فيه دواء المجتمع البشري في الأقطار كلها.

ترى ويرى كل من له إلمام بالإسلام أنّه كافح كل لون من ألوان الشرك، كافح عبدة الأصنام والأجرام السماوية، كافح كل تعلّق بغيره سبحانه، وتخضع لشيء دون الخالق، وأنقذ المجتمع البشري من مخالب الشرك، ومصائد الضلال، ونهاه عن عبادة حجر لا يعقل أو شجر لا يفهم، أو حيوان لا يدفع عن نفسه، أو انسان محتاج مثله، أو غيرها من الارباب الكاذبة، فأعاد للانسان كرامته وحريته ومكانته المرموقة سواء في ذلك انسان الجزيرة أم غيره.

أيحسب هذا القائل أنّ ذاك التوحيد، وهذا العرفان مختصان بقوم دون قوم كيف؟ فإذا كان النبي لا يستهدف سوى الواقع ولا يتبنّى غيره، وبعبارة صحيحة: إذا كان لا يوحى إليه سوى الحقيقة المجردة عن شوب كذب، فلا وجه لأن يختص بأُمّة دون أُمّة.

ودونك سورة الحديد والآيات التي وقعت في صدرها، فاقرأها بامعان وتدبّر فهل يعلق الشك بضميرك الحر، بأنّها تعاليم ومعارف تختص بمنطقة خاصة ولاتصلح للتطبيق في مناطق أُخرى، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في العقائد والمعارف.

أم يريد أنّ أحكام الإسلام وتشريعاته في العبادات والمعاملات والأخلاق

وغيرهـا، قوانين اقليميـة، لا تصلح إلا لظـروف خاصـة، ولا تفيـد إلا في شبه الجزيـرة العربيـة، ولا يسعد بها إلاّ انسانها، دون انـاس المناطق الأُخـرى، إلاّ أنّ تلك فريـة بيّنة ليست فيها مسحة من الحق أو لمسة من الصدق، فهذه فروعه ودساتيره وفرائضه لا تجد فيها أثراً للطائفية أو أمارة للاقليمية.

ضع يدك على النظام الاجتماعي الذي جاء به الإسلام في أبواب النكاح والزواج، وأحكام الأولاد والنشـوز والطلاق والفرائض، واصلاح حـال اليتامى وانفاذ الوصـايا، والاصلاح بين النـاس، وأداء الأمانة، وحسـن السلوك معهم، والتعـاون والاحسان، إلى غير ذلك مما يجده الباحث في النظام الاجتماعي للإسلام.

ضع يـدك على النظام الأخلاقـي الذي فاق بـه الإسلام، كـافة الأنظمـة الخلقية التي كـانت قبلـه، أو تأسّست بعـده، فأمـر بـالصدق وأداء الأمـانة، والصبر والثبـات وحسن الظن بالناس، والعفو والغفران والقرى والضيافة، والتواضع، والشكر والتوكل، والاخـلاص في العمل إلى غير ذلك ممّـا أمـر بـه، أو ما نهى عنـه كـالبخل والاختيـال، والبهتـان والغضب، والاثرة، والحسـد، والغش والبغـي والخمر والميسر، والجبن والغيبـة والكذب، والاستكبار والرياء، والعجب والتنابز بالألقاب والانتحار والغدر و ...

ضع يدك على نظامـه السياسي في باب الحكم والسياسة، ومـا أتى به في اصلاح نظام الحرب، ودفـع مفاسدهـا، وقصرها على مـا فيه من الخير للبشر، وايثـار السلم على الحرب، وعلى الأنظمة والقـوانين التي جـاء بها في أبواب العقـود والمعامـلات، فأوجب حفظ المال عن الضياع والاقتصاد فيه وجعل فيه حقـوقاً مفروضة ومندوبة، وأحلّ البيع وحرّم الـربا، ونهى عن الغش والتطفيـف، إلى غير ذلك ممّا يجده المتعمّق في كتـب الفقه والأحكام.

قل لي بربّك هـل تجد في هذه الأنظمة، أو في ثنايا هـذه الأبواب والأحكام حكماً أو أحكاماً فيهـا تفكير طائفي أو نزعة اقليميـة. وإن كنت في ريب فاقرأ الآيـات التالية ومئات نظائرها، تجدها دواء المجتمع الانساني في الأقطار كلها:

١ـ ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبىٰ وَيَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ (النحل ـ ٩٠). أليست هذه القوانين عماد الاصلاح، وسناد الفلاح في عامة القارات؟

٢ـ هلا كان منه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمانَاتِ إلى أَهلِهَا وإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أن تَحْكُمُوا بِالعَدلِ﴾ (النساء ـ ٥٨).

وقد ندد الله باليهود لتجويزهم خيانة الأُميين، يعني العرب المشركين ومن ليس في دينهم، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَنْ إن تَأْمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ إلاّ ما دُمْتَ عليهِ قائِماً ذٰلِكَ بأَنَّهُمْ قالُوا ليسَ عَلَينَا في الأُمِّيِّين سبيلٌ ويقولُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران ـ ٧٥).

وليس هذا إلاّ لأنّ دينهم على زعمهم كان طائفياً، فالحرام عندهم هو خيانة يهودي ليهودي مثله لا غير، وأمّا الإسلام فلمّا كان ديناً عالمياً غير مختص بطائفة دون أُخرى، فحرّم الخيانة مطلقاً على المسلم والكافر، وذلك آية كونه عالمياً لا طائفياً ولا اقليمياً.

٣ـ أو ليس منه قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن منكُمْ أُمَّةٌ يَدعُونَ إلى الخيرِ ويأمُرُونَ بالمعروفِ وينهَونَ عن المنكرِ﴾ (آل عمران ـ ١٠٤).

وقد عرضنا هذه الآيات على سبيل التنويه، فليس معنى هذا، أنّ ما جاء به الإسلام في طريق إصلاح المجتمع، محصور في هذا النطاق، فإنّ في كثير من الآيات التي لم نأت بها تنويهاً بمختلف الأخلاق الفاضلة الإنسانية، والشخصية والاجتماعية من صدق، وعدل، وبر، وأمانة، وصلة رحم، ولين جانب، ووفاء عهد، ووعد، ورحمة للضعيف، ومساعدة للمحتاج، ونصرة للمظلوم، وصبر، ودعوة إلى الخير، وتواص بالحق، وعدم اللجاج فيه، والانفاق لله، والدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والتعاون على البر والتقوى، والرغبة في السلم.

كما احتوت آيات كثيرة تنديداً بمختلف الأخلاق السيئة والخصال المذمومة من

كذب، وظلم، وبغي، واثم، وقتل نفس، وارتكاب فاحشة، وانتهاك عرض وافك وزور، وعربدة سكر، وإسراف وتبذير، وخيانة ونكث وغدر، وخديعة، وقطع رحم، وأكل أموال الناس بالباطل، وجبن، وشح وأمر بمنكر وغلظة قلب، وفظاظة خلق، ورياء ومكابرة وانتقام باغ، وتناقض بين القول والعمل وغرور، وصد عن الحق، إلى غير ذلك من مساوئ الأخلاق ومحاسنها التي تجد نصوصها مبثوثة في القرآن الكريم. وتسهل عليك مراجعتها والاهتداء والتدبّر في معانيها إذا لاحظت كتاب «تفصيل آيات القرآن الكريم»[١] ، و «المعجم المفهرس»[٢] ما من الكتب والمعاجم.

هذا وقد عاشت الأُمّة الإسلامية بل الانسانية جمعاء[٣] في ظل هذه الدساتير ونظائرها الوافرة في أجيال متتابعة، وفي حقب من الزمان والمكان، فلو كانت مختصة بإقليم خاص، لأدّت إلى التناحر والاندحار في الأقاليم الأُخر،لا إلى الرقي والحضارة[٤].

الدعوة إلى الفطرة، أساس الأحكلام الإسلامية:

لقد بنى الإسلام أحكامه وتوجيهه في العلم والعمل على الفطرة الإنسانية السائدة في جميع الأقطار والأفراد، فدعا إلى التوحيد المطلق، وقرّر مبادئ العدالة والحرية والمواساة والاخاء بين الناس كافة والديمقراطية الحقة، ونشر العلم والحضارة

---

(١) تأليف المسيو جول لابوم، وقد وضع كتاباً باللغة الفرنسية، جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كلاً منها في باب أو أبواب خاصة، حسب ما فهم منها، ولكنّه أخطأ في كثير من معانيها، فإنّه اكتفى في ترتيبه وتنسيقه بما فهمه من ظواهر الآيات حسب اللغة العربية وقواعدها، من دون أن يرجع إلى أسباب النزول، وسنّة النبي وسيرته والأئمّة من بعده.

(٢) تأليف محمد فؤاد عبد الباقي المصري.

(٣) اعترف به المستشرق غوستاف لو يون في آخر كتابه.

(٤) نعم كل أُمّة ركنت إلى الدعة والراحة، وحنت إلى تقليد عادات الأجانب في معترك الحياة، ونسيت مكانتها ورسالتها وقوانينها وأخذت بغيرها، رجعت إلى ورائها القهقري، وعلى هذا الأساس تعيش الأُمّة الإسلامية في هذا العصر في أنحاء العالم، فتراها متفرقة الكلمة ممزّقة، تأكلها حثالات الأرض.

وقضى على الرذائل والمنكرات، والشهوات الجامحة، والتقاليد البالية، والخرافات الكاذبة، والرهبانية المبتدعة، وأمر بالفضائل والصدق في القول والوفاء بالعهد، والاجتناب عن العزوبة بنكاح الحرائر إلى غير ذلك من الوف الأحكام والتشريعات التي أشرنا إلى كثير منها وتعتبر بمجموعها دعائم الاصلاح في العالم كله، ولا تنازع الفطرة بل تطابقها ولا تتخلّف عنها قدر شعرة.

فإذا كانت الفطرة الإنسانية واحدة في الجميع، وكانت الأحكام الإسلامية مبنية عليها في جانب التشريع، فلا وجه لأن تختص بقوم دون قوم، وهذا بحث لطيف سوف نرجع إليه إن شاء الله عند البحث عن كون نبي الإسلام خاتم النبيين، ودينه خاتم الأديان و به نجيب على الاشكال الدارج على ألسنة بعض المستهترين ممّن لا يؤمن بصريح القرآن في مسألة الخاتمية ويقول: «انّ النصوص الشرعية في الكتاب والسنّة محدودة، وحوادث الناس ومقاصدهم متجددة ومتغيّرة ولا يمكن أن تفي النصوص المحدودة بالحوادث المتجددة الطارئة» فارتقب حتى يأتيك الجواب والبيان.

الإسلام يكافح المبادئ الرجعية:

وأدل دليل على أنّ الإسلام رسالة عالمية، أنّه يكافح النزعات الاقليمية والطائفية ولايفرق بين اللون والجنس والعنصر ولا يفضّل أحداً إلاّ بالتقوى، ويزيّف كل مقياس سواه ويقول: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبَاً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتقَٰكُمْ﴾ (الحجرات ـ ١٣).

كفى له فخراً أنّه أوّل من حارب العصبية والنعرات الطائفية ودعا إلى الأخوة الانسانية، والزمالة البشرية، والانضواء تحت لواء واحد وهو لواء التوحيد المطلق.

أجل حارب العصبية، والنعرات الطائفية في ظل وحدات ثمان، وهو أوّل من أسّسها وأشاد بنيانها، أعني: وحدة الأمّة، وحدة الجنس البشري، وحدة الدين، وحدة التشريع، وحدة الاخوة الروحية، وحدة الجنسية الدولية، وحدة القضاء، بل وحدة اللغة

الدينية [١]

وقد بلغت بها الأُمّة الإسلامية في العصور السالفة المزدهرة، الذروة من المجد والعظمة، فأصبحت ساسة البلاد وحكّام العباد.

أو ليس الرسول ﷺ وهو قائل تلكم الكلم الدرية التالية، القاضية على كل نعرة طائفية، والانتماء إلى فئة خاصة والاتجاه إلى نجاح شعب خاص، فكيف ترمى شريعته بالطائفية وانقاذ جماعة معينة دون غيرها؟

١ـ قال ﷺ : «أيّها الناس أنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا أنّكم من آدم وآدم من طين، ألا أنّ خير عباد الله، عبد إتقاه» [٢].

٢ـ «ألا أنّ العربية ليست بأب والد، ولكنّها لسان ناطق، فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه» [٣].

٣ـ «انّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا، مثل أسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتقوى» [٤].

٤ـ «إنّما الناس رجلان: مؤمن تقي، كريم على الله، وفاجر شقي، هيّن على الله» [٥].

وللدكتور حسن إبراهيم حسن هنا كلمة قيّمة، يقول:

«ينكر بعض المؤرخين أنّ الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البيّنات ومن بينهم «وليم ميور» إذ يقول:

«إنّ فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد، وأنّ هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنّه فكّر فيها،

---

(١) كل ذلك دليل على عالمية تشريعه، وسعة نطاق رسالته، ويجد الباحث في الذكر الحكيم والأحاديث الإسلامية دلائل واضحة على كل واحدة من هذه الوحدات، فلا نقوم بذكرها لئلاّ يطول بنا المقام وقد بحثنا عنها في الجزء الثاني.

(٢ـ٣ـ٤ـ٥) راجع للوقوف على مصادر هذه الكلمات: روضة الكافي ص ٢٤٨، سيرة ابن هشام ج٢ ص ٤١٢، بحار الأنوار ج ٢١ ص ١٠٥، والشرح الحديدي ج ١٧ ص ٢٨١ وقد أوردنا شطراً آخر من هذه الأحاديث في الجزء الثاني.

كان تفكيره تفكيراً غامضاً، فإنّ عالمه الذي كان يفكّر فيه إنّما كان بلاد العرب كما أنّ هذا الدين الجديد لم يهيأ إلاّ لها، وأنّ محمداً لم يوجّه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلاّ للعرب دون غيرهم، وهكذا نرى أنّ نواة عالمية الإسلام قد غرست ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فإنّما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج».

وكذلك شك «كيتاني» في أن يكون النبي قد تخطّى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أُمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدين.

ومن الغريب أن يشك «وليم ميور» في صحة دعوى عموم الرسالة، وأن يبني شكه هذا على أنّ محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة، وأنّها كانت عالمه الذي لم يفكّر في سواه، وأنّ هذا الدين لم يهيأ إلا لتلك البلاد، وأنّ محمداً منذ بعث إلى أن مات لم يوجّه دعوته إلاّ للعرب دون غيرهم، فهل خفيت على ذلك المؤرّخ صلة قريش بدول ذلك العهد، وما أتاحته لها التجارة من دراية وخبرة بشؤون هذه الأُمم وأحوالهم، وأنّ محمداً بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة إلى بلاد الشام، فقد سافر وهو صبي مع عمه «أبي طالب» في تجاراته حتى إذا بلغ خديجة ما بلغها عن خبرته وأمانته، ألقت بمالها بين يديه، فكان من مهارته وحذقه ما جعلها تعرض عليه الزواج منها، ثم ظل يشتغل بالتجارة حتى بعث، فبعد ذلك يمكن أن يقال عن محمد أنّه كان لا يعرف غير بلاد العرب وهو رجل عصامي لم يكسب مركزه الممتاز في مكة قبيل البعثة إلاّ من ذكاء عقله وكفاية مواهبه.

هل يستبعد على محمد الذي خرج من مكة ناجياً بنفسه ونفس صاحبه أن يتخطفها الناس لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصروه، ثم صبر وصابر حتى عاد إلى مكة بعد ثماني سنين وهو السيد الآمر فيها وفي الجزيرة، تحوم حول شخصه مائة ألف من القلوب أو تزيد، ومن ورائهم كثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها؟ هل يبعد على هذا الرجل أن يرنو بناظره إلى ما وراء الجزيرة ليبسط عليه سلطانه، إن كان من محبي السلطة والحكم أو ليفيض عليها من

الذي غمر الجزيرة وملأها عدلاً وأمناً ودعة وحبّاً.

لو قيل أنّ الاسكندر المقدوني كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالم القديم كلّه وتجعله يلتف حول هذا الشاب الاغريقي لصدقنا، ولو قيل أنّ «نابليون» كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد، ليجلس على عرشها الفتي لصدقنا.

أمّا إذا قيل أنّ محمد بن عبد الله ﷺ فكّر في أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب المتّصلين بقريش ـ اتصالاً تعيش عليه قريش وينبني على أساسه كلّ شيء في البنية القرشية ــ فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر (بزعم «وليم ميور») أن يقبله إلاّ أن يكون تفكير ذلك النبي في هذا الأمر تفكيراً على نحو غامض.

وأمّا القول بأنّ ذلك الدين لم يهيأ إلاّ لبلاد العرب، فإنّ ذلك لم يمنع محمداً من التفكير في تعميم دينه، لأنّ هذا التفكير سواء أتحقق أم لم يتحقق، إنّما يعتمد على اعتقاده أنّ دينه صالح لذلك، وقد ثبت من القرآن أنّه كان يعتقد أنّ الإسلام قد هيّئ لكلّ حالة، وأنّ القرآن قد تكفّل بتبيان كلّ شيء، إذ يقول الله تعالى لرسوله في غير آية: **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيكَ الكِتـٰبَ تِبياناً لِكُلِّ شيء وهدىً ورَحمَةً وبُشرى للمُسلِمِينَ﴾** (سورة النحل ـ ٨٩).

ويؤيد دعوى عموم الرسالة للجنس البشري قول محمد ﷺ أنّ بلالاً أوّل ثمار الحبشة، وأنّ صهيباً أوّل ثمار الروم، وكذلك ما قاله عن سلمان الذي كان أوّل من أسلم من الفرس، فكان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق هذا الدين الجديد في السنة الأُولى من الهجرة، وهكذا صرّح الرسول في وضوح وجلاء، أنّ الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلّق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم في تلك الآيات البينات»[1].

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي ـ الطبعة الخامسة ـ ج ١ ص ١٦٧ ــ ١٧٠، وذكر في المقام بعض الآيات التي تدل على عمومية رسالته.

نظرة في الآيات
المشعرة بعدم العمومية

قد عرفت ما هو الحق في المقام بأنّ القرآن الكريم والسنّة النبوية، وسيرتها تدل بوضوح على عمومية رسالته لكل من في الأرض جميعاً.

غير أنّ هناك آيات ربّما يستشم منها عدم عمومية رسالته، وقد وقعت هذه الآيات سنداً للخصم، فنحن نذكر تلك الآيات ونوضح المقصود منها.

١ ـ آيات الانذار:

انّ بعض الآيات في هذا الصدد توجه انذار النبي ﷺ إلى قومه وربّما تشعر باختصاص الرسالة ودونك هذه الآيات:

١ ـ ﴿وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوماً مَا أَتاهُمْ من نذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾ (القصص ـ ٤٦).

٢ ـ ﴿بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتاهُمْ مِن نَذِيرٍ مِن قَبلِكَ﴾ (السجدة ـ ٣).

٣ ـ ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ ءَابَآؤهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ (يس ـ ٦).

٤ ـ ﴿فَإِنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ (مريم ـ ٩٧).

فهذه الآيات ونظائرها تخص انذار النبي ﷺ بقوم خاص، وبذلك تضيق دائرة الدعوة.

الجواب:

انّ الإجابة على الاستدلال بهذه الآيات سهلة بعد الوقوف على ما ذكرنا من الآيات المصرحّة بعمومية الرسالة.

لأنّها أوّلاً: لا تخرج من حد الاشعار الضعيف الذي لا يعتمد عليه في مقابل الآيات المصرّحة بأشد التصريح بعمومية الدعوة.

وثانياً: انّ هناك آيات بهذا الصدد تصرّح بعمومية الانذار، ففي سورة يس التي ورد فيها: **﴿لِتُنذِرَ قَوماً مَا أُنذِرَ آباؤُهُمْ﴾** وقوله سبحانه: **﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَـٰفِرِينَ﴾** (يس ـ ٧٠).

فهذه الآية تشعر بأنّ دائرة الانذار تشمل كلّ حي يعقل ويخاطب به وهو يعم كلّ مستعد للهداية سواء أكان من قومه وممن يعيش في الجزيرة العربية أم لا.

وقال سبحانه أيضاً: **﴿وَيُنذِرَ الّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾** (الكهف ـ ٤).

وهم يعم أُمّة الكليم والمسيح الذين قالوا: اتّخذ الله ولداً.

فاليهود قالوا بأنّ الله اتّخذ عزيراً ولداً.

والنصارى قالوا: بأنّ الله اتّخذ المسيح ولداً.

وبذلك يظهر أنّ كلّ ما ورد في هذا الصدد من آيات الانذار لا يدل على التخصيص بل هو خطاب بمقتضى المقام.

فقد تقتضي البلاغة توجيه الكلام إلى قسم خاص كما تقتضي المصلحة في مقام آخر توجيه الكلام لكلّ من بعث لانذاره فلاحظ الآيات التالية حيث يقول سبحانه:

﴿قُل إنّما أُنذِرُكُم بِالوَحْيِ ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إذا مَا يُنذَرُونَ﴾ (الأنبياء ـ ٤٥).

بينما يخص الانـذار بالمخـاطبين في هذه الآيـة يعمّم الانـذار لكلّ الناس في آيـة أُخرى ويقـول: ﴿أكـانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أن أَوْحَيْنَـا إِلَـىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أنْ أَنـذِرِ النَّـاسَ﴾ (يونس ـ ٢).

٢ـ عد بعض أهل الكتاب من الصالحين:

انّ القرآن الكريم يعد بعض أهل الكتاب من الصالحين حيث يقول:

﴿لَيسُـوا سَواءً مِـن أَهْلِ الكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَـآئِمَةٌ يَتْلُـونَ ءَايَـٰتِ اللهِ ءَانَآءَ الَّيْـلِ وهُمْ يَسْجُـدُونَ * يـؤْمِنُونَ بِـاللهِ واليَـوْمِ الآخِـرِ وَيَأْمُـرُونَ بِـالمَعـرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ المُنكَـرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِـي الخَيْـرٰتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤).

فلو كانت رسـالة النبي الأكرم ﷺ عـالمية يجب أن يـرجع إلى شريعتها كـلّ من يعيش تحت السماء من أصحاب الشرائع السماوية فعندئذ كيـف يعد بعض من لم يرجع إليها من الصالحين ويصفهم بالأوصاف المذكورة في هاتين الآيتين؟

الجواب:

انّ الإجابة عن هذا السؤال واضحة بعد الرجوع إلى سياق الآيات فانّه سبحانه لمّا وصف أهل الكتاب بأنّ أكثرهم الفاسقون وقال:

﴿وَلو آمَنَ أَهْلُ الكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيراً لَهُمْ مِنْهُم المؤمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَـٰسِقُونَ﴾.

وقال: ﴿لَنْ يَضُـرُّوكُمْ إلاّ أَذَى وَإنْ يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدبَارَ ثُمَّ لا يُنصَـرُونَ﴾.

وقال في حق اليهود:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا...﴾ (آل عمران: الآيات ١١٠، ١١١، ١١٢).

أراد سبحانه أن لا يبخـس حق الأقلّية الصالحة منهم، تمشّياً مـع الحقيقة، ووفاء للحق. وقال:

﴿لَيسُوا سَواءً ...﴾.

أي ليس الجميع ـ من أهل الكتاب ـ على وتيرة واحدة ، وأنّه يوجد بينهم من يستقيم على دينه، ويثبت على أمر الله، ويتلوا آيات الله فهم الذين يعدّون من الصالحين أي الذين صلحت نفوسهم فاستقامت أحوالهم وحسنت أعمالهم.

ومن المعلوم أنّ توصيف ثلة قليلة بالصلاح إنّما هو في مقابل الأكثرية الموصوفة بالفسق والطغيان وقتل الأنبياء والاعتداء.

وهذا التحسين النسبي لا يدل على إقرار شريعتهم وعدم نسخه بالإسلام وأنّهم لو عملوا بشريعتهم لكانوا من الناجحين.

ويدل على ذلك أنّه سبحانه يصرّح في الآية ١١٠ بلزوم إيمان أهل الكتاب بما آمن به المسلمون ويقول:

﴿وَلَو آمَنَ أَهلُ الكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيراً لَّهُمْ﴾.

وعلى ذلك يتّضح مساق الآية وهدفها.

إجابة أُخرى:

غير أنّ المفسرين فسّروا الآية على وجه آخر وقالوا: لما أسلم عبد الله بن سلام وجماعة قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد إلاّ شرارنا فأنزل الله: **﴿لَيسُوا سَواءً** ... ـ إلى قوله ـ **مِنَ الصَّـٰلِحِينَ﴾**.

روي ذلك عن ابن عباس وقتادة وابن جريح.

وقيل انّها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم [1].

غير أنّ هذا التفسير لا يلائم ظاهر الآية فالظاهر أنّ الموصوفين بالصلاح من أهل الكتاب حين نزول الآية كما هو ظاهر قوله: **﴿لَيسُوا سَواءً مِن أَهلِ الكِتَـٰبِ﴾** ولو كان المراد هو المؤمنون المسلمون لما عبّر عنهم بهذا العنوان ولا ينافي ما ذكرنا توصيفهم

---

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٤٨٨، راجع الدر المنثور ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥.

بأنّهم يتلـون آيات الله آناء الليـل إذ عندهم من المنـاجات والأدعيـة له الكثير، لا سيّما في زبور داود.

٣ـ تخصيص الانذار بأُمّ القرى ومن حولها:

وهناك بعض الآيات تخص الانذار بأُمّ القرى ومن حولها حيث يقول:

﴿وَهَذا كِتـٰبٌ أنْزَلْنـٰـهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْـذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَـى صَلاَتِهِم يُحـٰفِظُونَ﴾ (الأنعام ـ ٩٢).

وقال سبحانه:

﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَينَا إِلَيكَ قُـرءَاناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَمَن حَـولَهَا وَتُنذِرَ يَومَ الجَمعِ لا رَيبَ فيهِ فَرِيقٌ فِـي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِـي السَّعِيرِ﴾ (الشورى ـ ٧).

فهاتـان الآيتان يستظهـر منهما اختصاص نطاق رسـالته في إطار أُمّ القـرى ومن حولها.

وأُمّ القرى أمّا علم من اعلام مكّة أو كلّـي اطلق عليها في هذه الآية.

وعلى أي تقدير فتشعر باختصاص الرسالة بما ذكر فيها.

الجواب:

غير خفي على القارئ النابه أنّ ما ادّعاه مـن الظهور ضعيف جداً، ولو سلم فلا يتجاوز حد الاشعـار الابتدائي [1] ولا يعتنى بـه اتّجاه الحجّج الدامغـة الدالّـة على سعة نطاق رسالته وعدم محدوديتها بشيء من الحدود والقيود، كما وافاك بيانها.

---

(١) بل ذيل نفـس الآية دليل على عمـوم رسالته، حيث انـه سبحانـه قال: ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ وظاهره أنّ كل من يـؤمن بالآخرة من العرب والعجم يؤمـن بهذا الكتاب، وإنّه منزّل من ربّهم: مصدّق لما تقدمه من الكتب، فلو كانت دعوته اقليمية أو طائفية لما كان لإيمان من ليس من تلك الطائفة أو لا يعيش في الجزيرة العربية معنى صحيح.

نحن نسأله لماذا نسي أو تناسى قوله سبحانه في نفس هذه السورة (الأنعام) الدالّ على عمومية رسالته، وأنّ الله سبحانه أمره أن ينذر بكتابه كلّ من بلغه هتافه في أقطار الأرض وأرجاء العالم. وقال سبحانه: ﴿قُلْ أيُّ شَيءٍ أكبرُ شَهَـٰدَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَينكُم وأُوحِيَ إلَيَّ هذا القُرءَانُ لِأُنذِرَكُم بهِ وَمَن بَلَغَ أئِنَّكُم لَتَشهَدُونَ أنّ مع اللهِ آلهَةً أُخرَى قُل لا أشهَدُ قُل إنّما هُو إلهٌ وٰحِدٌ وإنَّنِي بريءٌ مِمّا تُشرِكُونَ﴾ (الأنعام ـ ١٩).

وصريح هذه الآية أنّه ﷺ أمرلينذر بقرآنه كلّ من بلغه ووصل إليه هتافه، عربياً كان أو أعجمياً، شرقياً كان أم غربياً، فلماذا أخذ الكاتب بالإشعار الضعيف وترك التصريح على خلافه مع كونهما في سورة واحدة؟!

فلو أنّه كتب ما كتب بدافع التحقيق والبخوع للحقائق، فلماذا فتح بصره وألقى أسدالاً على بصيرته فاعتمد على الاشعار ورفض التصريح.

ومن المحتمل أنّه رأى الآيتين، لكنّه حسب أنّ الله تعالى نقض كلامه الوارد في ابتداء السورة بختامها وهو سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اَخْتِلَـٰفاً كَثيراً﴾ (النساء ـ ٨٢).

نحن لا نميط الستر عن نواياه وضمائره وهو قد وقف على هذه الآية وغيرها مما سردناه من الآيات الدالّة على عالمية رسالته، لكن الظاهر أنّه لا يستهدف بذلك إلاّ تعكير الصفو وبث بذور الشك في قلوب السذّج والبسطاء من الأُمّة الإسلامية لغاية هو أعرف بها و إن كان لا يفوتنا عرفانها.

والحق أنّه ﷺ لم يكن في دعوته وانذاره بدعاً من الرسل، فقد مشى في ابلاغه على سنن من قبله من المرسلين، فالمسيح كان رسول الله، إلى أُمّة كبيرة أوسع من بني إسرائيل[1]، ومع ذلك كلّه فقد بدأ هتافه بكونه رسولاً إلى بني إسرائيل مع أنّه رسول

---

(١) نعم لم يثبت كون المسيح مبعوثاً إلى الناس أجمع، كما سيوافيك بيانه في هذا البحث بل كان مبعوثاً إلى أُمّة كبيرة أوسع من بني اسرائيل، لما ثبت من بعثه ـ عليه السّلام ـ رسلاً من حوارييه وتلاميذه إلى الأُمم التي لا تمت إلى بني اسرائيل بصلة، وهو دليل على أوسعية نطاق رسالته من بني اسرائيل.

إليهم و إلى غيرهم وقال: ﴿يـٰبَني إسرٰءِيلَ إِنّـي رسُولُ اللهِ إليكُـمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَديَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّـراً بِرَسُولٍ يَأتِـي مِنْ بَعدِي اَسْمُهُ أَحْمَدُ ...﴾ (الصف ـ ٦).

فخصّ خطابه ورسالته ببني إسرائيل مع كونه رسول الله إلى غيرهم أيضاً ولا ضير في ذلك لأنّ كونه رسولاً إليهم لا ينافي كـونه رسولاً إلى غيرهم فإنّ اثبات الحكم لموضوع لا يلازم نفيه عن غيره.

وقد ضارعه نبـي الإسلام، فهو مع كونه رسول الله إلى الناس جميعـاً، ومع أنّه أمره الله أن ينـذر بقرآنـه قومـه وكلّ من بلغـه كتابـه في مشارق الأرض ومغـاربها [١] أمـره الله سبحانه أن يقول: ﴿لِتنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَن حَولَهَا﴾ (الأنعام ـ ٩٢، الشورى ـ ٧) فإنّ كونه مبعوثاً لانذار الأُمّة العربية القاطنة في عاصمتها مكة ومناطقها التابعة لها، لا ينافي كونه مبعوثاً إلى غيرها أيضاً ومنذراً بكتابه سواها.

وقد حذى الرسول حذو القرآن في خطاباته الشخصية في اندية الانذار والابلاغ، فقال ﷺ حينما وفدت إلى داره عشيرته وأقربوه: «انّي رسول الله إليكم خاصة و إلى الناس عامّـة» وهو في الوقت نفسـه حينما صعد على الصفا خص قـريشاً بالخطاب وقـال: «يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار».

وقد وافيناكم بتلك الدرية في صدر البحث [٢].

هـذه سيرة الرسـول وسيرة من قبله، مـن أُولي العزم من الـرسل، فهم يقتفـون في توجيهاتهم ودعواتهم مقتضى الحال، مراعين في ذلك شرائط البلاغة، و إلقاء الكلام على وفق الحكمـة، فـربّما دعت المصلحـة إلى توجيـه الكلام إلى مجتمـع خاص، كما أنّـه ربّما اقتضت توجيهه إلى الناس عامة من دون أي تنافر وتناكر في التوجيهين.

و إن شئت قلت: انّـه ﷺ بُعث إلى عشيرتـه والعرب والنـاس جميعـاً على سبيل «تعدد المطلوب» كما قال: « يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار» وقال: «انّي رسول

(١) الأنعام ـ ١١٩.

(٢) أنظر ص١٣٥ من كتابنا هذا.

الله إليكم خاصة و إلى الناس عامة» وكانت كلّ واحدة من هذه الطوائف الثلاثة صالحة لأن يبعث إليهم رسول خاص. وعلى ذلك فله أن يصرّح حسب مقتضيات المقام بأحد الأغراض التي أُرسل لأجلها و يسكت عن الآخرين بلا استنكار.

و يشير إلى ذلك قوله ﷺ : «بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب، فإن لم يستجيبوا لي، فإلى قريش، فإن لم يستجيبوا لي، فإلى بني هاشم، فإن لم يستجيبوا لي، فإلي وحدي» [1].

وقال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ:

«انّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ: التوحيد والاخلاص وخلع الانداد والفطرة الحنيفية السمحة ولا رهبانية ولا سياحة إلى أن قال: ونصره بالرعب وجعل له الأرض مسجداً وطهوراً وأرسله كافة إلى الأبيض والأسود والجن والانس» [2].

ونظير ذلك لو بعثت انساناً لينجز لك أُموراً مختلفة، وكان كلّ واحد منها صالحاً لأن يبعث لانجازه شخص خاص، فعند ذلك يصح لك أن تقول: بعثته ليعمل كذا وتذكر أحد الأُمور التي بعث لأجلها وتسكت عن ذكر الباقي كما يصح للمبعوث أن يقول: بعثت لأفعل كذا ويذكر أحد الأهداف التي بعث لتحقيقها من دون أن يذكر الأمرين الآخرين وهكذا...

على أنّ الآية التي استدل بها القائل على ضيق نطاق رسالته، مكية، وردت في سورتي الأنعام والشورى المكيتين، ولم تكن الظروف في مكة تبيح له الاجهار غالباً بنفس رسالته، فضلاً عن الاجهار بعالميتها، فلا عتب عليه لو خص خطابه بجمع دون جمع. مع سعة نطاقها في نفس الأمر، إذا اقتضت المصلحة ذلك لأنّ المرمى الأهم في هذه البيئة، الاجهار بنفس الرسالة لا كمّها ولا كيفها و إن كان يصلح أن يصرّح في بعض

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٢.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٧ وسيوافيك بعض الروايات عند البحث عن «الخاتمية في الأحاديث».

الأوقات بعالمية رسـالته إذا كان الظرف في مكة صالحاً. كما في قـوله سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ إلاّ ذِكرٌ لِلعـٰلَمِينَ﴾ (القلم ـ ٥٢) والآية مكية بلا كلام. وكما في قوله: ﴿لِأُنذِركُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الأنعام ـ ١٩) والسورة مكية، وإن شئت قلت: انّ الظروف في مكة كانت مختلفة متلوّنة، ولم تكن حياة الرسول رخاءاً وشدة على نسـق واحد، فتارة كانت بيئة مكة قاسية عنيفة لا تسمح بالجهـر بنفس رسالته، فضلاً عن المصارحـة بكيفها وكمّها، والمسلمون من جانب ـ اضطهاد قـريش لهم ـ كانوا يعيشون في حالة عصيبـة وأُخرى كانت الأزمة قليلة مخففة بحلول أشهر الحج أو طروء حوادث تمنـع العصابة المشركة المجرمة وتكفّهم عن إيذاء المسلمين.

وعنـد ذاك كان يفسـح المجـال أمام النبـي وأصحابـه بأن يبلغـوا الـدعـوة وفق الظروف وحسـب المقتضيات شدة وضعفـاً ،فنراه في مواقفـه بمكة يصرّح بجـانب من جوانب الـدعوة على صعيد خاص كقـوله: يا معشر قريش انقـذوا أنفسكم ... وأُخرى ينادي بعموم دعوته مما يستفاد من أنّه بعـث إلى الناس كافة ولأجل ذلك نواجه في سورة واحدة لـونين من طريقـة الدعـوة، فنرى أنّها في صدرهـا تأخذ بجميـع جوانب دعـوته وتصرّح بعموم دعوته وعالميـة رسالته، وأنّه ﷺ أُمر من جـانبه سبحانه أن ينـذر بقرآنه قريشاً وكلّ من بلغه كتابه وانذاره حيث قال: ﴿وأُوحيَ إليَّ هذا القُرءَانُ لِأُنذِركُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ وفي الوقت نفسه نرى في خلال السورة، لوناً خاصاً من الدعوة حيث تخصّها بمن في أُمّ القرى ومن حولها ويقول: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرى وَمَن حَولَهَا﴾ فيعلم من ذلك أنّه ﷺ كان يـوجّه دعوته حسـب ما تقتضيه المصلحة تبعـاً للأحوال المختلفة وتبـدل الظروف الزمانية والمكانية من دون توهّم تناقض في طريق الدعوة ولونها.

جواب آخر عن الشبهة:

جـاء بعض المعاصريـن من الأجلاّء، في تعـاليقه القيّمـة على كتاب «الابطـال» بجواب آخر [1] مبني على أمرين:

---

(١) ترى اجمال هذا الجواب في مجمع البيان ج٣،ص٣٣٤،و ج٥،ص٢٢ والمفردات للراغب مادة «أم».

الأوّل: انّ المراد من «القرى» في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَولَهَا﴾ ما يعم المدن الواسعة، وقد أطلق لفظ القرية في القرآن على المدينة أيضاً كقوله تعالى: ﴿وسْئَلِ القَريَةَ الّتي كُنَّا فِيهَا والعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ (يوسف ـ ٨٢) والقرية التي اقترح أبناء يعقوب على أبيهم أن يسألها، هي مدينة «مصر» وقد كانت يوم ذاك مدينة كبيرة، ذات أبواب متفرّقة، لقوله سبحانه: ﴿يَـٰبَنِيَّ لا تَدخُلُوا مِن بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخِلوا مِن أَبْوٰبٍ متفرِّقَةٍ﴾ (يوسف ـ ٦٧).

الثاني: قد استفاضت الروايات من مهبط الوحي والتنزيل على أنّ الله سبحانه دحى الأرض يوم دحاها، من تحت مكة، والمراد من الدحو من تحتها أنّ أرض مكة هي أوّل قطعة من الأرض اخرجت من الماء، بعد ما كانت الأرض بعامة أجزائها مغمورة بالماء، ثم برز سائر اجزائها، عن تحت الماء تدريجاً، وبذلك صارت مكة أُمّاً لسائر البلاد، وأصلاً لسائر القرى ومركزاً تكوينياً للأرض.

قال: إذا كان إطلاق أُمّ القرى على مكة بهذه المناسبة، فيصير المراد من «أُمّ القرى»، أي أُمّ البلاد الموجودة في العالم ومركزها التكويني كما يصير المراد من ﴿ومن حولها﴾ عامة من يعيش في نواحي الأرض وسائر أقطارها كلّها وإليه ذهب حبر الأُمّة عبد الله بن عباس، وفسّره الإمام الطبرسي بقوله: «من سائر الناس وقرى الأرض كلّها»[1] فتصير الآية من الأدلّة الدالّة على عالمية رسالته.

وفي هذا الجواب مجال للنظر والبحث:

أمّا أوّلاً: فلأنّ أُمّ القرى ليست علماً لمكة، بل كلّياً أُطلق عليها في هذه الآية بما أنّها إحدى مصاديقه، كيف وقد قال سبحانه مبيّناً لسنّته في الأُمم الماضية جميعاً: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَىٰ حَتّى يَبعَثَ فِي أُمّها رسُولاً﴾ (القصص ـ ٥٩) أي حتى يبعث في أُمّ تلك القرى رسولاً يبلّغ رسالات الله عليهم. وهذه سنّة الله تعالى في ابادة الأُمم الطاغية مطلقاً، غير مختصة بالأُمّة العائشة بمكة ومن حولها.

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٢.

وهذا إمام اللغة ابن فارس، يقول في مقـاييسه: «أُمّ القرى، مكة، وكلّ مدينة هي أُمّ ما حولها من القرى».

قال ابن فندق في تاريخه: إذا تركّزت أُمور منطقـة خاصة في محل، يقال له باعتبار القرى والقصبات التابعة له، أُمّ القرى، ثم أتى بأمثلة وقال: فصنعاء أُمّ القرى في اليمن، «وبغداد» أُمّ القرى في العـراق، بعد ما كانت «البصرة» يوماً أُمّ القـرى ومرو أُمّ القرى في خراسان وهكذا... [١].

فهذا التركيب (أُمّ القُرى ومن حولها) ليس من مصطلحات القرآن واختصاصاته بل كـان دارجاً في عصر الرسـالة وقبله وبعـده، وقد نزل القـرآن بلسان النبي الـذي هو لسان قومه وليس له في هذا التركيب اصطلاح خاص، بل هو والعرف في ذلك سواسية، فلا يصلح أن يحمل على غير ما هو المتفـاهم عندهم. فإذا قيل: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقامت القرينة على أنّ المراد من أُمّ القرى مكة، فلا يراد منه وممّا عطف عليه إلاّ ما يراد في نظائرهـا، فإذا قيل: هذا إمام البصرة أو سائسها ومن حـولها، فلا يراد إلاّ نفوذ حكمـه في نفس البصرة والمناطـق التابعـة لها، حكماً وسياسـة واقتصاداً، أو غيرهـا من وشائج الارتباط ودوافع التبعيـة، لا أنّه إمام الأرض شرقاً وغربـاً، وهكذا إذا قيل: بعث نبي الإسـلام لينذر مكة ومن حـولها، لا يراد منه إلاّ أنّـه بعث لينذر من يعيـش في مكة والمناطق التابعـة لها عرفاً، سياسة وحكماً أو اقتصاداً وتجارة، أو غيرها مـن القرى القريبة المتاخمة لها، القـائمة عند حـدودها والمنـاطق التابعـة لها في العلاقات الاجتماعيـة لا أنّه بعث لينـذر أهل العالم كلّـه، فإنّ إرادة هذا المعنى مـن هذا التركيب غير معهـود، لو لم يكن مستهجناً.

وأمّا ثـانياً: فـلأنّ ما ذكـره من حـديث دحو الأرض إلى آخـره، صحيح، غير أنّ إطلاق أُمّ القـرى على مكة بهذه المناسبـة التكوينية يحتـاج إلى دليل، ودون اثباتـه خرط القتاد، والعرب الجاهليون كانوا يطلقـون أُمّ القرى، على مكة، من غير أن يكون لهم علم

(١) تاريخ بيهق ج ص ٢٢ بتعريب منّا.

ولا عهد بهذه المعارف، وليس إطلاقها عليها من خصائص القرآن، بل هو يتبع في ذلك لما هو الدارج، والحق في الجواب ما أوضحناه.

٤ـ كلّ نبي مبعوث بلسان قومه

جرت سنّة الله على بعث رسله بلسان قومهم، وهذا هو الأصل لو كان الرسول مبعوثاً إلى خصوص إنقاذ قومه.

أمّا إذا كان مبعوثاً إلى أُمّة أوسع من قومه، وكان كلّ قوم يتكلّمون بلسانهم الخاص فعند ذلك لا حاجة إلى نزول كتابه بجميع الألسنة، لأنّ الترجمة تنوب عن ذلك مع ما في نزوله بلسانين أو أزيد من التطويل، وامكان تطرّق التحريف والتبديل والتنازع والاختلاف. فبقي أن ينزل بلسان واحد. وأولى الألسنة لسان قوم النبي ولغتهم لأنّهم أقرب إليه، ولا معنى لرفض هدايتهم والتوجّه إلى غيرهم.

على أنّ إيمان قومه به، وخضوعهم له، ربّما يثير رغبة الآخرين بالإيمان به كما أنّ إعراض قومه جيمعاً عن دعوته ورغبتهم عنه، تثير روح الشك والترديد في قلوب البعداء عنه، قائلين بأنّه لو كان في دعوته خير لما أعرض عنه قومه.

على أنّ في إرسال رسول الله ﷺ بلسان قومه نكتة أُخرى وهو أنّ قومه ﷺ كانوا يملكون نفسيّة خاصة وهو عدم رضوخهم واستجابتهم بسهولة لعادات غيرهم وألسنتهم.

فلو أنزل الله سبحانه كتابه إليهم بغير لسانهم لما آمنوا به كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعضِ الأعْجَمِينَ * فقرأهُ عليهِم ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٨ـ١٩٩) فلأجل ذلك بعثه الله سبحانه بلسان قومه حتى يسد باب العذيرة عليهم.

ولأجل هذه المهمة الاجتماعية يجب على الرسول صرف همّته أوّلاً في هداية قومه وانقاذهم حتى يتسنّى له هداية الآخرين، وهذه سنّة متبعة في الأُمور العادية، فضلاً عن المبادىء العامّة.

و إلى ذلك تهدف الآية التالية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِن رَسُولٍ إلاّ بلسانِ قَوْمِهِ لِيُبيّـنَ لهُم فَـيُضُلُّ اللهُ مَن يَشاءُ وَيَهدِي مَنْ يَشـاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكيمُ﴾ (إبراهيم ــ ٤) ومفاد الآية أنّه سبحــانه لم يجر في بعث رسله مجرى الاعجـاز وخرق العادة، ولا فـوّض إلى رسله من الهداية والضــلال شيئاً، بـل أرسلهم بلسانهم العـادي الذي يتحـاورون به كل يـوم مع أقوامهم ليبيّنوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلاّ بيـان ما أُمروا به وأمّا الغاية من بعثهم، أعني الاهتداء فهو بيد الله سبحانه، لا يشاركه في ذلك رسول ولا غيره.

وعلى ذلك فليست في الآية دلالـة ولا إشعار بلزوم اتحاد لغة الرسـول مع لغة من أُرسل إليهم، حتى يلزم منهم اختصاص دعوته ﷺ بقومه. إذ الآية تصرّح بلزوم موافقة لغة الرسول مع لسان قومه، لا اتّحاد لغتـه مع لسان كل من أُرسل إليهم، كما هو أساس الشبهة، ومن الممكن المتحقق أن يكون المرسل إليه أوسـع من قومه كما هو الحال في ثلّة جليلة من الرسل، فقد دعا إبراهيم عـرب الحجاز إلى الحج، والوفود إلى زيارة بيته، وأمر سبحانه كليمه بدعوة فرعـون إلى الإيمان به، ودعا نبيّنا أُمّتي اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالته، فآمن منهم من آمن. وبقي منهم من بقي.

مغالطة أُخرى حول الآية

نرى بعض من فسّـر الآية بأنّ مفادها: «أنّ كـلّ رسول من الله يوافق لسانه لسان من أُرسل إليهم»، جاء بمغالطة شوهاء في مفـاد الآية، وقال: إذا كان معنى الآية ما ذكر فهو ينعكس بعكس النقيض إلى قولنا، من لا يـوافق لسانه لسان من أُرسل إليهم ليس رسولاً منه سبحانه. فلو فرضنا أنّ نبيّنا ﷺ كان مبعوثاً إلى العالمين كلّهم مع اختلافهم في اللسان، يلزم منه كونه غير مبعوث من الله سبحانه أصلاً.

وعلى الجملة: تنتج عالمية رسـالته، وسعة نطاق دينه، كونه غير مـرسل من جانبه عزّ وجلّ.

ومنشأ هذه المغالطة ما تخيّله المغالط من مفاد الآية، إذ ليس مفادها ما تصوّره من

أنّ كلّ رسول يوافق لسانه لسان من أُرسل إليهم حتى يصح ما بني عليه، بل مفاده: أنّ كلّ رسول يوافق لسانه لسان قومه، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون مبعوثاً إلى أزيد من قومه [1] أو إلى قومه فقط.

نعم تنعكس الآية إلى قولنا: من لا يوافق لسانه، لسان قومه ليس رسولاً من الله سبحانه، وهو صحيح، وأمّا نبي الإسلام فالمفروض أنّ لسان كتابه ولغة دعوته موافقة مع لسان قومه.

وعلى أي تقدير فالمراد من القوم هم الذين عاش فيهم الرسول وخالطهم ولا يختص بالذين هو منهم نسباً، والشاهد على ذلك أنّه سبحانه صرّح بمهاجرة لوط من «كلدة» وهم سريانيو اللسان، إلى المؤتفكات وأهلها عبرانيون، وفي الوقت نفسه سمّاهم قومه، وأرسله إليهم، ثم أنجاه وأهله إلاّ امرأته [2].

---

(١) هذا أحد الاحتمالات في أُولي العزم، أعني من أُرسل إلى أزيد من أُمّة، راجع الميزان ج ١٢ ص ١٣ وسوف نحقق معنى هذه الكلمة على ضوء ما ورد في الذكر الحكيم في فصول هذا الكتاب.

(٢) الميزان ج ١٢ ص ١٣.

هل كانت نبوّة نوح والكليم والمسيح عالمية ؟

قد اتضح من هذا البحث الضافي أنّ رسالة النبي الأكرم ﷺ رسالة عالمية، فهو مبعوث إلى شرق الأرض وغربها.

غير أنّه اكمالاً للبحث نبحث عن نبوّة ورسالة الأنبياء الثلاثة، فهل كانت نبواتهم ورسالاتهم عالمية أم كانت تقتصر على أقوامهم، أو المناطق التي ظهروا فيها؟

ونبحث في المقام عما يفيده القرآن في هذا الموضوع مع غض النظر عمّا يوجد في التوراة والانجيل وما يدعيه علماء اليهود والنصارى لأنّ البحث في المقام قرآني ينظر إلى الموضوع من زاوية خاصة، فيقع الكلام في مقامات:

الأوّل: في عمومية نبوّة نوح وعدمها.

الثاني: في عمومية نبوّة الكليم وعدمها.

الثالث: في عمومية نبوّة المسيح وعدمها.

ويتضح ممّا ذكرنا حال رسالة الخليل ـ عليه السّلام ـ أيضاً.

وليكن القارئ الكريم على ذكر من نكتة، وهي أنّ ما سنذكره من الآيات ونستدل بها لا يعدو عن كونها اشعارات واستظهارات ولا يمكن أن يستدل بكلّ واحدة منها على المقصود، نعم يمكن اعتبار مجموعها دليلاً مفيداً للاطمئنان.

على أنّ تلك الاشعارات إنّما تتم إذا لم يكن هناك دليل صريح على خلافها و إلاّ فتكون النسبة بين تلك الاشعارات وما يدل على خلافها من قبيل نسبة الأصل إلى الدليل الاجتهادي الحاكم بالاشتغال.

فيرتفع الأصل بموضوعه عند وجود الدليل الاجتهادي.

هل رسالة نوح كانت مختصّة بقومه؟

يمكن استظهار الاختصاص من قوله سبحانه: **﴿إنّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ﴾** (نوح ـ ١)، فهو يشعر باختصاص رسالته بقومه [١].

وأمّا صيرورة رسالته بعد الطوفان عالمية، لانحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك الناس، فإنّما هو لأمر عارض لا يضر بخصوصية رسالته.

أضف إلى ذلك : أنّ المسلّم هو أنّ الطوفان لم يكن عالمياً بل خاصاً بمنطقة من الأرض التي كان يعيش فيها قومه، ويؤيد ذلك أنّه لا وجه لتعذيب غيرهم واهلاكهم بتكذيب قومه خاصة.

فانّ الظاهر من القرآن هو أنّ التعذيب كان لتكذيب قومه، قال سبحانه: **﴿وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أنّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إلاّ مَنْ قَدْ ءَامَنَ فلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَـٰطِبْنِي في الَّذِينَ ظَلَمُوا إنَّهم مُغرَقُونَ﴾** (هود: ٣٦ ــ ٣٧) أضف إلى ذلك أنّ عمومية الرسالة تتطلب وجود امكانيات تمكن الرسول من إيصال نداء رسالته وصوت دعوته إلى جميع أنحاء العالم، وذلك لم يكن متوفراً في عهد نوح، كما سيوافيك بيانه مفصّلاً.

تحقيق وتنقيب:

انّ العلاّمة الطباطبائي (رضوان الله عليه) قد طرح مسألة عمومية نبوّة نوح

(١) لاحظ الآيات ٢٥ ـ ٤٨ من سورة هود، ترى فيها اشعارات كثيرة باختصاص رسالته بقومه.

ـ عليه السّلام ـ في الجزء العاشر من تفسيره القيم «الميزان» فقال:

المعروف عند الشيعة عموم رسالته ـ عليه السّلام ـ وأمّا أهل السنّة فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً إلى ظاهر الآيات الناطقة لشمول الطوفان لأهل الأرض كلّهم كقوله سبحانه: ﴿ربِّ لا تَذَرْ عَلى الأرضِ مِنَ الكَـٰفِرِينَ ديَّاراً﴾ (نوح ـ ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿لا عَاصِمَ اليَومَ مِن أَمْرِ اللهِ إلاّ مَن رَحِم﴾ (هود ـ ٤٣) وقوله: ﴿وجَعَلنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ (الصافات ـ ٧٧).

وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة: أنّ نوحاً أوّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ولازم ذلك كونه مبعوثاً إليهم كافة.

ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى ما ورد في الصحيح عن النبي: «وكان كلّ نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة».

وأجابوا عن الآيات بأنّها قابلة للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كان يسكنها نوح وقومه، وهي وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون: ﴿وتَكُونَ لكُما الكِبرِيَاءُ فِي الأرضِ﴾ (يونس ـ ٧٨).

فمعنى الآية الأُولى: لا تذر على هذه الأرض من كافري قومي ديّاراً، وكذا المراد بالثانية: «لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله» وكذا المراد بالثالثة: «وجعلنا ذريته هم الباقين» من قومه.

ثم انّه ـ قدّس الله سرّه ـ أفاد أنّه لم يستوفوا حق الكلام في هذا البحث.. ثم اختار هو عمومية نبوّته ورسالته بتقديم مقدمة حاصلها:

أنّ الواجب في عناية الله أن يهدي الانسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه، ولا يكفي في هدايته ما جهز به الإنسان من العقل البشري، بل لابد من طريق آخر لهدايته وسوقه إلى قمة الكمال وهو تعليم الإنسان شريعة الحق، ومنهج الكمال والسعادة، وهو طريق الوحي، وهو نوع تكليم إلهي يعلم الانسان ما يفوز بالعمل به، والاعتقاد به في حياته الدنيوية والاخروية فطريق النبوّة ممّا لا

مناص منه في تربية النوع البشري بالنظر إلى العناية الإلهية.

وإن شئت قلت: الواجب في عناية الله تزويد المجتمع الانساني بشريعة يأخذ بها في حياته الاجتماعية دون أن يخص بها قوماً ويترك الآخرين سدى لا عناية له بهم، ولازمه أن يكون أوّل شريعة نزلت على البشر شريعة عامّة، وقد أخبر الله سبحانه أنّ شريعة نوح هي أوّل شريعة نزلت على المجتمع البشري قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والّذِي أوْحَينَا إليكَ وَمَا وَصَّينَا بِهِ إبرٰهِيمَ ومُوسَىٰ وعِيسَىٰ أنْ أقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى ـ ١٣)، ومقام الامتنان يقتضي بأنّ الشرائع الإلٰهية المنزلة على البشر عبارة عمّا جاء ذكرها في هذه الآية، وأوّل ما نزلت من الشرائع هي شريعة نوح، ولو لم تكن عامة للبشر، بل كانت خاصة بقومه لكان هناك أمّا نبي آخر، وشريعة أُخرى لغير قوم نوح والحال أنّه لم يذكر في هذه الآية ولا في موضع آخر من كلامه سبحانه.

وأمّا اهمال سائر الناس غير قومه في زمنه وبعده إلى حين [١].

ملاحظات في كلام العلاّمة الطباطبائي

وفيها ذكره ـ قدّس سرّه ـ ملاحظات نلفت نظر القارئ الكريم إليها:

أمّا أوّلاً: فإنّ ما ذكره من أنّه يجب في عناية الله تكميل الأنواع وأنّ الشريعة الإلهية تكمل النوع الانساني، وأنّ التشريع تكميل للتكوين ممّا لا كلام فيه، غير أنّ الكلام هو في قابلية سائر العناصر البشرية الأُخرى المعاصرة لنوح، الساكنة في مناطق أُخرى لتلقي الشريعة وأخذها والعمل بها، فإنّه من المحتمل أن لا تكون تلك العناصر والأفراد لبداوتها وبساطة شعورها وحياتها أهلاً لارسال الشريعة إليهم وعدم بلوغهم بعد إلى حد يستأهلون معه للتعليم الإلهي، فإنّه من البديهي أنّ البلوغ الجسماني وحده لا يكفي في تلقي الشريعة والعمل بها، بل يجب أن يكون معه مقدرة فكرية واستعداد نفسي يؤهّله لاستقبال الشريعة، والدخول في مدرسة الوحي الإلهي. فمثل بعض المجتمعات قبل أن

---

(١) الميزان ج ١٠ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

تصل إلى هـذه المرتبة مثـل الطفل الناشـيء لا يستأهل ولم يصبح صـالحاً للدخـول في المدرسة وتلقي التربية المدرسية.

وثانياً: فإنّ ما استفـاده (رحمه الله) من الآية بـ «أنّ شريعة نوح أوّل شريعـة نزلت إلى البشر» اشعار كسائر الاشعـارات فمن المحتمل أن تكون هناك شريعة أُخرى نزلت قبل نوح ولكن لم تذكر لعدم بلوغها إلى مرتبة الشرائع المذكورة في هذه الآية.

وأمّا ثالثاً: انّ من الممكن أن يكون هناك شريعة في عرض شريعة نوح تختص بقوم آخر لكنّـه لم يذكـرها القـرآن، كيف لا وأنّ القرآن صرّح بأنّـه لم يستوعـب قصص جميع الأنبيـاء حيث قـال: ﴿**مِنهُـم مَـن قَصَصْنَـا عَلَيـكَ وَمِنْهُـمْ مَن لَمْ نَقْصُـصْ عَليـكَ**﴾ (غافر ـ ٧٨) وقـال سبحانـه: ﴿**ورُسُـلاً قَـدْ قَصَصْنَٰهُـم عَلَيكَ مِـن قَبـلُ ورُسُـلاً لَـمْ نَقْصُصْهُم عَلَيْكَ**﴾ (النساء ـ ١٦٤).

وفي الختام أنّ ما ذكرناه حول دعوة نوح كمثل ما نذكره حول الكليم والمسيح مجرد نظريـة منبعثة مـن التدبّـر في آيات الذكـر الحكيم فمن المحتمـل أن لا تكون صـائبة، والعصمة لله سبحانه ولرسوله والأئمّة الهداة.

ثم إنّه دام ظله رتب على مختاره في تعميم رسالة نوح أنّ الطوفان كان عاماً لجميع الأرض حيث قال: تبين الجواب عن السؤال: هل الطوفـان كان عاماً لجميع الأرض فإنّ عموم دعوته يقضي بعموم العذاب.

ثم أيّده بما جاء في كـلامه تعالى أنّه أمر نوحـاً أن يحمل من كلّ زوجين اثنين ابقاء على الأنواع الحيـوانية فلو كـان الطوفـان خاصاً بصقـع من أصقاع الأرض وناحيـة من نواحيهـا كالعراق ـ كما قيـل ـ لم تكن هناك أيـة حاجة إلى أن يحمل في السفينـة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين [1].

وقد تبيّـن ممّا ذكرناه مـن اختصاص دعوة نوح وعـدم عموميتها عدم صحـة ما اعتمدت عليه النظرية.

---

(١) الميزان ج ١٠ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

وأمّا ما استشهد به فيمكن أن يكون للحفاظ على الحيوانات في منطقته إذ كان من العسير انتقال الحيوانات التي تعيش في مناطق أُخرى إلى قومه، والله سبحانه هو العالم.

هل كانت نبوّة الكليم عالمية؟

إنّ تنقيح الموضوع يتوقّف على البحث في مقامين:

الأوّل: في عموم دعوته إلى التوحيد.

الثاني: في عموم شريعته وشمول أحكامه.

ونعني من عموم دعوته في مسألة التوحيد أنّه كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل وغيرهم، في دعوتهم جميعاً إلى توحيده سبحانه وكسر كلّ صنم ووثن.

كما أنّه نعني من عموم شريعته شمول كلّ ما جاء به موسى في التوراة من الفروع والأحكام لبني إسرائيل وغيرهم [١] وعموم دعوته إلى التوحيد لا يلازم عموم شريعته، دون العكس [٢] ولأجل ذلك جعلنا البحث في مقامين، فنقول:

المقام الأوّل: في عموم دعوته في أصل التوحيد ورفض الأوثان والأصنام كلّها.

الظاهر من الآيات الواردة حول دعوة الكليم، أنّه كان مبعوثاً إلى خصوص بني إسرائيل مثل قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالبَيِّنَٰتِ ثمَّ اتَّخذْتُمُ العِجْلَ من بَعْدِهِ وأَنتُم ظَٰلِمُونَ﴾ (البقرة ـ ٩٢).

وقوله سبحانه: ﴿وإذْ قالَ مُوسَى لِقَومِهِ يٰقَومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَعْلَمُونَ أنّي رَسُولُ اللهِ إليْكُمْ﴾ (الصف ـ ٥).

---

(١) وللفرق بين المقامين يعبّر عن الأوّل بعموم الدعوة والنبوّة وعن الثاني بعموم الشريعة والرسالة فلاحظ.

(٢) لامكان انحصار دعوته في الأصول في قوم ولا يمكن العكس إذ لا تصح الدعوة إلى الفروع منفكة عن الدعوة إلى الأصول.

وهذه الآيات الكثيرة تشعر باختصاص دعوته بقوم موسى وإنّما قلنا «تشعر» لوضوح أنّ ارساله إلى قومه، لا يدل على عدم إرساله إلى غيرهم، فإنّ شعيباً كان مرسلاً من جانبه سبحانه إلى أهل مدين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف ـ ٨٥).

وفي الوقت نفسه كان مبعوثاً إلى أصحاب الايكة كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء ١٧٦ـ١٧٧).

ولأجل ذلك قلنا انّ ما نستدل به لا يعدو عن كونه استظهارات واشعارات إذا توفرت تفيد الاطمئنان ولو كان هناك دليل صريح على عموم دعوته ونبوّته، لسقطت هذه الاستظهارات عن الاعتبار.

موقف دعوة الكليم من القبطيين

يمكن أن يقال: بأنّ دعوة موسى في مسألة التوحيد، كانت تعم بني اسرائيل والقبطيين.

وتستفاد عمومية دعوته إليهم أيضاً من بعض الآيات مثل قوله سبحانه: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أن لا أَقُولَ على اللهِ إلاّ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِن رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائيل﴾ (الأعراف ـ ١٠٥).

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ معكَ بَنِي إِسْرٰءِيلَ﴾ (الأعراف ـ ١٣٤).

وقوله سبحانه: ﴿اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لعلّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى... فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رسُولاَ رَبِّكَ فأَرسِل مَعَنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ ولا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنٰكَ بِآيَةٍ مِن ربِّك والسّلٰمُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى﴾ (طه: ٤٣و ٤٤ ـ ٤٧).

وقوله سبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العـٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا

بَنِي إِسْرٰءِيلَ﴾ (الشعراء: ١٦ ـ ١٧).

وقوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (الشعراء ـ ٢٧).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيٰتِنَا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلاَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العٰلَمِينَ﴾ (الزخرف ـ ٤٦).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُم رَسُولاً شٰهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنَا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنٰهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ (المزمل ١٥ ـ ١٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنٰهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰنٍ مُبِينٍ﴾ (الذاريات ـ ٣٨).

وهذه الآيات وما يشابهها تفيد أنّ دعوته إلى عبادة الله والانخلاع عن عبادة الأوثان كانت تعم بني اسرائيل والقبطيين ولأجل ذلك ضرب مع رئيسهم فرعون موعداً لايخلفه هو ولا ذاك، فاتفقا على أن يكون موعدهم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فلما ألقى موسى ما ألقى وتلقف ما صنعوا من الكيد والسحر، القي السحرة ساجدين قائلين بأنّهم آمنوا بربّ موسى وهارون [1].

هذا كلّه يفيد بوضوح شمول دعوته للقبطيين أيضاً وأنّه كان مأموراً من الله بدعوة فرعون وملائه إلى الايمان بالله سبحانه وترك عبادة البشر والاستعلاء على عباد الله واستضعافهم، ويؤيده أنّه لمّا أدركه الغرق قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ الذِي ءَامَنَتْ بهِ بَنُواْ إِسْرٰءِيل وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ (يونس ـ ٩٠) ولم يك ينفع إيمانه ذلك الوقت ولأجله خاطبه سبحانه بقوله: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ (يونس ـ٩١).

ومع ذلك كلّه ففي النفس من شمول دعوته ـ حتى بهذا المعنى للقبطيين، شيء.

أمّا أوّلاً: فلأنّه يحتمل أنّه كان نبيّاً ورسولاً إلى أُمّة بني اسرائيل فقط ليخلصهم

---

(١) راجع سورة طه الآيات ٤٢ ـ ٧٠.

وينجيهم من فرعون وأعوانه، غير أنّ انجائهم من أيديهم لمّا كان متوقفاً على اثبات نبوّته وأنّه مأمور من جانب الله سبحانه، أخذ يحاور فرعون ويرضيه بانجاء بني اسرائيل، ولو كان إنجاؤهم غير موقوف على هذه المحاورات لما تحمّل هذه المشاق ويؤيده أنّه سبحانه بعدما قال:

﴿إنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ في الأرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبناءَهُم وَيَسْتَحْيِ نِساءَهُمْ إنّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ (القصص ـ ٤) عقبها بقوله: **﴿ونُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَى الّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَةً ونَجْعَلَهُمُ الوٰرِثِينَ﴾** (القصص ـ ٥).

وظاهره يفيد أنّ الغاية من بعث موسى إلى فرعون هو اطلاق سراح المستضعفين من بني اسرائيل في الأرض.

وإن شئت قلت: أنّ محاورته مع فرعون وقيامه ضده وضد ملائه وعرض بيّناته واحتجاجاته عليهم، كانت مقدمة لانقاذ بني إسرائيل وإرجاعهم إلى الأرض المقدسة ولو كان المطلوب حاصلاً بلا مشاجرة ونزاع معهم لما نهض بين يديه محتجاً بآياته وبيّناته؟

وثانياً: انّه كلّما حاور مع فرعون واحتج عليه بأنّه رسول ربّ العالمين عقب كلامه بقوله: فارسل معي بني اسرائيل حيث قال سبحانه: **﴿قَدْ جِئتكُم ببيّنَةٍ مِن رَبّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرٰءِيل﴾** (الأعراف ـ ١٠٥) وقال سبحانه: **﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنّا رَسُولا رَبّكَ فأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسرٰءِيل ولا تُعَذِّبْهُم﴾** (طه ـ ٤٧).

والظاهر من الآيتين أنّ الهدف الأقصى من بعث موسى هو انقاذ بني اسرائيل غير أنّه لما كان متوقّفاً على المحاورة مع فرعون واثبات أنّه رسول من الله سبحانه كلمه بأنّي رسول ربّك ويقرب ذلك أنّه سبحانه لما آخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وأوقع عليهم الرجز جعلوا جزاء موسى ـ إذا استجيبت دعوته ـ أنّهم يؤمنون به ويرسلون معه بني اسرائيل كما حكى الله سبحانه عنهم: **﴿قَالُوا يٰمُوسى ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ**

بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤمِنَنَّ لَكَ ولنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرٰءِيل﴾ (الأعراف ـ ١٣٤).

وعلى ذلك فالمراد من إيمانهم بموسى، إيمانهم بأنّه مبعوث من الله سبحانه لهداية بني اسرائيل وانقاذهم من العذاب، لا إيمانهم بأنّه نبي بعث إلى القبطيين وبني اسرائيل جميعاً كما هو المدّعى.

ولقائل أن يقول: إنّه إذا لم يكن مبعوثاً إلى فرعون وملائه فلماذا أمر الله سبحانه موسى وأخاه هارون بقوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لعلّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه ـ ٤٤) وقوله: ﴿اذْهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طَغَى * فقُلْ هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى * وأهْدِيَكَ إلى رَبّكَ فَتَخْشَى﴾ (النازعات: ١٧ ـ ١٩).

وتمكن الاجابة عنه بأنّ الذهاب إليه وتذكيره وتحذيره لأجل أن يعلم فرعون بأنّ موسى مبعوث من جانبه سبحانه لإنقاذ قومه حتى يرسل معه بني اسرائيل، كما يفيده ذيل الآيات: ﴿فأتِيَاهُ فقُولا إنّا رسولا ربّكَ فأَرسِل مَعَنَا بَنِي إسرٰءِيل ولا تُعَذِّبهُم﴾ ، لاحظ سورة طه الآيات ٤٣ ـ ٤٧، خصوصاً بالنظر إلى ما فرع على قوله: ﴿إنَّا رسولا رَبّكَ﴾، قوله: ﴿فأَرسِل مَعَنَا بَنِي إسرٰءِيل﴾.

ويؤيد ذلك أيضاً أنّه لمّا لم ينجح النبي موسى في انقاذ قومه من سلطان فرعون وعساكره، أراد سبحانه أن ينجيهم بأسباب غير عادية كما قال سبحانه: ﴿ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً لا تَخٰفُ دَرَكاً ولاَ تَخْشَىٰ﴾(طه ـ ٧٧).

وقوله: ﴿وجٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرٰءِيل البَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أصنَامٍ لَهُم﴾ (الأعراف ـ ١٣٨).

وقوله سبحانه: ﴿وجٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرٰءِيل البَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُهُ بَغْياً وَعدْواً﴾ (يونس ـ ٩٠).

وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ * واَتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ

جُندٌ مُغْرَقُونَ﴾ (الدخان ٢٣ـ٢٤).

وذلك يدلّ على أنّ الغاية من الرسالة هو انقاذ بني اسرائيل فقط لا ارشاد فرعون وملائه.

ثالثاً: انّ قوله سبحانه: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ**[١] **رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالبَيِّنٰتِ فَما كَانُوا لِيُـؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِـن قَبلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ على قُلُوبِ المعْتَدِيـنَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِـم مُوسى وهٰـرونَ إلى فِرْعَـوْنَ وَمَلإيْهِ بـآيٰتِنا فَأْسْتَكْبَـرُوا وكَانُـوا قَوْمـاً مُـجْرِمِين﴾** (يونس ٧٤ ـ ٧٥).

يفيد أنّ رسـالة الأنبيـاء الذيـن تتراوح دعوتهم بين نـوح وموسى بشهـادة قولـه: **﴿بعثنا من بعده** (أي نوح) **رسلاً إلى قومه﴾** كانت مختصة بقـومهم حتى إبراهيم كما أنّ دعوة موسـى كانت مختصة بقومـه لا تعدوهم إلى فرعون أيضـاً وملائه وعلى ذلك تصير دعوة كلّ من نوح وإبـراهيم وموسى غير عالمية لا تتعدى دعـوة موسى بني اسرائيل أو القبطيين.

موقف دعوة الكليم من غير القبطيين

الظاهر أنّه لم تكن دعوته شاملة لغيرهم لو فرضنا شمولها لهم ويشعر بذلك أنّهم لما نجّاهم سبحانـه من فرعون وجاوز بهم البحر فرأوا في ذلـك الجانب، من ضفة البحر قوماً يعكفون على أصنام فطلب منه قـومه أن يجعل لهم الهاً كما لهم آلهة فرد عليهم موسى بأنّكم قوم تجهلون[٢] ولم يتعرض موسـى لعبدة الأصنام[٣] لا بالنقد والـرد ولا بالمنع ولم يكن خضوعهم للأصنـام أقل ضرراً من عبادة قوم فرعون له وإنّما تعـرض لعمل فرعون دون عمل هذه الجماعة لأجل أنّ انقاذ بني اسرائيل من مخالب فـرعون وقومه كان متوقفاً على المحاورة معه والاحتجـاج عليه بأنّه رسول ربّ العالمين، دون المقـام، فانّ العاكفين

---

(١) والضمير في قوله «من بعده» يرجع إلى نوح.

(٢) راجع الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

(٣) بحكم سكوت القرآن عن ذلك وإن كان السكوت لا يكون دليلاً على عدم التعرض لكنه مشعر بذلك.

على الأصنام في ضفة البحر لم يكونوا مزاحمين لموسى وقومه ولـذلك تركهم وشأنهم، ولم ينكر عليهم بحكم سكوت القرآن وعدم اظهار أي ردة فعـل بالنسبة إليهم. وهذا يؤيد ما استظهرناه من عدم عمومية دعوته للقبطيين أيضاً.

نعم ما نذكره من السكوت اشعار بالمدّعى لا أنّه دليل قطعي.

ويؤيد خصوصية الدعوة أنّـه لم يعهد منه بعد انجـاء قومه من فرعـون، أنّه دعا أقواماً آخـرين، بل لما عبر موسى بهم البحـر وهلك فرعون، أمرهـم الله بدخول الأرض المقدسة، فلمّـا نـزلوا على نهر الأردن خافوا من الدخول فيهـا كما حكى الله سبحانه عن موسى قائلاً: **﴿يٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا الأرْضَ المقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُم وَلا تَرتَدّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خٰسِرِينَ * قَالُوا يٰمُوسىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبّارِينَ وإِنَّا لَن نَدْخُلَهـا حَتّى يَـخْرُجُوا مِنهَا فإِن يَـخْرُجُوا مِنْها فإِنّا دٰخِلون﴾** (المائدة: ٢١ ـ ٢٢).

فأوحى الله إليه أنّهم يتيهون في الأرض أربعين سنة فبقوا في التيه أربعين سنة وكان ينزل عليهم المن والسلوى ومات النقباء غير يـوشع بن نون ومات أكثرهم ونشأ ذراريهم وتوفّي موسى وهارون في التيـه، توفّي هارون قبل موسى بسنة وقد فتحهـا يوشع بعد موت موسى، وقيل فتحها موسى وكان يوشع في مقدمته [١].

ولم يرد في القرآن شيء يستشم منه أنّه دعا الأمـم الأُخرى طول حياته في التيه، بل كان يعاشر قومه فقط ويرشدهم حسب استعدادهم وامكاناتهم.

أضف إلى ذلك فقدان الامكانيـات وضعف المواصلات في تلكم الأيام، فتشريع نبوّة عامـة تشمل العالم أجمع مع فقدان الامكـانيات اللازمة وقلّـة الترابط بين الأُمم أمر غير مفيد.

مضـافـاً إلى أنّ تشريع النبـوّة على صعيـد عـالمي فـرع التهيّـؤ في روح المجتمـع الانساني لقبولها، فانّ الناس كانوا عصابات وأقواماً متنافرة يتعصّب كل منهم تجاه الآخر

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ١٧٩.

ولا ينزل واحد منهم على حكم الآخر ولا لنبي من قوم آخر، فالطريق الأصلح لهذا هو بعث الأنبياء في داخل الأمم كما قال سبحانه: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** (النحل ـ ٣٦) [١].

أضف إلى ذلك أنّ الأُمم اليهودية يخصون نبوّة موسى بأنفسهم ولذا لا ترى منهم التبليغ والتبشير في مجتمعات العالم [٢].

ومع هذه الوجوه كيف يمكن القول بعمومية دعوته وعالميتها في عصره إلى أن يبعث الله نبياً مثله.

وترشدك إلى ما ذكرناه، قصة موسى مع من آتاه الله الرحمة وعلّمه من لدنه علماً وقال سبحانه: **﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾** (الكهف ٦٥ ـ ٦٦) [٣].

ووصفه بما ورد في الآية من الأوصاف يدل على كونه ولياً من أوليائه بل نبياً مثله ـ ومع ذلك ـ كيف تكون نبوّة موسى عالمية مع عدم شمول نبوّتها لمصاحبه ولا لأُمّته إذا فرضنا للمصاحب أُمّة وليس من البعيد أن يكون ذلك المصاحب العائش في زمن موسى مثل لوط المعاصر لإبراهيم وكلّ مبعوث إلى أُمّة دون أُمّة، وتعاصر النبيين يكشف عن ضيق نطاق نبوّتهم وعدم شمول احدى النبوّتين، بما تشمله الأُخرى.

قال سبحانه: **﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ**

---

(١) نعم ذابت هذه التعصّبات القومية في المجتمع الانساني إلى حد استعد مزاج الانسانية لبعث نبي عالمي وكمل استعدادهم لقبول النداء العالمي ولأجل ذلك لم يمض ربع قرن إلاّ وقد ضرب الإسلام بجرانه في شرق الأرض وغربها.

(٢) و إن كان قول اليهود وفعلهم ليسا بحجة فإنّهم خصّوا الله سبحانه بأنّه اله شعبهم فما ظنّك بهم في رسالة موسى ـ عليه السّلام ـ.

(٣) واحتمال أنّه كان من أُمّة موسى ولكن الله جعل عنده علماً خاصاً لم يؤته موسى فصار موسى مأموراً بالتعلّم منه، رجم بالغيب وموجب لزيادة الفرع على الأصل واعلمية بعض الأُمّة من نبيّها مع أنّ سياق الآيات لا يناسب ذلك الاحتمال.

القَرْيَـةِ إِنّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَـٰلِمِين * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطـاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَـا لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهْلَهُ إلاّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِـرِينَ﴾ (العنكبوت ٣١ ـ ٣٢).

المقام الثاني في عموم شريعته [١]:

هل كـانت الشريعـة التي أتى بها مـوسى في الألـواح التي يصفهـا الله سبحانـه بقوله: ﴿وكَتَبنَا لَهُ في الألْوَاحِ مِن كُلِّ شَـيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَـيْءٍ﴾ (الأعراف ـ ١٤٥).

مختصة بقـومه أم تعم غيرهم؟ ظـاهر بعض الآيات، يفيـد كون كتابـه حجة على الناس كلهم حيث وصفه بكونه، هدى ونوراً للناس وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزلَ الكِتٰبَ الّذِي جاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وهُدىً للناسِ﴾ (الأنعام ـ ٩١).

وقوله سبحانه: ﴿ولَقَدْ ءاتَيْنَـا مُوسَـى وهٰرُونَ الفُـرْقَانَ وضِيـاءً وذِكْراً للمُتّقِين﴾ (الأنبياء ـ ٤٨).

فإذن هـو ضياء وذكـر للمتقين سـواء أكانـوا من بني إسرائيـل أم غيرهم وقولـه سبحانه: ﴿قَالُوا يٰقَوْمَنَا إِنّـا سَمِعْنَا كِتٰباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسىٰ مُصَدِّقـاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ يَـهْدِي إلى الحقِّ و إلى طريقٍ مُستَقِيم﴾ (الأحقاف ـ ٣٠).

فإنّ وزان الآية، وزان قوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا إِنّا سَمِعْنَا قُرْءاناً عَجَباً * يَـهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمنّا بِهِ ولَن نُشْرِكَ بِرَبّنا أَحَداً﴾ (الجن ١ـ٢).

فإنّ وصف الجن للقرآن بأنّه نزل من بعد كتـاب موسى مع كون القرآن ومن جاء بـه مبعوثين إلى الانس والجن، يشعـر بكون كتـاب مـوسى مثله أيضـاً نزلا إلى كـلّ من الفريقين، فكيف تجتمع خصوصية رسالته مع كون كتابه دليلاً وحجة على الكلّ؟

---

(١) البحث عن عموم شريعتـه، فرع ثبوت سعة دعوتـه في مسألة عبادة الله وخلع عبـادة الأوثان وقد عرفت عدم ثبوتها، فالبحث عن عموم شريعته مبني على ثبوت عموم دعوته في جانب الأصول.

ويمكن الاجابة عن الاستدلال بهذه الآيات أوّلاً: بأنّ كون الكتاب نوراً وهدى للناس، لا يفيد تعميم شريعة موسى وأحكامه لغير بني اسرائيل، إذ من الممكن أن يستفيد الغير مما ورد في ذلك الكتاب من عظات وحكم وإن لم يكن تابعاً لأحكام ذلك الكتاب. فنحن المسلمين، نستفيد في هذا اليوم مما في التوراة والانجيل من المواعظ ولسنا تابعين لشريعة من انزلا إليه.

فبذلك يظهر الجواب عن الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿**ولَقَدْ آتَيْنا مُوسَى وهـٰرُونَ الفُرْقَانَ وضِيَاءً وذِكْراً للمُتَّقِينَ**﴾ (الأنبياء ـ ٤٨).

وثانياً: انّ الظاهر من بعض الآيات اختصاص كتاب موسى بقومه مثل قوله تعالى: ﴿**وءاتَيْنَا مُوسَى الكِتابَ وجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسرٰءِيلَ**﴾ (الإسراء ـ ٢) وقوله سبحانه: ﴿**ولَقَدْ ءاتَيْنا مُوسَى الهدَىٰ وأَوْرَثْنَا بَنِي إِسرٰءِيلَ الكِتٰبَ**﴾ (غافر ـ ٥٣).

فلو كان كتابه حجة على الناس كلّهم لورثه الناس كلّهم دون بني اسرائيل وحدهم [١].

وقوله: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا علىٰ بَنِي إِسرٰءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ (المائدة ـ ٣٢).

وقد كتبه سبحانه عليهم في التوراة.

وقوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسرائيلَ الكِتٰبَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ**﴾ (الجاثية ـ ١٦).

وإن أردت أن تتوسع في البحث فلاحظ الآيات التالية فانّها تخص بني إسرائيل

---

(١) نعم يمكن أن يقال: انّ تخصيص بني اسرائيل بأنّهم الوارثون لكتاب موسى لأجل أنّ بني اسرائيل وأنبياءهم، هم القائمون بأمر الكتاب وحفظه دون سائر الناس، فلأجل ذلك خصهم بالميراث، وإن كانت الشريعة عامة.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**﴾ (فاطر ــ ٣٢) فورّث الكتاب العباد المصطفون وإن كانت الشريعة عامة، على أنّه يحتمل أن يكون المراد بالكتاب، هو الوعد الذي وعده الله لإبراهيم وموسى بأن يدخلهم الأرض التي كتبها الله لهم.

بأنّهم هم الـذين أُوتوا الكتاب، فإنّ كـونهم ممّن أُوتوا الكتاب و إن كان لا يعـارض كون غيرهم كذلك، إلاّ أنّ تكرار توصيفهم بأنّهم، هم الذين أُوتوا الكتاب يوجب ظهورها في نفيه عن غيرهم [1] مثل: قولـه سبحانه: ﴿الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَـٰبَ يَتْلُـونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ (البقرة ـ ١٢١).

وقوله سبحـانه: ﴿وإِنَّ الّـذِينَ أُوتُـوا الكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّـهُ الحَقُّ مِن ربّـِهِمْ﴾ (البقرة ـ ١٤٤).

وقولـه سبحانـه: ﴿الّـذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الكِتَـٰبَ يَعْرِفُـونَـهُ كَمَا يَعرِفُـونَ أبنَـاءَهُمُ﴾ (الأنعام ـ ٢٠).

وقـوله سبحـانـه: ﴿الّـذِيـنَ آتَيْنَـاهُـمُ الكِتَـٰبَ مِن قَبْلِـهِ هُم بِـهِ يُـؤْمِنُـونَ﴾ (القصص ـ ٥٢).

وقوله سبحانه: ﴿والّذِينَ آتَيْنـاهُمُ الكِتَـٰبَ يَعْلَمُـونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّـكَ بِالحَقِّ﴾ (الأنعام ـ ١١٤).

وقوله سبحانه: ﴿والّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ (الرعد ـ ٣٦).

وقوله سبحانه: ﴿فالّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (العنكبوت ـ ٤٧).

وقولـه سبحانه حكـاية عن المشركين بأنّـه نزل الكتاب على الطـائفتين المسيحية واليهودية ولم ينزل علينا: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَـٰبُ على طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا و إِن كُنَّا عن دِراسَتِهِم لغَافِلِينَ * أَوْ تَقُـولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِل عَلَيْنـا الكِتَـٰبُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَـدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِن ربِّكم وَهُدًى وَرَحْـمَـةٌ﴾ (الأنعام ١٥٦ ـ ١٥٧).

فبهذه الآيـات وما تقدمهـا يمكن تفسير ما تقدمهـا من الآيات المفيـدة المشعرة بكون التـوراة نازلـة إلى الناس كلّهم بحمـل ما دلّ على سعة التشريـع، على الاستغراق

---

(١) اللّهمّ إلاّ أن يحمل التأكيد بـأنّهم هم الذين أُوتوا الكتاب على كون الكتـاب نزل على بني اسرائيل وليس معناه أنّه لا يجوز لغيرهم العمل به.

العرفي، دون العقلي، فيراد من قوله سبحانه: نوراً وهدى للناس، أو ضياء وذكراً للمتقين، الكتلة المتماسكة من بني اسرائيل.

نعم، يمكن أن يقال بعكس ذلك، فيقال: انّ تخصيص بني اسرائيل بالذكر لأجل أنّ التوراة كانت هدى لبني إسرائيل قبل أن تكون لغيرهم بشهادة بعث موسى فيهم وتولّده ونشوئه بينهم ولأجل ذلك خص الله ذلك القوم بالذكر وقال: ﴿**وجَعَلْناهُ هُدًى لِبَني إِسرائيلَ**﴾ (الإسراء ـ ٢).

ولمّا مات وترك بينهم ذلك الكتاب الكريم، كانت تلك الطائفة أولى بميراث نبيّهم ولأجل ذلك قال: ﴿**وأَوْرَثنا بَنِي إِسرائيلَ الكِتـٰبَ**﴾ (غافر ـ ٥٣).

ولكن يؤيد الحمل الأول، أعني كون الاستغراق عرفياً لا عقلياً، قوله سبحانه: ﴿**وكَتَبْنَا عَلَيهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ والعَيْنَ بالعَيْنَ والأنفِ بالأنفِ**﴾ (المائدة ـ ٤٥) وقد كتب الله لهم هذا الحكم في التوراة وتقييد الكتابة بلفظ (عليهم) يؤيد كون الكتاب نازلاً لهدايتهم خاصة.

ويؤيد الحمل الثاني قوله سبحانه: ﴿**إنّا أَنزَلْنَا التَّوراةَ فِيها هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِها النبِيُّونَ الّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِما استُحْفِظُوا مِن كتابِ اللهِ وكَانُوا عَلَيهِ شُهَدَاءَ**﴾ (المائدة ـ ٤٤).

فظاهر الآية أنّ التوراة كانت محكمة بعد موسى عبر القرون يحكم بها النبيون فالآية تفيد سعة نطاق كتابه وشريعته.

ومع ذلك كلّه فالامعان في الآية لا يفيد إلاّ كون الكتاب حجة لبني اسرائيل ومحكماً عليهم والأنبياء الذين كانوا يحكمون به كانوا من بني اسرائيل لا من غيرهم ولقد بعثوا لهدايتهم وذلك لأنّ الله يقول: ﴿**ويحكم بها النبيّون للذين هادوا**﴾ (لا لغيرهم) الذي هو المطلوب.

هذا ما بلغ إليه فهمنا القاصر من التدبّر في آيات الذكر الحكيم ولما كانت في المقام أسئلة حول المختار عقدنا لها الفصل التالي.

أسئلة وأجوبة

السؤال الأوّل:

ربّما يستدل على كون دعوة نوح والخليل والكليم والمسيح عالمية بقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِه نُوحاً والذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ ومُوسَىٰ وعِيسىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيه﴾ (الشورى ـ ١٣) ويستند في كيفية الاستدلال إلى ما أفاده العلاّمة الطباطبائي حيث قال:

يستفاد من الآية أُمور:

أحدها: انّ السياق بما أنّه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية، والآية التالية يعطي أنّ الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعْلَنا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً﴾ (المائدة ـ ٤٨) لأنّ كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها.

الثاني: انّ الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنّما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة.

ولازم ذلك أوّلاً: انّ لا شريعة قبل نوح ـ عليه السلام ـ بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الانساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية، وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ الناسُ أُمَّةً واحِدةً فَبَعَثَ اللهُ النِبِّيينَ﴾ (البقرة ـ ٢١٣).

وثانياً: انّ الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا.

الثالث: انّ الأنبيـاء أصحاب الشرائع وأُولي العزم هم هؤلاء الخمسـة المذكورين في الآية إذ لـو كان معهم غيرهم لـذكر فهؤلاء سـادة الأنبياء ويدل على تقـدمهم أيضاً قوله: ﴿وإِذْ أَخَذْنَـا مِنَ النَّبِيّينَ مِيثَاقَهُمْ ومِنكَ وَمِن نُـوحٍ وإِبرٰهِيمَ ومُـوسَىٰ وعيسىٰ ٱبْنِ مَرْيمَ وأَخَذْنا مِنْهُم مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ (الأحزاب ـ ٧) [١].

الجواب:

انّ ما ذكـره (رضوان الله عليه) و إن كان صحيحـاً لكنّه لا يدل على عموميـة نبوّة هؤلاء الأربعـة ومنشأ الاشتباه (في الاستدلال بالآيـة وأضرابها على عمومية الدعـوة) هو الخلط بين عمومية دعوتهم وتداول شريعتهم بعدهم، فقد جرت سنّة الله على بعث أنبياء غير صاحبي شريعة في المناطق التي بعث فيها نفس أصحاب الشرائع وهؤلاء المبعوثون كـانوا يحملـون النبوّة والـوحي، ويتشرّفـون بالبيّنـات والمعجزات من دون أن تكـون لهم شريعة مستقلة، بل كانوا تابعين لإحـدى الشرائع الأربع المتقدمة أو المتعاصرة وناشرين لها، وكانت نبـوّتهم مختصة بقومهم ومنطقتهـم غير أنّ ظهور كل واحد منهـم من منطقة من المناطق، كان دليلاً على انتهاء نبوّة النبي صاحب الشريعة عند بعث النبي اللاحق، بل كـان دليلاً على عدم سعتهـا من بدء الأمـر، كما إذا كان النبي المروّج معـاصراً للنبي صاحب الشريعة مثل لوط بالنسبة لإبراهيم ـ عليه السّلام ـ.

وهذا، هو القرآن يحكي عن أنبياء مروّجين معاصرين لصاحب الشريعة أو تالين له، آخذين بشريعته.

فقد بعـث الله هوداً إلى عـاد بشريعة مثل شريعـة نوح التـي كانت بسيطـةغايـة البساطة، كما بعث صالحاً إلى ثمود، بمثل ما بعث به هوداً.

وقد بعث الله لوطاً إلى قومه، دون أن تكون لـه شريعة بل كان يتبع شريعة إبراهيم وكانـا يعيشان في عصر واحـد، كما بعث شعيبـاً إلى أصحاب مـدين والايكة، فـأهلك

---

(١) الميزان ج ١٨ ص ٢٨.

مدين بصيحة جبرئيل، والايكة بعذاب يوم الظلة ولم تكن له شريعة مستقلة، بل كان يتّبع شريعة الخليل ويروّجها وينشرها.

وقد بعث الله يونس إلى مائة ألف أو يزيدون وكان يعمل بشريعة موسى، وهكذا حكم سائر الأنبياء المبعوثين في الآونة بعد الآونة، في ثنايا أزمنة أصحاب الشرائع.

فهؤلاء الأنبياء المروّجون لم يكونوا من علماء الأُمّة حتى يكونوا مشمولين لدعوة أصحاب الشرائع، بل كانوا ذوي دعوة وارشاد، ووحي واعجاز، خارجين عن دعوة من تقدمهم، داعين إلى أنفسهم ونبوّتهم وإن كانوا آخذين بشريعته وكانت الأُمّة التي بعث هؤلاء إليهم مكلّفة بتلبية نداء هذا النبي الجديد، والاقتداء بهداه والاتباع لقوله وفعله وهذا دليل على انقطاع نبوّة النبي السالف ورسالته أو عدم سعته من أوّل الأمر كما إذا كانا متعاصرين مثل لوط وإبراهيم.

نعم، لم تكن هذه الجماعة كنفس أصحاب الشرائع أيضاً، أنبياء عالميين بعثوا لهداية من في الشرق والغرب، بل كانوا أنبياء محليين [١] مبعوثين إلى أقوامهم ومناطقهم المستعدة للبعث كنفس أصحاب الشرائع.

فثبت بذلك أنّ نبوّة مثل موسى كانت محدودة بأمرين:

الأوّل: انّ نبوّته كانت اقليمية لا عالمية.

الثاني: انّ نبوّته كانت منقطعة، ببعث نبي بعده، وإن لم يكن صاحب شريعة، بل مروّجاً وتابعاً لشريعته، وبقاء الشريعة، غير عمومية النبوّة.

نعم، النبوّة بمعنى الصفات الحاصلة للنبي مثل علمه، لا ترتفع بموته، لبقاء روحه المقدسة ونفسه الكريمة، والنبوّة بهذا المعنى لا ترتفع إلى الأبد، بل المراد ما تستتبعه هذه الصفات من كونه قائداً رسمياً من جانب الله سبحانه، يجب على الناس الانتماء والانتساب إليه، بحيث يعد الانسان من تابعيه واقعاً، وهذا المعنى أمر قابل

---

(١) سيوافيك توضيحه عند الاجابة عن السؤال الثاني.

للارتفاع بعدظهور النبي اللاحق وإن كانت الشريعة باقية.

على أنّ الظاهر من بعض الآيات، تخصيص كلّ نبي لاحق وإن كان تابعاً لشريعة من قبله، بشيء من الحكم، لم يكن موجوداً في شريعة من قبله، فلم يكن وزانهم وزان العلماء بحيث لا يزيدون ولا ينقصون، بل كان لهم بعض الخصائص من الأحكام والتعاليم، كما يفيده قوله سبحانه:

﴿قُلْ آمنّا بالله وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرٰهِيمَ وإِسمٰعِيلَ وإِسحٰقَ وَيَعْقُوبَ والأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَىٰ والنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ـ ٨٤).

فظهور الآية في استقلالهم بالنبوّة واختصاص كلّ واحد بشيء من الوحي، ممّا لا ينكر؟

نعم كون شريعة نوح محدودة ببعث إبراهيم أو كون شريعة الأخير محدودة ببعث موسى ـ عليهم السّلام ـ لاينافي كون الأُمّة المحمدية مأمورة باتباع ملّة إبراهيم لا لأجل بقاء نبوّته أو شريعته بل لأجل وحدة الشريعتين في الجوهر والأُصول التي أهمّها التوحيد ورفض الأوثان والأصنام، قال سبحانه: ﴿إنّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبعُوهُ وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ـ ٦٨).

وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبرٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ﴾ (آل عمران ـ ٩٥).

إلى غير ذلك ممّا ورد من الأمر بالاتباع لملّة إبراهيم، وهذا لا يدل على بقاء الشريعة، بل لما كان إبراهيم، هو البطل الوحيد في كسر شوكة الأصنام وتحطيم انوف المشركين وعبدة الأوثان وقد بعث النبي الأعظم محمد ﷺ بنفس ما بعث به إبراهيم، أمر سبحانه بالاتباع لملّته وطريقته قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبرٰهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج ـ ٧٨).

ولأجل هذه الملاحظة، يقول يوسف لصاحبيه في السجن: ﴿واتَّبعْتُ مِلَّةَ آبائي إبرٰهِيمَ وإِسحٰقَ ويَعْقُوبَ﴾ (يوسف ـ ٣٨).

وما هذا إلاّ بقاء جوهر الدين في الشرائع السماوية كلّها فالأُمّة المسلمة كانت خليلية إلى أن صارت موسوية، فعيسوية فمحمدية على المعنى الذي عرفته.

السؤال الثاني:

لو كانت نبوّة موسى والمسيح اقليمية فماذا يعني الحديث التالي، وإلى ماذا يشير:

«إنّما سمّي أُولوا العزم، لأنّهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع وذلك أنّ كل نبي كان بعد نوح، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه، إلى زمن إبراهيم الخليل وكلّ نبي كان في أيام إبراهيم الخليل وبعده، كان على شريعة إبراهيم ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى -عليه السّلام- وكلّ نبي كان في زمن موسى وبعده، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن عيسى -عليه السّلام- وكلّ نبي كان في أيام عيسى وبعده، كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه إلى زمن نبينا محمد ﷺ، فهؤلاء الخمسة أُولوا العزم وهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد ﷺ لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده»[1].

الجواب المستفاد من الحديث أمران:

الأوّل: الحديث يدلّ بصراحة على وجود أنبياء في زمن هؤلاء الأربعة وهذا أقوى شاهد على عدم كون نبوّتهم عالمية، إذ لا وجه لبعث نبيين إلى أُمّة واحدة ولم يثبت الاشتراك في النبوّة إلاّ في موسى لقوله سبحانه: ﴿**وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ (طه ـ ٣٢).

وقوله سبحانه: ﴿**فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي**﴾ (القصص ـ ٣٤).

الثاني: إنّ الأنبياء المبعوثين في زمنهم أو بعدهم، كانوا متمسكين بشرائع هؤلاء الأربعة وكانت شريعتهم متداولة بينهم.

والثابت تداول شريعتهم في المناطق التي بعث فيها هؤلاء ولعلّ تداول شريعتهم بين الأُمم السالفة، من دون تبديل، صار سبباً لتوهّم كون نبوّتهم عالمية لا اقليمية. ولكنّه لم يثبت تداول شريعتهم بين أُمم الأرض جميعاً وإنّما القدر المتيقّن تداولها في

---

(١) بحار الأنوار ج ١٥ ص ١٤٥، ورواه الكافي في باب الشرائع ج٢ ص ١٧ بأدنى اختلاف.

الشرق الأوسط وما ضاهاه لا أقطار الأرض جميعاً، نعم دلّت الآيات القرآنية على أنّه لم تخل أرض معمورة من نبي أو نذير قال سبحانه: ﴿ وإنْ مِنْ أُمَةٍ إلاّ خَلاَ فِيها نَذِيرٌ﴾ (فاطر ـ ٢٤).

وقال سبحانه: ﴿ولَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾ (النحل ـ ٣٦).

وقال سبحانه: ﴿إنَّمَا أنتَ مُنذِرٌ ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد ـ ٧).

وهذه الآيات وما يشابهها تدل على شمول فيض النبوّة لأقطار الأرض وأُممها وأنّه لم تخل أُمّة من تلك النعمة الإلهية ويؤيد ذلك ما عن أمير المؤمنين: اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته [1].

وعند ذلك يتوجّه السؤال التالي:

السؤال الثالث:

لو كانت نبوّة هؤلاء الأربعة اقليمية وشريعتهم متداولة في الشرق الأوسط، فمن الذي بعثه الله إلى هؤلاء الأُمم المبعثرة في أقطار الأرض وأرجائها ومن هم حجج الله وبيّناته بين ظهرانيهم؟

الجواب: انّ القرآن لم يقصص قصص الأنبياء عامة ولم يأت بأسمائهم جميعاً والمذكور منهم لا يتجاوز عن ستة وعشرين نفراً، قال سبحانه: ﴿ولَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنهُم مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ ومِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر ـ ٧٨).

وقال سبحانه: ﴿ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء ـ ١٦٤).

---

(١) نهج البلاغة قسم الحكم الرقم ١٤٧.

ولم تحصل لنا الإحاطة بكل من بعثه الله إلى الأُمم، وقيّضهم لهداية الناس.

وقد روى الفريقان عن النبي أنّ عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وقد جاء في التواريخ والأدعية قسم كبير من أسماء الأنبياء لا نعرف عن أحوالهم إلاّ شيئاً يسيراً فلعلّه كانت هناك جماعة كبيرة وعظيمة من الأنبياء مبعوثين إلى هداية الناس ودعوتهم إلى الله من دون أن نسمع لهم ذكراً أو نعرف لهم حالاً وقد سأل السائل صادق الأُمّة و إمامها وقال: فاخبرني عن المجوس أفبعث الله إليهم نبياً فانّي أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة وأمثالاً شافية يقرّون بالثواب والعقاب ولهم شرائع يعملون بها؟

قال ـ عليه السّلام ـ :ما من أُمّة إلاّ خلا فيها نذير وقد بعث إليهم نبياً بكتاب من عند الله فأنكروه وجحدوا كتابه [1].

فلو كانت نبوّة المجوس بعد موسى وقبل المسيح لما أمكن أن تكون نبوّة موسى عالمية.

---

(١) الاحتجاج ج٢ ص ٩١.

هل كانت
نبوّة المسيح عالمية؟

بعد أن أسفر وجه الحقيقة من ثنايا البحث وظهر أنّ الحق هو أنّ نبوّة موسى كانت لقوم خاص، وإن كانت شريعته متداولة بين المبعوثين من بعده من الذين بعثوا في الأقوام التي بعث فيها نفس الكليم فلنشرع في تحقيق حال نبوّة المسيح سعة وضيقاً فنقول:

ظاهر بعض الآيات يفيد أنّ رسالته كانت لقوم خاص أيضاً وأنّه كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل خاصة قال سبحانه: ﴿وإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائيلَ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ (الصف ـ ٦).

وقال سبحانه: ﴿ولَمّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون﴾ (الزخرف ـ ٥٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسرائيلَ﴾ (الزخرف ـ ٥٩) ﴿ولَمّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالبَيِّناتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ ولأُبَيِّنَ لكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُون﴾ (الزخرف ـ ٦٣).

وقال سبحانه: ﴿إِنّا أَنزَلْنَا التَّوراةَ فِيها هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِما ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ اللهِ﴾ (المائدة ـ ٤٤) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلى آثارِهِم بِعِيسَى ٱبنِ مرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ﴾ (المائدة ـ ٤٦).

فانّ تقفية النبيين الذين كانت نبوّتهم لقوم خاص قطعاً بعيسى بن مريم وكونه مصدقاً للتوارة المختصة ببني اسرائيل تشعر بكون نبوّته مثلهم أيضاً، وقال سبحانه: ﴿وقَالَ المسِيحُ يا بَنِي إسرائيلَ اعْبُدوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة ـ ٧٢).

وقال سبحانه: ﴿ورَسُولاً إلى بَنِي إسرائيلَ أنّي قَدْ جِئْتُكُم بآيةٍ مِن ربِّكُمْ أَنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِينِ كَهَيْئَةِ الطيْرِ﴾ (آل عمران ـ ٤٩).

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إسرائيلَ وأرْسَلْنا إلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وفَرِيقاً يَقْتُلُون﴾ (المائدة ـ ٧٠) ﴿لَقَدْ كفَرَ الّذِينَ قَالُوا إنّ اللهَ هُوَ المسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وقَالَ المسِيحُ يا بَني إسرائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة ـ ٧٢).

ولا يخفى على القارئ ما فيها من الدلالة على كونه مبعوثاً إلى بني إسرائيل حيث جعل محور الكلام في الآيتين، المرسلين إلى بني إسرائيل وقال: ﴿وأرسلنا إليهم رسلا﴾ ثم حكم بكفر من قال بأنّ الله هو المسيح بن مريم مشعراً بذلك بأنّ المسيح كان من المبعوثين إليهم وهم الذين ألبسوه لباس الالوهية وجعلوه إلهاً.

أضف إلى ذلك أنّ المسيح جعل محور الخطاب قوم بني إسرائيل وقال: ﴿يا بَنِي إسرائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة ـ ٧٢).

نعم ظاهر بعض الآيات يفيد عمومية نبوّته ودعوته كما في قوله تعالى: ﴿وأَنزلَ التَّورَاةَ والإنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدىً لِلناسِ وأَنزَلَ الفُرْقَانَ﴾ (آل عمران ـ ٣ ـ ٤) ويعالج الاختلاف بما عالجنا به ما ورد في حق الكليم والتوراة، بأنّ الاستغراق في قوله: ﴿للناس﴾ عرفي لا عقلي ويراد من قومه: الكثيرون.

وقال العلاّمة في شرح التجريد: ذهب قوم من النصارى إلى أنّ محمداً ﷺ مبعوث إلى العرب خاصة [1].

---

(١) كشف المراد ص ٢٨٣ ط قم.

فهذا إقرار منهم على عدم عمومية رسالة المسيح.

وقال الطبرسي [١] في تفسير قوله تعالى: **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم ...﴾**.

أي اذكر إذ قال عيسى بن مريم لقومه الذين بعث إليهم.

وقال العلاّمة في تهذيبه عند البحث عن تعبّد النبي، قبل بعثته بدينه لا بدين من قبله من الرسل: الأقرب انّه ـ عليه السّلام ـ قبل النبوّة لم يكن متعبّداً بشرع أحد وإلاّ لاشتهر ولافتخر به أربابها ونمنع عموم دعوة من سبقه ـ عليه السّلام ـ [٢].

وقد عدّ العلامة ذلك من خصائص بعثته إلى الناس كافة [٣].

وها هنا سؤال: وهو أنّه إن كانت نبوّة المسيح مختصة ببني إسرائيل فلماذا جعل النبي نصارى العرب من أهل الذمة مثل يهود العرب وعامل النصارى واليهود معاملة واحدة مع أنّه ثبت أنّ الكليم كان مبعوثاً إلى خصوص بني اسرائيل؟ والاجابة عن هذا السؤال سهلةلأنّه من المحتمل جداً أنّ الرسول كان مأموراً بالحكم على كل متمسّك بالكتاب السماوي احتراماً للعنوان، لا لكون الكتاب نازلاً فيه كما هو الحال في اتباع المجوس، فعامل الرسول مع المتمسّكين بدين «زرادشت» معاملة المتمسّك بدين المجوس مع أنّ أهل الكتاب هو الثاني دون الأوّل.

ويؤيد كون رسالة المسيح ـ عليه السّلام ـ لقوم خاص أُمور:

١ ـ إنّ أجداد النبي وأُسرة البيت الهاشمي وجميع الأحناف في الجزيرة العربية، كانوا على دين إبراهيم ولم ينقل أحد من أهل السير تهوّدهم أو تنصّرهم.

قال الزرقاني: إنّ العرب من عهد إبراهيم كانوا على دينه ولم يكفر أحد منهم إلى

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٧٩ طبع صيدا.

(٢) تهذيب الأُصول إلى علم الأُصول ص ٥٦ الطبع الحجري.

(٣) التذكرة ج ٢ اوائل كتاب النكاح والمطبوع منها غير مرقم.

أن جاء عمرو بن لحي فهو أوّل من عبد الأصنام وغيّر دين إبراهيم وكان قريباً من كنانة جد النبي [١].

٢ـ يظهر مما أنشأه عبد المطلب في قصة أصحاب الفيل أنّه وقومه كانوا متحرّزين من النصارى على وجه الاطلاق حيث أنّه بعد ما رجع من عند «قائد الجيش» «إبرهة» آيساً من إنصرافه عن هدم الكعبة، أخذ بحلقة الباب قائلاً:

لا يغلبنّ صليبهم ومحا … لهم عدواً محالك [٢]

٣ـ ما رواه الحافظ البخاري: عن النبي ﷺ أنّه قال: «أُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي ... وأُعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة» [٣] وفي بعض ألفاظ الحديث: «وكان كلّ نبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

وقال الشيخ منصور علي ناصف في كتابه القيّم «التاج الجامع للأُصول» روي عن جابر عن النبي قال: «أُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من قبل، نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأُعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، رواه الخمسة إلاّ أبا داود [٤].

٤ـ روى الكليني عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السّلام ـ: انّ الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح و إبراهيم وموسى وعيسى وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً وأرسله كافة إلى الأبيض والأسود والجن والإنس [٥].

فقد ظهر من هذا البحث الحديثي، أنّه لم تكن نبوّة الكليم والمسيح فضلاً عمّن كان قبلهم من إبراهيم ونوح تعم العالم كلّه، بل كانت دعوتهم اقليمية أو لقوم خاص

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٧٩.

(٢) بحار الأنوار ج ١٥ ص ١٤٥ نقلاً عن مناقب آل أبي طالب.

(٣) صحيح البخاري في مختلف كتبه، التيمم الباب الأوّل، الغسل الباب ٣٦ الصلاة الباب ٥٤.

(٤) يعنى رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجة راجع ج١ ص ٣٠.

(٥) الكافي ج٢ باب الشرائع ص ١٧ طبعة دار الكتب الإسلامية.

ليس غير وأمّا الدعوة العالمية فتختص بالنبي الخاتم كما أوضحناه [١].

فانّ قلت: إنّ آدم قد بعث إلى الناس كافة كما أنّ نوحاً كان مبعوثاً إلى أهل الأرض كافة بعد الطوفان لأنّه لم يبق معه إلاّ من آمن به، وعليه فينتقض الحصر في الحديث المتفق عليه بين الفريقين.

قلت: الحديث منصرف عن بدء الخلقة وعن النبي الذي لم يكن على أديم الأرض إلاّ نفسه وولده، أمّا نوح فقد تضافرت الآيات أنّه كان مبعوثاً إلى قومه كقوله سبحانه: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ**﴾ (نوح ـ ١).

وأمّا صيرورة رسالته عالمية بعد الطوفان، لانحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك الناس، فإنّما هو لأمر عارض لا يضر بخصوصية رسالته.

أضف إلى ذلك أنّ القدر المسلم هو أنّ الطوفان لم يكن عالمياً، بل كان خاصاً بمنطقة من الأرض التي كان يعيش فيها قومه ويؤيد ذلك أنّه إذا كان مبعوثاً إلى قومه خاصة لم يكن وجه لتعذيب غيرهم وإهلاكهم بتكذيب قومه إذا لم تصلهم دعوته كما هو الظاهر [٢].

هٰيهنا سؤال:

إذا كانت نبوّة كلّ واحد من هؤلاء الأربعة اقليمية أو مختصة بقوم خاص، فما معنى «أُولوا العزم من الرسل» الذي وصف الله به عدة من الرسل؟ فإنّ المشهور أنّ المقصود منهم من كانت رسالته عالمية موجهة إلى الناس كافة.

ولأجل الاجابة على هذا السؤال عقدنا البحث التالي.

---

(١) راجع صفحات ٣٩ ـ ٥٨ من هذا الكتاب.

(٢) وقد وقفت على حقيقة الحال عند البحث عن حقيقة نبوّة نوح ـ عليه السّلام ـ.

ما المراد بأولي العزم
من الرسل

لقد وصف الله بعض رسله أو كلهم بكونهم [1]أُولي العزم من الرسل حيث قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفاسِقُون﴾ (الأحقاف ـ ٣٥).

فأمر نبيّه بالصبر والوقوف في وجه العدو كوقوفهم في وجه معانديهم ومخالفيهم وعندئذ يجب أن نتعرف على ما هو المراد من توصيفهم به وقبل كل شيء نأتي بنصوص أهل اللغة في معنى العزم:

١ ـ يظهر من ابن فارس في مقاييسه أنّ لهذا اللفظ معنى واحداً وهو القطع ضد الوصل وإليه يرجع معناه الآخر وهو العزم وكأنّه يقطع التحيّر والشك قال: «عزم» له أصل واحد صحيح يدل على الصريمة والقطع يقال: عزمت أعزم عزماً ـ إلى أن قال ـ قال الخليل: العزم ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله أي متيقّنه ويقال: ما لفلان عزيمة أي ما يعزم عليه كأنّه لايمكنه أن يصرم الأمر بل يختلط فيه ويتردد ومن قولهم: عزمت على الجنّي وذلك أن تقرأ عليه من عزائم القرآن وهي الآيات التي يرجى قطع الآفة عن المؤوف واعتزم السائر إذا سلك القصد قاطعاً له والرجل يعتزم الطريق: يمضي

---

(١) الترديد مبني على كون لفظة «من» تبعيضية أو بيانية وإن كان الظاهر هو الأوّل.

فيه لا ينثني.

وأُولوا العزم من الرسل الذين قطعوا العلائق [١] بينهم وبين من لم يؤمن من الذين بعثوا إليهم كنوح -عليه السلام- إذ قال: ﴿لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً﴾ وكمحمّد ﷺ إذ تبرّأ من الكافر وبرّأه الله تعالى منهم وأمره بقتالهم في براءة من الله ورسوله [٢].

٢ـ وفسّره الراغب بالقصد وعقد القلب، من غير إشارة إلى أصله الذي اخذ منه هذا المعنى وقال: العزم والعزيمة عقد القلب على امضاء الأمر قال: ﴿فَإذا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ على الله﴾ ، ﴿ولا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾، ﴿وإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ﴾، ﴿إنّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور﴾، ﴿ولم نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي محافظة على ما أُمر به وعزيمة على القيام، والعزيمة تعويذ كأنّه تصوّر أنّك قد عقدت بها من الشيطان أن يمضي ارادته فيك وجمعها العزائم.

٣ـ وفسّره الفيروز آبادي بقوله: عزم على الأمر أراد فعله وقطع عليه، أو جدّ في الأمر ـ إلى أن قال ـ: وأُولوا العزم من الرسل الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم، ونقل عن الزمخشري: أُولوا الجد والثبات والصبر.

والمحصّل من هذه النقول أنّ المعنى الأصيل لهذا اللفظ هو القطع ضد الوصل، ثم يستعمل لأجل المناسبة في عقد القلب والثبات والصبر.

أمّا القرآن فالظاهر أنّه لم يستعمل فيه إلاّ بمعنى عقد القلب مثل قوله:

﴿فَإِذَا عَزَمَ الأمْرُ﴾ (محمد ـ ٢١).

﴿فَإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾ (آل عمران ـ ١٥٩).

﴿وإنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ﴾ (البقرة ـ ٢٢٧).

﴿ولا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحَ﴾ (البقرة ـ ٢٣٥).

---

(١) هذا التفسير لم يعهد من المفسرين.

(٢) المقاييس ج ٤ ص ٣٠٨.

﴿وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران ـ ١٨٦).

أي أنّ الصبر والتقى من الأُمور التي بان رشدها ويجب أن يعزم وينعقد القلب عليها وعقد القلب عليها يستلزم الصبر ويتوقف على الثبات في معارك الحياة، فالصبر لازم العزم.

ومثله قوله سبحانه: ﴿واْصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (لقمان ـ١٧).

وقوله سبحانه: ﴿وَلمن صَبَرَوغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لِمنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾ (الشورى ـ ٤٣).

والتدبر في الآيتين الأخيرتين يعطي أن العزم ليس مرادفاً للصبر والثبات وإن فسّره به الزمخشري في كشافه حيث قال في تفسيره: «أُولوا العزم أي أُولوا الجد والثبات والصبر» [١].

وذلك لأنّ اسم الإشارة في آية سورة لقمان امّا راجع إلى خصوص الصبر كما هو مقتضى الأقربية أو إلى كل ما أوصى به لقمان من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصابه وعلى أي تقدير لا يصح أن يفسّر العزم بالصبر والثبات إذ يصير معنى الآية حينئذ: أنّ الصبر وحده أو هو مع غيره من عزم الأُمور.

وبذلك يظهر الحال في آية سورة الشورى فلاحظ.

وقوله سبحانه: ﴿ولَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمَ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه ـ ١١٥).

والمقصود لم نجد له عزماً حافظاً على عهده الذي عاهدناه.

نعم العزم على الشيء والمحافظة على عقد القلب في طول الحياة لا ينفك عن الثبات والجد والوقوف في وجه المشاكل.

هذا معنى العزم في القرآن وبذلك يظهر معنى العزم في الآية التي نحن بصدد

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٢٦.

رفع الستر عن وجهها أعني قوله سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كما صَبَـرَ أُولوا العَزْمِ مِنَ الرسُلِ﴾.
فانّه بمعنى أصحاب العزائم والقصود المؤكـدة التي لا تنفصم أصلاً وتدعو إلى العمل والسعي في سبيل الله سبحانه.

من هم أُولي العزم من الرسل؟

يجد القارئ الكريم حول الآية وجوهـاً ومعاني حملت على الآية والآية لا تحتملها ودونك تلك الوجوه:

الوجه الأوّل:

١ـ هم الذين بعثوا إلى شرق الأرض وغربها جنّها وانّسها [١].

هذا المعنى أحـد الوجوه التي تفسّـر بها الآيـة وعلى هذا يجب عدّ رسالـة كلّ من قام الاجماع على كونه من الرسل أُولي العزم أو عدّ منهم في الأخبار الصحاح رسالة عالمية لا اقليميـة وبما أنّ موسى والمسيـح قامـت الضرورة على كونهم من أُولي العـزم يجب أن يكون رسالتهم عالمية حسب هذا القول.

وقد عـرفت ضعف هـذا القول في البحث الماضي وأنّ الآيات تفيـد كون رسـالة الكليم والمسيح مختصـة بقومهما وبالمنـاطق التي بعثـا فيها فضلاً عـن كون رسالـة نوح والخليل ـ عليهما السّلام ـ عالمية.

وعلى ذلك فهـذا الاحتمال في تفسير الآيـة لا يمكـن الركـون إليـه فلنبحـث عن المحتملات الأُخر حول الموضوع.

الوجه الثاني:

أن يراد من أُولي العزم كل الرسل ولم يبعـث الله رسولاً إلاّ كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال وعقل وعلى هذا فلفظة «من» في قوله: ﴿من الرسل﴾ تبيين لا تبعيض كما يقال:

(١) حق اليقين لشبر ص ١١١ ناقلاً عن كامل الزيارت.

كسيته من الخز، وكأنّه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم، ووصفهم بالعزم لأجل صبرهم وثباتهم [١].

ويؤيد ذلك قوله سبحانه: **﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ومِنْكَ ومِن نُوحٍ وإِبْرٰهِيمَ ومُوسَى وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾** (الأحزاب ـ ٧).

فإنّ اضافة الميثاق إلى النبيين دليل على أنّ الميثاق المأخوذ منهم بوصف كونهم من النبيين غير الميثاق المأخود منهم بوصف كونهم من بني آدم الذي يشير إلى ذلك الميثاق قوله سبحانه: **﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى﴾** (الأعراف ـ ١٧٢).

فالآية الأُولى تدل على أخذ الميثاق من النبيين عامة وأخذ الميثاق وإن كان لا يدل على العزم الراسخ لكن سكوت القرآن عن نقضهم لهذا الميثاق وبما هم أنبياء معصومون من كل عصيان، يشعر أو يدل على قيامهم بالميثاق الغليظ الذي يتوقف على العزم الراسخ والإرادة القوية التي تستتبع الصبر والثبات.

وأمّا تخصيص الخمسة بالذكر فهو لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم لكونهم أصحاب الشرائع والكتب لا لانحصار ذاك الوصف فيهم، كما يمكن أن يتوهم فقد خصّ الله سبحانه هؤلاء الخمسة بالذكر في مورد آخر وقال: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ ومُوسَىٰ وعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** (الشورى ـ ١٣).

وقد أشار سبحانه إلى أخذ الميثاق من الأنبياء جميعاً في قوله:

﴿وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّين لَمَا آتَيْتُكُمْ مِن كِتابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُم إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنا﴾ (آل عمران ـ ٨١) [٢].

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٩٤.

(٢) وقد بسّط الطبرسي الكلام في تفسير الآية فراجع ج ١ ص ٤٦٨.

وهذه الآية تحتمل معنيين:

الأوّل: أنّه سبحانه أخذ الميثاق من النبيين ولم يـذكر متعلّق الميثاق عندئذ وقوله: ﴿**لما آتيتكم**﴾ ليس متعلّقاً لأخذ الميثـاق منهم، لكون اللام مفتوحة توطئـة للقسم وقوله لتؤمنن جواب له، وعند ذلك يحتمل أن يكون الميثاق المأخوذ منهم هو وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه وإليه تؤمى آية سورة الشورى أعني قوله: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاتَتَفَرَّقُوا**﴾ (الشورى ـ ١٣).

الثاني: انّه سبحانـه أخذ الميثاق من الأُمم على أنبيائهم على تصـديقهم والاقتداء بهم وعلى ذلك تخرج عمّـا نحن بصدد البحث عنه والمعنى الأوّل أظهر.

الوجه الثالث:

أن يكون «مـن» للتبعيض ويراد مـن «أُولوا العزم» بعـض الأنبياء، قيل هـم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشـى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسحاق على الـذبح، ويعقوب على فقدان الـولد وذهاب البصر، ويـوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، ومـوسى إذ قال له قـومه: ﴿**إنّا لمدركـون قال إنّ معي ربّي سيهدين**﴾ وداود يبكي على زلتـه أربعين سنـة وعيسى لم يضع لبنـة على لبنة وقـال: إنّها معبرة فاعبروها ولا تعمروها، وقال الله تعالى في آدم: ﴿**لقد عهدنا إلى آدم فنسي ولم نجد له عزماً**﴾ ، وفي يونس: ﴿ **وَلا تكُن كصاحِبِ الحُوتِ إذْ نادىٰ وَهُوَ مَكْظومٌ**﴾[١].

وهذا القول أقرب الأقوال لولا أنّ فيـه مسحة إسرائيلية حيث عد إسحاق ذبيحاً مع أنّ الذبيح هو إسماعيل ولكنّه لا يضر بأصـل المعنى ويؤيده كما أُشير إليه نفي العزم عن آدم بعد ما عهـد إليه ونسي ما عهد، والنسيان كنايـة عن الترك أُطلق السبب وأُريد المسبّب لأنّ الشيء إذا نسي تـرك، والمراد من العهـد هو النهـي عن أكل الشجـرة بمثل قوله: ﴿ **ولاَ تَقْرَبَا هذِهِ الشّجَرَةَ**﴾ (الأعراف ـ ١٩).

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ١٩٤ ـ واحتمله الفخر راجع ج ٧ ص ٤٦٨.

وعلى ذلك فالعزم أمّا بمعنى القصد الجازم كما هو الحق أو الصبر والثبات ويؤيده ما رواه القمي في تفسير الآية حيث قال: وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، ومعنى أُولوا العزم: أنّهم سبقوا الأنبياء إلى الإقرار بالله وأقروا بكل نبي كان قبلهم وبعدهم وعزموا على الصبر مع التكذيب لهم والأذى [١].

ولا يرد على هذه الرواية ما أوردناه على السابقة، نعم انحصاره في الخمسة المذكورة في الرواية يحتاج إلى دليل قاطع.

ومع ذلك فهذا القول أقرب الأقوال لكن بتصرف فيه وهو أنّ جعل «أُولوا العزم» من الرسل حيث قال: أُولوا العزم من الرسل يدل على أنّ عزمهم القوي كان في تبليغ رسالتهم ونشرها بين الناس، لا مجرد إبتلائهم بالشدائد والبلايا ولو في غير طريق نشر الدين، فابتلاء يعقوب ويوسف وأيوب وغيرهم لا يجعلهم داخلاً في «أُولوا العزم من الرسل» بما هم رسل ذووا رسالة من الله سبحانه إلى عباده.

ويؤيده أنّ الآية بصدد تحريض النبي على تحمل المشاق في طريق دعوته ورسالته، والقرآن يصف نوحاً وإبراهيم وموسى بكونهم ذوي عزائم قوية في سبيل الدعوة وتبليغ الدين ولعلّ هٰهنا من يصفه القرآن بهذا الوصف أو هو كذلك وإن لم يصفه القرآن ولكنّا غير واقفين عليه.

الوجه الرابع:

من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدمه وهم خمسة أُوّلهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد ﷺ روي عن ابن عباس وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ـ عليهما السلام ـ قال: وهم سادة النبيين وعليهم دارت رحى المرسلين [٢].

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ٣٠٠.

(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ١٩٤.

غير أنّه لم يثبت نسخ كلّ شريعة لاحقة لما تقدمها.

فذا هو عيسى بن مريم يبيّن الغاية من بعثته بقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالحِكْمَةِ ولأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ (الزخرف ـ ٦٣).

فإنّ معنى ذلك أنّ المسيح جاء مبيّناً لا ناسخاً لما تقدمه من الشرائع.

الوجه الخامس:

هم الذين أُمروا بالجهاد والقتال وجاهدوا في الدين. نقل عن السدي والكلبي[1].

وهذا لوجه ينطبق مع بعض المعاني المتقدمة خصوصاً الثالث.

الوجه السادس:

إنّ العزم بمعنى الوجوب والحتم وأُولوا العزم من الرسل هم الذين شرعوا التشريع وأوجبوا على الناس الأخذ بها والانقطاع عن غيرها وخصهم القائل بأربعة أعني نوحاً وهوداً و إبراهيم ومحمداً ﷺ[2].

وهذا المعنى مبني على كون العزم بمعنى الحكم والشريعةمقابل الرخصة وهو الذي يؤيده بعض الروايات المروية عن أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ وقد روي في العيون عن أبي الحسن الرضا ـ عليه السّلام ـ قال: «إنّما سمّي أُولوا العزم أُولي العزم لأنّهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع وذلك أنّ كلّ نبي كان بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل»[3].

الوجه السابع:

المقصود هم الرسل الثمانية المذكورون في قوله سبحانه: ﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْنَاها

---

(١)و (٢) مجمع البيان ج٥ ص ١٩٤.

(٣) العيون ج١٢ الباب ٣٢ ص ٨٠ ونور الثقلين ج٥ ص ٢٢.

إِبْـرٰهِيمَ علىٰ قَوْمِـهِ نَرْفَـعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَـاءُ إِنّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيـمٌ * وَوَهَبْنا لَـهُ إِسحٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (الأنعام:٨٣ ـ ٨٤).

والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُـدَاهُمُ اقْتَدِه قُلْ لا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرَى لِلعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنعام ـ ٩٠).

وهذا المعنى من أبعـد الأقوال عن الحق لأنّه سبحانه لم يخص الاهتـداء بالثمانية إلاّ وقد أشار إلى آبائهم بقوله: ﴿ومِن آبائِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وإِخْوٰنِـهِمْ واْجْتَبَيْنٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام ـ ٨٧).

ثم قال سبحانه: ﴿أُولئكَ الذين هدى الله فبهدٰهم اقتده﴾.

فيجب أن يكون الكل أُولي العزم.

وهناك أقوال أُخر يرجع إلى الاختلاف في عددهم بين كونه تسعة أو سبعة أو ستة أو خمسة أو أربعة وقد ضربنا عن ذكرها صفحاً.

وعرفت أنّ الحق هـو الوجه الثالث بـالتصرف الذي عرفته فيـه وأوضحنا أنّ هذه اللفظة ليـس علماً لعدة معيّنـة بل هي وصف يشير إلى الجماعـة الذين صبروا في طـريق رسالاتهم وتبليغ ديـن الله سبحانه، وقـد عرفت أنّ القرآن يصـف ثلاثة من الـرسل بهذا العنـوان ، و هـــم : نـوح والخليل والكليـم ولعلّ هناك مـن صبر في هذا الطـريق، وعرفه القرآن ولم نقف عليه،عصمكم الله و إيّانـا من الزلل في القول والعمل وجعلنا من أصحاب العزائم القوية في نشر الحق.

شبهة واهية في المقام:

ذهب بعض المعترضين ممّن لا إلمام له بحقيقة التعاليم الإسـلامية ولا معرفـة له بأُصول الدين المحمدي وفروعه إلى انكار عالمية الإسلام، تمسّكاً بالأمر التالي وهو:

انّ الإسلام جاء بضرائب على الابل والبقـر والغنم بمقادير دقيقة في غايـة الدقة لأنّ الجزيرة العـربية كـانت يـوم ذاك تكثر فيهـا الجمال والمواشي دون غيرها من البـلاد

والقارات وذلك آيـة كونه دينـاً اقليمياً لا عالمياً، بـل آية على أنّ تخطيطاته الاقتصـادية، وقوانينه في الضرائب وغيرها تناسب عصر الجمال والمواشي، لا عصر الصاروخ والطائرة، والمعامل الكبرى، والمصانع الضخمة، والأعمال التجارية الهائلة.

قلت: هذه شبهة يتمسّك بها تارة على نفي كون الإسـلام ديناً عالمياً، وأُخرى على نفي كونه ديناً أبـدياً وخاتماً لرسالات السماء بحجّة أنّ ما جـاء به الإسلام من تشريع في مجال الضرائب ناقـص لا يفي بالحاجـات المتجددة في العصـور المتطورة والحضـارات المتقدمة، والنفقات المتزايدة.

وقد أجبنا عن هذه الشبهة مفصّلاً في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عند البحث عن (المنابـع المالية للحكومة الإسـلامية) فلاحـظ تجد فيها ما يقطع جـذور الشبهة من أساسها.

❁ الفصل الثاني ❁

الخاتمية في الذكر الحكيم

اتفقت الأُمّة الإسلامية عن بكرة أبيها على أنّ نبيّهم محمداً خاتم النبيين، وأنّ دينه خاتم الأديان، وكتابه خاتم الكتب والصحف، فهو ﷺ آخر السفراء الالهيين، أوصد به باب الرسالة والنبوّة، وختمت به رسالة السماء إلى الأرض.

لقد اتفق المسلمون كافة على أنّ دين نبيّهم، دين الله الأبدي، وكتابه، كتاب الله الخالد، ودستوره الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد أنهى الله إليه كلّ تشريع وأودع فيه أُصول كلّ رقي، وأناط به كلّ سعادة ورخاء، فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض.

توضيحه: أنّ الشريعة الحقة الالهية التي أنزلها الله إلى أوّل سفرائه لا تفترق جوهراً عمّا أنزله على آخرهم، بل كانت الشريعة السماوية في بدء أمرها كنواة قابلة للنمو والنشوء، فأخذت تنمو وتستكمل عبر القرون والأجيال، حسب تطور الزمان وتكامل

الأُمم، وتسرب الحصافة إلى عقولهم، وتسلل الحضارة إلى حياتهم.

ويفصح عمّا ذكرنا قوله سبحانه: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً...**﴾ (الشورى ـ ١٣) فقد وصّى نبيّنا محمداً بما وصّى به نوحاً، من توحيده سبحانه وتنزيهه عن الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والتنديد بالجرائم الخلقية، والقضاء على أسبابها، إلى غير ذلك ممّا تجده في صحف الأوّلين والآخرين.

وتتجلى تلك الحقيقة الناصعة، أي وحدة الشرائع السماوية، جوهراً من مختلف الآيات في شتى المواضع، قال سبحانه: ﴿**إنّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ وما اخْتلفَ الّذِينَ أُوتُوا الكتابَ إلاّ مِن بَعد ما جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بينهُمْ**﴾ (آل عمران ـ ١٩) وظاهر الآية يعطي أنّ الدين عند الله ــ لم يزل ولن يزال ــ هو الإسلام في طول القرون والأجيال، ويعاضدها قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ (آل عمران ـ ٨٥).

وقد نبّه سبحانه في مورد آخر على خطأ اليهود والنصارى في رمي ـ بطل التوحيد ـ إبراهيم باليهودية والنصرانية، و قال: ﴿**مَا كَانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيّاً وَ لانَصْرَانِيّاً وَ لكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (آل عمران ـ ٦٧).

نعم المراد من الإسلام في الآيتين هو التسليم لله والامتثال لأوامره ونواهيه لا المعنى العلمي منه، الذي يقابل اليهودية والنصرانية.

وقد سئل علي ـ عليه السلام ـ عن حقيقة الإسلام، فقال: «لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين» (١) ففسّر الإسلام بالتسليم له سبحانه، وحقيقة التسليم هنا هو إرجاع الأمر والنهي إليه سبحانه، فالواجب ما أمر به والحرام ما نهى عنه، لا ما أمر به الأحبار والرهبان، أو نهوا عنه، ولا يتحقق التسليم إلاّ برفض تحكيم الرجال في الشريعة، ورد آراء الناس والأحبار والرهبان في الحلال والحرام.

فحقيقة الشرائع السماوية في جميع الأدوار والأجيال كانت أمراً واحداً وهو

---

(١) نهج البلاغة: المختار من الحكم ١٢٥.

التسليم‌لله في فرائضه وعزائمه وحده.

ولأجل ذلك كتب الرسول إلى قيصر عندما دعاه إلى الإسلام، قوله سبحانه: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ إيّاه ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾** [١].

وقد أمر سبحانه في آية أُخرى رسوله بدعوة معشر اليهود أو الناس جميعاً إلى اتباع ملّة إبراهيم، قال سبحانه: **﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** (آل عمران ـ ٩٥).

وصرّح سبحانه بأنّ كلّ نبي جاء عقب نبي آخر، كان يصرّح بأنّه مصدّق بوجود ذلك النبي المتقدم عليه وكتابه ودينه، فالمسيح مصدّق لما بين يديه من التوراة ومحمّد ﷺ مصدّق لما بين يديه من الكتب وكتابه مهيمن عليه، كما قال سبحانه: **﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ﴾**، **﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتٰبَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾** (المائدة: ٤٦، ٤٨).

وهذه النصوص كلّها تعبّر عن وحدة أُصول الشرائع وجذورها ولبابها.

وعلى هذه فرسالة السماء إلى الأرض، رسالة واحدة في الحقيقة مقولة بالتشكيك، متكاملة عبر القرون، جاءت بها الرسل طوال الأجيال، وكلّهم يحملون إلى المجتمع البشري رسالة واحدة لتصعد بهم إلى مدارج الكمال، وتهديهم إلى معالم الهداية ومكارم الأخلاق.

نعم كان البشر في أوّليات حياتهم يعيشون في غاية البساطة والسذاجة، فما كانت لهم دولة تسوسهم، ولا مجتمع يخدمهم ولا ذرائع تربطهم، وكانت أواصر الوحدة ووشائج الارتباط بينهم ضعيفة جداً، فلأجل ذاك القصور في العقل، وقلة التقدم، وضعف الرقي، كانت تعاليم أنبيائهم، والأحكام المشروعة لهم، طفيفة في غاية البساطة، فلما أخذت الانسانية بالتقدم والرقي، وكثرت المسائل يوماً فيوماً، اتسع نطاق الشريعة

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص ٢٧٥، مسند أحمد ج١ ص ٢٦٢.

واكتملت الأحكام تلو هذه الأحوال والتطورات.

فهذه الشرائع (مع اختلافها في بعض الفروع والأحكام نظراً إلى الأحوال الأُممية والشؤون الجغرافية) لا تختلف في أُصولها ولبابها، بل كلها تهدف إلى أمر واحد، وتسوق المجتمع إلى هدف مفرد، والاختلاف إنّما هو في الشريعة والمنهاج لا في المقاصد والغايات كما قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ (المائدة ـ ٤٨)[١].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية ـ ١٨).

وخلاصة القول: إنّ السنن مختلفة، للتوراة شريعة، وللانجيل شريعة، وللقرآن شريعة ولكن الدين هو الأُصول والعقائد والأحكام التي تساير الفطرة الإنسانية ولا تخالفها، واحد.

وهاتان الآيتان لا تهدفان إلى اختلاف الشرائع في جميع موادها، ومواردها اختلافاً كلّياً بحيث يكون من النسبة بينها نسبة التباين، كيف وهو سبحانه يأمر نبيّه بالاقتداء بهدى أنبيائه السالفين ويقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾ (الأنعام ـ ٩٠).

وتخصيص الاقتداء بالتبعية لسننهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم إلى الدين والصبر على أذاهم كما في قوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِل لَهُمْ﴾ (الأحقاف ـ ٣٥) تخصيص بلا وجه.

فالقول باختلاف الشرائع وتباينها في جميع الموارد لا يرتضيه القرآن والقول باتحاد الشرائع باطل بالضرورة قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا

---

(١) أي جعلنا لكل من موسى وعيسى ومحمد ﷺ أو لكل من أُمم التوراة والانجيل والقرآن شريعة وطريقاً خاصاً إلى ما هو الهدف الأقصى من بعث الرسل ومنهاجاً واضحاً، والاختلاف بين الكتب والشرائع جزئي لا كلي، والنسخ في بعض الأحكام لا في جميعها.

يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ (الحج ـ ٦٧).

والقول الوسط هو الأوسط، والشريعة الكاملة السمحة الصالحة لكلّ زمان وكلّ مكان هي الشريعة التي جاء بها الإسلام ونبيّه الأكرم ﷺ.

ثم إنّه سبحانه يصرح بحكمة اختلاف الشرائع وتعددها بقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ (المائدة ـ ٤٨).

فإنّ الشريعة الواحدة إنّما تصلح لأُمّة مخلوقة على استعداد واحد، وحالة واحدة كسائر أنواع الخلق التي يقف استعدادها عند حد معين كالطير والنمل والنحل، وأمّا النوع الممتاز كالانسان الذي يرتقي في اطوار الحياة بالتدريج وعلى سنّة الارتقاء فلا تصلح له شريعة واحدة في كل طور من أطوار حياته، فشدة أحكام الانجيل في الزهد وترك الدنيا والخضوع لكل حاكم وكل معتد لا يمكن أن يؤخذ به في هذا العصر، ومثله ما في التوراة من أحكام شديدة كما لا يخفى.

نعم جاءت الرسل تترى، وتواصلت حلقات النبوّة في الأدوار الماضية إلى أن بعث الله آخر سفرائه، فأتم به نعمته وأكمل به دينه، فأصبح المجتمع البشري في ظل دينه الكامل وكتابه الجامع، غنياً عن تواصل الرسالة وتعاقب النبوّة، وأصبح البشر غير محتاجين إلى ارسال أي رسول بعده، إذ جاء الرسول بأكمل الشرائع وأتقنها وأجمعها للحقوق وبكل ما يحتاج إليه البشر في أدوار حياتهم وأنواع تطوّراتهم وفي الوقت نفسه فيها مرونة تتمشى مع جميع الأزمنة والأجيال، من دون أن تمس جوهر الرسالة الأصلي بتحوير وتحريف.

ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الأبحاث الآتية.

النصوص القرآنية الدالّة على ختم النبوّة:

لقد نص القرآن الكريم على ذلك تنصيصاً لا يقبل الشك والترديد، ولا يرتاب فيه من له أدنى إلمام باللغة العربية، وذلك في مواضع:

النص الأوّل: قوله سبحانه:

﴿ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب ـ ٤٠).

توضيحه: تبنّى رسول الله زيداً قبل عصر الرسالة، وكان العرب ينزّلون الادعياء منزلة الأبناء في أحكام الزواج والميراث، فأراد الله سبحانه أن ينسخ تلك السنّة الجاهلية، فأمر رسوله أن يتزوّج زينب زوجة زيد بعد مفارقته لها، فلمّا تزوّجها رسول الله، أوجد ذلك الزواج ضجة بين المنافقين والمتوغلين في النزعات الجاهلية، والمنساقين وراءها، فرد الله سبحانه مزاعمهم وطعنهم بقوله: ﴿ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم﴾ من الذين لم يلدهم ومنهم زيد ولكنّه ﴿رسول الله﴾ وهو لا يترك ما أمره الله به ﴿وخاتم النبيين﴾ وآخرهم ختمت به النبوّة فلا نبي بعده ولا شريعة سوى شريعته، فنبوّته أبدية وشريعته باقية إلى يوم الدين.

الخاتم وما يراد منه:

الخاتم (سواء كان بفتح التاء كما عليه «عاصم» أم بكسرها، كما عليه الباقون وعلى الفتح سواء أقلنا أنّه فعل كضارب بمعنى ختمهم، أم اسم بمعنى آخرهم، أو بمعنى ما يختم به أي المختوم به باب النبوّة، كما يختم بالطابع) لا يفهم منه في المقام إلاّ معنى واحد وهو أنّه قد ختم به باب النبوّة وأوصد بوجوده ودينه وكتابه باب الرسالة فلا نبي بعده أصلاً.

وقد أصفقت على هذا كتب اللغة والتفسير والتاريخ طيلة أربعة عشر قرناً ولم يختلف فيه اثنان، ولم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، فهذه معاجم اللغة وكتب التفسير المؤلفة في العهود الإسلامية السابقة، بيد أساطين اللغة وفطاحلها وأئمّة التفسير وأبطاله، ضع يدك على أي واحد منها، تجدها متضافرة على ما قلناه وسوف ننقل بعض نصوصهم.

والأولى أن نرجع قبل كل شيء إلى نفس القرآن وموارد استعمال هذه المادة فيه، حتى نستعين بالقرآن الكريم نفسه، في رفع الابهام:

١ ـ ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (المطففين ـ ٢٥) أي من الشراب الخالص الذي لا غش فيه، تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك، أو مختوم بابه بشي مثل الشمع وغيره، وذلك آية خلوصه.

٢ ـ ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين ـ ٢٦) مقطعه رائحة مسك إذا شرب.

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الشورى ـ ٢٤).

٤ ـ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ (يس ـ ٦٥) أي طبع على أفواههم فتوصّد أفواههم وتتكلم أيديهم.

٥ ـ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ﴾ (الجاثية ـ ٢٣).

٦ ـ ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة ـ ٧).

٧ ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ (الأنعام ـ ٤٦).

فإذا انتهى الكافر من كفره إلى حالة يعلم الله أنّه لا يؤمن، يطبع الله على قلبه كما يطبع على الشيء بالشمع والطين فيصير قلبه كالمختوم عليه، لا يدخله شيء، ولا يخرج منه شيء، فلا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر.

فالختم على الشيء، بمعنى الطبع عليه كناية عن ختم أمره، فالختم على القلب يلازم انتهاء أمره وامتلاءه بالكفر والالحاد فلم يبق فيه موضع لنور الحق وكلماته، كما أنّ ختم الورقة وطبعها بالطابع علامة أنّ الكاتب بلغ ما أراد من كتابته فيها، وانتهى غرضه

ومقصده.

والختم على النبوّة عبارة عن أنّه أوصد بـاب النبوّة وطبع على بابها، فهو مقفل إلى يوم القيامة، لا يفتح في وجه أحد.

وعلى أي تقدير فالناظر في هـذه الآيات لا يتلقّى من تلك المادة إلاّ معنى واحداً وهو الانتهاء، أو ما يلازمه من الطبع على الشيء.

وقد أوضحه إمام اللغة ابن فارس في معجمـه وقال: «الختم» له أصل واحد وهو البلوغ آخر الشيء، يقـال ختمت العمل، وختم القارئ السورة، فأمّـا الختم وهو الطبع على الشيء، فذلـك من هذا الباب أيضـاً، لأنّ الطبع على الشيء لا يكون إلاّ بعـد بلوغ آخره في الإحراز، والخاتم مشتق من الختم، لأنّه به يختم، ويقال: الخاتم بالكسر، والخاتام والخيتام.

والنبي ﷺ خاتم الأنبياء لأنّه آخرهـم، وختام كل مشروب، آخره، قال الله تعالى: ﴿**ختامه مسك**﴾، أي أنّ آخر ما يجدونه عند شربهم إياه رائحة المسك.

وقال أبو البقاء العكبري: الخاتم بفتح التـاء على معنى المصدر، أو هو فعل مثل قاتل بمعنى ختمهم، وقـال الآخرون: اسم بمعنى آخرهم، وقيل: هـو بمعنى المختوم به النبيون، كما يختم بالطابع ويقرأ بكسرها، بمعنى آخرهم [1].

وقال الجوهري في صحاحه: ختمه ويختمه ختماً وختاماً، طبع على قلبه: جعله لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء، وختم الشيء: بلغ آخـره، والختام ككتاب: الطين يختم به على الشيء، والخاتم ما يوضع على الطينة، وحلي للاصبع...

قـال الفيروز آبـادي في قامـوسـه: ختمت الشيء ختماً فهـو مختـوم ومختم، شـدّد للمبـالغة، وختـم الله لـه بخير منه، وختمـت القرآن: بلغـت آخـره، واختتمت الشيء: نقيض افتتحتـه، و الخاتم بكسر التاء و فتحها، والخيتـام والخاتام: كلّها بمعنـى واحد،

(١) التبيان في اعراب القرآن ج ٢ ص ١٠٠.

والجمع الخواتيم، وتختمت: إذا ألبسته، وخاتمة الشيء: آخره.

ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء.

والختام، الطين الذي يختم به، وقوله تعالى: ﴿**ختامه مسك**﴾ أي آخره، لأنّ آخر ما يجدونه رائحة المسك.

قال ابن منظور في لسان العرب: ختام القوم، أنصاهم، ختام القوم وخاتمهم آخرهم، محمد ﷺ خاتم الأنبياء، والخاتم من أسماء النبي ﷺ ففي التنزيل: ﴿**ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ ، أي آخرهم، وقد قرأوا «خاتم» بالفتح، ومن أسمائه «العاقب» أيضاً ومعناه آخر الأنبياء.

قال أبو محمد الدميري في منظومته:

والخاتم الفاعل قل بالكسر وما به يختم، فتحاً يجري [1]

وقال البيضاوي: وخاتم النبيين آخرهم الذي ختمهم، أو ختموا به على قراءة عاصم بالفتح.

وفي تفسير الجلالين: وفي قراءة بفتح التاء، كآلة الختم، أي به ختموا.

وقال الراغب في مفرداته: يطلق الختم على البلوغ إلى آخر الشيء، نحو ختمت القرآن، أي انتهيت إلى آخره، وخاتم النبيين، لانّه ختم النبوّة أي تممها بمجيئه.

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة والنصوص الدالة على تظافر اللغة والتفسير على معنى واحد، ولباب هذه النصوص: أنّ لمادة هذه الكلمة معنى واحداً وهو الانتهاء والوصول إلى آخره، وأمّا الخاتم المشتق منها فعلى الكسر بمعنى الآخر، وعلى الفتح أمّا فعل كضارب، أو اسم بمعنى ما به يختم.

وأمّا اطلاقه على الحلية التي تزيّن بها الاصبع، فلأجل أنّ الدارج في عهد الرسالة طبع الكتاب بالخاتم، فكانت خواتيمهم طوابعهم، لا أنّه وضع لها ابتداء.

---

(١) التيسير في علم التفسير ص ٩٠.

ويدل على ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته: انّ رسول الله أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسـلام، وكتب إليهم كتاباً، فقيل يا رسول الله أنّ الملـوك لا يقرؤن كتاباً إلاّ مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة ـ فصّه منـه ـ نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب [١].

قال ابن خلدون في مقدمته عند البحـث عن شارات الملوك: أمّا الخاتم فهو من الخطط السلطانيـةوالوظائف الملوكيـة، والختم على الرسائل والصكوك معـروف للملوك قبل الإسلام وبعـده، وقد ثبت في الصحيحين، أنّ النبي ﷺ أراد أن يكتـب إلى قيصر، فقيل له: إنّ العجم لا يقبلون الكتاب، إلاّ أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: محمد رسول الله.

قال البخاري: جعل ثلاث كلمات في ثلاثـة أسطر وختم به وقال: لا ينقش أحد مثله، قال: وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس ...

وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه:

وذلك أنّ الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم: إذا لبسه، ومنه ختمت الأمر: إذا بلغته، وختمت القرآن، ومنـه خاتم النبيين، وخاتم الأمر، ويطلق على السد الـذي يسد به الأواني والدنـان، ويقال: ختام، وقد غلـط من فسّـر هذا بالنهـاية والتمام، قال: آخـر ما يجدونه في شرابهم ريـح المسك، وليس المعنى عليه و إنّما هـو من الختـام الذي هـو السداد، لأنّ الخمـر يجعل لها في الدن سـداد الطين أو القار، يحفظهـا ويطيب عـرفها وذوقها فبـولغ في وصف خمر الجنة بأنّ سـدادها من المسك وهـو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا..

وأنّ الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في دواة من الطين أو المداد، ووضع على صفح القـرطاس بقى أكثـر الكلمات في ذلك الصفح، وكذلك إذا طبـع به على جسم ليّن كالشمع فإنّه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه ... إلى أن قال:

---

(١) الطبقات الكبرى ج١ ص ٢٥٨.

ويكون هـذا من معنى النهايـة والتمام بمعنى صحة ذلك المكتـوب ونفوذه كأنّ الكتاب إنّما يتم العمـل به بهذه العلامـات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام، ومـن هذا خاتم القاضي الذي يبعـث به للخصوم أي علامته وخطه الذي ينفـذ بهما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة، أي علامته ... إلى آخر ما أفاده.

كل ما ذكره ذلك الفيلسـوف الخبير بأسرار التاريخ، شواهد على ما ذكـرنا فراجع بقية كلامه [1].

تشكيكان حول دلالة الآية على كون نبي الإسلام خاتماً:

البهائية حزب سياسي، لها طـابع المذهب، قد اختلقها الميرزا حسين علي النوري المتوفـى عام ١٣٠٩ هـ ق في عكا، ويليهم في العقيدة والغـاية «القاديانية» ومؤسسها «غلام أحمد القادياني» ينسب إلى إحدى قرى البنجـاب (قاديان)، كان في الرعيل الأوّل من فضلاء البنجاب وعلمائهـم، لكنّه ادّعى عام ١٨٩٢ أنّه المجدد للقـرن الرابع عشر الهجري، وفـق الحديث النبوي: «سيأتي على رأس كـل مائة سنة رجـل يجدد لها دينها» ، قـال: أنا المبعـوث لهذا القرن، فـاتبعوني لعلّكم تفلحـون، فأطـاعته عـدة من الخواص والعوام زرافـات ووحدانـاً، ولما أحس بـروح التبعية فيهم، ادّعـى أنّه المهـدي والمسيح الموعود، ثم ادّعى لنفسه النبوّة وأنّه نبي كمثل أنبيـاء بني اسرائيل الذين كانوا معه، وأنّه نبي الأُمّة الإسـلامية بغير مصحف، وعند ذلك هجـم الناس عليه ليقتلوه، لـولا تدخل الحكومة الانكليزية، وبقي على مـا ادّعى إلى أن اخترمته المنية عام ١٩٠٨ ولم يستخلف أحداً، فحـدث بينهم خلاف عظيم، فمالت فئـة من أتباعه إلى ابنـه «بشير الدين أحمد» وتبعت فئـة قليلة منهـم «الأمير محمد علي» الـذي شد أزر غـلام أحمد من ابتداء الأمـر، وقرروا أن يجعلـوا لهم جميعة أُخـرى، ويجتنبوا اتبـاع ابن غلام أحمد، وجعلـوا مركـزهم في «لاهور» عاصمة البنجـاب، واشتهروا باسم الأحمدية اللاهوريـة، ومحمد علي هو مترجم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج١ ص ٢٢٠.

القرآن بالانكليزية.

وبين الطائفتين اختلاف في الأصول والفروع، فالأحمدية منهم مؤمنة بأنّ النبي خاتم الأنبياء ولا يؤمنون بنبوّة غلام أحمد ولا يكفّرون المسلمين مهما كانت عقائدهم، وهو واتباعه يصلّون خلف كل مسلم، بشرط أن لا يكفّرهم، وأمّا القاديانية منهم، فهم يعتقدون أنّ غلام أحمد كان نبياً بلا كتاب سماوي، كأنبياء بني اسرائيل، ويؤوّلون آية: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ تأويلاً يتوافق على زعم الطائفة المضلة ـ على ما سيأتي.

نعم تشترك الفئتان في الاعتقاد بحرمة الجهاد، لأنّ مسيحهما قد بعث وجاء لنشر السلام العام والمحبة، ولزوم الخضوع والطاعة لمن تسلّط، والكد والكدح في اكتساب الأموال والنقود، وأنّ الوحي مستمر إلى الأبد، إلى غير ذلك من المخازي لتضليل بسطاء الأُمّة عن الإسلام، وعند التحقيق يظهر أنّ الاستعمار خلق «البابية والقاديانية» لإيجاد التشكيك بين عوام الشيعة والسنّة، وكلا الاخوين «حية بطن واد» [١].

ولما أرادت الفرقة الضالّة المضلّة البهائية أن تعرّف زعيمها وقائدها، رسولاً من الله إلى الناس، كسائر المرسلين، من موسى والمسيح ومحمد ﷺ حاولت لتدعيم مدعاها أن تشكك في دلالة الآية على ما اتفق عليه المسلمون منذ نزولها إلى الآن، وقد جاءت في ذلك بتشكيكين لا يقصران عن شبه السوفسطائية في بداهة الأُمور ودونك بيانهما مع دحضهما بأوضح الوجوه:

التشكيك الأوّل:

خلاصة هذا الوجه ترجع إلى التصرف في معنى «الخاتم» كما أنّ التشكيك الثاني

---

(١) وقد تحدثت مجلة العرفان عن الأحمدية والقاديانية في عدة من أعدادها، فراجع المجلد الثامن عشر في مقال تحت عنوان: «الإسلام في الهند» والمجلد التاسع عشر ص ٩٤ والعشرين ص ٢٣٣ و ٣٥٢ و ٤٨٩ وفيها مقالات بأقلام جماعة من الباحثين تشرح لنا هوية هذه الفئة.

يرجع إلى التصرف في معنى «النبيين».

بيانه أنّ قوله سبحانه : ﴿وخاتم النبيين﴾ لا يدل على انتهاء النبوّة بوجوده ﷺ لاحتمال كون المراد من «الخاتـم» الحلية التي تزين بها الاصبـع وعندئذ يصير الهدف من اطلاق «الخاتم» عليه ﷺ واستعارته له هو تشبيه نبي الإسلام بالخاتم في الزينة وأنّه ﷺ بلغ من الكمال مبلغـاً حتى صار زينـة الأنبياء، فهو بين تلك العصـابة كالخاتـم في يد لابسه.

وهنا احتمال آخر تسقط معه أيضاً دلالة الآية على ما يرتأيه المسلمون من اختتام النبوّة به ﷺ وهو جـواز أن يكون المراد من خاتـم النبيين أنّه مصدق للنبيين ومـا اُنزل إليهم من الصحف والكتب ، كما قال سبحانه: ﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَـابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (المائدة ـ ٤٨) وقد تقدمت تصاريح التاريخ على أنّ الدارج في عصر الرسالة هو طبع الكتاب وتصديق ما فيه بالخاتم، فيصير اطلاق الخاتم عليه ﷺ واستعارته لـه، لأجل أنّه ﷺ خاتم النبيين ومصدقهـم كالخاتم الذي هو مصدق لمضامين الكتب والصحف، فأين الدلالة على انسداد باب النبوّة [1].

الجواب:

انّ هـذا التشكيـك بمعـزل عن التحقيـق، بل لا يستحـق أن يطلق عليـه اسـم التشكيك والشبهة، ولا يعرج عليـه أي عربي أصيل، وأي عارف باللغـة العربية، بل أي شخص لـه أدنى إلمام بها ولا يتردد في مخيّلـة أي ابن اُنثى، إذا كـان ذا فكـر سليم وذوق مستقيم، ولا يجـد احتماله في كلمات القدامى والمتأخّرين.

إذ لم تعهد استعارة الخاتم في مصطلح العرف للشخص، لغاية الزينة والتصديق على وجه المجاز، أو استعماله فيهما على وجه الحقيقة منذ عصر الرسالة إلى يومنا هذا.

وقـد عرفت المعنـى الحقيقي لتلك الكلمـة، ولم تكن الـزينة أو التصـديق أحـد

---

(١) الخاتمية ص ٢٣.

معانيه، وأمّا استعماله فيهما مجازاً، فيتوقف على حصول أمرين:

الأوّل: أن يكون الاستعمال متعارفاً ودارجاً بين أهل اللسان، أو يكون ممّا يستحسنه الطبع والذوق، وكلاهما منتفيان [١].

الثاني: وجود قرينة مقالية أو حالية صارفة عن المعنى الحقيقي، وإلا فيحمل على المعنى الموضوع له، وهي أيضاً منتفية.

ولما كانت هذه الشبهة أشبه شيء بحديث خرافة، وشبه السوفسطائية لم يلتفت إليه أحد من مناوئي الإسلام، حتى مؤسس الفرقة الضالّة وزعيمها الأكبر، بل فسّر هو نفسه في بعض كتبه [٢] ﴿**خاتم النبيين**﴾ على خلاف ما ذكر في الشبهة، وقال: «والصلاة والسلام على سيد العالم، ومربي الأُمم، الذي به انتهت الرسالة والنبوّة وعلى آله وأصحابه دائماً سرمداً...».

وصرّح بذلك في «ايقانه» [٣] وفسره بالختم والانتهاء، نعم أتى بعد ذلك بتأويلات باردة يشمئز منها الطبع، وإنّما اوّل ما اوّل ليمهد الطريق لدعوى نبوّته وسفارته من الله سبحانه.

هلم معي نسأل مبدع الشبهة عن أنّه لماذا خص سبحانه «الخاتم» بالاستعارة، مع أنّ التاج والاكليل، أولى وأبلغ في بيان المقصود (الزينة)؟

هلم نسأله عن أنّه لو صح ما أراد (من أنّ المراد أنّه ﷺ مصدق النبيين) ولن يصح، ولو صحت الأحلام، فلماذا عدل سبحانه عن أوضح التعابير وأفصحها، ولم يقل «مصدق النبيين» كما عبّر به في غير واحد من السور [٤] عندما أراد توصيف النبي بكونه

---

(١) ولأجل ذلك لا تجد في الآداب العربية ولا الفارسية ولا غيرها من اللغات استعارة الخاتم للزينة والتصديق.

(٢) اشراقات ص ٢٩٢.

(٣) ايقان ص ١٣٦.

(٤) سورة البقرة: ٤١ و ٩١ و ٩٧ ـ آل عمران: ٣ وغيرهما.

مصدقاً لمن تقدم عليه وأتى في المقام بتعبير غير مألوف ولا مأنوس.

نحن نسأله: انّ تصديق من مضى من النبيين، ليس صفة خاصة له ﷺ فانّ المسيح كان أيضاً مصدقاً للماضين منهم، وما معهم من الكتب والصحف، كما حكى عنه سبحانه: ﴿وَ إِذْ قَالَ عِيسىٰ ٱبنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(الصف ـ ٦)، وعند ذاك فلماذا عرّفه سبحانه بوصف مشترك بين الأنبياء جميعاً.

ماذا يجيبنا المبدع إذا سألناه، وقلنا له: إنّ تشبيه الرسول الأعظم بالخاتم في التصديق وليد الأحلام الباطلة، وشتان بينه ﷺ وبين الخاتم، حتى في نفس وجه الشبه الذي اختلقه المبدع، فانّ الخاتم ليس هو نفسه مصدقاً، وإنّما هو آلة التصديق وما يصدق به، وإنّما المصدق انّما هو كاتب الصحيفة، وهذا بخلاف النبي ﷺ فإنّه هو المصدق نفسه.

لا أدري ماذا يجيب المشكك عن هذه الأسئلة؟

نعم اختلقت هذا التشكيك بعض الأقلام المستأجرة، لتأييد أقاويل تلك الفئة وتسويل أباطيلهم، والكاتب أعرف ببطلانها، وقد عرفته الأُمّة، وعرفت نواياه، وما تخلّق به من روحيات ونفسيات.

التشكيك الثاني:

إنّ منصب النبوّة غير الرسالة، وما هو المختوم إنّما هو الأوّل دون الثاني فباب النبوّة وإن كان مختوماً بنص الآية، لكن باب الرسالة مفتوح على مصراعيه في وجه الأُمّة، ولم يوصد ولن يوصد أبداً.

واجلاء الحق في هذا المقام يتوقف على الوقوف على ما هو المقصود من النبي والرسول في الكتاب العزيز، وقد عقدنا لبيان الفرق بين النبي والرسول فصلاً خاصاً [1]

(١) سيوافيك هذا الفصل في الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

وأوضحنا فيه حال هذا التشكيك وجعلناه في مدحرة البطلان وأقمنا الدليل على أنّ ختم النبوّة يلازم ختم الرسالة.

وخلاصة ما قلناه هناك: إنّ النبي حسب ما يظهر من آيات الذكر الحكيم وكلمات اعلام اللغة، هو الانسان الموحى إليه من الله باحدى الطرق المعروفة، وأمّا الرسول فهو الانسان [1] القائم بالسفارة من الله بابلاغ قول أو تنفيذ عمل وإن شئت قلت: النبوّة منصب معنوي يستدعي الاتصال بالغيب باحدى الطرق المألوفة، والرسالة سفارة للمرسل (بالفتح) من جانبه سبحانه لتنفيذ ما تحمله منه في الخارج أو ابلاغه إلى المرسل إليهم.

وبعبارة ثالثة: النبوّة تحمل الأنباء من الله والرسالة تنفيذ ما تحمله من الانباء بالتبشير والانذار والتبليغ و التنفيذ.

ولأجل ذلك يقترن لفظ الوحي بلفظ «النبيين» ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء ـ ١٦٣).

ولو اقترن لفظ الوحي بالرسول في آية أُخرى، فلمناسبة أُخرى اقتضت العدول فيه كما أنّه يقترن في القرآن إلزام الانسان بتبليغ كلام عنه سبحانه أو تنفيذ عمل في الخارج بلفظ «الرسول» ويقول سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة ـ ٦٧).

وقال سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾ (مريم ـ ١٩).

وعلى ذلك فالنبي أمّا صيغة لازم بمعنى صاحب النبأ ومتحمله، أو صيغة متعد بمعنى المخبر عنه سبحانه، والرسول هو الموظّف لتحقيق ما تحمله النبي من جانب الله سبحانه عن طريق الوحي.

فلو فرض أنّه أوصد باب النبوّة وختم نزول الوحي إلى أي انسان كما يصرح به

---

(١) المقصود هو الرسول المصطلح فلا ينافي اطلاقه على الملك والشخص العادي في القرآن الكريم.

لفظ «خاتم النبيين» فعند ذاك يختم باب الرسالة الالهية أيضاً بلا ريب، لأنّ الرسالة لا تهدف سوى تنفيذ ما يتحمله النبي من جانب الله عن طريق الوحي فإذا انقطع الوحي والاتصال با لمبدأ الاولى والاطلاع على ماعنده، لا يبقى موضوع للرسالة أبداً، فإذا كان محمد ﷺ خاتماً للنبيين أي مختوماً به الوحي والاتصال فهو خاتم الرسل والمرسلين طبعاً، لأنّ رسالة الانسان من جانب الله سبحانه، عبارة عن بيان أو تنفيذ ما أخذه عن طريق الوحي، فلا تستقيم رسالة أي انسان من جانبه سبحانه إذا انقطع الوحي والاتصال به تعالى ولا يقدر أن يقول أي ابن أُنثى بالرسالة من ناحيته سبحانه إذا كانت النبوّة موصدة باعترافه.

هذا خلاصة ما قلناه هناك وسيوافيك تفصيله بدلائله وشواهده من الكتاب والسنّة وكلمات اعلام اللغة.

التنصيص الثاني [1] على الخاتمية:

هلم معي نقرأ النصوص الباقية الدالة على كون نبيّنا خاتم الرسل، وانّ رسالته خاتمة الرسالات حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره، فمن النصوص قوله سبحانه:

---

(١) الهدف الأسمى من الاستدلال بهذه الآية وما تليها، هو نفي قسم خاص من أقسام النبوّة، أي النبوّة التشريعية الناسخة، فهذه الآية وأمثالها تكذّب كل من ادّعى لنفسه منصب النبوّة التشريعية، وادّعى أنّه نبي كموسى وعيسى ومحمد، وانّ له كتاباً وشريعة ناسخة لما قبلها من الكتب والشرائع، إذ لا يعقل أن يكون لمجتمع واحد كتابان مختلفا الأهداف والأغراض، أو نذيران متعددا الغايات.

فلا يصح أن يكون الفرقان والقرآن نذيراً لهم، وفي الوقت نفسه يكون كتاب آخر، يخالفه في المضمون نذيراً لهم أيضاً، وقس على ذلك سائر ما يرد عليك من الآيات.

نعم هذه الآية ونظائرها لا تفي بنفي النبوّة التبليغية المحضة، أو التشريعية غير الناسخة، بأن تكون النسبة بين الشريعتين نسبة الأقل إلى الأكثر، أو المجمل إلى المفصل، والدليل الوحيد في القرآن، على انسداد أبواب النبوّاة على اطلاقها، هي الآية المتقدمة، وما سيوافيك من الأحاديث المتواترة، الدالة على اغلاق باب النبوّة على وجه الأُمة بعامة أنواعها واقسامها فلاحظ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان ـ ١) .

وصريح النص أنّ الغاية من تنزيل الفرقان على عبده (رسولنا) كون القرآن نذيراً للعالمين، أي الخلائق كلها من بدء نزوله إلى يوم يبعثون.

قال «الراغب» في مفرداته: العالم اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض وهو في الأصل اسم لما يعلم به، كالطابع والخاتم، لما يطبع به وما يختم به، وجعل بناءه على هذه الصفة، لكونه كالآلة والعالم آلة، في الدلالة لصانعه، وأمّا جمعه فلأن كل نوع من هذه قد يسمى عالماً، فيقال عالم الانسان وعالم الماء، وعالم النار، وأمّا جمعه على السلامة فلكون الناس من جملتهم والانسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب عليه حكمه، وقيل إنّما جمع هذا الجمع لأنّه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والناس دون غيرها وروي هذا عن ابن عباس وقال جعفر بن محمد عنى به الناس، وجعل كل واحد عالماً [١].

وقال: العالم عالمان: الكبير وهو الفلك بما فيه والصغير لأنّه مخلوق على هيئة العالم [٢].

قال الزمخشري: العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض، وجمع ليشمل كل جنس مما سمّي به، وأمّا جمعه بالواو والنون مع كونه اسماً غير صفة وإنّما يجمع بها صفات العقلاء، أو ما في حكمها من الأعلام، فلأجل معنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم [٣].

---

(١) هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، ويشهد له ما نقله سبحانه، عن قوم لوط في خطابهم له، عند نزول ضيوفه: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلا تفضحون * وَاتَّقُوا اللهَ ولا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَٰلَمِينَ﴾ (الحجر : ٦٨ـ ٧٠) أي قالوا في جوابه: أوليس كنا قد نهيناك عن أن تستضيف أحداً من الناس، ولا معنى لأن ينهوه عن الأجرام السماوية، أو الجن والملائكة.

ونظيره قوله سبحانه ـ حكاية عن لوط في الرد على قومه ـ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء ـ ١٦٥) فالمراد من العالمين فيه هو الناس بلا ريب.

(٢) المفردات للراغب ص ٣٤٩.

(٣) الكشاف ج١ ص ٦.

وعلى أي تقدير سواء أكان المراد من العالمين في الآيات الآخر جميع المخلوقات التي يحويها الفلك من الجواهر والأعراض، أم كان المراد الإنس والجن، فالمراد منه في الآية بقرينة كونه «نذيراً» خصوص الانسان أو مطلق من يعقل، فالآية صريحة في أنّ انذاره لا يختص بناس دون ناس، أو بزمان دون زمان، فهو على اطلاقه يعطي كونه نذيراً للأُمّة البشرية بلا قيد ولا حد.

ولقائل أن يعترض ويقول: ربّما يطلق «العالمون» ويراد منه الجم الغفير من الناس كما في قوله سبحانه في تفضيل بني اسرائيل: ﴿**يَا بَنِي إِسْرائيل اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِين**﴾ (البقرة ـ ٤٧) ويقال رأيت عالماً من الناس يراد به الكثرة وعند ذاك لا تكون الآية صريحة فيما نرتئيه.

والجواب: انّ المتبادر من العالمين في مصطلح العرف والقرآن هو المعنى العام وهو عبارة امّا عن الخلائق عامة كما عليه قوله سبحانه: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمين * قَالَ رَبُّ السَّمٰواتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ**﴾ (الشعراء ٢٣ ـ ٢٤).

وغيره من الآيات الكثيرة التي استعملت فيها كلمة «العالمين» في الخلق كلّه، أو نوع ما يعقل من الملائكة والإنس والجن وعليه قوله تعالى: ﴿**وَلٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعٰلَمِينَ**﴾ (البقرة ـ ٢٥١).

وقوله سبحانه: ﴿**وما الله يريد ظلماً للعٰلمين**﴾ (آل عمران ـ ١٠٨)، أو خصوص الإنس وعليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَ هُدًى لِلْعٰلَمِينَ**﴾ (آل عمران ـ ٩٦).

وقوله سبحانه: ﴿**أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعٰلَمِينَ**﴾ (الشعراء ـ ١٦٥).

وقوله سبحانه: ﴿**أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰلَمِينَ**﴾ (الأعراف ـ ٨٠، وقريب منها ما في العنكبوت ـ ٢٨).

وعلى ما ذكرنا فلا يسوغ أن يحمل هذ اللفظ على غير هذه المعاني، إلاّ بقرينة صارفة عن ظاهره وهي غير موجودة في المقام.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿وأنّي فضّلتكم على العٰلمين﴾ فليس ظاهراً فيما فسره صاحب الكشاف، من الجم الغفير، ولأجل ذلك فسّره حبر الأُمّة بأهل عالمي زمانهم كلهم، لا بالجم الغفير، كما فسّر به قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعٰلَمِينَ﴾ (آل عمران ـ ٤٢).

وعلى أي حال سواء أفسّرناه بالجم الغفير أم خصصناه بأهل عالمي زمانهم فإنّما هو لقرينة صارفة عن ظاهره، حيث دل القرآن على أنّ الأُمّة الإسلامية أفضل الأُمم، لقوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ (آل عمران ـ ١١٠).

ونظير تلك الآية ما دل على اصطفاء مريم على نساء العالمين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلىٰ نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ (آل عمران ـ ٤٢) فالمراد منه هو نساء عالمي أهل زمانها، لما أُثر عن النبي وآله من عدم فضلها على ابنته فاطمة ـ عليها السّلام ـ.

أخرج ابن سعد، عن مسروق، عن عائشة في حديث: انّ النبي ﷺ أسر إلى فاطمة عند مرضه وقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأُمّة، أو نساء العالمين[1].

ورواه أبو نعيم الاصفهاني أيضاً بهذه العبارة[2].

وأخرج مسلم والترمذي والبخاري في صحاحهم عن عائشة، قالت: إنّ النبي ﷺ قال لفاطمة في أُخريات أيامه: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأُمّة[3].

روى الحديث بألفاظه المختلفة العلاّمة المجلسي في بحاره، فراجع[4].

ولولا هذه المأثورات عمّن نزل عليه القرآن لكان الواجب الأخذ بظاهرها والحكم

(١ ـ ٢) الطبقات الكبرى ج٨ ص ٢٧، حلية الأولياء ج ٢ ص ٤٠.
(٣) التاج الجامع للأُصول ج ٣ ص ٣١٤.
(٤) بحار الأنوار ج٤٣ ص ٣٦.

بتفضيلها (مريم) على نساء العالمين جميعاً.

على أنّه يمكن الأخذ باطلاق قوله سبحانه: **﴿وأنّي فضّلتكم على العـٰلمين﴾** والقول بتفضيلهم على الناس كلّهم بتقريب أنّ ملاك فضلهم على غيرهم، تخصيصهم بأشياء من بين الأُمم إذ انزل عليهم المنّ والسلوى، وبعث فيهم رسلاً، وأنزل عليهم الكتب ونجّاهم من فرعون وملائه إلى غير ذلك مما خص به تلك الأُمّة من بين الناس ولا يلزم منه تفضيل واحد منهم على غيرهم [1].

وعلى أي تقدير فالمتبع هو ظاهر الآية ما لم يدل دليل على خلافه، وليست في المقام قرينة تصرف قوله سبحانه: **﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾** عن ظاهره وصريحه.

النص الثالث من القرآن على الخاتمية:

ومن النصوص قوله سبحانه: **﴿إنّ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وأنّه لكتـٰب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾** (فصّلت ٤١ ـ ٤٢).

والمقصود من «الذكر» هو القرآن، لقوله سبحانه: **﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾** (آل عمران ـ ٥٨).

وقوله سبحانه: **﴿وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (النحل ـ ٤٤).

والضمير في «لا يأتيه» يرجع إلى «الذكر» ومفاد الآية أنّ الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من أي جهة من الجهات ، فلا يأتيه البطل بأي صورة متصورة، ودونك صوره:

١ ـ لا يأتيه الباطل: لا ينقص منه شيء ولا يزيد فيه شيء.

---

(١) مجمع البيان ج١ ص ١٠٢.

٢ـ لا يأتيـه الباطل: لا يأتيـه كتاب يبطله وينسخـه بأن يجعله سـدى، فهو حق ثابت لا يبدل ولا يغير ولا يترك.

٣ـ لا يأتيـه الباطل: لا يتطـرق في اخباره عمّـا مضى ولا في اخبـاره عمّـا يجيء، الباطل، فكلّها تطابق الواقع.

وعلى أي تقديـر فمحصل الآية بحكم الاطلاق المستفـاد من قوله سبحـانه: «لا يأتيه» أنّ القرآن حق لا يدخله الباطل إلى يوم القيامة.

ويؤيـد ذلك قـوله سبحـانه: ﴿إِنَّـا نَحْنُ نَـزَّلْنَـا الـذِّكْـرَ وَ إِنَّا لَـهُ لَحَافِظُـونَ﴾ (الحجر ـ ٩) أي نحفظه عن تطرق أي بطلان إليـه إلى يوم البعث، كما هو أيضاً مقتضى اطلاقه.

والحق المطلق الذي لا يدانيه الباطل أبـداً، والمحفوظ عن تسلل البطلان إليه إلى يوم القيـامة كما هو ظاهـر الآيتين، يمتنع أن يكون حجّة محدودة، بل يكـون متبعاً لا إلى غاية خاصـة وأمد محدود، لأنّ خاصية الحق المطلق والمصون عن تطـرق البطلان مطلقاً هو كونه حجة لا إلى حـد خاص والله سبحانه عهد: ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ وَ يُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾ (الانفال ـ ٨).

فإذا كان القرآن حقاً مطلقاً مصوناً عن تسلل البطلان إليه، ومتبعاً للناس إلى يوم القيامة، يجب عند ذلك، دوام رسالته وثبات نبوّته وخاتمية شريعته.

وإن شئت قلت: إنّ الشريعة الجديدة إمّا أن تكون عين الشريعة الإسلامية الحقة المحقة التي لا يقارنها ولا يدانيها الباطل أو غيرها، فعلى الأوّل لا حاجة إلى الثانية، وعلى الثاني فـامّا أن تكون الثـانية حقّة كالأولى، فيلـزم كون المتناقضين حقـاً، أو يكون الأُولى حقّة دون الأُخرى، فهذا هو المطلوب.

والرسول ﷺ لم يزل يبيّن شريعته، بالكتاب الحق الذي لا يدانيه الباطل وبسنّته المحكمة التي لا تصدر عنه إلاّ بإيحاء منه سبحانه، كما قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُـوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيـدُ القُوَىٰ﴾ (النجم: ٣ ـ ٥) وعلى أي تقدير فـالآية

صريحة في نفي أي تشريع بعد القرآن، وشريعة غير الإسلام فتدل بالملازمة على عدم النبوّة التشريعية بعد نبوّته ﷺ.

النص الرابع من القرآن على خاتمية الرسول ﷺ:

ومن النصوص قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰدَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَن بَلَغَ**﴾ (الأنعام ــ ١٩) وفسره أمين الإسلام الطبرسي بقوله: أي لا خوف به من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، ولذا قال النبي ﷺ: من بلغه أنّي أدعو إلى أن لا إله إلاّ الله فقد بلغه، أي بلغته الحجة وقامت عليه، حتى قيل من بلغه القرآن، فكإنّما رأى محمداً ﷺ وسمع منه وحيث ما يأتي القرآن، فهو داع ونذير[1].

قوله سبحانه: ﴿**ومن بلغ**﴾ معطوف على الضمير المنصوب في قوله: ﴿**لأُنذركم**﴾ لا على الفاعل المستتر.

وقد وافاك توضيح مفاد الآية والتوفيق بينها وبين قوله سبحانه: ﴿**ولتنذر أمّ القرى ومن حولها**﴾ عند البحث عن كون رسالة الرسول عالمية[2].

النص الخامس على الخاتمية:

ومن النصوص قوله تعالى: ﴿**وما أرسلناكَ إلاّ كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ**﴾ (سبأ ـ ٢٨).

المتبادر من الآية، كون ﴿**كافة**﴾ حالاً من الناس قدمت على ذيها، وتقدير الآية: «وما أرسلناك إلاّ للناس كافة بشيراً ونذيراً».

ويحتمل كونها حالاً من الضمير المنصوب في «أرسلناك» ومفاد الآية: وما أرسلناك إلاّ أن تكفّهم وتردعهم. ولكنّه ضعيف جداً، إذ لا حاجة عندئذ إلى لفظ

---

(١) مجمع البيان ج٣ ص ٢٨٢.

(٢) راجع ص ٦٥ـ ٧٢ من كتابنا هذا.

«كافة» بعد تذييل الجملة بقوله: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ إذ لا معنى للكف والردع إلاّ تخويفهم عن عذابه وعقابه حتى يرتدعوا بالتأمل فيما أوعد الله في كتابه العزيز ولسان نبيّه ﷺ على مقترفي الجرائم، وليس ذلك إلاّ نفس الانذار الوارد في الآية:

أضف إليه أنّه لم يستعمل لفظ «كافّة» في القرآن إلاّ بمعنى عامة كقوله سبحانه: ﴿يا أيّها الّذِينَ آمَنُوا ادخُلُوا فِي السّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة ـ ٢٠٨).

وقوله عز وجل: ﴿وَ قَاتِلُوا المشرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونكُمْ كافّةً﴾ (التوبة ـ ٣٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَ مَا كَانَ المؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافّةً﴾ (التوبة ـ ١٢٢).

وكل ذلك يؤيد كون ﴿كافة﴾ بمعنى عامة حالا من الناس، والآية مع كونها دليلاً على كون رسالته عالمية، دليل على كونه مبعوثاً إلى كافة الناس إلى يوم يبعثون [١].

النص السادس على الخاتمية:

ثم إنّه سبحانه جعل نبيّه ﷺ خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب، وجعله مهيمناً على جميع الكتب النازلة من قبل.

قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَ لاتَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً وَلَو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلِكنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ﴾ (المائدة ـ ٤٨).

والمهيمن هو الرقيب الشهيد وقد فسّر بأمور أُخرى يقرب بعضها من بعض فهو

---

(١) ويؤيد ذلك ما رواه ابن سعد في «طبقاته الكبرى» عن خالد بن معدان قال: قال رسول الله ﷺ: بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب، فإن لم يستجيبوا لي فإلى قريش، فإن لم يستجيبوا لي فإلى بني هاشم، فإن لم يستجيبوا لي فإليّ وحدي.
ونقل عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال: أُرسلت إلى الناس كافة، وبي ختم النبيون (الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٢) وكل ذلك دليل على أنّ الصحابة لم يفهموا من الآية إلاّ ما استظهرناه.

مراقب أمين يشهد على الكتب النازلة قبله بالصحة في مورد، والبا لتحريف في مورد آخر. ولو أراد أهل الكتب الوصول إلى الحق الواضح لرجعوا إلى ذلك الكتاب، لأنّهم لم يؤتوا علم كتابهم كلّه، بل : ﴿أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَٰبِ﴾ (آل عمران ـ ٢٣) وأنّهم: ﴿...نسُوا حظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [١]، وكانوا: ﴿يُحرِّفونَ الكَلِمَ عن مواضِعِهِ﴾ [٢].

وفسره العلاّمة الطباطبائي بوجه آخر وقال:

هيمنة الشيء على الشيء كون الشيء ذا سلطة على الشيء في حفظه ومراقبته وأنواع التصرف فيه، وهذا حال القرآن الذي وصفه الله تعالى بأنّه تبيان كلّ شيء بالنسبة إلى ما بين يديه من الكتب السماوية، يحفظ منها الأُصول الثابتة غير المتغيرة، وينسخ منها ما ينبغي أن ينسخ من الفروع التي يمكن أن يتطرق إليه التغير والتبدل ممّا يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط التكامل بمرور الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء ـ ٩).

وقال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِها﴾ (البقرة ـ ١٠٦).

فهذه الجملة أعني قوله: ﴿ومهيمنا عليه﴾ متممة لقوله: ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ تتميم ايضاح، إذ لولاها لأمكن أن يتوهّم من تصديق القرآن للتوراة والانجيل أنّه يصدق ما فيهما من الشرائع والأحكام، تصديق إبقاء من غير تغيير وتبديل لكن توصيفه بالهيمنة يبيّن أنّ تصديقه لهما تصديق إنّهما شرائع حقّة من عند الله، وانّ لله أن يتصرف فيها ما يشاء بالنسخ والتكميل كما يشير إليه قوله سبحانه في ذيل الآية: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أُمّة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [٣].

اشارات قرآنية إلى الخاتمية:

ثم إنّ في الكتاب الحكيم آيات تشير إلى خاتمية الرسول الأكرم ﷺ وخاتمية كتابه

(١و٢) لاحظ الآية ١٣ من المائدة.

(٣) الميزان ج ٥ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

ويقف على تلك الإشارات كل من أمعن النظر في مضامينها ونذكر في المقام بعض الآيات:

١ ـ ﴿**أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتْبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلاتَكُونَنَّ مِنَ المُمتَرِينَ* وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمْتِهِ وَ هُوَ السميعُ العليمُ**﴾ (الأنعام ١١٤ـ ١١٥).

ودلالة قوله سبحانه: ﴿ **وتمّت كلمتُ ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلمْته** ﴾ على إيصاد باب الوحي وانقطاعه إلى يوم القيامة وتمامية الشرائع النازلة من الله سبحانه طوال قرون إلى سفرائه، واضحة بعد الوقوف على معنى الكلمة في القرآن.

إن «الكلمة» في القرآن قد استعملت في معان أو في مصاديق مختلفة بمعنى واحد جامع واسع، حتى استعملت في العين الخارجي.

قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عَيسى ابْنُ مَرْيَم**﴾ (آل عمران ـ ٤٥) كما استعملت في القضاء والوعد القطعي قال سبحانه: ﴿**وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ (هود ـ ١١٩) إلى غير ذلك.

لكن المراد منها في الآية هو الدعوة الإسلامية أو القرآن الكريم، وما فيه من شرائع وأحكام، والشاهد عليه الآية المتقدمة حيث قال سبحانه: ﴿**وهو الذي أنزل إليكم الكتٰب مفصّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزّل من ربّك بالحق**﴾ فالمراد من قوله: ﴿ **أنزل إليكم الكتاب**﴾ هو القرآن النازل على العالمين، ثم يقول: بأنّ الذين آتيناهم الكتاب من قبل كاليهود والنصارى إذا تخلصوا عن الهوى، يعلمون أنّ القرآن وحي إلهي كالتوراة والأنجيل وأنّه منزل من الله سبحانه بالحق، فلا يصح لأي منصف أن يتردد في كونه نازلاً منه إلى هداية الناس.

ثم يقول في الآية التالية: ﴿**وتمت كلمة ربّك**﴾ بظهور الدعوى المحمدية، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب وصارت مستقرة في محلها بعد ما كانت تسير دهراً

طويلاً في مدارج التدرج بنبوّة بعد نبوّة وشريعة بعد شريعة [١].

وهذه الكلمة الالهية أعني الدعوة الالهية المستوحاة في القرآن الكريم صدق لا يشوبه كذب وما فيه من الأحكام من الأمر والنهي، عدل لا يخالطه ظلم ولأجل تلك التامية لا تتبدل كلماته وأحكامه من بعد [٢].

وأمّا ما احتمله صاحب المنار من أنّ المراد من الكلمة ما وعد الله به نبيّه من نصره وخذلان مستهزئيه مستشهداً بقوله سبحانه: ﴿وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورون * وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغٰلِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١ـ ١٧٣) وما في معناه من الآيات، فممّا لا يلائم سياق الآيات ولا يناسب قوله: ﴿صدقاً وعدلاً﴾ ولا قوله: ﴿لا مبدّل لكلمٰته﴾ إلاّ بالتكلّف الذي ارتكبه صاحب المنار [٣].

* * *

هذا حال الخاتمية في الذكر الحكيم وقد عرفت أنّه ناطق بايصاد باب النبوّة والرسالة، وخاتميتها، وقد وردت في المقام أحاديث متواترة عن النبي الخاتم ﷺ وآله الطاهرين فلأجل ايقاف القارئ على تلكم الكلم الدرّية عقدنا الفصل التالي:

---

(١) الميزان ج٧ ص ٣٢٨، مجمع البيان ج ٢ ص ٣٥٤.

(٢) وقد استعملت الكلمات في القرآن الكريم في الشرائع الالهية قال سبحانه واصفاً مريم: ﴿وصدقت بكلمات ربّها وكتبه﴾ (التحريم ـ ١٢).

(٣) المنار ج٨ ص ١٢.

الخاتمية
في الأحاديث الإسلامية

لقد حصحص الحق بما أوردناه من النصوص القرآنية وانكشف الشك عن محيا اليقين، فلم تبق لمجادل شبهة، في أنّ الرسول ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ودينه خاتم الأديان وكتابه خاتم الكتب وقد وردت عن النبي والأئمّة من بعده نصوص في المقام تؤكد المطلب فلا بأس بالتعرض لها، وتوضيح بعضها، إذ لم نجدها مجتمعة في باب أو كتاب.

تنصيص الرسول الأكرم ﷺ على الخاتمية

١ـ خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال له علي ـ عليه السلام ـ: أخرج معك؟ فقال ﷺ :لا، فبكى علي، فقال له رسول الله ﷺ : «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبي بعدي، أو ليس بعدي نبي، أو لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي» [1].

وهذا الحديث صحيح متفق عليه بين الأُمّة، لم يشك أحد في صحة سنده ولا سنح في خاطر كاتب أن يناقش في ثبوته.

---

(١) سمّي حديث المنزلة، لأنّ النبي ﷺ نزّل فيه نفسه منزلة موسى، ونزّل علياً مكان هارون.

وحسبك أنّه أخرجه البخاري في صحيحه في غزوة تبوك [١] ومسلم في صحيحه في باب فضائل علي ـ عليه السلام ـ [٢] وابن ماجة في سننه في باب فضائل أصحاب النبي ﷺ [٣] والحاكم في مستدركه في مناقب علي ـ عليه السلام ـ [٤] وإمام الحنابلة في مسنده بطرق كثيرة [٥].

قال «ابن عبد البر» في استيعابه: هذا من أثبت الآثار وأصحها، رواه عن النبي سعد بن أبي وقاص، قال طرق حديث سعد كثيرة جداً، ذكرها ابن خيثمة وغيره ورواه ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأمّ سلمة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبد الله، وجماعة يطول ذكرهم [٦]. ورواه من أعلام الطائفة، صدوق الأُمّة في أماليه ومعانيه [٧] وشيخ الطائفة في أماليه [٨] والعلاّمة الكراجكي في كنزه [٩] وقطب الدين الراوندي في خرائجه [١٠] وابن شهر آشوب في مناقبه [١١]، وقال: وصنف أحمد بن محمد بن سعيد كتاباً في طرقه قد تلقّته الأُمّة بالقبول اجماعاً، والكاتب الاربلي في كشف الغمة [١٢]، وقد جمع العلامة المجلسي طرق الحديث من الفريقين في جامعه [١٣].

وفيما ذكرنا من المصادر غنى وكفاية، لا حاجة إلى الاستقصاء، فإن كل من

---

(١) صحيح البخاري، الجزء الثالث ص ٥٨.
(٢) صحيح مسلم، الجزء الثاني ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
(٣) سنن ابن ماجة، الجزء الأوّل ص ٢٨.
(٤) مستدرك الحاكم، الجزء الثالث ص ١٠٩ وفي مواضع اُخر.
(٥) مسند ابن حنبل، الجزء الأوّل ص ٣٣١ والجزء الثاني ص ٣٦٩ و ٤٣٧، والمغازلي في مناقبه ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ والخوارزمي في مناقبه ص ٧٦.
(٦) راجع الاستيعاب في ترجمة علي ـ عليه السّلام ـ.
(٧) أمالي الصدوق ص ٢٩، ومعاني الأخبار ص ٧٤ وقد بسط الكلام في دلالة الحديث.
(٨) أخرجه في أماليه في مواضع مختلفة، راجع ص ٢٨ و٣١ و١٥٩ و١٦٤ و١٩٣ و٢١٨ و٣٣١.
(٩) كنز الفوائد ص ٢٨٢.
(١٠) الخرائج والجرائح ص ٧٥.
(١١) مناقب ابن شهر آشوب ج١ ص ٥٢٢.
(١٢) كشف الغمة ص ٤٤.
(١٣) بحار الأنوار ج ٣٧، الباب ٥٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٨٩.

تعرض لغزوة تبوك، أو عقد باباً لفضائل مولانا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أثبته في كتابه.

ووضوح دلالة الرواية أغنانا عن البحث حولها.

٢ـ عن النبي ﷺ قال: إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين [١].

صورة أُخرى للرواية:

عن جابر عن النبي ﷺ قال: مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلاّ موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع هذه اللبنة، قال رسول الله ﷺ : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء [٢].

٣ـ انّ رسول الله ﷺ قال: لي خمسة أسماء، أنا محمد وأحمد، أنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي [٣].

٤ـ قال عرباض بن سارية: سمعت النبي ﷺ يقول: إنّي عبد الله وخاتم النبيين وانّ آدم لمنجدل في طينة وسأُخبركم من ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي.

وفي صورة أُخرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّي عبد الله وخاتم النبيين. فذكر مثله وزاد في أنّ أُمّ رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام [٤].

٥ـ وفي حديث الشفاعة: فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى اشفع لنا إلى ربّك

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٢٢٦، مسند أحمد ٢/ ٣٩٨ و ٤١٢ وراجع الدر المنثور ٥/ ٢٠٤.

(٢) التاج ٣/ ٢٢ عن البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) الطبقات الكبرى ١/ ٦٥ ـ مسند أحمد ٤/ ٨١ و ٨٤ ـ صحيح مسلم ٨/ ٨٩.

(٤) الطبقات الكبرى ١/ ٩٦ ـ مسند أحمد ٤/ ١٢٧ و ١٢٨ ـ ينابيع المودة ص ١٠ الميزان ١٩/ ٢٩٥ مع اختلاف يسير.

فليقض بيننا، فيقول: إنّي لست هناكم ائتوا محمداً ﷺ فانّه خاتم النبيين [١].

٦ـ وجاء في حديث الشفاعة: قال ﷺ : فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء غفر الله لـك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر فاشفـع لنا ربّك ألا ترى إلى ما نحن فيه [٢].

٧ـ عن أبي هريرة أنّه قال: قال ﷺ : أُرسلت إلى الناس كافة وبي ختم النبيون [٣].

٨ـ في حديث: قال رسول الله ﷺ : إنّي خاتم ألف نبي وأكثر [٤].

٩ـ قال رسول الله ﷺ : إنّ الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، قال: فشق ذلك على الناس، فقال: لكن المبشّرات، فقـالوا: يا رسول الله وما المبشّرات؟ قال: رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوّة [٥].

١٠ـ عن جابـر بن عبد الله: أنّ النبي ﷺ قال: أنا قـائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أوّل شافع ومشفع ولا فخر [٦].

١١ـ عن قتـادة أنّ النبي ﷺ قـال: كنـت أوّل النـاس في الخلق وآخـرهـم في البعث [٧].

١٢ـ عن النبي ﷺ ______ عدي وتخصم الناس بسبع ولا يجاحدك فيه أحد من قريش: انت اوهم إيما نا بالله... [٨].

١٣ـ استأذن العباس بن عبد المطلب النبي ﷺ في الهجرة، فقال لـه: يا عم أقم

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٢٤٨ وراجع صحيح البخاري ٦/ ١٠٦.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ١٠٦ ـ مسند أحمد ٢/ ٤٣٦.

(٣) الطبقات الكبرى ج١ ص ١٢٨ مسند أحمد ج ٢ ص ٤١٢.

(٤) مسند أحمد ٣/ ٧٩.

(٥) سنن الترمذي ٣/ ٣٦٤.

(٦) سنن الدارمي ١/ ٢٧، المطبوع بدمشق عام ١٣٤٩.

(٧) الطبقات الكبرى ١/ ٩٦ ـ ينابيع المودة ص ١٧ وفيه: أوّل الأنبياء في الخلق.

(٨) حلية الأولياء ١/ ٦٦.

مكانك الذي أنت به فإنّ الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوّة ثم هاجر إلى النبيﷺ وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة ... [١].

١٤ـ انّ رسول الله ﷺ قال: إنّما أخاف على أُمّتي الأئمّة المضلّين فإذا وضع السيف في أُمّتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أُمّتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أُمّتي الأوثان، وأنّه يكون في أُمّتي ثلاثون كذّابون كلّهم يزعم أنّه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أُمّتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك [٢].

١٥ـ وعنه ﷺ : فضّلت بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون [٣].

١٦ـ عن النبي ﷺ قال: في أُمّتي كذّابون دجّالون سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة وانّي خاتم النبيين لا نبي بعدي [٤].

١٧ـ سأل جابر النبي ﷺ عن أوّل شيء خلقه الله قال: هو نور نبيّك يا جابر خلقه الله ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء ... ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ومبعوثاً إلى كافة الناس أجمعين ورحمة للعالمين [٥].

٨ـ عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ... وجعل اسمي في القرآن محمداً فأنا محمود في جميع القيامة في فصل القضاء لا يشفع أحد غيري. وسمّاني في القيامة حاشراً يحشر الناس على قدمي. وسمّاني الموقف اوقف الناس بين يدي الله جل جلاله. وسمّاني العاقب أنا عقب النبيين ليس بعدي رسول وجعلني رسول الرحمة [٦].

---

(١) أُسد الغابة ٣/ ١١٠. (٢) جامع الأُصول ١٠/ ٤١٠.
(٣) جامع الصغير ٢/ ١٢٦. (٤) الدر المنثور ٥/ ٢٠٤.
(٥) ينابيع المودة ص ١٤ـ١٥.
(٦) علل الشرائع ١/ ١٢٢ ـ الخصال ٢/ ٤٢٥ ـ معاني الأخبار ٥١ ـ بحار الأنوار ١٦/ ٦٣.

١٩ـ عن أبي جعفر ـعليه السّلامـ قال في حديث: قال النبي ﷺ: أيها الناس أنّه لا نبي بعدي ولا سنّة بعد سنّتي فمن ادّعى ذلك فدعواه وبدعته في النار فاقتلوه ومن تبعه فانّه في النار. أيها الناس احيوا القصاص واحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرّقوا واسلموا وسلّموا كتب الله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

قوله ﷺ: «لا سنّة بعد سنّتي» يبطل كل شريعة سوى شريعته إلى يوم القيامة.

ورواه الكاتب الأربلي في كتابه بصورة أُخرى. قال: قال ﷺ في مرض موته والمسلمون مجتمعون حوله: «أيها الناس انّه لا نبي بعدي، ولا سنّة بعد سنّتي، فمن ادّعى ذلك فدعواه وباغيه في النار. أيها الناس احيوا القصاص واحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا واسلموا وسلّموا كتب الله: ﴿لأغلبن أنا ورسلي انّ الله قوي عزيز﴾ » (٢).

٢٠ـ عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ قال: أيها الناس انّه لا نبي بعدي ولا أُمّة بعدكم ألاّ فأعبدوا ربّكم ... (٣).

٢١ـ عن علي ـعليه السّلام ـ قال: قال رسول الله ﷺ: أنا خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين (٤).

٢٢ـ عن النبي ﷺ أنّه خطب في أوسط أيام التشريق فقال: إنّ الله عزّ وجلّ حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا وبلدكم هذا إلى يوم تلقونه ألاّ فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدي ولا أُمّة بعدكم ثم رفع يديه حتى أنّه ليرى بياض ابطيه ثم قال: اللّهمّ اشهد انّي قد بلّغت (٥).

---

(١) الفقيه ٤/ ١٦٣ ـ وسائل الشيعة ١٨/ ٥٥٥.
(٢) كشف الغمة ج١ ص ٢١ـ البحار ج٢٢ ص ٥٣١.
(٣) الخصال ١/ ٣٢٢ ـ وسائل الشيعة ١/ ١٥.
(٤) عيون أخبار الرضا ٢/ ٤٧.
(٥) الخصال ٢/ ٤٨٧ وفي طبعة أُخرى ص ٨٤.

٢٣ـ عن أبي أُمامة قـال: كنّا ذات يوم عند رسول الله ﷺ جلوساً فجاءنا علي بن أبي طالب ـ عليه السّلام ـ واتفق من رسول الله ﷺ قيام فلمّـا رأى علياً جلـس فقال يا ابن أبي طالب: أتعلم لم جلست؟ قـال: اللّهمّ لا، فقال ﷺ : ختمت أنـا النبيين وختمت أنت الوصيين ... [١].

٢٤ـ عن أبي جعفـر محمد بن علي ـ عليهما السّلام ـ أنّه قـال حج رسول الله ﷺ من المدينة ـ وساق قصة غدير خم وخطبة النبي فيها ـ وقال: بي والله بشّر الأوّلون من النبيين والمرسلين وأنا خـاتم النبيين والمرسلين والحجة على جميع المخلوقين مـن أهل السموات والأرضين فمن شك في هـذا فهو كافر كفـر الجاهلية الأُولى ومن شك في قولي هـذا فقد شك في الكل، والشاك في ذلك فهو في النار [٢].

٢٥ـ عن رسول الله ﷺ في حديث: انّ الله تعالى أوحى إليّ أن اتخذ علياً أخاً كما أنّ مـوسى اتخذ هارون أخـاً واتخذ ولـده ولداً فقـط طهرتهم كما طهـرت ولد هـارون إلاّ أنّي ختمت بك النبيين فلا نبي بعدك فهم الأئمّة الهادية ... [٣].

٢٦ـ عن علي بن هلال عن أبيـه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو في الحالة التي قبض فيهـا فإذا فاطمـة عند رأسه فبكت حتـى ارتفع صوتها فرفـع رسول الله ﷺ إليها رأسه وقال:... نحـن أهل بيت قد أعطانا الله عزّ وجلّ سبـع خصال لم يعط أحداً قبلنا ولا يعطي أحداً بعدنا أنا خاتم النبيين وأكرم النبيين على الله عزّ وجلّ ... [٤].

٢٧ـ عن النبي ﷺ قال: أنا الأوّل والآخر [٥].

قـال الأربلي في كشف الغمة في ذيـل هذا الحديث: لأنّـه أوّل في النبوّة وآخـر في البعثة.

٢٨ـ عن أنس في حديث طويل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا خاتم الأنبياء

---

(١) تفسير الفرات ص ٨٧ ـ أمالي الطوسي ص ٣٠٥ مع تفاوت يسير.
(٢) الاحتجاج ص ٣٧ ـ مستدرك الوسائل ٣/ ٢٤٧.
(٣) الاحتجاج: ٦٨. (٤) كشف الغمة ٣/ ٣٦٩. (٥) كشف الغمة ١/ ١٧.

وأنت يا علي خاتم الأولياء [١].

٢٩ـ روي عن رسول الله ﷺ في أدعية أيام شهر رمضان: اللّهمّ اجعلني فيه محباً لأوليائك ومعادياً لأعدائك مستناً بسنّة خاتم أنبيائك يا عاصم قلوب النبيين [٢].

٣٠ـ عن علي بن إبراهيم بن هاشم في حديث: انّ اليهود أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد إلى ما تدعو؟ قال: إلى شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وأنّي رسول الله ... واخبركم عالم منكم جاء كم من الشام فقال: تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور لنبي يبعث في هذه الهجرة مخرجه مكة ومهاجره هاهنا وهو آخر الأنبياء وأفضلهم يركب الحمار ... [٣].

٣١ـ عن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : أنا خاتم الأنبياء وأنت يا علي خاتم الأوصياء ... [٤].

٣٢ـ روى السيد ابن طاووس في اقباله متن الصحيفة التي ورثها الخلف عن السلف من الأنبياء وفيها: ... أكمل بمحمد ﷺ وبما أرسله به من بلاغ وحكمة ديني واختم به أنبيائي ورسلي فعلى محمد وأُمّته تقوم الساعة [٥].

٣٣ـ عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ قال: قال جدي رسول الله ﷺ : «أيها الناس حلالي حلال إلى يوم القيامة وحرامي حرام إلى يوم القيامة ألا وقد بيّنهما الله عزّ وجلّ في الكتاب وبيّنتهما لكم في سنّتي وسيرتي» [٦].

٣٤ـ قال رسول الله ﷺ كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي

---

(١) نور الثقلين ٤/ ٢٨٤.

(٢) زاد المعاد ص ١٧٤ دعاء اليوم الخامس والعشرين.

(٣) اثبات الهداة ج١ ص ٣٧٤ وراجع ج١ ص ٣٨٧.

(٤) احقاق الحق ج٤ ص ١٢٠.

(٥) اقبال السيد ابن طاووس ص ٧٣٤ طبعة تبريز وص ٥٠٩ طبعة طهران.

(٦) كنز الفوائد ص ١٦٤ وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٢٤.

خلفه نبي، وأنّه لا نبي بعدي وسيكون بعدي خلفاء [١].

تنصيص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على الخاتمية

هذا أمير المؤمنين باب علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وموضع سره فقد نص في غير واحد من خطبه على كون الرسول الأكرم خاتماً لمن سبق وكتابه خاتماً للتشريع ودونك نصوصه الناصعة ونصوص أولاده الطاهرين:

٣٥ـ قال علي ـعليه السلام ـ: إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لانجاز عدّته وإتمام نبوّته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده ... [٢].

٣٦ـ وعنه ـعليه السلام ـ: اجعل شريف صلواتك ونامي بركاتك على محمد صلى الله عليه وآله وسلم عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق المعلن الحق بالحق ... [٣].

قوله: «الفاتح لما انغلق» يريد لما كانت أبواب القلوب قد انغلقت بأقفال الضلال عن طوارق الهداية، فافتتحها بآيات نبوّته، فأعلن الحق، وأظهره بالحجة والبرهان.

وأمّا ما رواه الشيخ والسيد في زيارة مولانا أمير المؤمنين: «السلام على رسول الله، أمين الله على وحيه، وعزائم أمره، الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كلّه ورحمة الله وبركاته» فالمراد منه: الفاتح لما استقبل من أبواب الهداية والبركات المعنوية، فهو صلى الله عليه وآله وسلم وإن ختم ما سبق من أبواب الهداية، فلا يمكن الاهتداء بتوراة موسى ولا بانجيل المسيح، إلاّ أنّه فتح أمام البشر أبواباً للهداية بقرآنه، وسنّته وعمله وتقريره وأوصيائه.

٣٧ـ وعنه ـعليه السلام ـ: أيها الناس خذوها من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم انّه يموت من

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم راجع جامع الأُصول ج ٤ ص ٤٠.

(٢) نهج البلاغة الخطبة الأُولى.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٦٩.

مات منّا وليس بميت ... [١].

٣٨ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ: اختار آدم ـ عليه السّلام ـ خيرة من خلقه ... فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده ولم تخلهم بعد أن قبضه ممّا يؤكد عليهم حجّة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتى تمّت بنبينا محمد ﷺ حجّته وبلغ المقطع عذره ونذره ... [٢].

٣٩ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ: أرسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الألسن فقفى به الرسل وختم به الوحي ... [٣].

٤٠ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ: أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته ... [٤].

٤١ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ: ثم إنّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه واصفاه خيرة خلقه وأقام دعائمه على محبّته أذل الأديان بعزته، ووضع الملل برفعه وأهان أعدائه بكرامته، وخذل محاديه بنصره وهدم أركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش من حياضه، وأتاق الحياض لمواتحه.

ثم جعله لا إنفصام لعروته، ولا فك لحلقته، ولا إنهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا انقلاع لشجرته، ولا انقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذ لفروعه، ولا ضنك لطرقه، ولا وعوثة لسهولته، ولا سواد لوضحه، ولا عوج لإنتصابه، ولا عصل في عوده، ولا وعث لفجه، ولا انطفاء لمصابيحه، ولا مرارة لحلاوته.

وقال عليه السلام وهو يصف القرآن:

ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه،

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٣.
(٢) نهج البلاغة الخطبة ٨٧.
(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٢٩.
(٤) نهج البلاغة الخطبة ١٦٨.

وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءاً لا تخشى أسقامه، وعزّاً لا تهزم أنصاره وحقّاً لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون [١].

٤٢ـ ومن كلام له ـ عليه السّلام ـ وهو يلي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه:

بأبي أنت وأُمّي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء خصصت حتى صرت مسلياً عمّن سواك، وعمت حتى صار الناس فيك سواء ... [٢].

٤٣ـ وقال ـ عليه السّلام ـ في خطبة الوسيلة: فقال وقد حشده المهاجرون والأنصار وانغصت بهم المحافل: أيها الناس إنّ علياً منّي كهارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي ... [٣].

٤٤ـ ومن خطبة له ـ عليه السّلام ـ: الحمد الله علا فاستعلى ودنا فتعالى وارتفع فوق كل منظر وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وحجّة الله على العالمين ... [٤].

٤٥ـ وقال ـ عليه السّلام ـ ذات يوم على منبر الكوفة: أنا سيد الوصيين... أنا وارث علم الأوّلين وحجة الله على العالمين بعد الأنبياء ومحمد بن عبد الله خاتم النبيين... [٥].

٤٦ـ وفي بعض دعائه ـ عليه السّلام ـ: وربّ الملائكة أجمعين وربّ محمد ﷺ خاتم

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٢٣٠ ومجالس المفيد ص ٥٢٧ والبحار ج٢٢ ص ٥٢٧.

(٣) الكافي ٨/ ٢٦.

(٤) الكافي ٨/ ٦٧ ـ نهج السعادة الخطبة ١ / ١٨٨.

(٥) غاية المرام ص ٤٧. أمالي الصدوق ص ١٧.

النبيين والمرسلين وربّ الخلق أجمعين [١].

٤٧ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ في بعض خطبه: أيها الناس عليكم بالطاعة والمعرفة لمن لا تعذرون بجهالته فإنّ العلم الذي هبط به آدم ـ عليه السّلام ـ وجميع ما فضّلت به النبييون إلى محمد خاتم النبيين في عترة محمد ﷺ ... [٢].

٤٨ـ وفي بعض احتجاجاته: أمّا رسول الله فخاتم النبيين ليس بعده نبي ولا رسول وختم برسول الله الأنبياء إلى يوم القيامة [٣].

٤٩ـ وقال ـ عليه السّلام ـ في بعض خطبه: وأشهد أنّ محمداً رسول الله ﷺ خاتم النبيين وحجّة الله على العالمين [٤].

٥٠ـ عن الأصبغ بن نباته قال: إنّ أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ خطب ذات يوم فحمد الله و أثنى عليه وصلّى على النبي ﷺ ثم قال: أيها الناس اسمعوا مقالتي ... ومنّا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام وأُمناء الكتاب ... [٥].

٥١ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ: ختم محمد ألف نبي واني ختمت ألف وصي واني كلّفت ما لم يكلّفوا [٦].

٥٢ـ عن جابر بن عبد الله في حديث: فخرّ علي ـ عليه السّلام ـ ساجداً ثم قال: الحمد لله الذي أنعم عليّ بالإسلام وعلّمني القرآن وحبّبني إلى خير البرية وخاتم النبيين وسيد المرسلين إحساناً منه وفضلاً منه عليّ... [٧].

٥٣ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ في حديث: فخررت ساجداً لله تعالى وحمدته على ما أنعم به

---

(١) الصحيفة العلوية دعاء اليوم السادس والعشرين.

(٢) كشف اليقين ص ٢٤ ـ تفسير القمي ص ٣٤٣ ـ غاية المرام ص ٣٥٨ ـ نهج السعادة الخطب ٣/ ١٨ نقلاً عن غيبة النعماني وارشاد المفيد ومسترشد الطبري.

(٣) كتاب سليم بن قيس ص ٩٧ ـ الاحتجاج ١/ ٢٢٠ الطبع الحديث.

(٤) الوافي ج ١٤ ص ١١.

(٥) كشف الغمة ١/ ٥٠٦.

(٦) نور الثقلين ٤/ ٢٨٤.

(٧) غاية المرام ص ١٢٧.

عليّ من الإسلام والقرآن وحبّبني إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين [١].

تنصيص فاطمة الزهراء ـ عليها السلام ـ على الخاتمية:

٥٤ ـ عن أسماء بنت عميس قالت حدثتني فاطمة ـ عليها السلام ـ لما حملت بالحسن وولدته جاء النبي ﷺ ... ثم هبط جبرئيل فقال: يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول: علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي بعدك سم ابنك هذا باسم ابن هارون... [٢].

٥٥ ـ عن فاطمة الزهراء ـ عليها السلام ـ في بعض دعواتها: اللّهمّ صلّي على محمد وآل محمد صلاة يشهد بها الأوّلون مع الأبرار وسيد المتقين وخاتم النبيين وقائد الخير ومفتاح الرحمة [٣].

تنصيص السبط المجتبى عليه السلام على الخاتمية:

٥٦ ـ عن الحسن ـ عليه السلام ـ في بعض خطبه: أنا ابن نبي الله ... أنا ابن خاتم النبيين وسيد المرسلين [٤].

٥٧ ـ عن سليم بن قيس قال: قام الحسن بن علي بن أبي طالب ـ عليهما السلام ـ على المنبر حين اجتمع مع معاوية وأصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس انّ معاوية زعم انّي رأيته للخلافة أهلاً ولم أر نفسي أهلاً وكذب معاوية... وقد ترك الأُمّة علياً ـ عليه السلام ـ وقد سمعوا رسول الله ﷺ يقول لعلي ـ عليه السلام ـ : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير النبوّة فلا نبي بعدي... [٥].

٥٨ ـ عن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ عليهما السلام ـ قال: جاء نفر إلى رسول

---

(١) غاية المرام ص ٥٥٢.
(٢) عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٥.
(٣) مقباس المصابيح ص ١١٣.
(٤) مقتل الخوارزمي ١/ ١٢٦.
(٥) مكاتيب الأئمة ٢/ ٢٤.

الله ﷺ فقال: يا محمد إنّك الذي تزعم أنّك رسول الله وأنّك الذي يوحى إليك كما أوحى الله إلى موسى بن عمران فسكت النبي ساعة ثم قال: نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا خاتم النبيين و إمام المتقين ورسول ربّ العالمين... [١].

تنصيص الإمام سيد الشهداء عليه السلام على الخاتمية

٥٩ـ في حديث الأعمش عن الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ قال: فأخبرني يا رسول الله هل يكون بعدك نبي؟ فقال لا أنا خاتم النبيين لكن يكون بعدي أئمّة قوّامون بالقسط بعدد نقباء بني اسرائيل... [٢].

٦٠ـ وفي دعائه ليوم عرفة: الحمد لله حمداً يعادل حمد ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين وصلّى الله على خيرته محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين المخلصين.

وقوله: وربّ محمد خاتم النبيين وآله المنتجبين ومنزل التوراة والانجيل والزبور والقرآن الكريم [٣].

٦١ـ وقال أيضاً في ذلك الدعاء: اللّهمّ صلّ على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين [٤].

٦٢ـ وفي بعض أشعاره:

أبي علي وجدي خاتم الرسل والمرتضون لدين الله من قبلي [٥]

تنصيص الإمام زين العابدين عليه السلام على الخاتمية

٦٣ـ قال في بعض دعواته: فختم بنا على من ذرع وجعلنا شهداء على من

---

(١) البرهان ٢/ ٤١.

(٢) المناقب للمازندراني ٢/ ٣٠٠ ـ اثبات الهداة ٢/ ٥٤٤.

(٣) الاقبال ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣. (٤) الاقبال ص ٣٤٣.

(٥) كشف الغمة ٢/ ٢١٣ ـ بحار الأنوار ٧٨/ ١٢٥ وفي طبع الكمباني ١٨/ ١٥٠.

جهد[١].

٦٤ـ وقال: اللّهمّ صلّ على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين واعذنا وأهالينا واخواننا وجميع المؤمنين والمؤمنات ممّا استعذنا منه [٢].

٦٥ـ وقال: اللّهمّ صلّ على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين [٣].

٦٦ـ وقال: اللّهمّ لك الحمد أن خلقت فسوّيت وقدرت وقضيت وأمت وأحييت... فصلّ على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين [٤].

٦٧ـ وقال: واجمع بيني وبين المصطفى وآله خيرتك من خلقك وخاتم النبيين محمد ... [٥].

تنصيص الإمام أبي جعفر الباقر عليه‌السلام على الخاتمية

٦٨ـ عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ في حديث: لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيّكم الأنبياء [٦].

٦٩ـ وعنه ـ عليه السلام ـ في حديث آخر: ثم إنّ الله عزّ وجلّ أرسل عيسى بن مريم إلى بني اسرائيل خاصة فكانت نبوّته ببيت المقدس وكان من بعده الحواريون اثنى عشر فلم يزل الإيمان يستتر في بقية أهله منذ رفع الله عيسى وأرسل الله تبارك وتعالى محمداً إلى الجن والانس عامة وكان خاتم الأنبياء وكان من بعده الاثنا عشر أوصياء [٧].

٧٠ـ وعنه ـ عليه السلام ـ في دعاء أيام شهر رمضان: اللّهمّ ربّ الفجر وليال عشر... وربّ خاتم النبيين صلواتك عليه ... [٨].

---

(١) الصحيفة السجادية الدعاء ١٢. (٢) الصحيفة السجادية الدعاء ١٧.

(٣) ملحقات الصحيفة السجادية دعاء يوم الثلاثاء.

(٤) ملحقات الصحيفة السجادية دعاء يوم الأربعاء.

(٥) مصباح المتهجد ص ٤٠٨ دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٦) الكافي ١/ ١٧٧ ـ الوافي ج٢ ص ١٩. (٧) اكمال الدين ص ١٢٧.

(٨) الاقبال ص ٩١.

٧١ـ وعنه في زيارة الحسين في عاشوراء: السلام عليك يا مولاي يا أبا عبد الله يا ابن خاتم النبيين ويا بن سيد الوصيين ويا بن سيدة نساء العالمين [١].

تنصيص الإمام الصادق عليه السلام على الخاتمية

٧٢ـ عن الصادق في حديث: فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة... [٢].

٧٣ـ عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة لا يكون غيره ولا يجيء غيره [٣].

٧٤ـ قال ـ عليه السلام ـ: بعث أنبياءه ورسله ونبيه محمداً فأفضل الدين معرفة الرسل وولايتهم وأخبرك أنّ الله أحلّ حلالاً وحرّم حراماً إلى يوم القيامة [٤].

٧٥ـ عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ: انّ بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ فقال: إنّي كنت أوّل من آمن بربي... [٥].

٧٦ـ قال له ـ عليه السلام ـ قائل: علّمني دعاءً؟، فقال: أين أنت من دعاء الالحاح، فقال له الطالب: وما دعاء الالحاح؟ فقال له: تقول: اللّهمّ ربّ السموات السبع وما فيهن وربّ الأرضين السبع وما فيهن وربّ العرش العظيم وربّ محمد خاتم النبيين أسألك باسمك... [٦].

٧٧ـ وقال ـ عليه السلام ـ في كيفية زيارة الحسين ـ عليه السلام ـ في حديث: ثم امش وقصر خطاك حتى تستقبل القبر واجعل القبلة بين كتفيك واستقبل بوجهك وجهه وقل: السلام عليك من الله والسلام على محمد أمين الله على رسله وعزائم أمره الخاتم لما

---

(١) هدية الزائرين ص ١٣٥ ـ ١٣٧.
(٢) الكافي ٢/ ١٧ ـ المحاسن ص ١٩٣.
(٣) الكافي ١/ ٥٧.
(٤) البحار ج ٢٤ ص ٢٨٨.
(٥) الكافي ٢/ ١٠.
(٦) قرب الاسناد ص ٤ ـ ٥.

سبق والفاتح لما استقبل... اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد صاحب ميثاقك وخاتم رسلك وسيد عبادك... [١].

٧٨ـ عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق ـعليه السلامـ يقول: إنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً فختم به الأنبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده أحل فيه حلالاً وحرّم حراماً، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة... [٢].

٧٩ـ وعنه ـعليه السلامـ: إذا أردت زيارة قبر أمير المؤمنين فتوضّأ واغتسل وامش على هيئتك وقل... السلام من الله والتسليم على محمد أمين الله على رسالته وعزائم أمره ومعدن الوحي والتنزيل الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل [٣].

٨٠ـ عن أبي عبد الله ـعليه السلامـ أنّه قال: يستحب أن يصلّي على النبي ﷺ بعد العصر يوم الجمعة بهذه الصلاة: اللّهمّ انّ محمداً ﷺ كما وصفته في كتابك... وأنّه رسولك وخاتم النبيين وجاء بالحق من عندك وصدق المرسلين [٤].

٨١ـ وقال في تلك الصلاة أيضاً: اللّهمّ واجعل صلاتك وغفرانك... وصلوات ملائكتك ورسلك وأنبيائك... على محمد بن عبد الله سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين... [٥].

٨٢ـ وعنه ـعليه السلامـ في زيارة الحسين المشهورة بوارث: السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا سيد المرسلين [٦].

٨٣ـ عن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله ـعليه السلامـ يقول: إنّ الله ختم بنبيّكم النبيين فلا نبي بعده أبداً وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً وأنزل فيه

---

(١) كامل الزيارات ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٢) تفسير النعماني ص ٣ ـ الميزان ٣/ ٨١ نقلاً منه.
(٣) تهذيب الأحكام ٧/ ٢٥ـ فرحة الغري ص ٣٣.
(٤) مصباح المتهجد ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٥) مصباح المتهجد ص ٢٧٢.
(٦) مصباح المتهجد ص ٥٠٠.

تبيان كل شيء... [١].

٨٤ـ عن الصادق ـ عليه السلام ـ: إذا زرت جانب النجف فزر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ فإنّك زائر الآباء الأوّلين ومحمد ﷺ خاتم النبيين وعلياً سيد الوصيين وانّ زائره يفتح له أبواب السماء فلا تكن على الخير نوماً [٢].

٨٥ـ عن الصادق ـ عليه السلام ـ: من قال عند غروب الشمس في كل يوم: يا من ختم النبوّة بمحمد ﷺ اختم لي في يومي هذا بخير وسنّتي بخير وعمري بخير... [٣].

٨٦ـ عن الصادق ـ عليه السلام ـ: كان علي يرى مع رسول الله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت قال: وقال له ﷺ: لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصي نبي ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء و إمام الاتقياء [٤].

٨٧ـ وروي عنه ـ عليه السلام ـ في كيفية تشهّد الصلاة: فإذا جلست في الرابعة قلت: بسم الله وبالله... السلام على محمد بن عبد الله خاتم النبيين لا نبي بعده والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم تسلّم [٥].

٨٨ـ قال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: إنّ تبّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي أمّا أنا لو أدركته لخرجت معه وكتب كتاباً إلى النبي ﷺ وعنوان الكتاب: إلى محمد بن عبد الله خاتم النبيين ورسول ربّ العالمين من تبّع الأوّل [٦].

٨٩ـ روى عاصم بن حميد قال: قال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ: إذا حضر أحدكم الحاجة فليصم... ويقول ـ وذكر دعاءاً طويلاً نذكر منه موضع الحاجة ـ: اللّهمّ إنّي

---

(١) الوافي الجزء الثاني من ج١ ص ١٤٤.

(٢) مزار ابن المشهدي مخطوط ص ١٤ ـ تحفة الزائر ص ٦١.

(٣) فلاح السائل ص ٢٠٢ ـ بحار الأنوار ٨٦/ ٢٦٧.

(٤) الشرح الحديدي على نهج البلاغة ١٣/ ٢١٠ ـ غاية المرام ص ٤٧.

(٥) وسائل الشيعة ٤/ ٩٨٩ ـ ٩٩٠.

(٦) اثبات الهداة ١/ ٤٠١.

أتقرّب إليك بنبيّك ورسولك وحبيبك خاتم النبيين وسيد المرسلين و إمام المتقين [١].

٩٠ـ عن الفضيل قال: قال أبو عبد الله ـ عليه السّلام ـ: لم يبعث الله عزّ وجلّ من العرب إلاّ خمسة أنبياء هوداً وصالحاً و إسماعيل وشعيباً ومحمداً خاتم النبيين [٢].

٩١ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ في زيارة أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ: السلام من الله على رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين و إمام المتقين... الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل... [٣].

٩٢ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ في زيارته التي زار بها أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ في مولد النبي ﷺ: السلام عليك يا من بات على فراش خاتم الأنبياء ووقّاه بنفسه عند مبارزة الأعداء وفي نسخة (شر الأعداء) [٤].

٩٣ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ أيضاً فيها: السلام عليك يا وارث علم النبيين ومستودع علم الأوّلين والآخرين وصاحب لواء الحمد وساقي أوليائه من حوض خاتم النبيين السلام عليك يا يعسوب الدين وقائد الغر المحجّلين ووالد الأئمّة المرضيين ورحمة الله وبركاته [٥].

٩٤ـ وعنه ـ عليه السّلام ـ في دعائه بعد زيارة أمير المؤمنين: أسألك بحق محمد خاتم النبيين وعلي أمير المؤمنين... [٦].

٩٥ـ وروى بريد عن أبي جعفر وأبي عبد الله في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيّ﴾ قولها: «لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيّكم الأنبياء» [٧].

---

(١) اثبات الهداة ٢/ ٤٧٢.
(٢) البحار ١١/ ٤٢ نقلاً عن قصص الأنبياء.
(٣) البخار ١٠٠/ ٣٣٦.
(٤) بحار الأنوار ١٠٠/ ٣٧٤ ـ زاد المعاد ص ٣٤٣.
(٥) بحار الأنوار ١٠٠/ ٣٧٥ ـ زاد المعاد ص ٣٤٥.
(٦) تحفة الزائر ص ١٠٠.
(٧) الكافي ج ١٥ ص ١٧٧ ومضى ما يقرب منه في الحديث رقم ٨٤.

تنصيص الإمام موسى بن جعفر -عليهما السّلام- على الخاتمية

٩٦- عن علي بن رئاب عن العبد الصالح -عليه السّلام- قال: ادع بهذا الدعاء في شهر رمضان مستقبل دخول السنة... اللّهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع وما فيهنّ وما بينهنّ... وربّ محمد ﷺ وأهل بيته سيد المرسلين وخاتم النبيين... [١].

٩٧- عن إبراهيم بن أبي البلاد قال: قال لي أبو الحسن -عليه السّلام-: ... فكتب لي وأنا قاعد بخطه وقرأه عليّ: إذا وقفت على قبره (رسول الله) ﷺ فقل: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له... وأشهد أنّك خاتم النبيين... [٢].

٩٨- عن موسى بن جعفر -عليهما السّلام- : انّ رجلاً سأل أبا عبد الله -عليه السّلام- ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة إلاّ غضاضة؟ قال: لأنّ الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة [٣] ودلالته على الخاتمية واضحة.

تنصيص الإمام علي بن موسى الرضا -عليهما السّلام- على الخاتمية

٩٩- خطب الرضا -عليه السّلام- هذه الخطبة: الحمد لله حمد في الكتاب نفسه وافتتح بالحمد كتابه... وصلّى الله على محمد خاتم النبوّة وخير البرية وعلى آله آل الرحمة وشجرة النعمة... [٤].

١٠٠- وقال -عليه السّلام- في حديث وصف الإمامة والإمام: فهي في ولد علي -عليه السّلام- خاصة إلى يوم القيامة إذ لا نبي بعد محمد ﷺ ... [٥].

١٠١- وعنه عن آبائه عن علي -عليهم السّلام- قال: قال رسول الله ﷺ : يا علي ما

---

(١) الكافي ٤/ ٧٢- الفقيه ٢/ ١٠٣.

(٢) كامل الزيارات ص ١٧ . (٣) عيون أخبار الرضا ٢/ ٨٧.

(٤) الكافي ٥/ ٣٧٣. (٥) عيون أخبار الرضا ١/ ٢١٨.

سألت ربّي شيئاً إلاّ سألت لك مثله غير أنّـه قال: لا نبوّة بعدك أنت خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين [١].

ابهام وايضاح:

كون علي -عليه السّلام- خاتـم الوصيين لا ينـافي كون الحسن والحسين والأئمّـة من بعده أوصياء أيضـاً، فإنّ الوصايـة عن الأنبياء قد ختمت بعلي، فـلا وصي نبي بعد علي -عليه السّلام- وأمّا الأئمّة مـن بعده فهم أوصياء وصيّه، أو أوصيـاء وصي وصيّه، لا أوصياء النبي نفسه، كما لا يخفى.

ويمكن أن يقـال هنـا وصايـة واحدة متعلقـة بعلي وأولاده -عليهم السّلام- فوصـاية الحسن والحسين والأئمّة مـن بعده بنفس الوصـاية المتعلقة بـأبيهم أمير المؤمنين، فكون علي خاتـم الأوصياء، كنايـة عن كـون الوصايـة المتعلقة بـه وبأولاده قد ختـم بها باب الوصايـة السماوية وبذلك يسقط استـدلال الفرقة الضالـة بهذا الحديث على نفي كون «خاتم» بمعنى «آخر» قائلة بأنّه لـو كان «الخاتم» بمعنى «الآخر» لزم سلب الولاية عن الأئمّة الآخرين، وقد عرفت منّـا فقه الحديث وليس استدلالهم بهذا إلاّ كتمسّك الغريق بالطحلب.

١٠٢ـ عن أبي الحسن الـرضا -عليه السّلام- قال: إنّما سمّـي أُولوا العـزم أُولي العزم لأنّهم كانوا أصحاب الشرائع والعـزائم وذلك أنّ كل نبي بعد نوح -عليه السّلام- كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل -عليه السّلام-، وكل نبي كان في أيام إبراهيم وبعده كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى، وكل نبي كان في زمن موسى وبعده كـان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتـابه إلى أيام عيسى، وكل نبي كان في أيـام عيسى وبعده كـان على منهاج عيسى وشريعته وتـابعاً لكتابـه إلى زمن نبيّنا محمد ﷺ فهؤلاء الخمسة أُولوا العزم فهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد ﷺ

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢/ ٧٣.

لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمن ادعى بعده نبوّة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه [١] وقد نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد.

١٠٣ـ عن الفضل بن شاذان قال: سأل المأمون علي بن موسى الرضا ـ عليهما السلام ـ أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار فكتب ـ عليه السلام ـ له: أنّ محض الإسلام شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له... وأنّ محمداً عبده ورسوله وأمينه وصفيّه وصفوته من خلقه وسيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين لا نبي بعده ولا تبديل لملّته ولا تغيير لشريعته وأنّ جميع ما جاء به محمد بن عبد الله هو الحق المبين والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله وأنبيائه وحججه والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأنّه المهيمن على الكتب كلّها وأنّه حق من فاتحته إلى خاتمته ... [٢].

١٠٤ ـ وعنه ـ عليه السلام ـ في حديث: حتى انتهت رسالته إلى محمد المصطفى ﷺ فختم به النبيين وفي نسخة (المرسلين) وقفى به على آثار المرسلين وبعثه رحمة للعالمين... [٣].

١٠٥ـ صورة ما كان على ظهر العهد الذي عهده المأمون إليه بخطه ـ عليه السلام ـ : الحمد لله الفعّال لما يشاء... وصلواته على نبيّه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين أقول وأنا علي بن موسى بن جعفر... [٤].

١٠٦ـ روى الصدوق مسنداً عن علي بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ عن أبيه عن آبائه عن فاطمة بنت النبي ﷺ لما حملت بالحسن وولدته... ثم هبط جبرئيل فقال: يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام، ويقول: علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢/ ٨٠.
(٢) عيون أخبار الرضا ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢.
(٣) عيون أخبار الرضا ٢/ ١٥٤.
(٤) المناقب للمازندراني ٤/ ٣٦٤ ـ كشف الغمة ٣/ ١٧٧.

بعدك، سم ابنك باسم ولد هارون، فقال النبي ﷺ وما اسم ابن هارون؟ قال شبّر، قال النبي ﷺ : لساني عربي، قال جبرئيل: سمّه الحسن [١].

تنصيص الإمام أبي محمد الجواد عليه السلام على الخاتمية

١٠٧ـ جاء في بعض دعواته: بسم الله قوي الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أشهد أنّ نوحاً رسول الله وانّ إبراهيم خليل الله وانّ موسى كليم الله ونجيّه وأنّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته صلوات الله عليه وعليهم أجمعين وأنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده [٢].

تنصيص الإمام الهادي عليه السلام على الخاتمية

١٠٨ـ عن عبد العظيم الحسني قال: دخلت على سيدي علي بن محمد ـ عليهما السلام ـ فلمّا أبصرني قال لي: مرحباً يا أبا القاسم أنت وليّنا حقاً قال: فقلت له: يا بن رسول الله انّي أُريد أن أعرض عليك ديني... أنّي أقول: إنّ الله واحد ليس كمثله شيء... وأنّ محمداً ﷺ عبده ورسوله خاتم النبيين ولا نبي بعده إلى يوم القيامة وأنّ شريعته خاتمة الشرائع فلا شريعة بعدها إلى يوم القيامة ... [٣].

١٠٩ـ عن علي بن محمد الهادي ـ عليهما السلام ـ في زيارته التي زار بها علياً ـ عليه السلام ـ في يوم الغدير في السنة التي أشخصه المعتصم... السلام على محمد رسول الله خاتم النبيين وسيّد المرسلين وصفوة ربّ العالمين... والخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل... [٤].

---

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ب ١ ص ٢٥.

(٢) مهج الدعوات ص ٤٠ ـ بحار الأنوار ٩٤/ ٣٥٩.

(٣) اكمال الدين ص ٢١٤ الطبع الحجري.

(٤) بحار الأنوار ١٠٠/ ٣٦٠.

تنصيص الإمام العسكري عليه السلام على الخاتمية

١١٠ـ عن الإمام العسكري ـعليه السلامـ قال: لقد رامت الفجـرة ليلة العقبة قتل رسول الله صلى الله عليه وآله على العقبة ورام من بقي من مردة المنافقين بالمدينة قتل علي بن أبي طالب فما قدروا مغالبة ربّهم، حملهم على ذلـك حسدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله في علي ـعليه السلامـ لمّا فخم من أمره وعظم من شأنه من ذلك أنّه لما خـرج من المدينة وقد كان خلفه عليها... قال أكثر المنافقين ملّه وسأمه وكره صحبته، فتبعه علي ـعليه السلامـ حتى لحقه ... فقال له: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي ... [١].

تنصيص الحجّة القائم عليه السلام على الخاتمية

١١١ـ قال ـعليه السلامـ في الصلـوات المرويـة عنـه التي خـرجـت إلى أبي الحسن الضراب الاصبهاني بمكة: بسـم الله الرحمن الرحيم اللّهمّ صلّ على محمـد سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة ربّ العالمين... [٢].

١١٢ـ وفي دعائه الذي قرأه في شهر رجب في مسجد السهلة: يا أسمع السامعين ويا أبصر المبصريـن ويا أنظر النـاظريـن ويا أسرع الحاسبين ويا أحكـم الحاكمين ويا أرحم الراحمين صلّ على محمد خاتـم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار... [٣].

١١٣ـ وفي جوابه لكتاب أحمد بن اسحاق: بسـم الله الرحمن الرحيم أتاني كتابك أبقاك الله... ثمّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين وتمّم به نعمته وختـم به أنبياءه وأرسله إلى الناس كافة وأظهر من صدقه ما أظهر وبيّن مـن آياته وعلاماته ما بيّن ثم قبضه الله إليه حميداً فقيداً سعيداً... [٤].

١١٤ـ وفي الزيارة الخارجة من الناحية إلى أحد الأبواب الأربعة: السلام على آدم

---

(١) غاية المرام ١٥١.
(٢) مصباح المتهجد ص ٢٨٤.
(٣) الاقبال ص ٦٤٥.
(٤) مكاتيب الأئمة ٢/ ٢٧٦.

صفوة الله من خليقته... السلام على ابن خاتم الأنبياء السلام على ابن سيد الأوصياء[١].

وفيها أيضاً: اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك يا أسرع الحاسبين ويا أكرم الأكرمين ويا أحكم الحاكمين بمحمد خاتم النبيين ورسولك إلى العالمين أجمعين... [٢].

روايات أُخرى

١١٥ـ في رواية قال آدم: لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلاّ الله محمد رسول الله فعلمت أنّه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممّن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى الله إليه: وعزّتي وجلالي أنّه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه لما خلقتك[٣].

١١٦ـ وفي دعاء السمات: وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعترته الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً [٤].

١١٧ـ قال الله تعالى لآدم ـ عليه السّلام ـ : أنت يا آدم أوّل الأنبياء والرسل وابنك محمد خاتم الأنبياء والرسل... [٥].

١١٨ـ ومما أوحى الله إلى آدم: من ولدك إبراهيم أجري على يده عمارة بيتي تعمّره الأُمم حتى ينتهي إلى نبي يقال له خاتم النبيين أجعله من سكانه وولاته [٦].

١١٩ـ في التوراة عن الله تبارك وتعالى: إنّي باعث في الأُمّيين من ولد إسماعيل رسولاً انزل عليه كتابي وأبعثه بالشريعة القيّمة إلى جميع خلقي، أُوتيه حكمتي، وأيّدته بملائكتي وجنودي... أُكمل بمحمد ﷺ وبما أرسله به من بلاغ وحكمة ديني وأختم به أنبيائي ورسلي فعلى محمد ﷺ وأُمّته تقوم الساعة [٧].

---

(١) بحار الأنوار ١٠١/ ٣١٨ـ الصحيفة الهادية والتحفة المهدية ص ٢٠٣.

(٢) بحار الأنوار ١٠١/ ٣٢٣ـ الصحيفة الهادية والتحفة المهدية ص ٢١٧.

(٣) ينابيع المودة ص ١٧ ـ ١٨.

(٤) بحار الأنوار ٩٠/ ١٠١.

(٥) اثبات الهداة ١/ ٣١٨.

(٦) اثبات الهداة ١/ ٤٠٠.

(٧) الاقبال ص ٥٠٩.

١٢٠ــ وفي حديث بحيراء الراهب: أنت سيد ولد آدم وسيد المرسلين و إمام المتقين وخاتم النبيين... [١].

١٢١ــ وجاء في دعاء يوم الخميس: وصلّى الله على محمد خاتم النبيين وآله الطيبين والأخيار الأبرار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون [٢].

١٢٢ـ وجاء في تسبيح يوم الخميس: وصلّى الله على رسوله محمد خاتم النبيين وآله أجمعين [٣].

١٢٣ـ وفي دعاء يوم الجمعة: اللّهم صلّ على محمد وآل محمد نبي الرحمة وقائد الخير و إمام الهدى والداعي إلى سبيل الإسلام ورسولك يا ربّ العالمين وخاتم النبيين وسيد المرسلين [٤].

١٢٤ـ وفي دعاء أيام شهر رجب: يا أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأسرع الحاسبين يا ذا القوّة المتين صلّ على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته [٥].

١٢٥ـ وفي دعاء ليلة النصف من شعبان: وصلّى الله على محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى أهل بيته الصادقين وعترته الناطقين [٦].

١٢٦ــ عن ابن عباس أنّه قال: أوّل المرسلين آدم وآخرهم محمد ﷺ وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين نبي. المرسل (الرسل) منهم ثلاثمائة وخمسة، وخمسة منهم أُولوا العزم: نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وخمسة منهم العرب هود وصالح وشعيب و إسماعيل ومحمد ﷺ [٧].

١٢٧ـ قال الطبرسي رحمه الله: و إذا أراد الرجُوع إلى بيته فليقل حين يدخل بسم الله وبالله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ثم

(١) اثبات الهداة ١/ ٣٤٥.
(٢) مصباح المتهجد ص ٣٤.
(٣) مصباح المتهجد ص ٣٤١.
(٤) مصباح المتهجد ص ٣٤٥.
(٥) مصباح المتهجد ص ٥٥٨.
(٦) مصباح المتهجد ص ٥٨٦.
(٧) الاختصاص ص ٢٦٤ ـ بحار الأنوار ١١/ ٤٣.

يسلّم على أهله إن كـان في البيت أحد فإن لم يكن في البيت أحد فليقـل بعد الشهادتين السلام على محمد بـن عبد الله خاتم النبيين السلام على الأئمّة الهاديـن المهديين السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين [١].

١٢٨ـ وفي زيـارة رسول الله ﷺ : السلام عليك يـا خاتم النبيين أشهـد أنّك قد بلغت الرسالة... [٢].

١٢٩ـ وأيضاً في زيارته ﷺ : السلام عليك يا نجيب الله السـلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا سيد المرسلين [٣].

١٣٠ـ وأيضاً في زيارته ﷺ : السلام عليـك يا حجة الله على الأوّلين والآخـرين السابق في طاعـة ربّ العالمين والمهيمن على رسله والخاتم لأنبيائه والشـاهد على خلقه والشفيع إليه [٤].

١٣١ـ وأيضاً في زيارته ﷺ : أوّل النبيين ميثاقـاً وآخرهم مبعثاً الـذي غمسه في بحر الفضيلة ... [٥].

١٣٢ـ في زيارة إبراهيم ابن رسول الله: السلام على محمد بن عبد الله سيد الأنبياء وخاتم الرسل... [٦].

١٣٣ـ وفي زيارة عاشوراء: السـلام عليك ياوارث آدم صفوة الله... وسبط خاتم المرسلين [٧].

١٣٤ـ وفي زيـارة الحسين ـ عليه السّلام ـ في أوّل شهـر رجب: السـلام عليك يـابن

---

(١) مكارم الأخلاق ١٨٨. (٢) بحار الأنوار ١٠٠/ ١٦١.

(٣) بحار الأنوار ١٠٠/ ١٨٣ ـ زاد المعاد ص ٣٣٤.

(٤) بحار الأنوار ١٠٠/ ١٨٤ ـ زاد المعاد ص ٣٣٥.

(٥) بحار الأنوار ١٠٠/ ١٨٥ ـ زاد المعاد ص ٣٣٧.

(٦) بحار الأنوار ١٠٠/ ٢١٧ ـ هدية الزائرين ص ٢٦٢ نقلاً عن المفيد وابن طاووس والشهيد.

(٧) بحار الأنوار ١٠١/ ٣١٣.

رسول الله ﷺ السلام عليك يا بن خاتم النبيين [١].

١٣٥ـ روي في الاختصاص، عن ابن عباس أنّه قال: أوّل المرسلين آدم وآخرهم محمد ﷺ وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي، المرسل منهم ثلاثمائة، خمسة منهم أُولوا العزم: نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وخمسة من العرب هود وصالح وشعيب و إسماعيل ومحمد ﷺ [٢].

هذه جملة ما وقفت عليه من آثار النبوّة والمأثورات عن أئمة أهل البيت [٣]ولعلّ ما لم أظفر به أكثر ممّا ظفرت به، كل ذلك يؤيد ما هو المنصوص في القرآن الحكيم، وأنّ الله أوصد باب النبوّة ورسالة السماء إلى الأرض، ببعث نبيّه وآخر سفرائه محمد ﷺ فليس بعده نبي ولا شريعة ولا كتاب ولا... هذا وقد أغناهم تصريح الكتاب بالموضوع عن افاضة القول فيه، كما هو شأن كلّ موضوع فيه نص في القرآن الكريم.

شبهات حول الخاتمية:

لقد حصحص الحق مما سردناه من الأدلّة والدلائل الناصعة، على خاتمية الرسول فلم يبق مقول لقائل ولا مصول لصائل ، وما سردناه من الأدلّة يفيد القطع واليقين بالخاتمية للرسول الأعظم ﷺ لكل من آمن بقرآنه وسنّته القطعية، والاجماع المسلم بين الأُمّة المدعم بالضرورة والبداهة بين المسلمين.

غير أنّ شرذمة قليلة ممّن أصابهم مس من الالحاد والمادية، أخذوا يلقون حبالاً وعصياً في سبيل الضعفاء من المسلمين، يخدعون بها الهمج الرعاع والبسطاء من الناس فجاءوا بشكوك وشبهات لفّقوها من هنا وهناك لا تقل عن شبهات السوفسطائية تجاه

---

(١) بحار الأنوار ١٠١/ ٣٣٦.

(٢) الاختصاص وبحار الأنوار ج١١ ص ٤٣.

(٣) لا يخفى على القارئ الكريم ما عانيته من الجهود في جمع تلكم الأحاديث المأثورة عن النبي وآله من مصادرها المختلفة.

البديهة.

وقد اتخذت تلك الشرذمة الضئيلة انكار الخاتمية اداة للفتنة وسبيلا إلى هدم الإسلام، و إضلال المؤمنين بها وتمهيداً لأهدافهم وأغراضهم الرجعية. تلك الشبهات توقفنا على مبلغ علمهم بالكتاب والسنّة ومدى إلمامهم بالأدب العربي وتوقفنا على أنّه لا هدف لهم في اختلاق هذه الشكوك، إلاّ خدمة الاستعمار وتفريق الكلمة وهدم الصفوف الإسلامية، وقد عرفتهم الأُمّة الإسلامية، وعرفت نواياهم وضمائرهم كما عرفت قيمة شبهاتهم التي تتضاءل عند كل من له أدنى إلمام بالكتاب والسنّة وتجعلها في معرض البطلان.

ولإسكات ما أحدثته هذه الشبهات من جلبة وتركاض وصخب وهياج ولإماطة اللثام عن حقائق ناصعة، خفيت على من اختلقها. عقدنا هذا الفصل حتى يتجلى للقارئ الحق بأجلى مظاهره ولا يبقى للأفّاكين المتخرصين مجال للبحث والتشكيك.

لقد حسب هؤلاء المغترّون أنّ ما لفّقوه من الأوهام سينطلي على عقول أبناء الأجيال الصاعدة، ويتقبّلونه بصدر رحب، إلاّ أنّه خفى عنهم ، أنّ الوعي الذي تمتعت به هذه الأجيال أخذ يرد عليهم خرافتهم الباطلة، وأنّ المستقبل الكشّاف سيكشف عن سوأتهم.

ومن جهة أُخرى أنّ بعض هذه الأوهام التي جمعوها وطلوها ربّما يخيّل للبسطاء من الناس أنّها مسائل مستحدثة، أو دلائل جديدة إلاّ أنّها ليست إلاّ نسائج قديمة أكل عليها الدهر وشرب، وذكرت في كتب التفسير والحديث بشكل أسئلة أُجيبت عليها بأجوبة مقنعة ناجعة... ولكنّهم من أجل ايقاع السذج والبسطاء في حبائلهم أخذوا بالأسئلة، وتركوا أجوبتها.

وها نحن نقف تجاه هذه الشبهات وقفة، نجعلها في مدحرة البطلان ونقطع الطريق على هذه العصابات المجرمة وإن طال بنا الكلام، واتسع مقامنا مع القرّاء الكرام.

❁ الفصل الثالث ❁

شبهات
حول الخاتمية

لما حاول الاستعمار الغاشم الاستيلاء على الشرق الأوسط ومناطقه الخصبة وربوعه المعمورة ومعادنه الغالية وما يسيل تحت أراضيه من الذهب الأسود (البترول) إلى غير ذلك من الثروات الطائلة، قام بكل ما يملك من حول وقوة بشن الغارات عليه بصورة استفزازية مزرية.

نعم للاستعمار أساليب وتخطيطات وألوان مختلفة، تختلف حسب طبائع الأجيال والأمكنة والتخطيط الأصيل له والحجر الأساس الذي ترتكز عليه مخططات المستعمرين هو أصل «فرّق تسد» فأُولئك هم وليدوا ذلك الأصل، وهم المبتدعون له (على وجه غير دائر) فالتفريق بين قطاعات الشعب في المبدأ والعقيدة عامل هدام يبدد قوى الشعب، وسيل كاسح جارف، يخرب كل حاجز دون نواياهم، ويزعزع كل سد دون أهدافهم، فلا شيء أضر بحال الشعب وأنفع للعدو من إشاعة القلق والفوضى في المجتمع واختلاف الكلمة والتشتت في التوجيه والدعوة بين أفراده، فهي ضربة قاضية

تنصبّ على وجوده وتحول دون اتحاد أبنائه وتضامنهم ووقوفهم صفاً واحداً في وجه العدو وجرائمه المخزية وأعماله الاجرامية.

فها هي ذي بلادنا «إيران» كان يضرب المثل منذ زمن بعيد، باتحاد شعبها وتضامن أبنائها وقد اعتنق الإسلام كثير منهم في عهد الخلافة، وتفيأوا في ظلاله قروناً متطاولة، غير أنّ الاستعمار الغادر لم يرض باتحادهم و إتفاق كلمتهم، فطفق يديف السم في الدسم، يفرق كلمتهم في المبدأ والعقيدة، ببعث رجال التبشير والإنذار و إختلاق احزاب سياسية، مطبوعة بطابع الدين، ومصبوغة بصبغة المذهب، وليس فيها شيء يمت إلى الدين بصلة ولا مرمى لهم في ذلك، إلاّ تضليل عقيدة الشعب وتدمير أخلاقه وتحطيم كرامته حتى يعود مرتداً متحلّلاً، فاقد الكرامة، مسلوب الإرادة، لا يلتزم بمبدأ ولا يؤمن بدين، ولا يعرف هدفاً يسعى إليه، سوى الاستهتار التام.

وعند ذلك يسهل للعدو تعكير الصفو وتمزيق الوحدة وضرب الشعب بعضه ببعض وتهون له الإغارة على الثروات الطائلة في أيديهم وما احتوته أراضيهم من معادن ومنابع.

هذا القلق الديني والفوضى المذهبية، اللذين نشاهدهما في الشرق الأوسط بل والعالم الإسلامي إنّما هما وليدا هذا الاستعمار الغاشم، وليدا تكتيكه الأصيل (فرّق تسد) وقد فتح هذا الاختلاف في وجه الشعب أبواباً من الأزمات الكثيرة في نواحي مختلفة.

ضع يدك على هذه الفرق المنحوتة، والدعوات السياسية المتولدة في القرن الأخير، واقرأ أُصولها وفروعها، وتأمّل في غاياتها المتوخّاة منها وطالع صحائف من حياة مؤسسيها ومبتكريها، تجدهم عمد الاستعمار وأذنابه، فمن شيخية إلى بابية، ومن أزلية إلى بهائية، ومن قاديانية إلى أحمدية وكلّها وليدة الاستعمار الغاشم، وليدة رجال العيث والفساد، وليدة الأفّاكين الذين عرفتهم الأُمّة، وعرفت نواياهم وسرائرهم وأهدافهم.

فدونك البهائية من هذه الفرق السياسية وقد إختلقها زعيمها «الميرزا حسين علي المازندراني» في إيران، فتراه يدعو تارة إلى إلوهية نفسه ويقول: «إنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا،

كما قـال النقطة الاولى مـن قبل بعينـه يقـوله، مـن يأتي من بعـد» [١] ويدعو إلى نبـوّته ورسالته تارة اُخـرى، وأنّه نبي كسائر الأنبياء، وأنّ باب النبوّة مفتـوح إلى يوم القيامة، لم يوصـد بعد نبي الإسـلام، ثم إنّ لهؤلاء الأقوام كُتّـاباً مستـأجرين استأجـرهم الاستعمار لنصرة هذا الحزب المختلق بـإسم الدين وطابع المذهـب، وقد جاءوا بشبهات تـافهة في مسألة الخاتمية، فدونك هذه الشبهات مع أجوبتها:

الشبهة الأُولى:

كيف يدّعي المسلمون انغـلاق باب النبوّة والرسالة مـع أنّ صريح كتابهم قاض بانفتاح بابه إلى يوم القيامة، وذلك قوله سبحانه:

﴿يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يأتينَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتي فَمَنِ اتَّقىٰ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف ـ ٣٥).

قال: فهذا الخطاب الوارد في القرآن الكريم، النازل على قلب سيد المرسلين ينبئ عن مجيء الرسل بعـد نبي الإسلام، ويدل بظاهـر قوله: ﴿يأتينكم﴾ الذي هو بصيغة المضارع، على أنّ باب النبوّة لم يـوصد وأنّه مفتوح بعد، ومعه كيـف يدعي المسلمون أنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين وآخرهم وكتابهم يشهد على خلافه [٢].

الجواب عن الشبهة:

هذه الشبهة الـواهية حصلت من الجمود على نفس الآية والغض عمّـا تقدمها من الآيات فـإنّك إذا لاحظت سياقها تـذعن بأنّها ليست إنشاء خطاب في ظـرف نزول القرآن بل حكـاية لخطاب خـاطب به سبحانـه بني آدم في بدء الخلقة، ولقـد حكاه في القرآن بعـد لأي من الـدهر، فكما أنّـه سبحانه يحكـي فيه الخطـابات الـدائرة بين رسله

---

(١) بديع ص ١٥٤.

(٢) الفرائد ص ٣١٤ ط مصر ١٣١٥ هـ.

وجبابرة عصورهم من فرعون وقارون من دون انشاء خطاب في زمن الرسول، فهكذا يحكي في هذه الآية وما تقدمها، الخطابات الصادرة منه سبحانه في بدء الخلقة، و إن كنت في ريب مما ذكرناه، فلاحظ الآيات الواردة في سياقها ودونك إجمالها.

ابتدأ سبحانه بقصة آدم في سورة الأعراف، من الآية الحادية عشرة وختمها بما استنتج منها من العبر في الآية السابعة والثلاثين، ودونك اجمال القصة ونتائجها بنقل الآيات.

﴿ولقدْ خلقناكُمْ ثمَّ صوّرناكُمْ ثمَّ قُلْنا للملائكةِ ٱسْجُدُوا لآدمَ فسجدُوا إلاّ إبليسَ لم يَكُن مِنَ الساجِدِينَ * قالَ ما منعكَ ألاّ تَسجُدَ إذْ أمرتُكَ قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طينٍ * قالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فما يَكُونُ لَكَ أَن تتكبَّرَ فِيها فَٱخْرُجْ إنّكَ مِن الصاغِرينَ * قالَ أنظِرْني إلىٰ يومِ يُبْعَثُونَ * قالَ إنّكَ مِنَ المنظرينَ * قالَ فبما أَغْوَيْتَنِي لأقعدنَّ لَهُمْ صِراطَكَ المستقيمَ * ثمَّ لآتينَّهُم مِن بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلفهِمْ وعن أيمانهِمْ وَعَن شمائِلِهِمْ ولا تجدُ أكثرهُمْ شاكرينَ * قالَ ٱخْرُجْ مِنها مَذموماً مدحوراً لَمَنْ تَبِعكَ منهُمْ لأملأنَّ جهنّمَ منكمْ أجميعنَ * ويا آدمُ ٱسكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الجنّةَ فكُلا مِن حيثُ شِئْتما ولا تَقْرَبا هَذِهِ الشجرةَ فتكُونا مِن الظالمينَ * فَوَسوسَ لَهما الشيطانُ ليبديَ لهما ما وُريَ عنهُما مِن سَوْءاتِهما وقالَ ما نهاكُما ربّكُما عَنْ هذهِ الشجرةِ إلاّ أن تكُونا مَلَكيْنِ أو تكونَا مِنَ الخالدينَ * وقاسمَهُما إنّي لكُما لَمِنَ الناصحينَ * فدلاّهما بغُرورٍ فلمّا ذاقا الشجرةَ بدتْ لهُما سوءاتُهُما وطفِقا يخصفانِ عليهما من ورقِ الجنّةِ وناداهُما رَبُّهُما ألمْ أَنْهَكُما عن تِلْكُما الشجرةَ وَأَقُل لكُما إنَّ الشيطانَ لكُما عدوٌّ مُبينٌ * قالاَ ربَّنا ظلمْنا أنفُسَنا وإن لَم تغفِرْ لَنا وترحَمْنا لَنكُوننَّ منَ الخاسرينَ * قالَ ٱهبطُوا بعضُكُمْ لبعضٍ عدوٌّ ولكُم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلىٰ حينٍ * قالَ فيها تَحْيَوْنَ وفيها تموتونَ ومنها تُخرجُونَ﴾ (الأعراف ـ ١١ ـ ٢٥).

وعند ذلك ناسب أن يستنتج سبحانه من تلك القصة ويخاطب أبناء آدم بخطابات أربعة، هادفة إلى لزوم طاعة الله سبحانه والتجافي عمّا يأمر به الشيطان،

و إنّ لهم في قصة أبيهم وأُمّهم لعبرة واضحة فقال سبحانه:

١ ـ ﴿يا بني آدمَ قدْ أنزلْنا عليكُمْ لباساً يُواري سوءاتِكُم وريشاً ولباسُ التقوىٰ ذلكَ خيرٌ ذلكَ منْ آياتِ اللهِ لعلّهُم يذّكّرونَ﴾ (الأعراف ـ ٢٦).

٢ ـ ﴿يا بني آدمَ لا يفتننّكُمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويْكُم منَ الجنَّةِ ينزعُ عنهما لباسَهُما ليريَهُما سواتِهما إنّهُ يَراكُم هوَ وقبيلُهُ من حيثُ لا ترونَهُم إنّا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذينَ لا يؤمنونَ﴾ (الأعراف ـ ٢٧).

٣ ـ ﴿يا بني آدمَ خذُوا زينتكُم عندَ كُلِّ مسجِدٍ وكلُوا واشربُوا ولا تسرفُوا إنّهُ لا يحبُّ المسرفينَ﴾ (الأعراف ـ ٣١).

ولا تجعل قوله سبحانه في ثنايا الخطابات الأربعة: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ...﴾ دليلاً على كونها انشاء خطاب في عصر القرآن للمسلمين بقرينة ذكر المسجد، لأنّه مردود بوجهين:

الأوّل: لوجود المسجد في الأُمم السابقة وعدم اختصاصه بعصر الرسالة كما يشهد عليه قوله سبحانه: ﴿قالَ الّذينَ غلبُوا علىٰ أمْرِهِمْ لنتَّخِذَنَّ عليْهِم مسْجداً﴾ (الكهف ـ ٢١).

الثاني: إنّ المراد من المسجد ليس البناء الخاص الدارج في البلاد الإسلامية بل هو كناية عن حالة الصلاة والعبادة التي أمر الله بها عباده في الأُمم جمعاء على اختلافها في الأجزاء والشرائط والصور، كما يشهد عليه قوله سبحانه: ﴿واذكُرْ في الكتابِ إسماعيلَ إنّهُ كانَ صادِقَ الوعْدِ وكانَ رَسُولاً * وكانَ يأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكانَ عندَ ربّهِ مرضيّاً﴾ (مريم: ٥٤ ـ ٥٥).

وقوله سبحانه حاكياً عن المسيح: ﴿وأوْصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيّاً﴾ (مريم ـ ٣١).

وعليه فالمراد أمّا خذوا ثيابكم التي تتزينون بها للصلاة وألبسوا أجودها في حال

العبادة، أو خذوا ما تسترون به عوراتكم حالها، وعلى أي تقدير فهذا الحكم لا يختص بالأُمّة الإسلامية بل يعم الأُمم جمعاء.

٤ ـ ﴿**يا بني آدمَ إمّا يأتينَكُمْ رسلٌ منكُم يقصّونَ عليكُم آياتي فمنِ اْتقىٰ وأصلحَ فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ**﴾ (الأعراف ـ ٣٥) ثم إنّه سبحانه في الآية السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين توعّد من كذّب بآياته واستكبر عنها ومن افترى على الله كذباً، وقال سبحانه: ﴿**والذينَ كذّبوا بِآياتِنا واستكبَرُوا عنها أُولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدونَ * فمنْ أظلمُ ممّن أفترىٰ على اللهِ كَذِباً أوْ كَذَّبَ بآياتهِ أُولئكَ ينالهُمْ نصيبُهُم منَ الكتابِ حتّى إذا جاءَتْهُمْ رسُلُنا يتوفَّوْنهُم قالُوا أينَ ما كنتُمْ تدعُونَ من دونِ اللهِ قالوا ضلُّوا عنّا وشهِدُوْا على أنفسِهِم أَنّهُمْ كانوا كافرينَ**﴾ .

وبعد ذلك ختم القصة مع ما استنتج منها لابناء آدم من عظات وعبر.

وأنت إذا احطت خبراً بهذه الآيات، صدرها وذيلها وهدفها ومرماها، لوقفت على أنّ الخطاب الأخير الحاكي عن بعث الرسل إلى بني آدم ليس انشاء خطاب في عهد الرسالة حتى ينافي صريح قوله الآخر: ﴿**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ بل هي حكاية لاحدى الخطابات التي ألقاها الله في بدء الخلقة، عندما أخرج الشيطان أبانا من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وتعلقت مشيئته سبحانه بأن يستقر هو وأبناؤه في الأرض إلى حين، فخاطب سبحانه أبناء آدم بلسان النصح وقال: ﴿**يا بني آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي ...**﴾ فصدّق الخبر الخبر وجاءت الرسل تترى، مبشّرين ومنذرين، تالين على بني آدم آيات الله.

وممّا يؤيد ما ذكرنا (أنّ قوله سبحانه: ﴿**يا بني آدم إمّا يأتينكم رسل منكم ...**﴾ حكاية للخطاب الذي ألقاه سبحانه في بدء الخلقة ، لا انشاء خطاب في عهد القرآن) إنّ الله سبحانه حيث ما يذكر في موضع آخر من القرآن قصّة آدم على وجه التفصيل، يذيّلها بمضمون هذه الآية وما بعدها من الآيتين [1] كما في سورتي البقرة وطه، فإنّ

---

(١) الآية السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون.

مضمـونهما مـوجـود في ذيـل القصـة، وإنّما الاختـلاف في اللفظ والعبـارة، دون اللـب والمعنى.

ودونك مـا في سـورة البقرة، تـرى أنّ الله سبحـانه بعـد مـا ذكر قصـة آدم، وإنّ الشيطـان أزلّهما، يكرّر مضمـون هذه الآيـة وما بعـدهما من الآيتين حيث يقـول: **﴿قُلنا اهبطوا منهـا جميعاً فإمّـا يأتينكم منّي هـدىً فمن تبعَ هُـدايَ فلا خـوفٌ عليهِمْ ولا هـمْ يحزنونَ﴾**.

﴿والّذينَ كفروا وكذَّبوا بآياتِنا أُولئكَ أصحابُ النارِ همْ فيها خالدونَ﴾ (البقرة: ٣٨ ـ ٣٩).

فهاتـان الآيتان في سـورة البقرة، يتحد مضمـونهما مع مضمون مـا ورد في سورة الأعراف غير أنّهما جـاءتا في سـورة الأعراف بلفظ «يـا بني آدم» دون ما في سـورة البقرة وهذا يؤيد أو يدل على أنّ الوارد في سورة الأعراف ليس إنشاءً لخطاب في عهد الرسالة، بل حكاية لخطاب سبق منه سبحانه في بدء الخلقة.

ونظير ذلك مـا ورد في سورة طه، حيث يقـول فيها سبحـانه: **﴿وعصى آدمُ ربَّهُ فغوىٰ * ثمّ اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليْهِ وهدىٰ﴾** (طه: ١٢١ـ١٢٢).

﴿قالَ اهبِطا منهـا جميعاً بعضكُم لبعضٍ عدوٌّ فإمّا يأتينكُـم منّي هُدًى فمنِ اتّبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يشْقَىٰ﴾ (طه ـ ١٢٣).

﴿وَمَنْ أعرضَ عَن ذكرِي فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشُـرُهُ يومَ القيامةِ أعمىٰ﴾ (طه ـ ١٢٤).

فهاتان الآيـاتان تتحدان مع مـا وردتا في سورة الأعراف معنى ومضمـوناً ، وإن اختلفتامعهما لفظاً وعبـارة، وبذلك يظهر صدق ما أوضحنـاه من كون الآيتين في سورة الأعراف قـد وردتا حكـاية عـن خطاب الهي صـدر منه بعـد خروج آدم من الجنـة، لا خطاب ابتدائي صدر منه سبحانه إلى المسلمين.

ومما يشهـد على أنّها من الخطابـات الواردة في بـدء الخلقة، أنّه سبحـانه يـؤاخذ

الخليقة كلها يوم القيامة بنفس هذا الخطاب ويقول: **﴿يا معشرَ الجنِّ والانسِ ألمْ يأتكُم رسلٌ منكُم يقصُّونَ عليكُم آياتي وينذِرونكُم لقاءَ يومكم هذا قالُوا شهِدنا على أنفُسِنا وغرَّتهُم الحياةُ الدنيا وشَهدُوا على أنفُسهِم أنّهُم كانوا كافرينَ﴾** (الأنعام ـ ١٣٠).

فإذا نظرت إلى مضمون الآية، ترى أنّ مادة الإحتجاج فيها هو عين ما ورد في سورة الأعراف وهذا دليل على أنّ الخطاب في هذه السورة من الخطابات الواردة في بدء الخلقة والله تعالى حكاها في القرآن للنبي الأكرم وأُمّته، فلاحظ.

دحض الشبهة بوجه آخر:

قد جمعنا وبعض البهائيين مجلس في سالف الأيام [1] في مدينة عبادان وسألني عن هذه الآية ودلالتها على مجيء الرسل بعد نبي الإسلام وأنّها تدل على أنّ باب النبوّة لم يوصد، وكان في المجلس بعض الأعلام.

فقلت: إنّ لفظة «إمّا» مركبة من «إن» و «ما» الزائدة، وكأنّه سبحانه قال: إن يأتينكم... وهو فعل الشرط، والجزاء قوله: فمن اتقى، ولكنّها مجردان عن الدلالة على الزمان (الحال والاستقبال) ، لأنّ الآية سيقت لبيان أصل الملازمة بين الشرط والجزاء، غير مقيّد بزمان دون زمان، بمعنى أنّ سنّة الله جرت على انقاذ من أطاع رسله، واتقى محارمه، وأصلح حاله، وانّ من كان حاله كذا، فلا خوف عليه ولا حزن، وهذه عادة الله في الأُمم السالفة والحاضرة والمستقبلة.

وليس الخطاب مقيداً بزمان الحال حتى لا يعم الخطاب الأُمم السالفة، ويختص بالأُمّة الحاضرة والتالية لها ويدل بالدلالة الالتزامية على مجيء الرسل في مستقبل الأيام بعد رسول الله ﷺ ، بل هو بيان لحكم قطعي جرت مشيئة الله عليه، على وجه الاطلاق، غير مقيّد بزمان.

وإن شئت قلت: إنّ الهدف من الآية ليس الأخبار عن مجيء الرسل بعد رسول

---

(١) عام ١٣٧٩ هـ ق.

الله ﷺ وإلاّ لكان اللازم أن يخرجها عن صورة الشرط، ويلقيها على وجه الإخبار بل الهدف والذي سيق لأجله الكلام، هو بيان الملازمة، وأنّ السنّة جرت عليها في الأدوار كلّها، من دون أن يكون بصدد الإخبار عن وقوع الشرط في زمان.

وهذا كقول المعلم لتلاميذه: لا صلة ولا قرابة بيني وبين أحد منكم، من جد في درسه واتقن كتابته وخرج عن عهدة التكاليف الواجبة عليه فهو الناجح، يعني بذلك أنّ السنّة الجارية في المدرسة والكليات والجامعات هي هذه من غير فرق بين هذا الصف والصف الآخر، وهذه المدرسة والمدرسة الأُخرى، وهذا الزمان أو غيره من الأجيال السالفة والتالية.

وأدل دليل على أنّ الآية ليست بصدد الإخبار عن مجيء رسل آخرين غير رسول الله هو استعمال كلمة «إن» الدالة على الشك والترديد في وقوع تاليها، دون «إذا» الدالة على القطع واليقين، فلو كان الهدف الإخبار عن مجيئهم لكان له الإخبار عن ذلك بكلمة تدلّ على القطع والجزم، لأنّ الرسل ومجيئهم من مهمات الأُمور وعظائمها، فلا يصح الإخبار عنه بهذه الجملة الدالة على الشك والترديد، إلاّ إذا سيقت الآية لبيان الملازمة فقط، لا الإخبار عن وقوع الشرط ولذلك ترى أنّه سبحانه يأتي في معرض الدلالة على الأمور القطعية بعبارة مؤكدة كما في قوله: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ**﴾ (سبأ ـ ٣).

وقوله سبحانه: ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُم بِهَا**﴾ (النمل ـ ٣٧).

وحصيلة البحث أنَّ الآية بصدد بيان أنّ الفلاح والرشاد لمن يقتدي بهدى نبيّه ويقتفي أثره ولا يتخطى الخطوط التي يرسمها له رسوله في معاشه ومعاده سواء أكان الرسول رسول الإسلام أم غيره، وليست ناظرة إلى بيان مجيء الرسل بعد عصر نزول الآية كما هو مرمى المستدل.

ونظير المقام قوله: ﴿**مَاكَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ**

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب: ٣٨ ـ ٣٩).

فإنّ قوله: **﴿الذين يبلّغون﴾** وإن كان بصيغة المضارع، إلاّ أنّه مجرد عن الدلالة على الحال والاستقبال، بدليل أنّه صفة لقوله سبحانه: **﴿الذين خلوا من قبل﴾** فلو كانت الدلالة على الزمان مقصودة لوجب أن يقال: الذين بلغوا رسالات الله، تطبيقاً للوصف على الموصوف، ولما كان المقصود قيام الرسل الذين خلوا من قبل بنفس أمر التبليغ من غير دلالة على زمان القيام واستمراره، صح توصيفه بالمضارع.

نقل كلام عن العلمين:

ثم إنّي وقفت بعد فترة من الزمان على سؤال وجّهه بعض الأجلّة [١] إلى العلمين الشيخ محمد جواد البلاغي [٢] والسيد هبة الدين الشهرستاني [٣] يسألهما عن تلك الشبهة الضئيلة، وقد وافاه الجواب منهما، وبعث السائل السؤال والجواب إلى مجلة العرفان [٤] فنشرهما مدير المجلة على صفحاتها [٥] فراقنا نقل الجوابين على وجه الاجمال، لكون مضمونهما قريباً مما ذكرناه.

قال العلاّمة البلاغي: لابد من بيان أمرين:

الأوّل: إنّ تلك الطائفة لا يعرفون اللغة العربية وخواصها، فإنّ الفعل المضارع غير مختص في المحاورات بالاستقبال، بل يؤتى به منسلخاً عن خصوصيات الزمان للدلالة على الدوام والثبات كقولهم: زيد يكرم الضيف، ويفك العاني ومن ذلك قول

---

(١) العلامة الجرندابي المغفور له كان آية في التتبع، وله أشواط بعيدة وخدمات ومواقف مشكورة.

(٢) كان علماً من أعلام الأُمّة وفطاحلها، قد أفنى عمره في الذب عن حريم التوحيد والرسالة، توفّي عام ١٣٥٢.

(٣) نادرة الزمان ونابغة العراق، توفّي في ٢٥ من شهر شوال عام ١٣٨٦.

(٤) مجلة علمية أدبية سياسية شيعية، تصدر في مدينة صيدا، من لبنان الجنوبي، أسّسها الشيخ أحمد عارف الزين عام ١٣٢٧ وهي لم تزل تصدر إلى الآن.

(٥) المجلد السادس والثلاثون ص ٧٦٧ ـ ٧٧١.

اليشكري في المعلّقة:

يدهدون الرؤوس كما تدهدى　　مزاورة بأبطحها الكرينا

وقوله أيضاً:

علينا البيض واليلب اليماني　　وأسباب يقمن وينحنينا

وقوله سبحانه:

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ (سبأ ـ ٣).

الثاني: إنّ الجملة الشرطية كثيراً ما تجيء غير ناظرة إلى الزمان، بل لمجرد ملازمة الجزاء للشرط وترتبه عليه في أي زمان وقع الشرط، بمعنى أنّه لابد من وقوعه عند وقوع الشرط في أي زمان، ومنه قول القائل:

من يفعل الحسنات الله يشكرها　　والشر بالشر عند الله سيان

ومن قوله سبحانه:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَةٍ شَرّاً يَرَه﴾ (الزلزلة ٧ـ٨).

ومنه قول زهير في معلّقته:

ومن لم يصانع في أُمور كثيرة　　يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومثله قوله الآخر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة　　وإن خالها تخفى على الناس تعلم

إذا تقرر هذا: فلا خفاء في أنّ حاصل الآية: أنّه مهما آتى بني آدم رسل، يعني رسل حق، يأتون بآيات الله ووحيه ويقصّونها في التبليغ، فمن اتقى حسب ما جاء في الآيات ولم يعص الله بالمخالفة به وأصلح وجعل أعماله صالحة، فلا خوف عليهم ولا يحزنون.

فجيء بالشرط بصيغة المضارع، للدلالة على ثبوت الاتيان بتكرره، بحسب الحكمة، وأنّ الجزاء لازم لهذا الشرط، دون نظر إلى الزمان الخاص، والواقعة الخاصة، وليس نظره إلى خصوص الزمان الماضي ولا خصوص المستقبل. لكن القرآن الكريم بين أنّ هذا الشرط لا يقع في المستقبل وذلك بقوله سبحانه: ﴿**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ ، فكان هذا البيان من المحكمات التي هي أُم الكتاب.

قال العلامة الشهرستاني: «إما» لفظة مركبة من «إن» الشرطية ، و «ما» الكافة عن العمل، وعليه كفت المضارع عن الجزم، وقرنته بنون التأكيد الثقيلة وجردته عن الدلالة على زمان خاص بالحال والاستقبال، كما أنّ الصيغ التالية لها ﴿**فمن اتقى وأصلح**﴾ ، ﴿ **والذين كذّبوا**﴾ تجردت أجمع عن الدلالة الخاصة بالماضي والمفهوم من المجموع قضية طبيعية عامة السير في الأُمم، وهي توجه رسل الهداية إلى أقوام البشر لغاية الوعظ والانذار بآيات الله وبيّناته.

وإن شئت قلت: انّ الغاية في الآية عبرة الانسان بتاريخ الانسان، حتى يترك اغتراره بالحال الحاضر ، وهذا لا يكون إلاّ من درس تاريخ السلف، ولا معنى للعبر بالمستقبل. نعم المعتبرون هم الجيل الحاضر والمستقبل، ولكن المعتبر به حال السلف والحوادث النافعة، وأمّا مادة الوعظ، أي المعتبر به، هي القصص الماضية (دون سواها) ورسلها ورسالاتها وعواقب أمرها ومعرفة مصير المتقين ومصير المكذّبين.

فبأي لفظة من الآية يستدل هؤلاء على صحة الرسالة من بعد محمد المصطفى ﷺ ! أبلفظ «يأتينكم» وقد تبيّن أنّها تجردت عن اختصاصها بالحال والاستقبال، كما تجردت لفظة أتقى وأصلح، عن الاختصاص بالماضي.

أم يستدلون بلفظة «الرسل» وقد تبيّن أنّهم وقصصهم وآياتهم ذكرت في الآية، لغاية الموعظة والعبرة، ومثله لابد وأن يكون من الجيل الماضي إذ لا معنى للعبرة من المستقبل.

أم بلفظة «يا بني آدم» وانّه خطاب للجيل الحاضر أو المستقبل، نعم انّ

اختصاص الخطاب والوعظ بهؤلاء شيء، وجواز تكرار الرسالة بعد عصر القرآن شيء آخر، يحتاج اثباته إلى دليل غير هذه الآية، فإنّ أقصى ما في هذه، هو وعظ الجيل الإسلامي بقصص المرسلين، ولا بد أن يكون المتعظ به قبلهم، كما أنّ القرآن يعظ الجيل الإسلامي، بقصة موسى وفرعون، ولا تحدث نفس صاحبها بأنّ ذلك المتعظ به، يجب أن يتكرر في المستقبل.

الشبهة الثانية:

استدلت الفرقة التعيسة «البهائية» على عدم اختتام الرسالة، وعدم انتهائها بآية ثانية، وتقوّلت بأنّها تدلّ على خلاف ما هو المنصوص في غير موضع من الذكر الحكيم، ودونك الآية:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (غافر ـ ١٥).

قال المستدل في فرائده: إنّ قوله سبحانه: **﴿يلقي الروح﴾** بصيغة المضارع ينبئ عن عدم اختتام الرسالة، وأنّ الروح ينزل بأمره على من يشاء من عباده في الأجيال المستقبلة [1].

الجواب:

توضيحه يحتاج إلى بيان أمرين:

١ ـ الظاهر من «الروح» هو الوحي [2] فاستعير له الروح، لأنّه به تحيا القلوب وفيه حياة المجتمع، ويوضح ذلك قوله سبحانه: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ما**

---

(١) الفرائد ص ٣١٣ وص ١٢٦ من الطبعة الحجرية.

(٢) وقريب منه تفسيره بالقرآن أو كل كتاب أنزله سبحانه أو جبرئيل أو النبوّة، وما اخترناه هو الأولى، فتدبر.

كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَـٰبُ وَلاَ الإيمَـانُ﴾ (الشورى ـ ٥٢) ومنه يعلم أنّ المحتمل أن يكون الـروح المسـؤول عنـه في القـرآن الكـريم هـو حقيقـة الـوحـي حيث قـال سبحـانـه: **﴿وَيَسْئَلُـونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّـي وَمَا أُوتِيتُـم مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيـلاً﴾** (الإسراء ـ ٨٥).

٢ـ يوم التـلاق: إنّما هو يوم لقاء الله، يوم يلتقي فيـه العبد والمعبود، وأهل الأرض والسماء، كما يوضحه مـا بعد الآية: **﴿يَوْمَ هُـمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَىٰ اللهِ مِنْهُـمْ شَـيْءٌ لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾** (غافر ـ ١٦).

والمراد من قـوله: **﴿لينذر يـوم التلاق﴾** أي ليحكم في ذلـك اليـوم بين عبـاده فينتصف المظلـوم من ظـالمه، ويجزي المحسـن والمسيء، أو لينذر عبـاده سبحـانـه عن عذاب ذلك اليوم.

إذا عرفت الأمريـن، فالجواب عن الاستدلال بها واضح جداً بعد مـا عرفت عند البحث عن الشبهة الأُولى من أنّ الفعل في تلـك المواضع مجرد عن الزمان، والهدف إنّما هو بيـان نسبة الفعـل إلى الفاعل واتصـافه بها، بـلا نظر إلى زمـان النسبة، سـواء أكان الماضي، أم الحال أم المستقبل، كما في قوله:

من يفعل الحسنات لله يشكرها   والشر بالشر عند الله سيان

وعلى هذا ، فسيقت الآيـة لبيان كونه سبحـانه مالكاً على الإطـلاق، لا ينازعه في ملكه ولا يناضله في مشيئته واختياره أحد، والوحي أحد الأشياء التي أمرها بيده، يختص به من يـؤثره على عباده ويختاره منهم، وليس لأحـد أن يعترض عليه ويقول: **﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾** (الفرقان ـ٣٢). أو يطعن ويقول: **﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾** (الزخـرف ـ ٣١) فإذا كان هـدف الآية بيان هـذا الأمر، وانّ الوحـي بكمّه وكيفه ومـن ينزل عليه مـوكول إليـه سبحانه، فـلا يتفاوت في ابـلاغ هذا الغـرض، التعبير با لماضي، أو المضـارع، فسواء أقـال: «القى الـروح» أم قـال: **﴿يلقي الروح﴾** فهما في افهام المقصود سواسية فلا يدلاّن على زمان الاتصاف، والمقصد الأسنى،

اتصافه سبحـانه بالاختيار التـام في انزال الوحي على أي فرد من عبـاده، من دون دلالة على زمان الاتصاف.

ودونك مثالاً عرفياً يقرّب المقصود.

فلو نصب الملك المستبـد (والملوكية خاصتهـا الاستبداد) أحد ولده وليـاً للعهد وجلعه وارثـاً للعرش والاكليل، وشاغـلاً لمنصة الملوكيـة بعده، فإذا اعترض عليـه أحد وزراءه بأنّ ولـده الآخر كان أحـق بهذا المنصب، فيجيب الملك بقولـه: إنّ الامر بيـدنا، نقدم من نشاء، ونؤخر من نشاء، نرفع من نشاء ونضع من نشاء...

فليس لك عنـد ذلك أن تستظهـر من عبارتـه، وتتهمه بـأنّه قـد أخبر حتماً عن نصب فـرد آخر في المستقبـل، متمسكاً بـأنّه قـال: «نقدم» بصيغـة المضـارع ولم يقل: «قدمت» .

لا، ليس لـك ولا لغيرك هذا، لأنّ المفهـوم في هذه المواضـع إنّما هو بيـان أصل الإتصاف، أي إتصاف الفاعل (الملك) بالفعل (تقـديم من تعلّقت إرادته بتقديمه) لا بيان زمان الإتصاف واستمراره في الجيل الآتي، فلاحظ.

فلو تنازلنـا عن كلّ ما قلناه حول هـذه الآية وما قبلها وفرضنـا أنّ ما نسجوه من الأوهام حقيقة راهنة فنقول: إنّ ما ذكروه كلّه لا يتجاوز حدّ الاشعار فهل يجوز في ميزان العقل والانصاف تـرك ما سردناه من البراهين الـدامغة والنصوص النـاصعة والضرورة والبداهة بين المسلمين عامة، الدالّة على كون النبي الأعظم خاتم الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات، لأجل هذه الأُمور الواهية التي لا يستحق أن يطلق عليها اسم الدلالة.

قال الشيخ المفيد: إنّ العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبيّنا ﷺ ، ونسخ شرعه كما نسخ مـا قبلـه مـن شرائع الأنبيـاء وإنّما منع ذلـك الاجماع، والعلم بـأنّـه خـلاف دين النبيﷺ من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار [1].

(١) أوائل المقالات ص ٣٩.

قال الفاضل المقداد في أثره القيّم [1] أنّه ﷺ مبعوث إلى كافة الخلق والدليل على ذلك إخباره ﷺ بذلك المعلوم تواتراً مع ثبوت نبوّته المستلزمة لإتصافه بصفات النبوّة التي من جملتها العصمة المانعة من الكذب، إلى أن قال: ... يلزم من عموم نبوّته كونه خاتم الأنبياء وإلاّ لم تكن عامة للخلق، ولقوله تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ وقوله ﷺ: لا نبي بعدي.

الشبهة الثالثة:

وقد تمسكت هذه الفرقة بظاهر آيتين أُخريين:

الأولى: قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس ـ ٤٧).

الثانية: قوله سبحانه: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس ـ ٤٩).

تقرير هذه الشبهة أنّ الله حدد حياة الأُمم بحد خاص، والأُمّة الإسلامية إحدى هذه الأمم، فلها أجل خاص، ومدة محدودة، ومعه كيف يدعي المسلمون دوام دينهم وبقاءه إلى يوم القيامة؟

وروي عن رسول الله ﷺ أنّه سئل عن أجل الأُمّة الإسلامية، فأجاب ﷺ بقوله: إن صلحت أُمّتي فلها يوم، وإن فسدت فلها نصف يوم [2].

الجواب:

لا أدري ماذا يريد القائل من الاستدلال بهاتين الآيتين: أمّا الآية الأُولى، أعني قوله سبحانه: ﴿ولكل أُمّة رسُول﴾ فصريح الآية هو أنّ الله سبحانه يبعث إلى كل أُمّة،

---

(١) اللوامع الالهية في المباحث الكلامية ص ٢٢٥.

(٢) الفرائد ص ١٧ الطبعة الحجرية.

مثل أُمّة نوح وعيسى وموسى، رسولاً يدعوهـم إلى دين الحق ويهديهم إلى صراطه، وأمّا أمد رسالـة الرسول وكميتها، فالآيـة غير ناظرة إليه، لا صريحاً ولا تلـويحاً لا مفهوماً ولا منطوقاً ولا مانـع من أن يكون إحدى هذه الرسالات غير محدودة بحـد خاص، ويكون صاحبها خاتم الرسل ودينه خاتم الأديان، وقد دلّ القرآن على أنّ نبي الإسلام هو ذاك، كما تقدمت دلائله.

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَد بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّـةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّت عَليهِ الضَّلالَة**﴾ (النحل ـ ٣٦).

أتجد من نفسك أنّ الآية تشير إلى تحديد الشريعـة بعد الإسلام، لا ، لا تجده من نفسك، ولا يجد ذلك أيضاً كل متحرر عن قيد العصبية.

وأمّا الآية الثانية، فكشف الغطاء عن محيا الحق، يحتاج إلى توضيح وتحقيق معنى «الأمّة» الواردة في الكتاب والسنّة، فنقول:

قال الـراغب: الأُمّة، كل جماعـة يجمعهم أمر مـا: أمّا دين، أو مكـان، أو زمان، وهذا الجامع ربّما يكون اختيارياً وقد يكون تسخيرياً [١].

هذه الحقيقة التـي كشف عنها الراغب، هـو الظاهر من الكتاب والسنّـة وموارد الاستعمال وصرّح بها الجهابذة من اللغويين، ودونك توضيح ما أفاده الراغب:

الجامع الديني ، كما في قوله سبحانه: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ (البقرة ـ ١٢٨) وقوله سبحانه: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوف**﴾ (آل عمران ـ ١١٠).

الجامع الزماني كقوله سبحانه: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ**

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٣ مادة «أم» وكان الأولى أن يضيف إلى هذه الجوامع لفظ «أو غيره» إذ لا ينحصر الجامع بهذه الثلاثة وليس المقصود أنّ هذه الجوامع داخلة في مفهوم «الأُمّة» حتى يقال: أنّ توصيف الأُمّة في الآيـة بكونها «مسلمة» دليل على خروجها عن مفهـوم الآية، بل المراد أنّ هذه الجوامع تكون مصححة، لاطلاقها على الجماعة.

سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف ـ ٣٤) وفسّرها المفسرون بلازم المعنى وقالوا: بعد حين، أي بعد انقضاء أهل عصر، كأنّه يجمعهم زمان واحد في مستوى الحياة، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُم وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (هود ـ ٨) وفسره في الكشاف بلازم المعنى، وقال: إلى جماعة من الاوقات.

الجامع المكاني: نحو قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُون﴾ (القصص ـ ٢٣) أي وجد حول البئر جماعة يسقون مواشيهم، فالجهة الجامعة لعدّهم أُمّة واحدة، إنّما هي اجتماعهم في مكان واحد، أو غيرها من الجهات التي يمكن أن تجمع شمل الأفراد والآحاد.

الجامع العنصري والوشيجة العنصرية، والرابطة القومية كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ (الأعراف ـ ١٦٠).

وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ (الأعراف ـ ١٦٨) فبنوا إسرائيل كلهم أغصان شجرة واحدة، يجمعهم ترابط قومي ووشيجة عنصرية، إلّا أنّه كلّما ازدادت الشجرة نموّاً ورشداً إزدادت أغصاناً وأفناناً، فعد كلّ غصن مع ما له من الفروع، أصلاً برأسه وهم مع كونهم أُمماً أُمّة واحدة أيضاً يربطهم الجامع العنصري.

القرآن يتوسّع في استعمال الأُمّة:

إنّ القرآن يتوسّع في استعمال الكلمة فيطلقها على الفرد، إذا كان ذا شأن وعظمة تنزيلاً له منزلة الجماعة كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً﴾ (النحل ـ ١٢٠) أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم فلان في نفسه قبيلة، وروى أنّه يحشر «زيد بن عمرو» أُمّة وحده.

بل يتوسّع ويستعمله في صنوف من الدواب، إذا كانت تجمعهم جهة خاصة ،

كقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام ـ ٣٨).

فعدّ الله كل صنف من الدواب والطيور أُمماً، لما بينها من المشاكلة والمشابهة حيث الخلق والخلق، فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة، ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي يخصص بها كل نوع [١].

ويمكن أن يقال: إنّ ما ألمحنا إليه من موارد الاستعمال للفظ «الأُمّة» ليست معاني مختلفة، حتى يتصور أنّ اللفظ وضع عليها بأوضاع متعددة، بل كلها مصاديق لمعنى وسيع وضع عليه اللفظ (الأُمّة) وهو كل اجتماع من الانسان وغيره من الحيوان، يجمعهم أمر ما من الزمان والمكان والدين والعنصر وغيرها.

الأُمّة: الطريقة والدين:

نعم للأُمّة معنى آخر أُستعملت فيه، في الكتاب والسنّة، وهو الطريقة والدين، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُون﴾ (الزخرف ـ ٢٢) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا علَى آثَارِهِم مُقْتَدُون﴾ (الزخرف ـ ٢٣).

قال الجوهري في صحاحه: الأُمّة، الطريقة والدين، يقال لا أُمّة له، أي لا دين ونحلة، قال الشاعر:

وهل يستوي ذو أُمّة وكفور ...

وقال الفيروز آبادي: الأمة ـ بالكسر ـ الحالة والشرعة والدين ويضم.

هذه هي الأُمة ومعناها وقد عرفت أنّه لم يستعمل في الكتاب إلاّ في هذين المعنيين (الجماعة والدين) وقد ذكروا لها معاني أُخرى يمكن ارجاعها إلى ما ذكرناه.

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٣.

فلنرجع إلى مفاد الأُمّة:

إذا عرفت ما ذكرناه: فلنرجع إلى مفاد الأُمّة فنقول قوله سبحانه: ﴿**ولكل أُمّة أجل** ...﴾ يحتمل في بادئ الأمر أن يراد منها الطريقة أو الجماعة، ولكن الأوّل مدفوع بما في ذيله: ﴿**فإذا جاء أجلهم** ...﴾ إذ يجب حينئذ أن يقول: فإذا جاء أجلها بإفراد الضمير، لو صح إطلاق الأجل على الدين والشريعة [١] فلا مناص من حمل الآية على المعنى الثاني: أعني الجماعة، التي يربطهم في الحياة أمر ما، والمراد أنّ كل كتلة من الناس إذا طويت صحيفة حياتهم وانتهت مدة عيشهم لا يمهلون بعد شيئاً، فلا يستقدمون ولا يستأخرون بل يتوفّاهم ملك الموت الذي وكل بهم، فلا إمهال ولا تأخير، فالآية ناظرة إلى بيان أمر تكويني جرت عليه مشيئته سبحانه وهو أنّ حياة الأُمم في أديم الأرض محدود إلى أجل لا يمهلون بعده وليس فيها أي نظر إلى توقيت الشرائع وتحديدها وتتابع الرسل ونزول الكتب.

وأمّا حملها على خصوص الأُمّة الدينية أي الأُمّة التي يجمعها دين واحد فيحتاج إلى الدليل والقرينة [٢] وقد عرفت أنّ الأُمّة عبارة عن الجماعة التي يجمعهم أمر ما، سواء أكان ذلك الجامع زماناً أو مكاناً أو اتحاداً في الشغل والمهنة أو ديناً، أو عنصراً، إلى غير ذلك من عشرات الوحدات الجامعة بين المتشتتين من الناس.

وقد تكرر مضمون الآية في الذكر الحكيم بصور مختلفة كلها تهدف إلى ما ذكرناه، وأوضحناه، ودونك بعضها:

﴿**وَ مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ** [٣] * **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا**

---

(١) سيوافيك أنّه لم يستعمل الأجل في القرآن في أمد الأديان.

(٢) وعلى فرض شمول الآية للأُمة الدينية بعمومها، فمن أين وقف المستدل على أنّه جاءأجلهم ولماذا لا يمتد إلى يوم القيامة كما سيوافيك بيانه تحت عنوان «سؤال من المستدل».

(٣) أي مكتوب معلوم كتب فيه أجلها.

يَسْتَأخِرُون﴾ (الحجر ٤ـ٥)، وقوله سبحانه: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * ما تسبق من اُمّة أجلها وما يستأخرون﴾ (المؤمنون ٤٢ـ٤٣).

وقريب منه قوله سبحانه: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصالِحِين * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١٠ ـ ١١)، وقوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح ـ ٤).

نظرة في موارد استعمال الأجل في القرآن:

ويؤيد ذلك أنّه لم يستعمل «الأجل» في الذكر الحكيم في أجل الشرائع، وانتهاء أمدها، بل قصر استعماله على موارد اُخرى، لبيان آجال الديون، والعقود كقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدْينٍ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاَكْتُبُوه﴾ (البقرة ـ ٢٨٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الكِتَٰبُ أَجَلَه﴾ (البقرة ـ ٢٣٥).

أو بيان انتهاء استعداد الاشياء للبقاء كقوله سبحانه: ﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِندَه﴾ (الأنعام ـ ٢) وقوله سبحانه: ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَاَلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ (الرعد ـ ٢).

وأمّا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَة إِلاَّ بِإذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَٰب﴾ (الرعد ـ ٣٨) فيحتمل وجوهاً:

١ـ إنّ لكل وقت حكماً خاصاً مكتوباً معيناً، كتب وفرض في ذلك الأجل، دون غيره لأنّ الفرائض تختلف حسب اختلاف الأوضاع والأحوال، فلكل وقت حكم يكتب ويفرض على العباد حسب مقتضيات المصالح.

٢ـ ما فسر به أمين الإسلام وهو قريب ممّا ذكرناه آنفاً، وقال إنّ لكل وقت كتاباً خاصاً، فللتوراة وقت وللانجيل وقت وكذلك القرآن، فالفرق بينه وبين ما ذكرناه هو

أنّه حمل الكتاب على الكتاب المصطلح، ونحن حملنا على الحتم والفرض.

٣ـ انّ المراد منه: انّ لكل أجل مقدر كتاب أثبت فيه، فللاجال كلّها كتاب كتب فيه.

٤ـ انّ لكل أمر قضاه الله كتاب كتب فيه، وأبعد الوجوه هو الأخير، إذ هو تفسير بالأعم، وهو سبحانه يقول: ﴿**لكل أجل كتٰب**﴾ ولم يقل لكل أمر كتاب وأقرب الوجوه هو الأوّل بقرينة قوله سبحانه: ﴿**وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بأذن الله لكل أجل كتٰب**﴾ (الرعد ـ ٣٨) فلقد كانوا يقترحون على النبي ﷺ بعض الآيات، فأجابهم سبحانه بأنّ لكل وقت حكماً خاصاً، كتبه الله لذلك الوقت، ولا يجري إلاّ فيه.

وعلى أي وجه من الوجوه الأربعة، فلا تدل الآية على أنّ لكل دين أجلاً وأمداً، إلاّ على الوجه الثاني، ودلالته عليه إنّما هي بالالتزام لا بالمطابقة لأنّه إذا كان لكل وقت كتاباً خاصاً مثل التوراة والإنجيل يدل بالملازمة على أنّ لكل وقت شريعة وديناً.

وأمّا على ما فسّرنا الآية به فمآله إلى أنّ لكل وقت حكماً، والحكم ليس نفس الدين والشريعة، بل جزء منه وتكون الآية دالّة على رد من زعم امتناع وقوع النسخ في الشريعة الواحدة.

وأمّا على المعنى الثالث والرابع، فعدم دلالته على أنّ لكل دين أجلاً، واضح لا يحتاج إلى البيان.

سؤال من المستدل:

وفي الختام نسأل المستدل هب أنّ الآية بصدد بيان آجال الشرائع وتحديدها وأنّ لكل دين وأُمّة دينية أجلاً، ولكنّه من أين وقف على أنّ الإسلام قد انتهى أمده وجاء أجله، وأنّه لا يمتد إلى يوم القيامة، إذ لنا أن نقول: إنّ أمد الإسلام ينتهي بانتهاء نوع الانسان، في أديم الأرض وقيام القيامة، وحضور الساعة، فلو دلّت الآية على أنّ لدين الإسلام أو الأُمّة الإسلامية أجلاً قطعياً فنستكشف ببركة الآيات الدالّة على اختتام النبوّة

والرسالة عن امتداد تلك الرسالة إلى اليوم الذي تنطوي فيه صحيفة حياة الانسان في هذه السيارة، وأنّ أجله وأجلها واحد.

الاكذوبة التي نسبها إلى رسول الله:

هلم نسأله، عن مصدر الاكذوبة التي نسبها الكاتب إلى رسول الله ﷺ وقال: أنّه بعد ما نزلت آية: ﴿**ولكل أُمّة أجل**﴾ طفق أصحابه يسألونه عن أجل الأمّة الإسلامية، فأجابه بقوله: إن صلحت أُمّتي فلها يوم و إن لم تصلح فلها نصف يوم [1].

فقد أعتمد الكاتب في نقله على نقل الشعراني، وليس في لفظه ما يدل على سؤال أصحابه ﷺ عن أجل الأُمّة الإسلامية بعد نزول الآية، و إنّما هو اكذوبة نحتها الكاتب ونسبها إلى رسول الله ﷺ [2].

نعم تفسير اليوم بألف عام، كما نقله الشعراني عن تقي الدين رجم بالغيب إذ كما يمكن تفسيره بألف مستند إلى قوله سبحانه: ﴿**وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّون**﴾ (الحج ـ ٤٧) يمكن تفسيره بخمسين ألف سنة، استناداً إلى قوله سبحانه: ﴿**تَعْرُجُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ (المعارج ـ ٤).

وأمّا ما رواه العلاّمة المجلسي، مسنداً عن كعب الأحبار، على نحو يشعر بكون تفسير اليوم بألف عام، من الحديث، فمما لا يقام له وزن، فإنّ كعب الأحبار وضّاع

---

(١) الفرائد صفحة ١٧ الطبعة الحجرية.

(٢) ودونك نص الشعراني في كتابه اليواقيت والجوهر التي ألّفها عام ٩٥٥ هـ قال في بيان أنّ جميع أشراط الساعة حق: انّه لابد أن يقع كلّها قبل قيام الساعة وذلك كخروج المهدي (عج) ثمّ الدجال، ثمّ نزول عيسى، وخروج الدابة و ... حتى لو لم يبق من الدنيا إلاّ مقدار يوم واحد، فوقع ذلك كلّه، قال الشيخ تقي الدين بن أبي المنصور في عقيدته: وكل ذلك تقع في المائة الأخيرة (هذا تخرص من الرجل وتنبؤ منه، أعاذنا الله منه) في اليوم الذي وعد به رسول الله بقوله في أُمّته: إن صلحت أُمّتي فلها يوم و إن فسدت فلها نصف يوم، يعني من أيام الرب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وانّ يوماً عند ربّكَ كألف سنة ممّا تعدون**﴾ لاحظ اليواقيت ج٢ ص ١٦٠ ونقل عن بعض العارفين أنّ أوّل الألف محسوب من وفاة علي بن أبي طالب.

كـذّاب مدلس، لم تخرج اليهـوديـة من قلبه، تـزيـا بزي الإسـلام فأدخل الإسرائيليـات والقصص الخرافية، في أحاديث المسلمين فلا يقـام لحديثه وزن ولا قيمة، فلنضرب عنه صفحاً.

أضف إليه أنّ الرجل لم يسنده إلى الرسول ﷺ ولا إلى الولي، فكيف يكون حجّة؟

ثم إننا نسأل صـاحب الفرائد [١]ومن مشـى مشيه، ونقـول: إنّ رسول الله قـال (بزعمكم): إن صلحت أُمّتي فلها يوم ... فهل صلحـت الأُمّة الإسلامية في هذه القرون العشرة ومشت سبل الصـلاح والسلام، وازدهر فيهـم العدل والإحسان، أو شـاع فيهم الجور والطغيان والقتـل الذريع وسفـك الدمـاء وحبس أبريـاء الأُمّة واعتقـالهم ونهب أموالهم ... وعند ذاك يلـزم انتهاء أمد الإسلام بإنقراض خمسمائة عـام، التي هي نصف يـوم، من اليوم الـربّاني، لأنّـه لم تصلح الأُمّـة بعد لحوق الـرسول بـالرفيـق الأعلى ولكن الكاتب لا يرضى به لأنّه لا يوافق ما يدعيه ويرتئيه.

وأعجب من ذلك أنّه جعل مبدأ ذلك اليوم الربّاني (ألف عام) العام الذي تمّت فيه غيبـة ولي الله الأعظم، الحجة بـن الحسن العسكري (عجل الله فـرجه) لا عـام بعثة الرسول ﷺ أو هجرته أو وفاتـه، أو سنة صدور الحديث. أوما كانت الأُمّـة العائشة في هذين القرنين ونصف من الأُمّة الإسلامية؟! (سله أنا لا أدري ولا المنجّم يدري) أظنّك أيها القارئ الكريم لا يفـوتك سر هذا الجعل، وإنّه لماذا جعل مبدأ ذلك اليـوم الربّاني، عام غيبة الـولي، أعني عام ٢٦٠ من الهجرة النبويـة، ذلك العام الذي غاب فيـه خاتم الأوصياء عن الأبصار إلى الوقت الذي لا يعلمه إلاّ هو سبحانه، فقد عمد بذلك إلى أن ينطبق مبدأ خروج الباب [٢]على اختتام ألف عام [٣].

فقد خرج «الباب» وادّعى ما ادّعى، مفتتح عام ١٢٦٠ من الهجرة النبوية.

---

(١) أبو الفصل الجرفادقاني.

(٢) المراد منه «علي محمد» الشيرازي الملقّب بالباب، عند الفرق الضالّة البابية والازلية والبهائية.

(٣) فالرجل قد وضع فكرة معينة، ثمّ أراد تصيّد الأدلّة لاثباتها، ولكن الباحث المخلص يتجرّد عن ⇐

الشبهة الرابعة:

استدل صاحب «الفرائد» بآية رابعة، زعم دلالتها على عدم انقطاع الوحي والرسالة بعد رسول الله ﷺ وهي قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ (النور ـ ٢٥).

قال : إنّ صيغة «يوفيهم» تبشّر عن دين حق يوفيه سبحانه على من يشاء من عباده في الأجيال الآتية بعد الإسلام، وليس لك أن تحمله على الإسلام وتفسّره به، لأنّه قد أكمل نظامه وتمت أُصوله وفروعه عام حجة الوداع بنص الذكر الحكيم، كما قال سبحانه: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِيناً﴾ (المائدة ـ ٣) وهو سبحانه يخبر في هذه الآية عن وقوع الأمر (توفية الدين الحق) في الجيل الآتي [١].

الجواب:

هذا مبلغ علم الرجل ومقياس عرفانه بالكتاب وغوره في الأدب العربي وقد كان في وسع الرجل أن يرجع إلى أحد التفاسير، أو إلى ابطال العلم وفطاحل الأُمّة وكانت بيئة مصر [٢] تجمع بينه وبين فطاحلها وأعلامها العارفين، هذا هو أمين الإسلام الطبرسي، فسّره في مجمعه بقوله: يتم الله لهم جزائهم الحق، فالدين بمعنى الجزاء [٣]، وقال الزمخشري: الحق، صفة الدين وهو الجزاء [٤] لا الطريقة والشريعة.

◊ كلّ هوى وميل شخصي، ويتابع النصوص ومفادها، فما أدت إليه بعد التمحيص، تكون هي النتيجة التي ينبغي عليه اعتبارها حقيقة راهنة.

(١) الفرائد صفحة ١٢٢ الطبعة الحجرية.

(٢) فقد ألّف «الفرائد» بمصر، أيام اقامته هناك، وفرغ منه عام ١٣١٥.

(٣) مجمع البيان ج٧ ص ١٣٤.

(٤) الكشاف ج٣ ص ٢٢٣.

وليت الكاتب، أمعن النظر في الظرف (يوم) الوارد في الآية المتقدمة أعني قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم...﴾ ففي أي يوم تشهد ألسنة المجرمين وأيديهم على أعمالهم الإجرامية، فهل هذا اليوم إلاّ يوم البعث؟ ففي ذلك اليوم يوفيهم الله جزاء الطغاة العصاة المفترين الكذّابين المبدعين، الجزاء الحق الذي يستحقّونه بأعمالهم. ففي يوم واحد تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، ويوفي الله دينه الحق والجزاء الذي يستحقّونه.

على أنّ سياق الآية يوضح المقصود، فإنّ الآية وردت في الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فعاتبهم بالآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، لإستعظام ما ركبوا من ذلك، وما أقدموا عليه، إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِين﴾ (النور: ٢٣ ـ ٢٥).

ترى أنّه سبحانه حكم على هؤلاء العصاة اللاعبين باعراض الناس وحرماتهم بأحكام ثلاثة:

١ ـ اللعن عليهم في الدينا والآخرة.

٢ ـ شهادة أعضائهم على أعمالهم الإجرامية.

٣ ـ توفية جزائهم الحق في ذلك اليوم.

ومع ذلك كيف عمي بصر الرجل وبصيرته، وأرخى قلمه ولسانه، وفسّر الآية برأيه الباطل؟!

الشبهة الخامسة:

قد عرفت ما لدى الكاتب ومن لفّ لفه من شبهات تافهة، أو تأويلات كاذبة اختلقوها لاغواء السذّج من الناس. هلم معي نقرأ آخر شبهة للقوم، وهي الاستدلال

بالآية التالية: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة ـ ٥).

فقد فسّر صاحب الفرائد [1] تدبير الأمر بانزال الشريعة من السماء إلى الأرض وجعل عروجه في يوم كان مقداره ألف سنة، بإندراس الشريعة تدريجاً طول هذه المدة بابتعاد الناس عن الدين، ورفضه في مراحل الحياة، وصيرورة القلوب مظلمة بالمعاصي، مدلهمّة بالخطايا، مريضة بشيوع الفساد والفوضى، فيبعث الله عند ذلك رجلاً آخر يجدد الشريعة ويؤسّسها ويذهب بظلمات القلوب، وعلى هذا فلا تدوم الشريعة أي شريعة كانت إلاّ يوماً ربّانياً، وهو ألف سنة ممّا تعدون [2].

الجواب:

ما ذكره بصورة الشبهة، لا يصح إلاّ بعد تسليم أُمور، لم يسلم واحد منها:

١ ـ إنّ التدبير عبارة عن نزول الوحي وبلوغ الشريعة إلى النبي.

٢ ـ إنّ الأمر في الآية هو الشريعة والطريقة.

٣ ـ العروج هو انتهاء أمد الرسالة وانقضاء استعداد بقاء الشريعة واندراسها بشيوع الفساد والمعصية بين الأُمّة.

وليس أي واحد منها صحيحاً ولا قابلاً للقبول:

أمّا الأوّل: فلأنّ التدبير في اللغة والكتاب عبارة عن الإدارة على وجه تستوجبه المصلحة، وتقتضيه الحكمة وأين ذاك عن نزول الشريعة من السماء إلى الأرض، باحدى

---

(١) الفرائد الطبعة الحجرية.

(٢) ثمّ إنّه جعل مبدأ ذلك اليوم الربّاني عام غيبة ولي الله الأعظم المهدي (عج) عن الأبصار حتى يطابق مختتمه مفتتح عام ظهور الباب، هذا مصداق واضح للتفسير بالرأي، وكأنّه قد قرر النتيجة أوّلاً ثمّ راح يتفحّص عن دليل يوصل إليها فلم يجد دليلاً، إلاّ بتحريف كلام الله وتأويله السخيف.

الطرق المقررة في محلها.

وإن شئت قلت: التدبير هو التفكير في عاقبة الأُمور ودبرها، كما قال سبحانه: ﴿فَالمُدَبِّراتِ أمْراً﴾ (النازعات ـ ٥) أي الملائكة الموكلة بتدبير الأُمور.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ علىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُها﴾ (محمد ـ ٢٤).

وقوله سبحانه: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزلنَاهُ إِليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروُا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب﴾ (ص ـ ٢٩) إلى غير ذلك.

أو ليس تفسير التدبير بالنزول عند ذاك يكون تفسيراً بالرأي الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وأوعد عليه النار وقال: من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار [١].

وأمّا الثاني: فلأنّ الأمر في القرآن لم يستعمل بمعنى الشريعة والأحكام الالهية من واجب وحرام ومكروه ومستحب ومباح، وسائر الأحكام الوضعية الجارية في العقود والايقاعات والسياسات.

هؤلاء هم أصحاب المعاجم وأعلام اللغة، لا تجد أحداً منهم فسر الأمر بالشريعة بل تدور معانية بين الشأن والشيء والتكليف.

سؤال: إذا اعترفتم بأنّ التكليف من معانيها، كما يقال:أمرته: إذا كلّفته، فيصح تفسيره بالشريعة، إذ الشريعة عبارة عن تكاليف يوجهها الشارع إلى عباده؟

الجواب: انّ حمل الأمر في الآية على الأمر والتكليف التشريعي خلاف مساق آيات السورة، بل خلاف صريح سائر الآيات الواردة في هذا المضمار فلحاظ السياق يدفعنا إلى أن نحمل الأمر على التكويني الذي هو عبارة عن إرادته الفعلية ومشيئته التكوينية الجارية في صحيفة الكون والوجود، فإنّ كل ما يسيطر على العالم، من نظام وسنن وقوانين، كلّها بأمر تكويني وإرادة فعلية منه سبحانه كما يصرح به قوله سبحانه: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) حديث متفق عليه ورواه الفريقان بصور مختلفة.

وإِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾ (يس: ٨٢ ـ ٨٣).

حصيلة البحث:

انّ هنا قرائن ثلاث لابد من البحث عنها، كي نقرّب إلى الأذهان كيفية حمل لفظ الأمر على الأمر التكويني، أعني النظم والسنن الجارية في دائرة الكون والقوانين المكتوبة على جبين الدهر ودونك هذه الشواهد:

١ ـ لفظ التدبير، فقد عرفت أنّه عبارة عن الإدارة على وجه تقتضيه المصلحة والحكمة، فهو سبحانه يدبر الخلق بعامة أجزائه من السماء إلى الأرض، على وجه تقتضيه المصلحة، فسبحان الذي خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. ودبرها على وفق الحكمة، فلا السماء تسقط على الأرض، ولا الأرض تنخسف بنا، ولا الشمس تظللنا دائماً ولا الظلمة تحيط بنا سرمداً، إلى غير ذلك من سنن ونظم ...

٢ ـ سياق ما تقدمها من الآيات، فإنّ محور البحث في سابقها، هو خلق السماوات والأرض واستوائه سبحانه على العرش، ودونك الآية المتقدمة عليها:

﴿اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُون﴾ (السجدة ـ ٤). «يدبر الأمر» من السماء إلى الأرض ... أفلا تفهم من تقارن الآيتين أنّ اللام في الأمر إشارة إلى أمر الخلقة، وأنّ الله سبحانه خلق السماوات والأرض وما بينهما في أيام وأدوار مخصوصة ولم يكتف سبحانه بأصل الخلقة، بل استوى على عرش ملكه فدبّر أمرها على وجه توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة، وأنّه سبحانه يدبّر أمر الخلق، أي خلق تتصور وينفذه على وجهه، حتى أنّه سبحانه توخياً للتوضيح شبّه المقام الربوبي الذي ينزل منه التدبير، ويصدر منه الحكم بعرش الملك البشري الذي يجلس الملك عليه فيصدر منه أوامره لتدبير أُمور الملك، غير أنّ أوامره طلبات عرفية اعتبارية، ولكن أوامره سبحانه، أوامر تكوينية، لا يقوم بوجهها شيء، فما قال له كن ، فيكون ، بلا تراخ ولا تمرّد.

٣ـ الآيات المنزّلة في هذا المضمار، فإنّ هذه الآية ليست فريدة في بابها فقد ورد في هذا المضمون (أي تدبير أمر الخليقة) آيات أُخرى كلها تهدف إلى ما أوضحناه، وهو أنّ تدبير الخلق بعد إيجاده من شؤونه سبحانه، من دون نظر إلى الشرائع وتجديدها، ودونك الآيات:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (يونس ـ ٣).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مَن المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ (يونس ـ ٣١).

وقوله سبحانه: ﴿اللهُ الذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَىٰ العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمَّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد ـ ٢).

نعم هذه الآيات ساكتة عن عروج الأمر وصعوده في المقدار الذي صرحت به هذه الآية، ولا يوجب ذلك فرقاً جوهرياً بين أهدافها ومراميها.

ومن ذلك تقف على أنّ الأمر في قوله سبحانه: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ (الأعراف ـ ٥٤) هو أمر الخليقة، أي هو الذي خلق الأشياء كلّها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته فيها، فما عن بعض أعلام العرفان والفلسفة من تسمية المادي والماديات بعالم الخلق، والمجردات والابداعيات بعالم الأمر، استناداً إلى هذه الآية ضعيف جداً، وإن كان تقسيم الموجود إلى المجرد والمادي، صحيحاً لا ريب فيه.

وأمّا الثالثة: فلأنّ تفسير العروج بإندراس الشريعة ونسخها باطل جداً، لأنّ العروج عبارة عن ذهاب في صعود كقوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ المَلاَئِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج ـ ٤) وجعله كناية عن انتهاء أمد الشريعة وبطلانها واندراسها من الكنايات البعيدة التي يجب تنزيه القرآن عنها، إذ لا معنى لعروج الشريعة المنسوخة إليه سبحانه

إذ لا يفهم من نسخها إنّها تعرج إلى السماء، بل كل ما يستفاد، إنّها تعطل عن العمل بها والسير عليها، لا إنّها تعرج إليه سبحانه.

أضف إليه أنّه لو كان مراد المولى سبحانه، هو الإخبار عن تجديد كل شريعة بعد ألف عام، لاقتضى ذلك أن يعبّر عن مقصوده بعبارة واضحة يقف عليها كل من له إلمام باللغة العربية، ولماذا جاء بكلام لم يفهم منه مراده سبحانه إلاّ بعد حقب وأجيال إلى أن وصلت النوبة لكاتب مستأجر فكشف الغطاء عن مراده سبحانه وقد خفي على الأُمّة جميعاً، وفيها نوابغ العربية وفطاحلها، حتى تفرّد هو بهذا الكشف؟!

مشكلة المفتتح والمختتم:

بقيت في المقام مشكلة، وهي ابتداء تلك المدة واختتامها، وقد حار فيها فاختار أنّ مبدأها هو عام غيبة الإمام المنتظر، حتى يتطابق ختم ذلك اليوم الذي مقداره ألف سنة مع ظهور الباب [1] ولما رأى أنّ ذلك تفسيراً منه بالرأي، اعتذر عن ذلك بأنّ الإسلام لم يكتمل إلاّ عام غيبة الإمام، حيث حوّل الأمر إلى الفقهاء.

وأنت خبير بأنّ ما اعتذر به يتناقض مع صريح القرآن القاضي باكمال الدين بلحوق النبي بالرفيق الأعلى، فقال سبحانه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلاَمَ دِيناً**﴾ (المائدة ـ ٣).

ولو قال إنّ الآية ناظرة إلى الاكتمال من جانب الأُصول وتدعيم مبادئ الإسلام وأُسسه بنصب الولي، وأمّا الإكتمال من جانب الفروع فقد امتد بعد لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، إلى عشرات السنين من عهود الأئمّة وأعصارها إلى غيبة وليّه، فينتقض كلامه من جانب آخر، فإنّه فسّر عروج الأمر بالنسخ التدريجي للشريعة، وجعل النسخ عبارة عن ترك العمل بها واندارسها في مراحل الحياة، وعلى ذلك يجب أن يكون مبدأ

---

(١) فقد اتفقت غيبة الإمام عام ٢٦٠، وادّعى الباب ما ادّعى، بعد مضي ألف سنة من ذلك حيث كان خروجه سنة ١٢٦٠.

النسخ التدريجي عام فوت الرسول ﷺ فإنّ العصور التي جاءت من بعده ﷺ لم تكن عصوراً ازدهر فيها الإسلام بل كانت عهد الجور والعدوان، حيث تآمرت قريش على تداول الخلافة في قبائلها واشرأبت إلى ذلك اطماعها، فتصافقوا على تجاهل النص، وأجمعوا على صرف الخلافة من أوّل يومها عن وليّها المنصوص عليه إلى غير ذلك من الملمّات والنوازل.

ولو كان ظهور العيث والفساد في المجتمع الإسلامي ورفض الشريعة في مراحل الحياة، ملازمة للنسخ التدريجي للشريعة، فليكن عهد يزيد الخمور والفجور من هذه العهود التي أخذت تعربد بلسان قائله:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

أفلا تعجب من الكاتب، أنّه جعل تلك العهود المظلمة التي امتدت عشرات السنين وكانت وبالاً على الإسلام من العصور الزاهرة، مع أنّه أخرج عهود القسط والعدل الموعود بخروج الإمام الثاني عشر (التي ترفرف فيها أعلام القسط والعدل وتخفق رايات الحق والهداية في كل صقع) من الأصقاع التي ينمو فيها الإسلام، ويزدهر. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

وأمّا البحث عن هدف الآية وأنّه سبحانه ماذا يريد من قوله: ﴿**يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة**﴾ فله منّا بحث آخر، وسوف نعطي حقه عند البحث عن المعاد في القرآن الكريم، فإنّ اليوم الذي يعادل ألف سنة من الآيام الاخروية.

الشبهة السادسة [1]:

* ينص القرآن على أنّ الإسلام شريعة عالمية، وأبدية وأنّ بالإسلام أقفل باب الشرائع، ونسخ جميعها.

---

(١) هذه الشبهة لها صلة بعالمية الإسلام وصلة بخاتميته ولأجل ذلك جعلناها آخر الشبهات وفصّلنا الكلام فيها بما لا يدع لمشكك شك.

* وينص أيضاً على أنّ المؤمنين بالله واليوم الآخر من جميع أهل الشرائع سينالهون ثواب الله، وأنّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

* فماذا يعني ذلك؟

هل ذلك اعتراف من الإسلام بشريعة تلك الشرائع، والسماح لها بالاستمرار إلى جانبه أو لا؟

إذا كان الإسلام آخر شريعة في مسلسل الشرائع السماوية، وكانت رسالته خاتمة الرسالات، وناسخة الأديان، فلماذا يعتبر القرآن كل من يؤمن بالله، ويعمل صالحاً من أصحاب الديانات المسيحية أو اليهودية أو غيرهما مأجوراً عند الله، وآمناً من عذابه؟!

ألا يعني بهذا أنّ جميع الشرائع السماوية لا تزال تحتفظ بشرعيتها، إلى جانب الإسلام، وأنّ أتباعها ناجون شأنهم شأن من اعترف بالإسلام وصار تحت لوائه تماماً، وكأنّ شريعة جديدة لم تأت وكأنّ أمراً ما لم يقع؟ (١).

قبل اعطاء الإجابة الصحيحة على هذا السؤال يتحتم علينا أوّلاً أن نستعرض سريعاً ما يذكر في هذا الشأن من الآيات وهي ثلاث:

١ـ ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾ (البقرة ـ ٦٢).

٢ـ ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ والنَّصَارىٰ مَنْ آمَنَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾ (المائدة ـ ٦٩).

٣ـ ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا والذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ والنَّصَارىٰ والمَجُوسَ والذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يومَ القِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾ (الحج ـ ١٧).

قد يقفز إلى الذهن في النظرة الأُولى أنّ القرآن يكرّس شرعية الشرائع المذكورة

---

(١) قد شاع هذا النظر من جانب بعض المستشرقين.

ويعترف بحقهـا في أمان مـن عذاب الله، وفي منجـى من مؤاخـذتـه، بشرط أن يكونـوا مؤمنين بـالله وباليوم الآخـر، وأن يقدموا على ربّهم بعمـل صالح ويكون نتيجـة ذلك أنّ فكرة نسخ الإسلام للشرائع ادعاء فارغ لا أساس له ولا واقع ما دام الإسلام يعتبر أنّ كل الطرق تؤدي إلى الله، وانّـه ليس من الضروري على أصحاب الشرائع الأُخرى أن يعتـزلوا شرائعهم، وينضمّوا إلى صفوف الإسلام والمسلمين.

هذا هو ما نسمعه بين الحين والآخر من بعض الأفواه.

غير أنّـه يجب أن نعرف أوّلاً: أنّ الأسـاس السليم في تفسير آيـة ما، ليس هـو أن نتجاهـل أخواتها من الآيـات أوّلاً، وملابسـات النزول ثانيـاً، ومقتضى السيـاق القرآني ثالثاً، لأنّنا في هذه الحالة سنقع في تخبط عريض لا أوّل له ولا آخر.

ثم إنّ علينا ـ قبل كل شيء ـ أن نلاحظ سيرة الرسول ﷺ مع أصحاب الشرائع هل كان يـأمرهم بالاعتـزال عن ديانـاتهم، والانضمام إلى صفوف المسلمين أو لا؟ فإذا كان الجواب في المقام ايجابياً لكان ذلك الأمر قرينة على أنّ المقصود من الآيات المذكورة غير ما يتبادر منها في بدء الأمر.

وبعبارة واضحـة: إذا كان الإسـلام يعترف بشرعية الشرائع وحقهـا في الاستمرار والبقاء حتى بعد ظهور الإسلام، فإنّ معنى ذلـك هو أنّ الإسلام ينسف بنفسه مقوّمات وجوده ويعطل من نـاحية أُخرى كل الأُسس الوجيهـة التي قامت عليها دعـوة الرسول الأكرم ﷺ قادة العالم آنذاك إلى شريعته ضمن رسائله ومكاتيبه المشهورة، ويفند بالتالي دعوى الرسول ﷺ بأنّه (آخر الأنبياء وخاتم المرسلين) وأنّ رسالته خاتمة الرسالات !!!

إنّ الرسائل الهامة التي وجهها الرسول الأكرم ﷺ إلى قادة وملوك زمـانه وأيضاً جهاده المرير وجهاد المسلمين ضد أهل الكتاب سواء في عهده أو بعد ذلك، مضافاً إلى مجموع مـا وصل إلينا مـن تصريحات قادة الإسلام لـدليل صارخ على أنّ الإسـلام أعلن بظهوره (نهاية) عهد الشرائع بأسرها و(بداية) عهـد جديد لا شريعة له سوى (الإسلام) ولا نبي له سوى (محمد) ﷺ .

الحديث يبيّـن هدف الآية:

إنّ مفاد الآيات المذكورة ليس ـ في الواقع ـ سـوى تقرير لحقيقة ثابتة، وهي التي تتجلى ـ بوضوح ـ من خلال الآيات السابقة لهذه الآية من سورة البقرة.

فـالآيات إنّما تتحـدث عن مصير الماضين مـن اتبـاع الشرائع في عهود الأنبيـاء السابقين قبل ظهور الإسلام ممّن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً.

فـالقرآن يخبرنـا بأنّ هـؤلاء ناجـون بسبب إيمانهم الصـادق، وعملهم الصـالح والتـزامهم بتعـاليم شرائعهم دون مـن حاد عن طـر يق الإيمان ولم يـأت بعمل صـالح وانحرف عن جادة التـوحيد الخالص، وهم الفرقة التـي عبدت العجل مرة [١] وبلغ بها الوقاحة أن طلبـت من موسى أن يريها الله [٢] ذلك الطلب الوقح الـذي صار سبباً لأن يحل غضب الله على بني اسرائيل.

لقد أراد الله هنـا أن يزيـل الغموض أو الاشتباه حـول مصير الفريـق المؤمن من أهل الكتاب حتى لا يختلط أمرهم بأمر ذلك الفـريق الكافر المعاند فأخبر بأنّ من آمن من أهل الكتاب بالله عن اخلاص، وآمن باليوم الآخر عن صدق وعمل صالحاً، فإنّه لا خوف عليهم يوم القيامة ولا حزن ولا عقاب، بل جنّة وثواب ورضوان من الله.

في هذه الصورة يمكن اعتبار الآية مرتبطة بذلك الفريق المؤمن من أهل الكتاب الـذين كانـوا يعيشـون في العصور الماضيـة السابقـة على الإسلام دون أن يكـون لها أي ارتباط بعصر الرسالة الإسلامية وما بعده.

ونأتي بشأن نزول هـذه الآية ليلقي ضوء أكثـر على هذا الموضوع، ويؤيّـده تأييداً كاملاً.

فهذا هـو الطبري ينقل عن السـدّي قوله: نـزلت هذه الآيـة في أصحاب سلمان

---

(١) راجع البقرة الآيات: ٥١, ٥٤, ٩٢, ٩٣، والنساء: ١٥٣، والأعراف: ١٥٢.

(٢) راجع البقرة: ٥٥.

الفارسي حيث ذكر أصحـابه للنبي ﷺ فقال لـه نبي الله: هم من أهل النـار، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا والذِينَ هَادُوا...﴾ (١).

في هذه الصورة لا تجد أي ارتباط لـلآية بزعم أُولئك الذين يـدعون أنّ هذه الآية لا تعني سوى (الوفاق الإسلامي المسيحي اليهودي) ويزعمون أنّ الإسلام يقرّر في هذه الآيات (أمان) المعتنقين لغير الإسلام من عذاب الله وعقابه.

هذا مضافاً إلى أنّنـا لا نرى أي علاقة بين الآية الثالثـة (وهي الآية ١٧ من سورة الحج) وبين ما يـزعم هؤلاء .. حيث أنّ مفاد هـذه الآية لا يعني سـوى الإخبار بأنّ الله هـو الحاكم بين الطوائف المختلفـة، يوم القيـامة فهـو الذي ينتقـم من طائفـة وينتصر لطائفـة أُخرى، وليس يعني ذلـك مطلقاً أنّ أصحاب الشرائع الأُخـرى على حق، وأنّهم ناجون يوم الحساب!

جواب آخر:

ولنا ـ هنا ـ إجابة ثانية على السؤال المطروح، ولكن قبل أن ندخل في صميم هذه الاجابة نرى من الضروري أن نشير إلى بعض هذه الأُمور:

فكرة الشعب المختار:

التاريـخ يحدثنا أنّ اليهـود والنصارى كانـوا كثيراً ما يستعلـون على المسلمين بل العـالم بـادعاء فكـرة (الشعب المختـار) ، فكـل واحدة مـن هاتين الطـائفتين: اليهـود والنصارى، كانت تدّعي أنّها أرقى أنواع البشر !!

وكانـت اليهود خـاصة أكثـر تمسكاً بهذا الـزعم، حتى أنّهم كـانوا يـدّعون أنّهم (شعب الله المختار).

---

(١) تفسير الطبري ج١ ص ٢٥٦، والحديث طويل وقد أخذنا موضع الحاجة منه، والظاهر أنّه منقول بالمعنى وفي بعض عباراته خلل.

وقد ذكر القرآن في إحدى آياته هذا الزعم الباطل، وذكر أنّ النصارى هم أيضاً يدّعون هذا الإدّعاء الفارغ عندما يقول:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ (المائدة ـ ١٨).

والقرآن جاء يفنّد هذا الزعم بكل قوّة عندما يقول: **﴿فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم﴾** وقد بلغت أنانية اليهود، واستعلائهم الزائف حداً بالغاً، وكأنّهم قد أخذوا على الله عهداً بأن يستخلصهم، ويختارهم حيث قالوا:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودة﴾ (البقرة ـ ٨٠).

ولكن القرآن نسف بقوة هذا الزعم حيث قال في شكل إستفهام انكاري:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾ (البقرة ـ ٨٠).

هكذا نستكشف من خلال هذه المزاعم وردودها أنّ اليهود كانوا يعدّون أنفسهم صفوة البشرية ونخبة الشعوب وكانوا يحاولون بمثل هذه المزاعم فرض كيانهم على العالم كأرقى نوع بشري انتخبه الله على سائر البشر ، حتى كأنّهم أبناء الله المدلّلون.

٢ـ الأسماء لا تنقذ انساناً :

إنّ اليهود والنصارى كما كانوا يحاولون الاستعلاء الباطل عن طريق بث (فكرة الشعب المختار) كانوا من ناحية ثانية يعتبرون الأسماء، أو الانتساب إلى اليهودية والمسيحية سبباً آخر من أسباب التفوّق في الدنيا، والنجاة في الآخرة والفوز بالثواب الجزيل.

فقد كان في تصورهم أنّ الجنّة هي نصيب كل من ينتسب إلى بني اسرائيل أو يسمّى مسيحياً ليس إلاّ، وكأنّه بإمكان الأسماء أو الانتساب أن تصبح يوماً ما سبيلاً إلى

الهداية، أو مفاتيح للجنّة!!

ولكن هذا الزعم ـ على رغم سخافته ـ أُمنية لهم كسائر أمانيهم كما يحدثنا القرآن:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارىٰ﴾ (البقرة ـ ١١١).

غير أنّ القرآن كان بالمرصاد لهذه الدعاوي الباطلة أيضاً، عندما ذكر بأنّ الوسيلة الوحيدة لامتلاك الجنّة العريضة هي: (الإيمان الصادق) و (العمل الصالح) وليست الأسماء، أو مجرد الانتساب إلى عقيدة سماوية مهما كانت. فقال:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِين * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾ (البقرة: ١١١ ـ ١١٢).

ولا شك أنّه واضح جداً أنّ جملة ﴿بلى من أسلم﴾ إنّما تعني الإيمان الخالص والتسليم الصادق لله، وجملة ﴿وهو محسن﴾ إنّما تعني العمل وفق ذلك الإيمان أي العمل بالشريعة التي يؤمن الشخص بها، وكلتا الجملتين تدلاّن على أنّ السبيل الوحيد إلى النجاة في يوم القيامة إنّما هو: الإيمان والعمل، وليس اسم اليهودي أو النصراني فليست المسألة مسألة أسماء وإنّما هي مسألة إيمان صادق، وعمل صالح.

٣ـ ليست الهداية في اعتناق اليهودية والمسيحية:

يشير القرآن ـ أيضاً ـ إلى دعوى أُخرى لهم باطلة كأخواتها، فارغة كمثيلاتها وهي قولهم بأنّ الهدى الحقيقي إنّما هو في اعتناق اليهودية أو المسيحية !!

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارى تَهْتَدُوا﴾ (البقرة ـ ١٣٥).

ولكنّ القرآن يرد ـ أيضاً ـ هذا الزعم الواهي بقوله:

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِين﴾ (البقرة ـ ١٣٥).

فالهدى الحقيقي هو في الاقتداء بملّة إبراهيم واعتناق مذهبه في التوحيد الخالص من كل شائبة.

وفي آيات أُخرى في القرآن نجد كيف أنّ اليهود والنصارى حاولوا اضفاء طابع اليهودية والمسيحية على إبراهيم، ليحصلوا بذلك على دعم جديد لمعتقداتهم ويضفوا الشرعية على مسلكهم، غير أنّ القرآن مضى يفنّد ـ بكل قاطعية وعنف ـ هذه الاكذوبة بقوله:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾ (آل عمران ـ ٦٧).

نستخلص من كل هذه الآيات كيف أنّ اليهود والمسيحيين والقدامى منهم خاصة كانوا يحاولون ـ بهذه الأفكار الواهية ـ التفوّق على البشر، والتمرّد على تعاليم الله، والتخلص بصورة خاصة من الإنضواء تحت لواء الإسلام، مرة بافتعال اكذوبة (الشعب المختار) الذي لا ينبغي أن يخضع لأي تكليف، ومرة أُخرى بافتعال خرافة (الأسماء والانتساب) وادعاء النجاة بسبب ذلك والحصول على مغفرة الله وجنّته وثوابه. ومرة ثالثة بتخصيص (الهداية) وحصرها في الانتساب إلى إحدى الطائفتين بينما نجد أنّه كلّما مرّ القرآن على ذكر هذه المزاعم الخرافية أعلن بكل صراحة وتأكيد: أنّه لا فرق بين انسان وانسان إلاّ بتقوى الله فإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم..

وأمّا النجاة والجنّة فمن نصيب من يؤمن بالله، ويعمل بأوامره دونما نقصان لا غير، وهو بهذا يقصد تفنيد مزاعم اليهود والنصارى الجوفاء.

بهذا البحث حول الآيات الثلاث (المذكورة في مطلع البحث) نكتشف بطلان الرأي القائل بأنّ الإسلام أقر ـ في هذه الآيات ـ مبدأ (الوفاق الإسلامي المسيحي واليهودي) تمهيداً لإنكار عالمية الرسالة الإسلامية، بينما نجد أنّ غاية ما يتوخّاه القرآن ـ في هذه الآيات ـ إنّما هو فقط نسف وإبطال اليهود والنصارى وليعلن مكانه بأنّ النجاة إنّما هي بالإيمان الصادق والعمل الصالح.

فلا استعلاء، ولا تفوّق لطائفة على غيرها من البشر مطلقاً، كما أنّ هذا التشبّث الفارغ بالأسماء والدعاوي ليس إلاّ من نتائج العناد والاستكبار عن الحق.

فليست الأسماء، ولا الانتساب هي التي تنجي أحداً في العالم الآخر، وإنّما هو الإيمان والعمل الصالح، وهذا الباب مفتوح على وجه كل انسان يهودياً كان أو نصرانياً مجوسياً أو غيرهم.

ويوضح المراد من هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (المائدة ـ ٦٥).

فتصرّح الآية بانفتاح هذا الباب بمصراعيه في وجه البشر كافة من غير فرق بين جماعة دون جماعة حتى أنّ أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون لقبلنا إيمانهم وكفّرنا عنهم سيئاتهم.

هذا هو كل ما كان يريد القرآن بيانه من خلال هذه الآيات، وليس أي شيء آخر.

إذن فلا دلالة لهذه الآيات الثلاثة على إقرار الإسلام لشرعية الشرائع بعد ظهوره .. وإنّما تدل على أنّ القرآن يحاول بها إبطال بعض المزاعم.

يبقى أن تعرف أنّ هنا آيات أُخرى تؤيد بصراحة ما ذهبنا إليه من انحصار النجاة في الإيمان والعمل، وذلك كسورة (والعصر):

﴿وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١ـ٣).

كما أنّ تكرار كلمة (الإيمان) في الآيات الثلاث تأكيداً آخر لما قلناه حيث قال في مطلع الآيات: ﴿إنّ الذين آمنوا﴾ ثم قال: ﴿...من آمن بالله﴾ وهو يقصد بمن (آمنوا) الأُولى، الذين اعتنقوا الإسلام في الظاهر، دون أن يتسرب الإيمان إلى قلوبهم، وينعكس على تصرفاتهم، ويقصد بمن (آمن) الثانية الإيمان الصادق المقرون بالعمل.

وبعبارة أُخرى: انّ المراد من قوله: ﴿إنّ الّذين آمنوا﴾ هم المسلمون لوقوعه في مقابل اليهود والنصارى، ويشهد على ذلك قوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً

لِلذِينَ آمَنُوا اليَهُود﴾ (المائدة:٨٢) فقد جعل لفظ «آمنوا» في مقابل اليهود.

وحينئذ فالمراد من قوله: ﴿آمنوا﴾ في صدر الآية هو من أظهر الإيمان بالله ورسالة رسوله محمد ﷺ كما أنّ المراد من قوله: ﴿من يؤمن﴾ هو الإيمان الحقيقي الراسخ في القلب.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿يا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ (النساء ـ ١٣٦).

ثمّ إنّي بعد ما كتبت هذا وقفت على ما كتبه الكاتب الإسلامي أبو الأعلى المودودي حول الآية، وكان متقارباً لما قلناه، وحررناه، ولأجل اتمام الفائدة نأتي بإجمال ما كتبه:

والحقيقة انّ هذا التحريف قد اسدى إلى روح الضلالة خدمة كان قد عجز عن مثلها أكابر أئمّة الضلال والكفر على بعد نظرهم، ومكرهم في التضليل، إذ هو يزوّد ـ في جانب ـ غير المسلمين بدليل من القرآن نفسه على عدم احتياجهم إلى قبول الحق، ويأخذ ـ في جانب آخر ـ بيد المنافقين والدخلاء على الجماعة الإسلامية من الذين يتلملمون دائماً للتنصل من قيود الإسلام وحدوده حتى ينالوا الرخصة بلسان القرآن نفسه في ازالة الحاجز القائم بين الكفر والإسلام، ويزلزل ـ في الجانب الثالث ـ إيمان المؤمنين المتّبعين للقرآن والسنّة في داخل الجماعة الإسلامية حتى ليساورهم الشك بأنّ الانسان ما دام من الممكن له أن يستحق النجاة ولو بانكار القرآن والسنّة النبوية وبغير حاجة إلى الإيمان بكتاب ولا برسالة ، فمن العبث أن يتقيّد بحدود الإسلام إذ لا فرق ـ البتة ـ بين كونه مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً أو صابئياً أو هندوكياً أو غيره.

ثم شرع الكاتب في تفسير جمل الآية وقال:

إنّ المرادبـ: ﴿الذين آمنوا﴾ هم طائفة أهل الإسلام و إنّ المراد من: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أُولئك الذين هم متصفون في حقيقة الأمر بصفة الإيمان الصحيح الكامل.

والمراد من: ﴿والذين هادوا والنصارى...﴾ أُولئك الذين يعدون من طوائف

اليهـود والنصارى، وليـس المراد بهم، أُولئك الـذين اختـاروا عقيـدة اليهود، وانتهجـوا نهجهم في حقيقـة الأمر، أو الذيـن يعتقدون النصرانية في واقـع الأمر حسب مـا ذكر في جملة: ﴿انّ الذين آمنوا﴾ .

ثمّ أفاد في رفع الستار عن هدف الآية، وقال:

إنّ التصورات الطائفية التي كانت شائعـة في عهد نزول القرآن هي بعينها شائعة في العصر الحاضر أيضاً.

فلهذا لا يصعب علينـا أن ندرك أنّ القرآن إنّما يفرّق في هذه الآيـة بين الذين هم مؤمنون لمجرد انتسابهم إلى طائفة أهـل الإيمان وبين الذين هم مؤمنون واقعيون متصفون بصفة الإيمان، ومتمثّلون لحقيقته في الواقع.

فكما أنّنا نشاهد في هذا الزمان أنّ الدنيا تميّز بين الأفراد من وجهة الطائفية فيقال لرجل: مؤمن، أو مسلم، لمجرد أنّه من جماعة المسلمين على حسب انقسام أفراد البشرية بين مختلف الجماعات بصرف النظـر عمّـا إذا كان هو مسلماً في واقع الأمـر أم لا، ويقال لفرد مـن اليهود والنصارى والبـوذيين: يهودي أو نصراني أو بوذي، بـاعتبار انتسـابه إلى ديانـة من تلك الديانـات و بصرف النظر عمّـا إذا كان مـؤمناً بمبادئ طـائفته في واقع الأمر أم لا ، كذلك كان النوع البشري في عهد نـزول القرآن موزّعاً بين عدد من الطوائف على حسب الظواهر بدون اعتبار الـواقع، فكان يميّز بين مختلف الأشخاص والجماعات باعتبـار أنّ فلانـاً من جماعـة محمد ﷺ وفـلاناً من طـائفة اليهـود، وفـلان من طائفـة النصارى وهلمّ جرا.

ومن هنا كـان المنافقون يعـدّون من جماعة المسلمين ــ الذين آمنوا ــ مع أنّهم لم يكونوا مسلمين في حقيقة الأمر.

والحقيقة انّ الله سبحانه وتعالى يريـد بهذا الجزء من الآية أن يفنّد الفكرة السائدة عند النـاس عامـة وهي أنّ النـاس سيحشرون في الآخرة بمـوجب التصنيف الطـائفي، وباعتبار أنسابهم وأسمائهـم الصورية في الدنيا، فيعتقد اليهـودي أنّ النجاة خالصة لمن

هو معدود في طائفة اليهود دون سائر الناس، ويظن النصراني أنّ الدخول في النصرانية دخول في أهل الحق، وكل من هو خارج عن هذه الدائرة يكون على الباطل، وكذلك قد بدأ المسلمون يظنون أنّ من هو داخل في جماعتهم على اعتبار اسمه واسرته ومولده فهو مسلم وله الشرف والفضيلة على كل من ليس بداخل في جماعتهم بموجب تلك الاعتبارات.

فتفنيداً لهذه الفكرة الخاطئة يقول سبحانه وتعالى إنّ الفرق الحقيقي بين الانسان والانسان ليس على حسب الطائفية الظاهرية، بل الذي عليه المدار هو الإيمان والعمل الصالح، وليس كل من تسمّى بأسماء المسلمين مع خلوّه من الإيمان وابتعاده عن العمل الصالح بالمؤمن في واقع الأمر، ولن يكون في عاقبته مثل المؤمنين الحقيقيين، وكذلك ليس كل من ينتسب إلى اليهودية والنصرانية أو الصابئة يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً إذا كان متجرداً من هذه الصفات. فكما أنّ الاعتداد في جماعة المسلمين لا يغني عن الانسان شيئاً كذلك اعتباره من اليهود و النصارى والصابئين لا يرجع عليه بالفائدة في الآخرة.

ثمّ إنّه بعد ما ذكر بعض ما قدمنا من الآيات من مزاعم اليهود والنصارى من كون الجنّة مختصة بهم، أو أنّ النار لا تمسّهم إلاّ أياماً معدودة، أو أنّهم أبناء الله واحباؤه، قال إنّ كل هذه الآيات إنّما تكشف عن حقيقة بعينها هي أنّ الله عزّ وجلّ ليست عليه دالّة لطائفة في الأرض، ولا أنّ طائفة خاصة مستأثرة بالنجاة عنده، فليس من حق أحد من الناس أن يعامل بصفة خاصة بناء على أنّه ولد في أُمّة معيّنة أو ينتمي إلى جماعة خاصة، بل الجميع من حيث هم أفراد الجنس البشري، لا فرق بينهم البتة في نظر الله، لأنّ الاعتبار الحقيقي عند الله ما هو للانتسابات أو القوميات، بل هو للمبادئ والحقائق فإن آمنتم بصدق قلوبكم وعملتم الصالحات نلتم جزاءً حسناً عند الله، و إن بقيتم على غير شيء من الإيمان والعمل الصالح فلا شيء ينقذكم من العقاب والعذاب الأليم، ولو إلى أي طائفة أو جنس كنتم تنتسبون، والله تعالى قد صرّح بهذه الحقيقة في موضع آخر من كتابه حيث يقول ـ مخاطباً المسلمين ـ: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ**

مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (النساء ١٢٣ـ ١٢٤)[1].

وأنت إذا لاحظت ما ذكره المؤلّف وما قد حررناه من قبل تجد الجوابين متوافقي المضمون، متشاكلي المعنى.

وإذا وقفت على هدف الآية ومرماه فلندخل في صميم الإجابة الثانية حتى نثبت أنّها لا تمتّ بصلة إلى مدّعى القائل، إذ الآية تسوقنا إلى أنّ الاعتبار في النجاة هي (الحقائق والمسمّيات والمعاني) دون الصور والأسماء والقشور.

وأمّا ما هو حقيقة الإيمان بالله وما هو شرطه، وما المقصود في العمل الصالح وكيف يتقبل.

فالآية ساكتة عن بيانها ومنصرفة عن توضيحها، وإنّما تطلب هذه الشروط والقيود من سائر الآيات ولأجل ذلك يجب أن ينضم إلى الآية سائر ما ورد من الآيات الواردة في باب الإيمان بالله والإتيان بالعمل الصالح حتى نقف على مرمى القرآن.

فنقول: ليس معنى الإيمان بالله أن يقر الانسان بوجود الله، ويعترف بوحدانيته بل المراد هو التسليم لله، كما في قوله سبحانه:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾ (البقرة ـ ١١٢).

وقد دلّت الآيات القرآنية على أنّ الإيمان بالله لا ينفك عن الإيمان بأنبيائه ورسله حيث قال سبحانه:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلىٰ إِبْرٰهِيم وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة طبعة دار القلم ص ١٩٠ ـ ١٩٦ وهو من أنفع كتب المؤلّف غير أنّه يعتمد في المسائل الفقهية على رأي كلّ صحابي أو تابعي، وينقل آراء أصحاب المذاهب الأربعة ولا ينقل رأي واحد من أئمة أهل البيت غير الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السّلام ـ.

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾ (البقرة ـ ١٣٦).

كما دلّت على أنّ الإيمان بأنبيائه ورسله لا تنفك عن الإيمان بنبيّه الخاتم حيث قال سبحانه: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقَاق﴾ (البقرة ـ ١٣٧).

والقرآن يعترف بأنّ تكفير نبي واحد تكفير بجميع الأنبياء بل تكفير بالله سبحانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً﴾ (النساء : ١٥٠ ـ ١٥١).

كيف وقد عدّ الإيمان بنبيّه الخاتم من أركان الإيمان وقال:

﴿إِنَّما الـمُؤْمِنونَ الذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (النور ـ ٦٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّما الـمُؤْمِنونَ الـذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُون﴾ (الحجرات ـ ١٥).

وليس المراد من الإيمان بالرسول هو الاعتراف بعظمة الرسل وجلالة مكانتهم بل المراد هو الطاعة العملية حيث قال سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (النساء ـ ٦٤).

وقال سبحانه:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الـمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء ـ ١١٥).

وقال سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أمراً أن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب ـ ٣٦).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في شأن الأنبياء وخصوص شأن الرسول الأكرم.

وعلى ذلك فالإيمان بالله الذي تعتبره الآية وسيلة للنجاة لا ينفك عن الإيمان برسله وكتبه، وعن الإيمان برسوله الخاتم، ولا ينفك الإيمان بهم وبه عن الإيمان بطاعته، وامتثال أوامره والانزجار عن نواهيه، ولا يتم ذلك إلاّ بالعمل بالقرآن وشريعته وأوامره وزواجره، سننه وفرائضه وليس يراد من المسلم إلاّ ذاك، ولا تخالف بين الآية وغيرها من الآيات في الهدف والمرمى.

نعم كل من أراد أن يستخرج من الآية ما هو كفاية رسوخ اليهودي في يهوديته والنصراني في نصرانيته.. فقد غضّ بصره عن سائر الآيات شأن كل من يختار مذهباً أوّلاً ثمّ يرجع إلى القرآن حتى يجد له دليلاً ثانياً.

إنّ الله يأمر نبيّه أن يعلن ويقول:

﴿وأَنَّ هَذَا صِراطِي مُستَقِيما فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ (الأنعام ـ ١٥٣).

وعندئذ لا يمكن له أن يعترف بصحة الطرق المختلفة الأُخرى وأنّها أيضاً طرق مستقيمة.

خاتمة المطاف:

بقيت هنا كلمة وهي أنّه ربّما يستدل (١) على الخاتمية بمثل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (سبأ ـ ٢٨).

وقوله سبحانه: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف ـ ١٥٨) والأُولى الاستدلال بها على عالمية الرسالة الإسلامية لا خاتميتها.

وما ربّما يقال: بأنّ الناس ربّما يطلق ويراد منه جماعة من الناس مثل قوله سبحانه

(١) اللوامع الالهية ص ٢٢٥.

في قصة موسى وفرعون: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء ـ ٣٩).

وقوله سبحانه: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ (الفتح ـ ٢٠).

والمقصود من الناس هم المشركون خاصة وعلى ذلك فليست هذه الآية ونظائرها دالة على سعة رسالته فضلاً عن خاتميتها.

والجواب عن الشبهة واضح وذلك لأنّ استعمال كلمة (الناس) في الجماعة الخاصة في الآيات المتقدمة إنّما هو لوجود القرائن الحافة بالكلام ولولاها لما صح استعمال الكلمة التي وضعت للعموم في جماعة خاصة.

هذه شبهات الخاتمية التي اختلقها القوم ولم تكن إلاّ شبهات سوفسطائية أو أشواكاً في طريق الحقيقة، وبقيت شبهات ضئيلة أُخرى للقوم، أرى التعرّض لها ضياعاً للوقت الثمين.

أجل هناك أسئلة حول الخاتمية جديرة بالبحث والتحليل، فلا بد من التعرض لها وما يمكن أن يجاب به حولها، ولأجل ذلك عقدنا الفصل التالي وهو من الفصول المفيدة جداً.

❁ الفصل الرابع ❁

أسئلة
حول الخاتمية

أنّ من شيم العصر الإلحادي الحاضر، كثرة السؤال والتشكيك في كل شيء، خصوصاً فيما يرجع إلى المبدأ والمعاد، والمعارف الغيبية أي المسائل الراجعة إلى ما وراء الطبيعة، ولم تسلم مسألة خاتمية الرسول الأعظم ﷺ من هذه التشكيكات، فقد كثر السؤال وطال الحوار والنقاش حولها، ونحن نذكر تلكم الأسئلة الدارجة في الأذهان والأفهام ونعترف بأنّ بعضها أو كثيراً منها جدير بالبحث والتمحيص أكثر، مما بحثنا عنه.

السؤال الأول:

وحاصله: هب أنّه ختمت النبوّة التشريعية، فلماذا ختمت التبليغية منها؟

توضيحه: أنّ النبي إذا بعث بشريعة جديدة وجاء بكتاب جديد، فالنبوّة تشريعية وأمّا إذا بعث لغاية الدعوة والإرشاد إلى أحكام وقوانين سنّها الله سبحانه على لسان نبيه المتقدم، فالنبوّة تبليغية.

والقسم الأوّل من الرسل، قد أنحصر في خمسة، ذكرت أسماؤهم في القرآن والنصوص المأثورة، أمّا الأكثرية منهم، فكانوا من القسم الثاني وقد بعثوا لترويج الدين النازل على أحد هؤلاء فكانت نبوّتهم تبليغية[١].

حينئذ فقد يسأل سائل ويقول: هب أنّ نبي الإسلام جاء بأكمل الشرائع وأتمها وأجمعها للصلاح وجاء بكل ما يحتاج إليه الإنسان، في معاشه ومعاده، إلى يوم القيامة ولم يبق لمصلح رأي ولمفكّر نظر، في أُصول الإصلاح وأُسسه، لأنّ نبينا ﷺ قد أتى بصحيح الرأي وأتقنه وأصلحه في كافة شؤون الحياة ومجالاتها ولأجل ذلك الإكتمال أُوصد باب النبوّة التشريعية.

ولكن لماذا أُوصد باب النبوّة التبليغية التي منحها الله للأُمم السالفة فإنّ الشريعة مهما بلغت من الكمال والتمام لا تستغني عمّن يقوم بنشرها وجلائها وتجديدها، لكي لا تندرس ويتم إبلاغها من السلف إلى الخلف بأسلوب صحيح، فلماذا أوصد الله هذا الباب بعد ما كان مفتوحاً في وجه الأُمم الماضية، ولماذا منح الله سبحانه هذه النعمة على السالف من الأمم وبعث فيهم أنبياء مبلغين ومنذرين وحرم الخلف الصالح من الأُمم منها؟.

الجواب:

أنّ انفتاح باب النبوّة التبليغية في وجه الأُمم السالفة وإيصاده بعد نبي الإسلام ليس معناه أنّ الأُمم السالفة استحقت هذه النعمة المعنوية، لفضيلة تفردت بها، دون الخلف الصالح من الأُمم، أو أنّ الأُمّة الإسلامية حرّمت لكونها أقل شأناً وأهون مكانة من الأُمم الخالية ـ كلا ـ بل الوجه أنّ الأُمم السالفة كانت محتاجة إليها دون الأُمّة الإسلامية، فهي في غنى عن أي نبي مبلغ يروج شريعة نبي الإسلام.

وذلك أنّ المجتمعات تتفاوت إدراكاً ورشداً، فربّ مجتمع يكون في تخلقه كالفرد

---

(١) الكلمة الدارجة لمعنى التبليغ في البيئات العربية هي كلمة «التبشير» ولكن كلمة «التبليغ» أولى وأليق بهذا المعنى، فهي مقتبسة من القرآن، ومدلولها اللغوي منطبق على المقصود كل الانطباق.

القاصر، لا يقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصل إليه، بل يضيعه كالطفل الذي يمزق كتابه ودفتره غير شاعر بقيمته.

وربّ مجتمع بلغ من القيم الفكريّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، شأواً بعيداً يحتفظ معه بتراثه الديني الواصل إليه، بل يستثمره استثماراً جيداً فهو عند ذاك غني عن كل مروج يروج دينه، أو مبلغ يذكر منسيه أو مرب يرشده إلى القيم الأخلاقية، أو معلم يعلمه معالم دينه ويوضح له ما أشكل من كتابه، إلى غير ذلك من الشؤون، فأفراد الأُمّة السالفة كانوا كالقصر، غير بالغين في العقلية الاجتماعية فما كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصل إليهم، بل كانوا يلعبون به لعب الصبي بكتابه بتحريفهم له وتأويله بما يتوافق مع أهوائهم ومشاربهم، ولذا كان يحل بالشريعة، إندراس بعد مضي القرون والأجيال ويستولي عليها الصدأ بعد حقبة من الزمان.

لهذا ولذلك كان على المولى سبحانه أن يبعث فيهم نبياً، جيلاً بعد جيل، ليذكرهم بدينهم الذي إرتضاه الله لهم، ويجدد شريعة من قبله ويروج قوله وفعله ويزيل ما علق بها من شوائب بسبب أهواء الناس وتحريفاتهم. وأمّا المجتمع البشري بعد بعثة الرسول ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى، فقد بلغ من المعرفة والإدراك والتفتح العقلي والرشد الاجتماعي شأواً يتمكن معه من حفظ تراث نبيه وصيانة كتابه عن طوارق التحريف والضياع، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني إلى تصنيف أنواع التآليف في أحكامه وتفسيره وبلاغته ومفرداته وإعرابه وقرائته فإزدهرت تحت راية القرآن ضروب من العلوم والفنون.

فلأجل ذلك الرشد الفكري في المجتمع البشري، جعلت وظيفة التبليغ والإنذار، على كاهل نفس الأُمّة حتى تبوأت وظيفة الرسل من التربية والتبليغ، واستغنت عن بعث نبي مجدد على طول الزمان يبلغ رسالة من قبله.

فإذا قدرت الأُمّة على حفظ ما ورثته عن نبيها، ونشره بين الناس في الآفاق، ومحو كل مطمع فيه وهدم كل خرافة تحدثها يد التحريف، استغنت طبعاً عن قائم بهذا الأمر

سوى نفسها.

لقد ظهرت طلائع هذا التفويض من أوّل سورة نزلت على النبي ﷺ حيث خاطبه الله سبحانه، في اليوم الذي بعثه رسولاً إلى الناس وهادياً لهم بقوله: **﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسٰن من علق * اقرأ وربّك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسٰن ما لم يعلم﴾** (العلق: ١ـ٥).

وهذا الخطاب يؤذن بأن دينه، دين التلاوة والقرائة، دين العلم والتعليم، دين القلم والتحرير، وأنّ هذا الدين سوف يربي أُمة مفكرة، متحضرة، عالمة بقيمة التراث الذي يصل إليها، قادرة على حفظ هذا الدين في ضوء العلم والفكر، مستعدة لنشر تعاليمه في أقطار العالم وأرجاء الدنيا، بأساليب صحيحة.

وقد بلغت عناية الإسلام بالقلم والكتابة، إلى حد أن أقسم سبحانه: **﴿بالقلم وما يسطرون﴾** وأنزل سورة باسمه، تمجيداً له وحثاً للأمة على تقديره والعناية به، ليكون رائداً للتقدم والحضارة والمعرفة، ويصير أحسن ذريعة إلى حفظ التراث بلا حاجة إلى مبلغ سماوي.

ثم أنّه سبحانه، صرح بهذا التفويض أي تفويض أمر التبليغ إلى نفس الأُمّة في غير موضع من كتابه، منها قوله سبحانه: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدِّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلّهم يحذرون﴾** (التوبة ـ ١٢٢).

ومنها قوله سبحانه: **﴿ولتكن منكم أُمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** (آل عمران ـ ١٠٤).

ومنها قوله سبحانه: **﴿كنتم خير أُمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** (آل عمران ـ ١١٠).

وفي السنن والأحاديث تصاريح بذلك، نكتفي بما يلي:

قال الباقر ـ عليه السّلام ـ: «أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، وفريضة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب وترد

المظالم، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر»[١].

ولعل في قوله ـ عليه السلام ـ : «سبيل الأنبياء» إشارة إلى أنّ هذا الأمر موكول إلى الأُمّة بعد انقطاع الوحي وإيصاد باب النبوّة.

وقال رسول الله ﷺ : «إذا ظهرت البدع، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٢].

ثمّ أنّ هناك جواباً آخر، ربّما يكون ملائماً لأُصول الشيعة الإمامية في مسئلة الإمامة والخلافة ولأجل إيقاف القارئ الكريم عليه نأتي به إجمالاً ولا يعلم إلاّ بالوقوف على معنى الإمامة لدى الشيعة ودور أهل البيت في إكمال الدين.

دور أهل البيت في إكمال الدين وختم الرسالة:

أنّ للشيعة الإمامية نظراً خاصاً في كيفية استغناء الأُمّة الإسلامية عن ضرورة استمرارية النبوّة وتواصلها بعد لحوق النبي الأكرم ﷺ بالرفيق الأعلى، وعمدة ذلك هو ثبوت نظرية الإمامة التي تتبناها الشيعة الإمامية في باب الولاية الإلهية والخلافة بعد رسول الله.

فالإمامة عندهم عبارة عن الولاية الإلهية العامة على الخلق فيما يختص بشؤونهم الدينية والدنيوية وهي مستمرة بعد قبض النبي الأعظم، لم يوصد بابها بل أنّه مفتوح إلى أن يشاء الله إيصاده، وإنّما الذي ختم بالنبي الأعظم هو باب النبوّة التي هي تحمل النبأ عن الله سبحانه، وباب الرسالة التي هي تنفيذ ما تحمله النبي عن الله سبحانه بين الأُمة[٣].

هذه الولاية الالهية غير النبوّة والرسالة وإن كانت تجامعهما تارة وتفارقهما أُخرى

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف الباب الأوّل الحديث ٦.

(٢) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف الباب الأربعون الحديث ١.

(٣) سيوافيك توضيح الفرق بين النبوّة والرسالة في الجزء الرابع من كتابنا هذا.

فقد تمثلت المناصب الثلاثة في شخص إبراهيم.

إذ كان ـ عليه السلام ـ يمثل منصب الإمامة، كما كان يمثل منصبي النبوّة والرسالة ولقد حباه الله سبحانه منصب الإمامة، بعد ما منحت له النبوّة وأرسله رسولاً ويدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿**أنّي جاعلك للناس إماماً**﴾ (البقرة ـ ١٢٤) [١].

والأئمّة الاثنا عشر لدى الإمامية يمثلون منصب الإمامة، من دون أن يكونوا أنبياء أو رسلاً، فهم أئمّة الدين، وأولياء الله بين الأُمّة، ولهم رئاسة إلهية عامة، دينية ودنيوية على وجه يوجب على الأُمّة الانقياد لهم وهم حجج الله على عباده يهتدى بهم إليه سبحانه ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده [٢].

والباعث على انفتاح باب الولاية الإلهية في وجه الأُمّة، بعد ختم النبوّة والرسالة وإيصاد بابها بالتحاق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى أُمور نشير إلى واحد منها [٣].

لا يختلف اثنان من المسلمين بانقطاع وحي السماء عن وجه الأرض بموت النبي وقبضه كما لا يختلفان في أنّ النبي قام بمهمة التشريع والتبليغ وتثقيف الأُمّة الإسلامية بالثقافة الدينية وبث العقيدة الدينية فيهم وحفظ الشريعة عن شبهات المنكرين وإرجاف المرجفين بأحسن الوجوه وأكملها وقال سبحانه: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ (المائدة ـ ٣) غير أنّه ﷺ كان يراعي في نشر الأحكام حاجة الناس ومقتضيات الظروف فكانت هناك أُمور مستجدة

---

(١) روى ثقة الإسلام الكليني عن جابر عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السّلام ـ قال: سمعته يقول: إنّ الله اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء ـ وقبض يده ـ قال له يا إبراهيم إنّي جاعلك للناس إماماً. فَمِن عِظَمها في عين إبراهيم قال: يا ربّ ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين (الكافي باب طبقات الأنبياء والرسل ج١ ص ١٧٥).

(٢) هكذا وصف الإمام باقر العلوم، راجع الكافي باب «إنّ الأرض لا تخلو من حجة» ج١ ص ١٧٨.

(٣) قد أوضحنا تلك الأُمور في الجزء الثاني من هذه الموسوعة فلاحظ بحث: صيغة الحكومة الإسلامية بعد النبي ﷺ.

ومسائل مستحدثة، لم تكن معهودة في زمن الرسول ولم يأت بها نص في الكتاب الكريم وسنّته الثابتة، ولم يتسن للنبي الإشادة بها أمّا لتأخر ظروفها أو لعدم تهيأ النفوس لها أو لغير ذلك من العلل.

وقد ظهرت بوادر هذا الأمر عندما اتسع نطاق الإسلام وضرب بجرانه خارج الجزيرة العربية وطفق المسلمون يخوضون في غمار معارك طاحنة وحروب دامية، يفتحون البلاد ويخالطون الأُمم ففوجئوا بمسائل مستجدة لم يعرفوا لها حلاً في الكتاب الكريم ولا في سنّة نبيهم مع أنّ الله سبحانه كان قد أخبر في كتابه عن اكمال الدين واتمام النعمة وبناء على هذا فإننا نستكشف أنّ النبي إيفاء لغرض التشريع استودع معارفه عند من يقوم مقامه ويكون له من الصلاحيات ما تخوله للقيام بمثل هذا الأمر الخطير.

وإلى ذلك يشير باقر العلوم بقوله مخاطباً لهشام بن عبد الملك بن مروان: إنا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه ﷺ في قوله: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ والأرض لا تخلو ممّن يكمل هذه الأُمور التي يقصر غيرنا عنها [١].

ثمّ أنّ الكتاب الكريم الذي هو أحد الثقلين فيه محكم ومتشابه وعامّ وخاصّ ومطلق ومقيد ومنسوخ وناسخ، يجب على الأُمّة عرفانها، إذ الجهل بها يوجد اتجاهات مذهبية متضاربة. غير أنّ تفسير المتشابه من دون الاستناد إلى ركن وثيق يورث اختلافاً عنيفاً بين المسلمين، وتفسير المعضل وتفصيل المجمل وتشخيص المنسوخ عن ناسخه يحتاج إلى احاطة كاملة بمفاهيم الكتاب وتشريعاته جليلها ودقيقها وهو ليس إلاّ النبي الأكرم ﷺ ومن يتلو تلوه.

فلأجل رفع هذه المحاذير يجب عليه سبحانه حفاظاً على وحدة الأُمّة وصيانتها عن الشرود في متاهات الضلال أن يشفع كتابه بميزان آخر، وهاد يدعم أمره، ومعلم يوضح لهم أسراره، ليرجع إليه المسلمون حتى يكتمل به غرض التشريع ويرتفع

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٣٠٧.

التضارب والخلاف في الشؤون الدينية.

وإلى ذلك يشير قوله ﷺ : أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض [١]، وقال ﷺ : أني أوشك أن أُدعى فأُجيب وأني تارك فيكن الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وأنّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما [٢].

وهذا هو الإمام الصادق ـ عليه السّلام ـ يعرف الإمام ومكانته العظيمة بقوله: أنّ الأرض لا تخلو وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم و إن نقصوا شيئاً أتمّه لهم [٣].

وأبلغ تعبير عن حقيقة الإمامة عند الشيعة ما روي عن الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا في حديث طويل وفيها: أنّ الإمامة منزلة الأنبياء وأرث الأوصياء أنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول، الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، أنّ الإمامة أساس الإسلام النامي وفرعه السامي.

الإمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة [٤].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ج٣ ص ١٤٨ ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) مسند أحمد ج٣ ص ١٧ و٢٦ وللحديث صور كثيرة كلها تنص على وجوب التمسك بأهل بيته وعترته ﷺ وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة، وقد صدع بها رسول الله في مواقف له شتى: يوم غدير خم، يوم عرفة في حجة الوداع، بعد انصرافه من الطائف، على منبره في المدينة، وفي حجرته في أُخريات أيامه.

وقد أنهى إسناده العلاّمة الجليل، السيد مير حامد حسين في بعض أجزاء كتابه الكبير «العبقات» وطبع في ستة أجزاء بإيران وفاح أريجه بين لابتي العالم وقد اغرق نزعاً في التحقيق ، ولم يبق في القوس منزعاً، وقد أغنانا كتابه عن الافاضة والبحث.

(٣) الكافي ج١ ص ١٧٨ .

(٤) الكافي ج١ ص ٢٠٠.

وبذلك تعـرف وجه غنى الأُمّة الإسلاميـة بعد النبي عن أي نبي مـروّج وأية نبوّة تبليغية، ويتضح أنّ الإسلام في تخطيطه المبدئي، قد فرض أنّه (بعـد إنتهاء وظيفة النبي الأعظم وقطعه أشواطاً بعيدة في الجهات المختلفة المتقدمة) يتكفّل القيادة المعصومة من بعده من يقوم مقامه بنصه سبحانه وتعيينه، وله من الشرائط ما للنبي سوى ما يختص به على ما تبينّ في محله حتى تنتهي هذه العملية إلى مراحلها النهائية المفروضة.

ولا يضير الإسلام في شيء أن تكون الأُمّة قـد انحرفت عن الخط المفروض لها من قبل الله سبحانه، وتجاوزت عن كل الضمانات التي وضعها لتنفيذ مخطّطه الالهي.

وفي الختام نقـول: إنّ التاريـخ ليشهد بأنّـه ما من إمـام من أئمّة الشيعـة الاثنى عشرية إلاّ وقد قـام بأعباء مهمة الإمامـة خير قيام، وأنّ حياة كلّ منهم كانـت مشحونة بالعمل المتـواصل في سبيل إيصال مفاهيم الإسـلام الصحيحة إلى الأُمّة ولقد عـانوا في ذلك من المشاق ولاقوا من الأهوال ما لاقاه النبي الأكرم ﷺ .

فعنـد ذاك استغنت الأُمّـة الإنسـانيـة بشكـل عـام والمسلمـون بشكل خـاص، بتعاليمهم الـدائرة حول نطاق رسـالة جدهم السماويـة، عن استمرارية كلتـا النبوّتين، وبصورة خاصة التبليغية منها.

السؤال الثاني

«لماذا حرم الخلف من الأُمم، من المكاشفة الغيبية، والاتصال بـا لملأ الأعلى، واستطلاع ما هنالك من معارف وحقائق» ؟

يقـول السائل: إنّ النبـوّة منصب معنـوي ورقي روحي، تقـدر معـه النفس على الاتصـال با لملأ الأعلى، والاطـلاع على مـا هنالك مـن معارف عقليـة، والتحـدث مع الوحي الالهي، إلى غير ذلك مـن الفيوضات المعنويـة، ولكن هذا الباب قد أُوصـد بعد إكمال الشريعة الإسلامية وختم النبوّة.

هب أنّ الشريعة الإسلامية، هـي أكمل الشرائع، وأنّ الخلف من الأُمم قادر على حفظ تـراثه الـديني، ولأجـل ذلك أُوصد بـاب النبـوّة التشريعية والتبليغيـة ولكن لماذا انقطعت الفتوحـات الباطنية والمحادثة مـع ملائكته سبحانـه، أو القاء الحقائق في روع الانسان، إلى غير ذلك من الفيوضات السماوية، فهـذه الأُمور كلّها من لوازم النبوّة، فلا يعقل انفتاحها مع إيصاد بابها...

ثم إنّـه لماذا كان باب هـذا الفيض مفتوحـاً في وجه الأُمم السـالفة، وحـرم منها الخلف الصالـح بعد النبي؟ هل كانـت الأُمم السالفة أُولى وأجـدر بهذه النعمة؟ وهل الأُمّة المتأخرة عنهم أقل جدارة بها واستحقاقاً لها ؟!

الجواب:

ليس الإطلاع على ما احتجب عن عامة الناس من الحقائق، من لوازم النبوّة، حتى ينسد بابه بانسداد بابها، ولا الخلف محروم من الفيض الذي كان مفتوحاً في وجه الأمم السالفة، فإنّ الولاية الالهية التي تلازم تلكم الفتوحات الباطنية، ليست من خصائص النبوّة وتوابعها، حتى تنقطع بانقطاعها، بل هي كرامة إلهية يرزقها سبحانه، المخلصين من عباده، المتحلّين بفضائل الأخلاق المتطهرين عن درن الشرك ولوث المعاصي، إلى غير ذلك من صفات كريمة.

والنبوّة باب خاص من الولاية تستتبع تحمل الوحي التشريعي أو التبليغي فيوصد بابه بإيصاد بابها، وأمّا سائر الفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والايحاءات الملكوتية، فلم يوصد بابها قط.

وللتوضيح نحن نتساءل: ماذا أراد السائل من إيصاد باب الاتصال، بختم باب النبوّة؟

فإن أراد الاتصال بالله ومعرفة أسمائه وصفاته والوقوف على ما هنالك من معارف عن طريق البرهنة والاستدلال والتدبر في آياته الآفاقية، فهذا الطريق مفتوح إلى يوم القيامة في وجه من أراد الإطلاع على حقائق الكون ودقائقه، وما وراء الحس من عوالم ودقائق.

وقد قال سبحانه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد...**﴾ (فصلت ـ ٥٣)[1].

---

(١) نعم ربّما تفسر الآية بوجه آخر تسقط معه دلالتها على ما نرتئيه وهو أنّ المراد ما يسّر الله عزّ وجلّ لرسوله والمسلمين من بعده في آفاق الدنيا وارجاء العالم من الفتوح التي لم يتيسّر أمثالها لأحد من الجبابرة والأكاسرة، وتغلب قليلهم على كثير من أعدائهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاصيها. فهذه الأُمور الخارقة للعادة يقوى معها اليقين ويزداد بها الإيمان، ويتبين أنّ دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يحيد عنه إلاّ مكابر ... راجع الكشاف ج ٣ ص ٧٥ وما حققناه حول الآية في الجزء الأوّل من هذه الموسوعة ص ١٧٣.

وقال سبحانه: ﴿وَ فِي الأَرْضِ آيَـاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَـلاتُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠ ـ ٢١).

ولو أراد معرفـة ربّه وأسمائه وصفاته، وعظمتـه وكبريائه، وما هناك مـن مقامات ودرجات، بـلا توسيـط برهان، أو تسبيـب دليل، بل مشـاهدة بعين قلبـه وبصر روحه، وبعبارة أوجز: شهـود الحقائق العلوية، وانكشاف مـا وراء الحس والطبيعة ، من العوالم الروحية، والمشاعـر الإلهية، ومعرفة ما يجري عليه قلمه تعـالى في قضائه وقدره والاتصال بجنوده وملائكته واستماع كلامهم و وحيهم وصوتهم إلى غير ذلك من الأُمور، فهذا مقام خطير يحصل للعرفـاء الشامخين المخلصين من عبـاده، المطهرين من اللـوث والدنس، المتحـرريـن عن قيـود الطبيعـة، الحابسين أنفسهـم في ذات الله، الحاكمين بـالكتـاب، العاملين بسننه وسنن نبيّه حسب اخلاصهم وعـرفانهم، حسب استعدادهم وقابليتهم، حسب ما لهم من المقـدرة والطاقة، لتحمل عجائب الحقائق الغيبية، ومشـاهدة جلال الله وجماله وكبريائه وعظمتـه، وما لأوليائه من مقـامات ودرجات، وما لأعـدائه من نار ولهيب ودركات.

ثمّ إنّ لأهل السلوك والعرفان كلاماً في المقام، لا يخلو عن فائدة، وخلاصته:

أنّ اليقين الحقيقي النـوراني المنزّه عن ظلمات الأوهـام والشكوك، لا يحصـل من مجرد أعمال الفكـر والاستدلال، بل يتـوقف حصـوله على الـرياضـة والمجاهـدة وصقل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق، و إزالة الصدأ عنها، ليحصل لها التجرد التام، والسر أنّ النفس بمنـزلة المرآة تنعكس على صفحتها الصور المتعلّقـة بالموجودات الخارجيـة، ولا ريب في أنّ انعكـاس الصـور مـن ذواتها على المرآة، يتـوقف على تماميـة شكلها وصفـاء جوهرهـا، وحصول ما يتمكـن انعكاسه عليهـا و إرتفاع الحائل بينهما، والظفر بالجهة التـي فيها الصور المطلوبة، كذلك يجب في انعكـاس حقائق الأشياء من العقل على النفس، تحقق أُمور:

١ ــ عـدم نقصـان جـوهـرهـا، بأن لا تكـون كنفـس الصبي التـي لا تتجلّ لها

المعلومات، لنقصانها.

٢ـ صفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة، وخبائث المعاصي، وهو بمنزلة الصيقل عن الخبث والصدأ.

٣ـ توجّهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب، بأن لا يكون غارقاً في الأُمور الدنيوية، وهو بمنزلة المحاذاة.

٤ـ تخليتها عن التعصب والتقليد، وهو بمنزلة إرتفاع الحجب.

٥ـ التوصل إلى المطلوب بتأليف مقدمات، مناسبة للوصول إليه على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.

ولولا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية إليها، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العوالم الروحانية.

إذ كل نفس لكونها أمراً ربّانياً وجوهراً ملكوتياً بحسب الفطرة، صالحة لمعرفة الحقائق، فحرمان النفس عن معرفة حقائق الموجودات إنّما هو لأحد الموانع.

وقد أشار سيد الرسل إلى أنّ كدورات المعاصي وصدأها مانعة عن ذلك بقولهﷺ لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض.

فلو ارتفعت عن النفس، حجب السيئات والتعصب، وحاذت شطر الحق الأوّل لتجلّت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسرها، إذ هو متناه يمكن لها الإحاطة به، وصورة عالمي الملكوت و الجبروت، بقدر ما يتمكّن منه، بحسب مرتبته [1].

فالعارف الشامخ في عالم المعرفة، إذا اتصف بما ذكرناه: «صار سمع الله الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاه أجابه، و إن سأله أعطاه» [2].

---

(١) جامع السعادات ج١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة أبواب اعداد الفرائض ونوافلها ـ الباب ١٧ الحديث ٦.

فالفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والالقاءات في الروع، غير مسدودة بنص الكتاب العزيز:

١ـ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ (الأنفال ـ ٢٩) أي يجعل في قولبكم نوراً تفرّقون به بين الحق والباطل وتميّزون به بين الصحيح والزائف، لا بالبرهنة والاستدلال، بل بالشهود والمكاشفة.

٢ـ وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد ـ ٢٨).

إنّ صاحب الكشّاف ومن لفّ لفّه وإن فسره بقوله: «ويجعل لكم يوم القيامة نوراً تمشون به» إلاّ أنّ الظاهر خلافه، وأنّ المراد النور الذي يمشي المؤمن في ضوئه طيلة حياته، في معاشه ومعاده، في دينه ودنياه، وهذا النور الذي يحيط به ويضيء قلبه، نتيجة إيمانه وتقاه ويوضّحه قوله سبحانه: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام ـ ١٢٢).

٣ـ وقال سبحانه: ﴿وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ـ ٦٩).

٤ـ وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾(البقرة ـ ٢٨٢).

فإنّ عطف الجملة الثانية على الأُولى يحكي عن صلة بين التقي وتعليمه سبحانه.

٥ـ وقال سبحانه: ﴿كَلاّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيم﴾ (التكاثر: ٥ ـ ٦).

فإنّ الظاهر أنّ المراد رؤيتها قبل يوم القيامة، رؤية البصيرة، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾ (الأنعام ـ ٧٥).

وهذه الرؤية القلبية غير محققة قبل يوم القيامة لمن الهاه التكاثر بل ممتنعة في حقه لامتناع اليقين عليهم.

والمراد من قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هو مشاهدتها يوم القيامة بقرينة قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فالمراد بالرؤية الأُولى رؤيتها قبل يوم القيامة، وبالثانية رؤيتها يوم القيامة [١].

٦ـ وقال سبحانه: ﴿وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد ـ ١٧) فلو أنّ الانسان جعل نفسه في مسير الهداية، وطلبها من الله سبحانه زاده تعالى هدى وآتاه تقواه.

٧ـ وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف ـ ١٣) والآية تبيّن حال أصحاب الكهف الذين اعتزلوا قومهم، وتغرّبوا لحفظ إيمانهم ودينهم فزاد الله من هداه في حقهم وربط على قلوبهم كما يقول سبحانه:

٨ ـ ﴿وَ رَبَطْنَا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوٰاتِ وَ الأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلنا إِذاً شَطَطاً﴾ (الكهف ـ ١٤).

والقرآن يصرح بانفتاح باب الهجرة إلى الله ورسوله، والهجرة كما تشمل الهجرة الظاهرية تشمل الهجرة المعنوية، التي هي عبارة عن السير في مدارج الكمال والإنابة إليه سبحانه.

٩ـ يقول سبحانه: ﴿وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ (النساء ـ ١٠٠)، وإلى الهجرة المعنوية (هجرة النفوس عن السيئات إلى الطاعات) يشير النبي الأكرم ﷺ إذ يقول:

«من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى مال يصيبه فهجرته إلى ما هاجر إليه» [٢] فحمل الآية والرواية على خصوص الهجرة الظاهرية والخروج عن الأوطان والتغرّب لحفظ الإيمان هو أحد أبعاد الآية، فهناك بعد آخر، وهو حملها على مهاجرة النفوس من الظلمة إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية،

---

(١) الميزان ج٢٠ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٢) صحيح البخاري ج١ كتاب الإيمان الباب ٤٢ ص ١٦.

ويؤيده قوله سبحانه:

١٠ـ ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (آل عمران ـ ١٩٥). فالمراد من المهاجرة هو الهجرة المعنوية حتى تصح مقابلتها مع قوله سبحانه: ﴿وأُخرجوا من ديارهم﴾ إلى غير ذلك من الآيات والروايات.

نعم كثرت في القرون الأخيرة عناية طوائف من صوفية أهل السنّة بمسألة الإمامة والإمام ومنهم «التيجانية» وقد كتب عنهم العقاد في كتابه «بين الكتب والناس» ومنهم «السنوسية» وقد أفاض فيهم القول البستاني في دائرة معارفه غير أنّ في بعض ما ذكروه خداعاً وضلالاً، وللبحث عن ما يدّعونه من الكشف والعرفان مجال آخر لا يسعه المقام.

انّ الناظر في نهج البلاغة يجد في كلام الإمام علي ـ عليه السّلام ـ تصريحات و إشارات على فتح هذا الباب وعدم إيصاده فالإمام ـ عليه السّلام ـ يقول:

«قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع، كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه، في قرار الأمن والراحة» [١]، ويقول:

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين» [٢].

فهذه الكلمات العلوية تبيّن جلياً أنّ القلب يمكن أن يصبح محلاً للإشعاع الإلهي على مدار الزمان وفي زمن الخاتمية.

وقد روى الفريقان عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال من أخلص لله أربعين صباحاً، فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه، على لسانه [٣].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢١٥.

(٢) نهج البلاغة قصار الكلم الرقم ١٤٧.

(٣) سفينة البحار، مادة «خلص» نقله عن عدة الداعي لابن فهد الحلي.

وقوله ﷺ : «لولا تمريج في قلوبكم وتكثير في كلامكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع» [١].

وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً، إلاّ زهّده الله في الدنيا، وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه» [٢].

وهناك كلمة طيبة عن الإمام أمير المؤمنين، تعرب عن رأي الإسلام في المقام، قال ـ عليه السلام ـ :

«إنّ الله تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله، عزت آلاؤه، في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات [٣]، عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم» [٤].

فهو ـ عليه السلام ـ يصرح بأنّ الذاكرين من عباده قد بلغ بهم المقام إلى درجة يناجيهم الله في سرائر ضمائرهم، ويكلمهم من طريق عقولهم، فهل يوجد مقام أرفع من هذا، أو درجة أشرف من تلك.

وقريب من ذلك ما رواه الديلمي في إرشاده في خطابات له سبحانه لنبيّه في ليلة المعراج بلفظ «يا أحمد ! فمن عمل برضائي الزمه ثلاث خصال، أعرفه: شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين، فإذا أحبّني أحببته وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أُخفي عليه خاصّة خلقي، وأُناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأُعرفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أُخفي عليه شيئاً

---

(١) حديث مشهور.

(٢) سفينة البحار، مادة «ربع».

(٣) التخصيص بعد التعميم فلا يضر بالمطلوب لو كان المراد منه الفترة بين المسيح وبعثة الرسول ﷺ.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٧.

من جنّة ولا نار، وأُعرّفه ما يمر على النـاس في القيامة من الهول والشدة. وما أُحاسب به الأغنياء والفقـراء والجهال والعلماء...ــ إلى أن قال: ــ يا أحمد! اجعـل همّك هماً واحداً، واجعل لسانك لسـاناً واحداً، واجعل بـدنك حياً لا يغفل أبداً، من غفـل عنّي لا أُبالي بأي واد هلك» (١).

وهذه الـرواية توقفنـا على أنّ المعرفة الحقيقيـة، التي تحيى بها نفوسنـا، لا تستوفى بالسير الفكري، ولا يقف السالك في سبيل الحق على هـذه الأُمور، إلاّ بتهذيب النفوس وتطهير القلـوب والانقطـاع إلى الـربّ عن كـل شيء، حتى يـرفـع دونـه كل حجـاب مضروب، وكل غشاء مسدول، فيعرف ربّه وأسماءه، وصفاته حق المعرفة، ويشاهده بعين القلب ويسمع كلامه وكلام ملائكته، ويرى عظمته وسرادقات كبريائه.

فهذه الفتوحات الباطنية بمراتبها، ميسّرة في وجه الأُمّة، لم توصد قط.

الاسفار المعنوية الأربعة:

ثم إنّ للسـالك من العرفـاء والأولياء أسفاراً، وهـي على ما اعتبرها أهـل الشهود أربعة.

أحدها: السفر من الخلق إلى الحق.

ثانيها: السفر من الحق إلى الحق بالحق.

ثالثها: السفر من الحق إلى الخلق بالحق.

رابعها: السفر من الخلق إلى الخلق بالحق.

فبعض هذه الأسفار وقطع منازلها وإن كـان يختص بأنبيائه ورسله، إلاّ أنّ السفر الأوّل والثاني، لا يختصـان بهم، بل يتيسرّان لكل سـالك الهي، لا يقصد إلاّ الانـاخة في ساحـة ربّه، والنـزول على طاعته، بـلا استثناء، ودونك تـوضيح ذينك السفـرين: ففي السفر الأوّل، أعني السفر من الخلق إلى الحق، ترفع الحجب المظلمة، بين السالك وربّه،

(١) إرشاد القلوب للديلمي ص ٣٢٩.

فيشاهد جمال الحق ويفني ذاته فيه، ولأجل ذلك يسمى مقام الفناء. وعندما ينتهي السفر الأوّل يأخذ السالك في السفر الثاني، وهو السفر من الحق إلى الحق بالحق وإنّما يكون بالحق لأنّه صار ولياً، وصار وجوده وجوداً حقّانياً، فيأخذ السلوك من موقف الذات إلى الكمالات واحداً بعد واحد حتى يشاهد جميع كمالاته فيعلم جميع أسمائه كلّها إلاّ ما استأثر به عنده، فتصير ولايته تامة، ويفني ذاته وأفعاله وصفاته في ذات الحق وصفاته وأفعاله، فبه يسمع، وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش، وحينئذ تتم دائرة الولاية.

ولعمري لولا خوف الإطالة، والخروج عمّا هو الهدف الأسمى للرسالة، لشرحت للقارئ الكريم، تلكم الاسفار والمواطن واحداً بعد واحد، وكفانا ما حبرته يراعة العرفاء الشامخين في هذا الباب (١).

وفي الأُمّة الإسلامية رجالاً مخلصون ، لا يدرك شأوهم ولا يشق غبارهم، أُولئك أولياء الله في أرضه وخلفاؤه في خلقه، تغبطهم النبوّة، كما قال الرسول ﷺ : إنّ لله عباداً ليسوا بأنبياء، تغبطهم النبوّة (٢).

هب أنّ النبوّة قد أُوصد بابها، إلاّ أنّ باب الفيض المعنوي، من جانب الإمام الحي -عليه السّلام- بعد مفتوح لم يوصد (٣).

---

(١) راجع تعاليق الأسفار الأربعة ج ١ ص ١٣ـ١٨ للحكيم السبزواري.

(٢) حكاه صدر المتألّهين في مفاتيح الغيب، وقال: هذا الحديث ممّا رواه المعتبرون من أهل الحديث، من طريقة غيرنا، نعم لم أقف عليه مسنداً حتى أُحقق حاله.

(٣) وقد دلّت البراهين الكلامية على أنّ الأرض لا تخلو عن حجّة، وأنّه لا بد للناس في كل دورة وكورة من إمام معصوم يهدي إلى الرشد ـ وقد تفرّدت به الشيعة عن سائر فرق الإسلام.

وقال أمير المؤمنين: اللّهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة: أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته وكم ذا وأين أُولئك؟ أُولئك ـ والله ـ الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقه با لمحل الأعلى، أُولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم (نهج البلاغة باب الحكم رقم ١٤٧).

وقد حقق في أبحاث الولاية الالهية أنّ وجه الأرض والمجتمع الانساني لا يخلو أبداً من انسان كامل ذي يقين، مكشوف له عالم الملكوت، وله ولاية على الناس في أعمالهم، يهديهم إلى الحق ويوصلهم إلى المطلوب بأمر من الله سبحانه، كما هو شأن الإمام في كل عصر ودور، لقوله سبحانه: ﴿وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة ـ ٢٤).

فهذا الفيض الالهي والعرفان المعنوي، لم يزل يجري على المجتمع البشري بأمر منه سبحانه، وينزل عليهم من طريق الإمام، ليهديهم سبيل الحق ويرشدهم إلى مدارج الكمال، حسب استعداداتهم وقابلياتهم.

قال سيدنا الأُستاذ ـ قدس سره ـ: إنّه سبحانه كلّما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية، تعرض التفسير قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء ـ ٧٢ ـ ٧٣).

وقال سبحانه: ﴿وجَعلنا مِنهُم أئِمّةً يَهدونَ بِأمرِنا لَمّا صَبَروا وكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُون﴾ (السجدة ـ ٢٤).

فوصفهم بالهداية وصف تعريف، ثمّ قيد هذا الوصف بالأمر فبيّن أنّ الإمامة ليست مطلق الهداية بل هي الهداية التي تقع بأمر الله، فالإمام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم وهدايتهم، إيصالهم إلى الكمال بأمر الله دون مجرد اراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة[1].

فهذا الباب من الفتوحات الغيبية والفيوض الالهية مفتوح، في وجه الأُمّة لم يوصد أبداً.

---

(١) الميزان ج١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

مثل الفضيلة والأخلاق

قد كان لأمير المؤمنين صفوة من الأصحاب يستدر بهم الغمام، ويندر مثالهم في الدهر كزيد وصعصعة ابني صوحان وأُويس القرني والأصبغ بن نباتة، ورشيد الهجري، وميثم التمار، وكميل بن زياد، وأشباههم، وكان هؤلاء مثلاً للفضيلة وكرم الاخلاص وخزنة للعلم والاسرار، منحهم أمير المؤمنين من سابغ علمه واستأمنهم على غامض أسراره ممّا لا يقوى على احتماله غير أمثالهم فجمعوا العلم، سرّه وجهره، والفضائل، نفسية وخلقية، ذاتية وكسبية، والعبادة قولاً وعملاً وجارحة وجانحة، فاكتسبوا من أمير المؤمنين جميع الفعال والخصال وأخذوا عنه أسرار العلم وعلم الأسرار، حتى زكت بهم النفوس وكادوا أن يزاحموا الملائكة المقرّبين في صفوفهم، وغبطهم الملأ الأعلى على ما اتصفوا به من كمال الذات والصفات، فصاروا أهلاً ، لأن يأتمنهم الإمام على نفائس الأسرار وأسرار النفائس فكادوا أن يكونوا بعد التصفية ملائكة مجردة عن النقائص، لا يعرفون الرذيلة ولاتعرفهم.

فهذا ميثم، عظيم من حواري علي، وولي من أوليائه وأحد خريجي مدرسته العالية، الذين نهجوا في السير على هداه واتبعوه قائداً وقدوة في أمره ونهيه فصار مستودع أسراره وحقل علومه وخاصة حواريه.

كان رسول الله يخلو بعلي يناجيه، وكانت أُم سلمة زوج النبي ﷺ تلك البرة الطاهرة، تلتقط من المناجات درراً ثمينة، فممّا التقطته منها، وصاياه لأبي الحسن -عليه السّلام- في ميثم، فدخل ميثم على أُمّ سلمة وهو يريد الحج، فقالت له: طالما سمعت رسول الله يذكرك في جوف الليل ويوصي بك علياً.

وكان ميثم يصحب الإمام أحياناً إلى الأماكن الخالية وعند خروجه في الليل إلى الصحراء، فيستمع منه الأدعية والمناجاة، وكثيراً ما يجلس إليه الإمام في السوق وأفواج الناس ذاهبة وآيبة، ينظرون الإمام وهو في دكان «ميثم» يسامره ويحادثه ويلقي إليه

دروسه ويميره مـن العرفان الالهي، فعلّمـه علم المنايـا والبلايا، أي علم الآجـال وعلم الحوادث والوقـائع التي يبتلى بها النـاس، حتى أخبره أنّه سيصلـب على باب عمـرو بن حريث.

لم يكن ميثم فريداً من بين أصحاب الإمام وحوارييه، وإن كان أحد عظمائهم إذ أنّه قد أودع هذا العلم عند من كان يأتمنه عليه من أفذاذ أصحابه الآخرين، نظراء رشيد الهجري وأُويس القرني، وعمار بن ياسر وعمـرو بن الحمق الخزاعي وكميل بن زياد ومن يشابههم في الإيمان الشامخ.

ولولا خوف الإطالة والخروج عن الغايـة، لنقلنا كثير ممّا دار بينهم من المحادثات حول البلايا والمنايا.

فهذا ميثـم نفسه، وقـد قيد على خشبة الصلـب يقول للنـاس رافعاً صـوته، أيها الناس من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ قبل أن أُقتل فوالله لأخبرنّكم بعلم ما يكون إلى أن تقوم الساعة، وما يكون من الفتن [١].

لم يكـن علي ـ عليه السلام ـ نسيج وحـده في تـربيـة هؤلاء العظماء الـذيـن صقلت نفوسهم وتجلّت لهم صـور ما في الكون من الحقائق والموجودات، بل سبقـه سيد الرسل فأدّب أناساً، نهجـوا في السير على هداه،واتبعوه في أمره ونهيه، وسـاروا في الطريق الذي رسمه لهم، فكـانوا مثلاً أعلى للفضيلة وكـرم الأخلاق وخزنة للعلم والأسرار، فشـاهدوا الخليقة وما فيها من حقائق غامضة، ورأوا ملكوت السماوات والأرض، وعاينوا الحقائق العلوية والعوالم الروحية، من قبل أن يخرجوا من الدنيا.

روى أبو بصير عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ أنّه قال: استقبل رسول الله ﷺ حارثة ابن مالـك بن النعمان الأنصاري، فقال لـه: كيف أنت يا حـارثة بن مالك؟ فقـال: يا رسول الله مؤمن حقاً، فقال رسول الله ﷺ: لكل شيء حقيقة، فما حقيقة قولك؟ فقال:

---

(١) راجع في ترجمة ميثم، كتب الـرجال، ولا سيما «قاموس الرّجال» ج٩ ص ١٦٤ ـ ١٧١ وما دبجته براعة الأُستاذ المغفور له الشيخ محمد حسين المظفر حول حياة ميثم.

يا رسـول الله! عزفت نفسي عن الدنيـا، فأسهرت ليلي وأظمأت هواجـري كأني أنظر إلى عرش ربّــي وقد وضـع للحساب، وكأنيّ أنظـر إلى أهل الجنّـة يتزاورون في الجنّـة وكأنيّ أسمع عـواء أهل النار في النار، فقـال له رسول الله: عبـد نوّر الله قلبه، أبصرت فـاثبت، فقـال: يا رسـول الله اُدع الله لي أن يـرزقني الشهـادة معك، فقـال: اللّهـمّ أرزق حارثـة الشهادة، فلم يلبث إلاّ أياماً حتى بعث رسول الله سرية فبعثه فيها فقاتل، فقتل تسعة أو ثمانية ثم قتل (١).

أخرج الكليني عـن إسحاق بن عمار، قال سمعت أبـا عبد الله ـ عليه السّلام ـ يقول: إنّ رسـول الله ﷺ صلّـى بـالناس الصبح، فنظـر إلى شاب في المسجـد فقال لـه رسول الله ﷺ كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً، فعجب رسول الله من قولـه وقال: إنّ لكل يقين حقيقـة، فما حقيقة يقينك؟ فقـال: إنّ يقيني يا رسـول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعـزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربّـي وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنيّ أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمـون في الجنّة ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئـون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار، يدور في مسامعي فقال رسول الله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان (٢).

هذا هو الإيمان المحض والعبـودية الخالصة بل أنّه لشأن لا يتـوصل إليه بالحس والعلم.

فكم في الاُمّة الإسلامية من ذوي الرتب العلـوية، رجال وأبدال شملتهم العناية الالهية، فجردوا أنفسهم عن أبدانهم، حينما أرادوا، فعاينوا الحقائق واطلعوا على الأسرار.

وقد تضـافرت الأحـاديث على أنّ في الاُمّة الإسـلامية مثل الاُمـم السابقـة رجالاً مخلصين محدّثين (بـالفتح) يطلعـون على المغيبات بـاحـدى الطـرق التي ألمحت إليهـا

(١) الكافي ج٢ ص ٥٤.
(٢) الكافي ج٢ ص ٥٣.

الروايات.

والمحدث على ما تشرحه الأحاديث من تكلّمـه الملائكة بلا نبوّة ولا رؤية صورة، أو يلهم له ويلقى في روعه شيء من العلم على وجه الالهام والمكاشفة من المبدأ الأعلى أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره.

روى البخاري عن النبي ﷺ لقد كان في من كـان قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء [١].

روى شيخ الطائفة باسنـاده عن أبي عبد الله قال كان علي ـ عليه السلام ـ محدثاً وكان سلمان محدثاً، قـال: قلت فما آية المحـدث ؟ قال: يأتيـه ملك فينكت في قلبه ومنّـا من يخاطب [٢].

قال صدر المتألهين في الفاتحة الحادية عشرة:

«اعلم أنّ الوحي إذا أُريـد به تعليم الله عباده، فهـو لا ينقطع أبداً، وإنّما انقطع الوحي الخاصّ بالرسول والنبي من نزول الملك على أذنه وقلبه» [٣].

نعم ليس كل من رمى أصاب الغرض، وليست الحقائق رمية للنبال، وإنّما يصل إليها الأمثل فالأمثل، فـلا يحظى بها ذكرناه من المكاشفات الغيبية والفتـوحات الباطنية إلاّ النزر القليل ممّن خلص روحه وصفا قلبه، كما كان كذلك في الأُمم السابقة أيضاً.



---

(١) صحيح البخاري ج٢ ص ١٤٩.

(٢) أمالي الطوسي ص ٢٦٠.

(٣) مفاتيح الغيب ص ١٢.

السؤال الثالث

«لا تجد في الكون المادي أمراً خالداً باقياً عبر الأجيال، والدهور، أوليس التحول ناموساً عاماً في الفلسفة؟ وهل في العالم المادي أصل ثابت وموجود خالد، فكيف يكون الإسلام أمراً ثابتاً»؟

توضيحه:

أنّ الإسلام قد أعلن بصوت عال أنّه دين الله الخالد إلى يوم القيامة، وأنّه لا شريعة ولا دين ولا كتاب سماوي بعده، وأنّ قوانينه وتشريعاته غير متغيّرة عبر الأجيال والقرون، وأنّ حلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

وعند ذلك يعترض السائل ويقول: إنّ الكون بعامة أجزائه، بسمائه وأرضه، وما تحتويانه، متغيّر متبدّل ليس له أيّ إستقرار وأنّ الحركة والتبدل والتغيّر في الكون ناموس عام في الفلسفة الالهية والمادية، وليس لنا في عالم المادة أصل ثابت أبداً، سوى قولنا: «ليس لنا أصل ثابت»، ومع هذا الأصل الفلسفي، كيف يدعي الإسلام بقاءه وثباته ودوامه وصونه عن طوارق التغير والتبدل؟

الجواب:

قد خلط السائل بين الموجودات المادية والنواميس الحاكمة عليها فانّ المتغير إنّما هو الأوّل، دون الثاني، فإنّ السماء وما فيها من الشموس والأقمار والنجوم متغيّرات والأرض سهلها وجبلها والبحر وما تنطوي عليه من عظائم الموجودات لا تستقر على

حالة واحدة، بـل تتقلب من صورة إلى أُخرى ومن حالة إلى ثـانية، والمادة الخارجية غير منفكة عن الفعل والإنفعال في الأحوال كلّها.

هذه هي المادة، وأمّا النـواميس السائدة عليها في نفس الأمر فهي ثابتـة أبديةولا تتغيّر ولا يصيبها التبدّل ولا تقـع في مجالات الحركة والتحوّل، مثلاً المعادلات الـرياضية وقانـون الجاذبية والثقـل النوعي في الموجـودات وإنكسار الضـوء وأحكام العـدسيات وسرعة النـور وغيرها من القوانين الفيـزياوية، ثـابتة غير متغيرة سائدة في كـل الظروف والأزمنة.

على أنّ الإسلام السائد على المجتمع البشري طوال القرون والأجيال، والباقي إلى مدى الدهور والـزمان، إنّما هو قوانين سماوية ونواميـس إلهية شرّعت لإصلاح المجتمع وإسعاده وليـس أمراً مـادياً أو ظـاهرة من ظـواهره حتـى يعمّه حكم المادة مـن الحركة والتحـوّل والتبدّل، بل قـوانين سماويـة سنّها الله سبحـانه لعبـاده، ليبلغهم إلى مـدارج الكمال ومعارج العز...

ثم إنّه ماذا يريـد القائل من قوله: «ليس لنا أصل ثابت» فهل هـي نظرية ثابتة، وفكرة باقية مدى الدهور والأيام وأمر غير متغيّر أولا ؟ فلو قال بالأوّل، فقد جاء بأصل ثابت، وأمر غير متغيّر، وبالنتيجة يكون قد نقض قاعدته، وأصله الذي ركن إليه.

وإن قال بالثاني صار الإشكال أعظم إذ يلزم مـن عدم ثباته ثبات سائر الأُصول ودوامها، إذ المفـروض أنّ قولـه: «ليس لنا علم ثـابت» ليس حكماً ثـابتاً فليزم مـن عدم صدقه، صدق نقيضه، كما هو شأن المتناقضين.

وبذلـك يؤاخـذ كل من نفى العلـم الصحيح المطلق الصـادق في جميع الأدوار والشرائط، لأنّ قولهم هذا (ليس عندنا علم صحيح مطلقاً) قد اُلقي بصورة أنّه صحيح مطلق وأنّـه صادق على وجـه الاطـلاق، ولو قـال بأنّـه قد اُلقـي على الوجـه الصحيح النسبي يصير الفسـاد أكثـر لأنّه يستلـزم أن يكون غير هـذا القـول صحيحاً مطلقـاً إذ المفروض أنّ سلب الإطـلاق عن غيره إنّما هو بالسلـب النسبي لا السلب المطلق ولازم

ذلك اتصاف سائر الأُصول بالصحة الاطلاقية [١].

وربّما يستدل على لزوم تطور المجتمع بـ «حتمية التاريخ» ويقال: حتمية التاريخ لها دور كبير في الفلسفة المادية و قد اعتمد عليها فطاحل الماديين وغيرهم وفرعوا عليها فروعاً واستنتجوا منهامسائل كثيرة، وملخّص ما يريدون من هذا الأصل:

انّ ما يحدث في تاريخ الأُمم من صعود وتدهور، ومن صلح وسلام، وحرب وكفاح، واختراع، واكتشاف، وظهور انقلابات وثورات، وتقدم في الانتاج والاقتصاد.

وعلى الجملة ما شاهده تاريخ الأُمم، أم ما نشاهده في الحضارة العصرية من حوادث وطوارئ وتطور في ألوان الحياة وأشكالها كلّها، رهين عوامل في نفس المجتمع توجب وجودها ضرورة اجتماعية، ولا يمكن التحرز عنها أبداً، ويساق المجتمع إليها عنفاً وجبراً بلا إرادة واختيار.

وهذه العوامل الخلاقة، لألوان الحياة وأشكالها وحوادثها وطوارئها،لا تدوم على حالة واحدة، بل تتبدل ويخلفها غيرها، وهكذا...

فإذا كان العيش الاجتماعي متطوراً، كسائر الظواهر الطبيعية، تطوراً ضرورياً حتمياً، خارجاً عن إرادة المجتمع واختياره، فكيف يخضع المجتمع المتحول المتطور، لتشريع لا يتحول ولا يتبدل؟

الجواب:

وزان حتمية التاريخ عند الماديين، وزان القضاءوالقدر عند الجبرية، فكما أنّ هؤلاء يلقون كل حادث وطارىء وكل خير وشر يقع في المجتمع، على عاتق القضاء والقدر، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤولية، كذلك يفعل الماديون، إذ يلقون كل حادث وطارىء وكل خير وشر في المجتمع، على عاتق الحتمية التاريخية، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤولية.

---

(١) لاحظ أُصول الفلسفة ج١ ص ٢١٢ ـ تعريب المؤلّف.

لكن هذا الأصل إنّما يصح في بعض الموارد وليس أصلاً كلياً، صادقاً في عامة نواحي الحياة، حتى يعود المجتمع البشري آلة صماء مسلوب الإرادة والاختيار ولا عمل له إلاّ تحقيق ما تفرضه تلكم العوامل.

ونلاحظ ثانياً أنّ حتمية التاريخ لا صلة لها بتطور الاجتماع، وأنّ استنتاج الأمر الثاني من الأمر الأوّل غير صحيح جداً، بل تطوره وثباته تابع لتطور عامل الاجتماع وثباته، فإن كان العامل المحرك للحياة الاجتماعية ثابتاً كان هو ثابتاً، وإن كان ذلك العامل متطوراً ، كان متطوراً.

توضيحه: أنّ العامل المحرك للحياة، قد يكون عاملاً فطرياً فيكون ثابتاً وباقياً وحاكماً، ما دام الانسان موجوداً أو أفراده باقية متسلسلة، وعندئذ فمقتضى هذا العامل وأثره يبقى في المجتمع ثابتاً لا يتغير، ولا مجال فيه لتحوّل ولا تغير.

مثلاً، الميل الجنسي أمر فطري في الانسان، له أثر حتمي ودور عظيم في العيش الاجتماعي ومقتضاه في المجتمع هو الزواج، وبما أنّه عامل فطري في الإنسان، فلأثره الخلود في المجتمع البشري.

ودونك مثالاً آخر:

التدين والتوجه إلى ما وراء الطبيعة، أمر فطري في الناس، وطالما تجمعت الأسباب القاهرة من عنف الجبابرة، وفتك الطغاة على أنّ تصرّف بني الانسان عن التدين فما استطاعت انتزاعه، فالحياة الدينية التي هي جزء من الحياة الاجتماعية موجودة دائماً، لأنّ لها عاملاً فطرياً لا يزول.

ونحن نعترف بأنّ للعوامل الداخلية التي تستمد من طبيعة المجتمع، تأثيراً حتمياً في تاريخ الحياة الاجتماعية للانسان لا يختلف، وهي أثر محتوم لها، غير أنّ جعل حتمية التاريخ مساوية لتطوّر المجتمع وتحوّله في كل زمان غير صحيح أبداً. بل هناك مسألتان:

١ـ تطور الاجتماع وتبدله في كل زمان.

٢ـ حتمية التاريخ.

وليست الأُولى من نتائج الثانية، ومن ثمراتها، بل الأُولى تابعة في الثبات والتحول لعاملها وعلّتها، فإن كان عامل الحياة فطرياً ثابتاً، فأثره حتمي ثابت في العيش الاجتماعي، و إن كان العامل المحرّك، أمراً متغيراً طارئاً غير فطري فأثره المحتوم في المجتمع يتغير ويتطور تبعاً لتغيره وتطوره.

مثلاً: استخدام الطبيعة والاستفادة منها في سبيل الحياة، أمر فطري للبشر لكن التوصل إلى المقصود والاستفادة منه بأدوات خاصة، كالسهم والنصل والبعير، ليس أمراً فطرياً، بل هي تتطور وتتطور معه صور الاجتماع وأوضاعه.

فالانسان الذي كان يركب الدواب في قطع المسافات وتأمين المواصلات أخذ في هذا القرن، يقطع المسافات ويؤمن مواصلاته بالسيارة والطائرة.

اذن فالقول بتبدل الأشكال والأوضاع الاجتماعية، استناداً إلى حتمية التاريخ باطل جداً، وإنّما التبدل وعدمه متوقف على العامل المؤثّر فيه، فإن كان العامل ثابتاً يثبّت الوضع الاجتماعي المستند إليه، و إن كان متبدّلاً يتبدل [1].



(١) عن مقال للعلامة الشريف الشهيد مرتضى المطهري.

السؤال الرابع

لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات باختلاف ألوان الحياة:

إنّ التطـور الاجتماعي يستلـزم تطوراً في قـوانين الاجتماع، والقـانون الموضـوع في ظرف خـاصّ، ربّما يكون مضراً أو غير مفيـد أصلاً في ظـرف آخر، ومقتضيـات الزمـان (القوانين) تختلف باختلاف المجتمعات وألـوان الحياة، فما صح الأمس لا يصح اليوم، وما يصح اليوم، لا يصح غداً.

توضيحه:

أنّ الهدف من تشريع القـوانين والأنظمة الخارجيـة، في المجتمع البشري ليس إلاّ تأمين الحياة الاجتماعية له، وصونها عن التصادم والجدال وحفظها عن الهلاك والبوار.

فـالنظام التشريعـي ليس أمـراً مطلوبـاً بـالذات، بـل هو ذريعـة لتأمين الحيـاة وحفظها عن التحطم.

وعلى هذا، قد يعترض بأنّ الحياة الاجتماعيـة، لو استمرت على وتيرة واحدة لساغ لأي قانون تشريعي كـان سائداً في الأزمنة الغابرة، أن يسـود في جميع الظروف والأجواء، وأمّا إذا لم تكن على وتيرة واحـدة بل كانت الحياة في المجتمع الانسـاني منذ لجأ الانسان إلى الحضارة والعيش الاجتماعي، متحوّلة ومتغيّرة، فكيف يصح لقانون موضوع في ظرف أن يطبق في ظرف مباين له.

مثلاً: إذا تأمّل في الدور الذي كانت وسائل النقل فيه منحصرة في الجمال وغيرها

من المواشي، وكـانـت الثروات الطبيعيـة فيه لا تكـاد تستغل بـاستثناء شيء قليل فيهـا، وكانت أدوات الحروب الطاحنة فيه، لا تتجاوز السيف والسهم، فلا يرتاب في أنّ الحياة الاجتماعية في ذلك الـدور، لا تلتقي مع الدور الـذي بلغت فيه حضارة الانسـان حدّاً، سخّـر معـه الأرض والفضـاء ووضع أرض القمـر تحت قـدميه، واستخـدم الكهـربـاء والبخار، وأخذ يقطع المسـافات البعيدة بالسيارة والطائرة والصـاروخ،ويواجه العدو في جبهات الحرب بالقنابل الذريّة والهيدروجينية، إلى غير ذلك من الآلات القاتلة، فكيف يمكن لقانون واحـد، وضع لتأمين الحياة في مجتمع خاص، أن يسـود في الدورين؟ وهل القوانين الاجتماعية إلاّ «رد فعل» للأوضـاع الاجتماعية المتطورة، إذ كلّما تغيرت الأوضاع الاجتماعية وتطورت، فلابد وأن يتبعها «رد فعل» في التغير والتبدل.

الجواب:

انّ للانسان مـع قطع النظر عمّـا يحيط به من شروط العيـش المختلفة، روحيات وغرائز خـاصة تـلازمه، ولا تنفك عنـه، إذ هي في الحقيقة مشخّصـات تكـوينيـة له، بها يتميز عن سائر الحيوانات وتلازم وجوده في كل عصر ولا تنفك عنه بمرور الزمان.

فهـاتيك الغـرائز الثـابتـة والروحيـات الخالـدة ، لا تستغنـي عن قـانـون ينظم اتجاهاتها، وتشريـع ينظمها، وحكم يصـونها عن الافـراط والتفريط، فـإذا كان القـانون مطابقاً لمقتضى فطرته وصالحاً لتعديلها ومقتضياً لصلاحها ومقاوماً لفسادها، لزم خلوده بخلودها، وثبوته بثبوتها.

والسائل قد قصّر النظر على ما يحيط به من شروط العيش المختلفة المتبدّلة وذهل عن أنّ للانسان خلقاً وروحيات وغرائز، قد فطر عليها، لاتنفك عنه ما دام انساناً، وكل واحد منها يقتضي حكماً يناسبـه ولا يباينه، بل يلائمه، ويدوم بدوامـه ويثبت بثبوته عبر الأجيال والقرون.

ودونك نماذج من هذه الأُمـور ليتبين لك بأنّ التطور لا يعم جميع نـواحي الحياة، وأنّ الثابت منها يقتضي حكماً ثابتاً لا متطوراً:

١ـ إنّ الانسان بما هو موجود اجتماعي، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله إلى العيش الاجتماعي والحياة العائلية، وهذان الأمران من أُسس حياة الانسان، لا تفتأ تقوم عليهما في جملة ما تقوم عليه منذ بدء حياته.

وعلى هذا، فإذا كان التشريع الموضوع لتنظيم المجتمع مبنياً على العدالة، حافظاً لحقوق أفراده، خالياً عن الظلم والجور والاعتساف، وبعبارة أُخرى موضوعاً على ملاكات واقعية، ضامناً لمصلحة الاجتماع وصائناً له عن الفساد والانهيار، لزم بقاؤه ودوامه، ما دام مرتكزاً على العدل والانصاف.

٢ـ إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس، فهما موجودان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً، على رغم كل الدعايات السخيفة الكاذبة، التي تريد إزالة كل تفاوت بينهما، ولأجل ذلك، اختلفت أحكام كل منهما عن الآخر، اختلافاً يقتضيه طبع كل منها، فإذا كان التشريع مطابقاً لفطرتهما ومسايراً لطبعهما، ظل ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان، لثبات الموضوع، المقتضى ثبات محموله، حسب الاصطلاح المنطقي.

٣ـ الروابط العائلية، كرابطة الولد بالوالدين، والأخ بأخيه، هي روابط طبيعية، لوجود الوحدة الروحية، والوحدة النسبية بينهم، فالأحكام المتفرقة المنسقة، لهذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم، ثابتة لا تتغير بتغير الزمان.

٤ـ التشريع الإسلامي حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والانحلال، ومما لاشك فيه، أنّ الخمر والميسر والاباحة الجنسية .. ضربة قاضية على الأخلاق، وقد عالج الإسلام تلك الناحية من حياة الإنسان بتحريمها، وإجراء الحدود على مقترفيها، فالأحكام المتعلقة بها، من الأحكام الثابتة مدى الدهور والأجيال، لأنّ ضررها ثابت لا يتغير بتغير الزمان، فالخمر يزيل العقل والميسر ينبت العداوة في المجتمع والاباحية الجنسية تفسد النسل والحرث دائماً ما دامت السماوات والأرض، فتتبعها أحكامها في الثبات والدوام.

هذا وأمثاله من الموضوعات الثابتة في حياة الانسان الاجتماعي قد حددها

ونظمها الإسلام بقوانين ثـابتة تطابق فطرته وتكفل للمجتمـع تنسيق الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أحسن نسق وحفظ حقوق الأفراد وتنظيم الروابط العائلية.

وحصيلة البحث: أنّ تطور الحياة الاجتماعية في بعض نواحيها لا يوجب أن يتغير النظـام السائد على غـرار الفطرة، ولا أن تتغير الأحكـام الموضوعـة على طبق ملاكـات واقعية، مـن مصالح ومفـاسد كـامنة في مـوضوعـاتها، فلو تغير لـون الحياة في وسـائل الـركوب، ومعـدات التكتيك الحربي و ... مثـلاً، فإنّ ذلك لا يقتضي أن تنسـخ حرمـة الظلم ووجوب العدل ولزوم أداء الأمانات ودفع الغرامات والوفاء بالعهود والإيمان و ...

فإذا كان التشريع على غرار الفطرة الانسانية، وكان النظام السائد حافظاً لحقوق المجتمع وموضوعاً على ملاكات في نفس الأمـر، تلازم الموضوع في جميع الأجيال، فذلك التشريع والنظام يحتل مكان التشريع الدائم.

المقررات المتطوّرة في الإسلام:

إنّ للانسان مع هذه الصفات والمشخّصات الـذاتية، ظروف عيش أُخرى زمانية ومكـانية، لا تـزال تتغير، ويتغير معها وضع الانسـان، من حـال إلى حال، فمثل هـذه الظروف الطارئة تتغير أحكامها بتغيرها.

وفي الفقه الإسلامي، يطلق على الأحكام المتعلقة بهذه الظروف عنوان «المقررات» كما يطلق على الأحكام المتعلقة بالظروف الثابتة، عنوان «القوانين».

وهذه المقررات ليست بمعـزل عن القوانين الكلية الإسلامية، ولا تكـون اعتباطاً وفوضى بل تجري في ضـوء القوانين الكلية الثابتة، بحيث لا تنـاقضها ولا تعطّلها، و إن شئت قلـت: إنّ هنا أحكـامـاً وخطوطـاً عـريضـة تمثل القـاعدة المركـزيـة في التشريع الإسـلامـي وهي مصـونـة عـن التحـوّل والتبـدل، مهما اختلفت الأوضـاع وتبـاينـت الملابسات.

وهنـاك أحكام متفـرّعـة على تلكم الخطوط، مستخـرجـة منها، بـإمعان ودرايـة

خاصة، يستنبطها الباحث الإسلامي باستفـراغ وسعة على ضوء هذه الخطوط العريضة، بشرط أن لا يصادمها، وهـذا القسم من الأحكام يتجدد بتجدد العهـود وتباين الظروف وتعدد الملابسات واختلاف الشرائط.

فمن قواعد الدين الإسلامي ما هو خـالد وثابت وهو ما يمس الفطرة الإنسانية وله صلة بالكـون والطبيعة، وما هو متغير ومتبدل، وهو الـذي لا يمس واقع العلاقات الاجتماعيـة والشؤون البشريـة، ولا يتجاوز حـدود الظواهـر الاجتماعية وقـد منحه هـذا التطور، أسبـاب الخلود والبقـاء والمسايـرة مع عـامة الحضـارات، بشرط أن لا يصطدم التحوّل على أي أساس مع أُسسه ولا يتجاوز حداً من حدوده.

فالحكم الكلي الذي يعالج القضايا البشرية على غرار الفطرة، وصعيدها الكوني، ثابـت وخالـد في كل العصور والأزمنـة، وإن تطورت الأوضـاع الاجتماعية والسيـاسية واختلفت حاجـات الناس فإنّ الأنظمـة الإسلامية والدسـاتير الشرعية، تسايـر الفطرة الإنسانية الثابتة، وتوالي الطبيعة الكونية، ولا تتخلف عنهما قدر شعرة فإذا كان التشريع معبّراً عن الكون الثابت، ومبتنياً عليه، فيخلد بخلوده ويدوم بدوامه.

أجـل أنّ تقلّب الأحـوال وتحوّل الأوضـاع الاجتماعيـة يتطلب تحوّلاً في السنـن والأنظمـة، وتبـدّلاً في الأحكـام والقـوانين، غير أنّـه لا يتطلـب تحولاً فيما يمس واقـع الانسانيـة السائدة في جميع الأحوال ومختلف الأوضـاع، كما لا يتطلب تحوّلاً في القوانين الكونية التي أصبحت تدبّر الكون بأُصوله الثابتة فلا تتغير النسب الرياضية ولا النتائج الهندسية وإن تطورت الأوضاع وتبدلت الحضارات.

وإنّما المتغير هو المظاهر والقشـور، والشكل التطبيقي لهاتيك الأحكام في مختلف الأوضاع وتطور الاجتماع، والمتأثّر بالأوضاع هو القسم الثاني لا الأوّل، ولا ضير فيه فإنّ الدين الإسلامي إنّما يستعرض القضايـا التي تمس واقع البشرية، والمسائل التي لها صلة بالكون والطبيعة ويترك التطبيق بعد لنفس المكلف حسب ظروفه وأحواله.

وبذلك تقف على أنّ التطور والتحوّل، فيما كتب لـه التغير والتبدل جزء جوهري

للـدين، عنصر داخل في بنـاء التشريع الإسلامـي كما أنّ الثبات والـدوام فيما فرض لـه ذلك، أحـد عناصر الدين ومـن أجزاء ذاك البناء التشريعـي السامي فتجريـده من أي واحد من عنصريـه يوجب انحـلال المركب وفناء الديـن، وتأخره عن مسـايرة المواكب الحضارية.

قال سيدنا الأُستاذ (رضوان الله عليه): هناك أحكام شرعية ثابتة لا يعرض عليها التغييروالاختلاف، ولا يمكن أن تتأثر باختلاف البيئة والمحيط بشكل من الأشكال.

وهناك لـون آخر مـن المقررات الاجتماعيـة التي تجري باشراف مـن هيئة الـولاية العامة، تختلف باختلاف الظروف وتتأثر باختلاف البيئات والأزمنة.

ولتوضيـح الأمر نستعير شاهـداً من الظواهر الاجتماعيـة التي نعيشها في حيـاتنا الخاصة.

لنفترض أنّ مواطناً يرأس عـائلة صغيرة، ويدير أُمور العائلـة الداخلية في حدود مقررات البلاد العـامة. فيأمر بعض أفـراد العائلة بالقيام بهذا الشـأن من شؤون البيت، ويأمر آخـرين منهم بشأن آخر من شـؤون العائلة ويحدد اختيارات كـل واحد منهم في البيت في حدود مصلحة العـائلة ويأمر بالانقطاع عن العمل يـوماً أو يومين للاستجمام ويأمر بالاستمرار في العمل في حدود ما تقتضيه مصلحة العائلة، وحسب ظروف البيت الخاصة...

وفي الوقت الذي يملك هذا الشخص كل هـذه الصلاحيات الواسعة في الإدارة والسلطة لا يسمح لـه أن يخرج عن دائرة مقرّرات البـلاد العامة في شأن مـن الشؤون أو يتجاوز حدود النظام العام بشكل من الأشكال.

وممّا تقدم يتضح أنّ المقرارات المرعية في محيط هذه العائلة على نوعين:

نوع يتسم بطابع الثبات والبقاء.

ونوع يتعرض للاختلاف والتغيير حسب ما تقتضيه مصلحة البيت.

والنسبـة ذاتها قائمـة بين الشريعـة الإسلاميـة، التي يطبعهـا طـابع من الثبـات

والبقاء، والمقررات التي تختلف باختلاف الظروف والمصالح الاجتماعية والتي تدور في فلك الشريعة من غير أن تتجاوزها بحال من الأحوال [١].

ودونك نماذج من هذا القسم، أي من الأحكام المتطورة المتغيرة بتغيّر الزمان:

١ـ في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية: يجب على الدولة الإسلامية أن تراعي مصالح الإسلام والمسلمين، فهذا أصل ثابت وقاعدة عامة، وأمّا كيفية تلك الرعاية، فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية، فتارة تقتضي المصلحة السلام والمهادنة والصلح مع العدو، وأُخرى تقتضي ضد ذلك.

وهكذا تختلف المقررات والأحكام الخاصة في هذا المجال، باختلاف الظروف ولكنّها لا تخرج عن نطاق القانون العام الذي هو رعاية مصالح المسلمين، كقوله سبحانه:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء ـ ١٤١).

وقوله سبحانه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّما يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة ٨ـ٩).

٢ـ العلاقات الدولية التجارية: فقد تقتضي المصلحة عقد اتفاقيات اقتصادية وإنشاء شركات تجارية أو مؤسسات صناعية،مشتركة بين المسلمين وغيرهم، وقد تقتضي المصلحة غير ذلك. ومن هذا الباب حكم الإمام المغفور له، الفقيد المجدد، السيد الشيرازي بتحريم التدخين ليمنع من تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية التي عقدت في زمانه بين إيران وانكلترا، إذ كانت مجحفة بحقوق الأُمّة المسلمة الإيرانية لأنّها خوّلت لانكلترا حق احتكار التنباك الإيراني.

---

(١) نظرية السياسة والحكم في الإسلام ص ٣٧ ـ ٣٩.

٣ـ الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء، قانون ثابت لا يتغير، فالمقصد الأسنى لمشرع الإسلام، إنّما هو صيانة سيادته عن خطر أعدائه وأضرارهم ولأجل ذلك أوجب عليهم تحصيل قوّة ضاربة ضد الأعداء، واعداد جيش عارم جرار تجاه الأعداء كما يقول سبحانه: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة**﴾ (الأنفال ـ ٦٠) فهذا هو الأصل الثابت في الإسلام الذي يؤيده العقل والفطرة أمّا كيفية الدفاع وتكتيكه ونوع السلاح، أو لزوم الخدمة العسكرية وعدمه، فكلّها موكولة إلى مقتضيات الزمان، تتغير بتغيره، ولكن في إطار القوانين العامة فليس هناك في الإسلام أصل ثابت، حتى مسألة لزوم التجنيد العمومي، الذي أصبح من الأُمور الأصلية في غالب البلاد.

وما نرى في الكتب الفقهية من تبويب باب، أو وضع كتاب خاص، لأحكام السبق والرماية، وغيرها من أنواع الفروسية التي كانت متعارفة في الأزمنة الغابرة ونقل أحاديث في ذلك الباب، عن الرسول الأكرم ﷺ وأئمّة الإسلام، فليست أحكامها أصلية ثابتة في الإسلام، دعا إليها الشارع بصورة أساسية ثابتة، بل كانت هي نوع تطبيق لذلك الحكم، الغرض منه تحصيل القوّة الكافية، تجاه العدو في تلكم العصور وأمّا الأحكام التي ينبغي أن تطبق في العصر الحاضر، فانّه تفرضها مقتضيات العصر نفسه [1].

فعلى الحاكم الإسلامي تقوية جيشه وقواته المسلحة بالطرق التي يقدر معها على صيانة الإسلام ومعتنقيه عن الخطر ويصد كل مؤامرة عليه من جانب الأعداء حسب

(١) قال المحقق في الشرائع ص ١٥٢ وفائدة السبق والرماية: بعث النفس على الاستعداد للقتال والهداية لممارسة النضال وهي معاملة صحيحة. وقال الشهيد الثاني في المسالك في شرح عبارة المحقق: لا خلاف بين المسلمين في شرعية هذا العقد، بل أمر به النبي في عدة مواطن لما فيه من الفائدة المذكورة وهي من أهم الفوائد الدينية لما يحصل بها من غلبة العدو في الجهاد لأعداء الله تعالى، الذي هو أعظم أركان الإسلام ولهذه الفائدة يخرج عن اللهو واللعب المنهى عن المعاملة عليهما.

فإذا كانت الغاية من تشريعها الاستعداد للقتال والتدرب للجهاد، فلا يفرق عندئذ بين الدارج في زمن النبي ﷺ وغيره أخذاً بالملاك المتيقن.

إمكانيات الوقت.

والمقنّن الذي يتـوخّى ثبات قانونه ودوامـه وسيادة نظامه الـذي جاء به، لا يجب عليه التعـرض إلى تفاصيل الأُمور وجزئيـاتها، بل الذي يجب عليه هـو وضع الكليات والأُصول ليسـاير قانونـه جميع الأزمنة بأشكالها وصـورها المختلفة، ولـو سلك غير هذا السبيل لصار حظه من البقاء قليلاً جداً.

٤ـ نشر العلـم والثقافـة، واستكمال المعارف التي تضمن سيـادة المجتمع مـادياً ومعنويـاً يعتبر من الفرائض الإسلاميـة، أمّا تحقيق ذلك وتعيين نـوعه ونوع وسائلـه فلا يتحدد بحـد خاص، بل يوكـل إلى نظر الحاكم الإسلامـي، واللجان المقررة لـذلك من جانبه حسب الامكانيات الراهنة في ضوء القوانين الثابتة.

وبالجملـة: فقد ألـزم الإسلام، رعـاة المسلمين، وولاة الأمر نشر العلـم بين أبناء الانسان واجتثـاث مادة الجهل من بينهم ومكافحـة أي لون من الأُمّية، وأمّـا نوع العلم وخصوصياته، فكل ذلك موكول إلى نظر الحاكم الإسلامي وهو أعلم بحوائج عصره.

فرب، علم لم يكـن لازماً، لعدم الحاجة إليـه، في العصور السابقـة، ولكنّه أصبح اليوم في الرعيل الأوّل من العلوم اللازمة التي فيها صلاح المجتمع كالاقتصاد والسياسة.

٥ـ حفظ النظـام وتأمين السبل والطرق، وتنظيـم الأُمور الداخليـة ورفع مستوى الاقتصاد و... من الضروريات، فيتبع فيه وأمثاله مقتضيات الظروف وليس فيه للإسلام حكم خاص يتبع، بـل الذي يتوخّاه الإسلام هـو الوصول إلى هذه الغـايات، وتحقيقها بالوسائل الممكنة، دون تحديد وتعيين لنوع هذه الوسائل وإنّما ذلك متروك إلى امكانيات الزمان الذي يعيش فيه البشر، وكلّها في ضوء القوانين العامة.

٦ـ قد جاء الإسلام بأصل ثابت في مجال الأموال وهو قوله سبحانه: ﴿**وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ**﴾ وقد فرّع الفقهاء على هذا الأصل شرطاً في صحة عقد البيع أو المعاملة فقـالوا: يشترط في صحة المعاملـة وجود فائدة مشروعة وإلاّ فلا تصـح المعاملة ومن هنا حرّموا بيع (الدم) وشراءه.

إلاّ أنّ تحريم بيع الدم أو شراءه ليس حكماً ثابتاً في الإسلام بل التحريم كان في الزمان السابق صورة إجرائية لما افادته الآيـة من حرمة أكل المال بالباطل وكان بيع الدم في ذلك الزمان مصداقاً له فالحكم يدور مدار وجود الفائدة (التي تخرج المعاملة عن أن تكون أكل المال بالباطل) وعدم تحقق الفائدة، فلو ترتبت فائدة معقولة على بيع الدم أو شراءه فسوف يتبدل حكم الحرمة إلى الحلية، والحكم الثابت هنا هو قوله تعالى: ﴿**لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ .

وفي هذا المضمار ورد أنّ علياً ـ عليه السلام ـ سئل عن قول الرسول ﷺ : «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»؟ فقال ـ عليه السلام ـ: «إنّما قال ﷺ ذلك والدين قلّ، فأمّا الآن فقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار» [1].

وفي الختام نأتي بما أفاده الشيخ الرئيس ابن سينا في هذا المقام في الشفاء قال:

ويجب أن يفوض كثير من الأحوال خصوصاً في المعاملات إلى الاجتهاد فإنّ للأوقات أحكاماً لا يمكن أن تنضبط وأمّا ضبط المدينة بعد ذلك بمعرفة ترتيب الحفظة ومعرفة الدخل والخرج واعداد اهب الأسلحة والحقوق والثغور وغير ذلك فينبغي أن يكون ذلك إلى السائس من حيث هو خليفة ولا تفرض فيها أحكام جزئية فإنّ في فرضها فساداً لأنّها تتغيّر مع تغيّر الأوقات وفرض الكليات فيها مع تمام الاحتراز غير ممكن فيجب أن يجعل ذلك إلى أهل المشورة [2].

وفي الختام نعطف نظر القارئ إلى نكتة، وهي: أنّ عنوان «مقتضى الزمان» و«حتمية التاريخ» وغيرهما من العناوين صار رمزاً ، لكل من أراد أن يتحرّر من القيم الأخلاقية، ويعيش متحلّلاً من كل قيد وحدّ، خالعاً كل عذار، والكثير من أفراد الانسان في العصر الحاضر، حينما رأوا، الاباحة الجنسية واختلاط الرجال والنساء، واتخاذ الملاهي على أنواعها وشرب المسكر واللعب بالميسر واقتراف المعاصي واخذ الربا مما راج

---

(١) نهج البلاغة الحكم رقم ١٦ .

(٢) الشفاء قسم الإلهيات ص ٥٦٦ .

في البيئات الغربية بلا استنكار وقد حرّمها الشرع ورفضتها قوانين الأخلاق الصحيحة، والفطرة السليمة، لم يجدوا مبرّراً لاقترافها والانصياع التام لشهواتهم الجامحة إلاّ بأن يتمسكوا باحدى هذه العناوين، وليست الغاية من هذه القالة عنده، إلاّ اقتراف السيئات والانغمار في الشهوات.

كما أنّ هذه العناوين قد صارت ملجأ لكل من أراد هدم الثقافة الشرقية الأصيلة وتحويرها، وسوق الشرق إلى الإنصياع لتوجيهات الغرب وتناسي كل ما كان له من كرامة قديمة وقطع صلته بها.

ترى المنادين باستعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف الشرقية الإسلامية يتمسكون باعذار، ويستدلون بأُمور منها: كون ذلك من مقتضيات الزمان، ونتيجة يحتمها التاريخ، غير أنّ الباحث الحر، يرى للقديم كرامته الموروثة وللحديث نضارته الموجودة، فيأخذ منها كل ما يليق بالأخذ ويصلح للاقتفاء فلا يعقد حلفاً مع كل قديم حتى الخرافات ولا يكب على كل حديث وإن أضر به وبكرامته وشرفه.

فعلى كل من يريد أن يحافظ على كرامة الانسان وكيانه وقيمه الأخلاقية، أن يتوخّى الأصلح من مقتضيات الزمان ويصلحه على ضوء العقل والفطرة، لا أن يطبق عمله عليه، فليس مقتضى العصر وحياً أُوحي إلى المجتمع، مصوناً عن الخطأ أو نقياً عن الاشتباه.

على أنّ هؤلاء المتشدّقين بأمثال هذه العبارات، تقليداً للغرب والحضارة الغربية بلا تأمّل ولا روية، قد عزب عنهم أنّ «هذه الحتمية» و «اقتفاء مقتضى الزمان» التي ينادون بها، غير معترف بها عند أعيان القوم، ومفكري المجتمعات، بل أكابرهم فيها، فكم نبّه علماء وحذر مفكرون من أبناء الغرب، من عواقب السير على منهج هذه الحضارة، واستخفّوا خطتها وتنبّأوا بانهيارها ونادوا بوجوب نقض أُسسها [١].

---

(١) نذكر على سبيل المثال منهم، العلامة «الكسيس كارل» فارجع إلى ما حرره في كتابه «الانسان ذلك المجهول».

ولأجل أن يقف القارئ الكريم على موقف الإسلام فيما يرجع إلى التطور الزمني نتوقف في المقام قليلاً ونقول:

الإسلام والتطوّر الزمني:

لا نجد بين الشرائع السماوية شريعة قد تدخلت في جميع شؤون الناس كالإسلام، حيث لم يكتف في مقرراته وتعاليمه على تعريف الناس بالأذكار والأوراد التي تربطهم بالخالق أو على ابداء النصائح الأخلاقية لهم فحسب، بل أنّه بين كافة ما يهم المجتمع من حقوق ووظائف فردية واجتماعية، ووضع الخطوط العريضة لكل قضايا الانسان في هذه الحياة، وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من المفكرين والكتاب غير المسلمين الذين كتبوا عن الإسلام ووصفوا قوانين الإسلام بأنّها أرقى القوانين التي تعالج قضايا الانسان، وذلك حيث أنّها تمتلك مادة حيويه ومرونة تخوّلها أن تعيش خالدة لكل الظروف.

ومن ذلك ما قاله المفكر الانجليزي (برناردشو): أنا أحترم دين محمد لأنّه دين حر ولأنّه الدين الوحيد الذي يقبل الانطباق مع الصور المختلفة في الحياة، وأضاف يقول: وأنا أتنبأ بأنّ دين الإسلام سوف تعتنقه أُوربا.

وقال الدكتور شبلي شميل، الكاتب المادي المعروف في مقال له تحت عنوان «القرآن والاعمار» نشره في الجزء الثاني من كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) الذي قرر فيه فرضية «دارون» مع شرح «بخنر» الالماني لها، وردّ فيه على بعض الغربيين الذين زعموا أنّ الإسلام هو سبب تأخّر المسلمين قال: إنّ انحراف المسلمين عن تعاليم دينهم هو سبب انحطاطهم، وأنّ الذين يزعمون بأنّ الإسلام هو المسؤول عن تأخر المسلمين وانحطاطهم أمّا جاهلون بحقيقة الإسلام، أو أنّهم يريدون بهذا أن يمهّدوا الطريق لاستعمار الغرب للشرق الإسلامي.

ولأجل ذلك نواجه اليوم كثيراً من الشباب يتساءل عن مدى انطباق قوانين

الإسلام على التطورات الزمنية المختلفة وقدرته على قيادة الانسانية إلى السعادة والرفاه؟

بين الجمود والجهل:

القرآن الكريم يصف الانسان بأنّه ظلوم جهول، وصدق الله العظيم، فمن الناس من يريد التحرّر من قيود الانسانية، والتجاوز عن كل الضوابط الأخلاقية بحجة رفض كل ما هو قديم وقبول كل ما هو جديد في حياة البشر، ويعيش إباحياً لأنّ تطور الزمن يقضي بذلك، فهذا هو الانسان الظلوم.

ومنهم من يمشي على عكس الأوّل، يحب كل ما هو قديم ويشجب كل ما هو جديد وينسب ذلك إلى الإسلام، فيظن أنّ الإسلام جاء لابقاء القديم على قدمه، دون أن يفرق في ذلك بين الوسائل والأهداف والقشور واللباب، ولذلك فهو يتقيد بالكتابة بأقلام القصب أو الاستحمام في الخزائن، أو الأكل باليد، أو الاستفادة من المصابيح القديمة وما شاكل ذلك، وهذا هو الانسان الجهول.

فالظلوم لطغيانه يهدّم أساس الشريعة ويمحق تعاليمها، والجهول يعرّض الدين بغير ما هو عليه من التطور والمرونة فينفر الناس عنه، فهما بين افراط وتفريط.

النسخ غير المرونة:

إنّ بعض الكتّاب الذين يتظاهرون بالإسلام يفسرون تطور الإسلام الزمني بما يؤدي إلى محق أحكام الإسلام والقضاء عليها فأُولئك يزعمون أنّ التعاليم الإسلامية تدخل تحت أُطر ثلاثة:

أُولاها: اطار الأُصول العقائدية كالتوحيد والنبوّة والمعاد.

ثانيها: اطار الأحكام العبادية كالصلاة والصوم وما شاكل.

وثالثها: اطار القوانين التي ترتبط بشؤون الحياة.

فيزعمون أنّ الثابت من تعاليم الدين ليس إلاّ ما يدخل تحت اطار الأوّل والثاني

فقط، وأمّا ما يرتبط بالاطار الثالث من القوانين الاجتماعية فليست من صميم الدين وبالامكان تغييرها واحلال ما تقتضيه مقتضيات الزمان مكانها في هذه المجالات.

أقول: إنّ القائل بهذه المقالة ممّن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ويريد حصر الإسلام في المسجد، لتخلو الساحة الاجتماعية لغيره لكي يلعبوا ما يشاؤون، ويستوردوا القوانين الاجتماعية من هنا وهناك ويملأوا بها الفراغ وتكون النتيجة أنّ مصائر المسلمين يتحكم فيها أعداؤهم ويضعون لهم خطوط المسيرة.

إنّنا نرى القرآن الكريم يشبه المسلمين بالزرع الذي من خواصّه النمو والحياة يقول سبحانه: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَ الذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَ رِضْوَاناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾** (الفتح ـ ٢٩).

فقوانين الإسلام بما هي مشتملة على المادة الحيوية وبما هي ذات مرونة تنطبق مع كل الظروف والحضارات الانسانية ولا تحتاج إلى تغييرها واقامة غيرها مكانها ولأجل هذه الخصيصة أصبح المسلمون بفضل الإسلام ذوى نمو وارتقاء في مجالات الحياة.



السؤال الخامس

ادعاء النقص في التشريع الإسلامي:

«كلّما تكـاملت نواحـي الحضارة، وتشـابكت وتعـددت ألوانها، واجـه المجتمع أوضاعاً وأحداثاً جديدة، وطرحت عليه مشاكل طارئة، لا عهد للأزمنة السابقة بها، إذ لم تتعرض تشريعـاتها، لأي هذه الأوضـاع والأحداث والمشـاكل بحكم مـن الأحكام إذن فحاجة المجتمع إلى قوانين وتشريعات جديدة، لا تزال تتزايد كل يوم، تبعاً لذلك».

توضيح السؤال:

لا يرتاب ذو مسكـة في أنّه كلّما توسّع نطاق الحضارة وبلـغ البشر من التمدن ما بلغ، احتاج في تنظيم حياته إلى قوانين جديدة، وتشريعات خاصة، أزيد ممّا كان محتاجاً إليها في الظروف الغابرة، وبما أنّ الحضارة الإنسانية، مازالت تتوسّع وتتكامل، ولا تقف عند حـد، فما زال الانسان تبعاً لـذلك، تتوسّع حاجتـه إلى قوانين وتشريعات جـديدة، متكـاملـة فكيف يمكـن أن تعـالـج القـوانين المحـدودة الموضـوعـات الكثيرة، غير المحدودة؟! [1].

---

(١) الفـرق بين هذا السـؤال وما سبق مـن السؤال الـرابع واضح، إذ الـرابع يـرجع إلى لزوم اختـلاف القوانين والمقتضيات، حسـب اختلاف اشكال الحياة في الاجتماع، وتبدلها مـن دون نظر إلى طروء حوادث لم يكن منها أثـر في العهود السابقة، وهذا الـوجه يرجع إلى اثبات وجـود النقص في ناحية التشريع الإسلامي، وعدم إيفائه بالحوادث الجديدة والوقائع الطارئة التي يوجبها تكامل الحضارة وتشعّباتها وتعددها، ولم يكن لها أثر في زمن الرسالة ودور نزول القرآن.

ويلاحظ بأنّ الإسلام، هو الذي يواجه وحده، بهذا الاشكال من بين سائر الشرائع، إذ ليس الإسلام عبارة عن تعاليم منحصرة في عدة أحكام عبادية وأخلاقية تؤدّى بصورة فردية، بين الانسان وربّه، أو بينه وبين نفسه، دون أن يتدخل في تحديد المناهج الاجتماعية والعلاقات الانسانية والمدنية، وليس منحصراً في هذه المقررات البسيطة، حتى لا يكون وافياً في جميع الأزمنة، بالغاية التي يهدف إليها وإنّما هو نظام تشريعي كامل، قد تدخل في شؤون المجتمع كافة، فهو ذو قوانين مدنية وقضائية وسياسية واجتماعية وعسكرية وعائلية، كفيلة باغناء البشرية، عن كل تشريع سوى تشريعه، وعن كل اصلاح غير اصلاحه، فهذه القوانين المحدودة كيف تغني المجتمع البشري عن ممارسة التشريع في الحوادث والموضوعات التي لم يكن بها عهد زمن نزول القرآن وبعثة الرسول؟

وفي هذه النقطة، تفترق المسيحية عن الإسلام، إذ هي لا تتجاوز في تشريعها نطاق الأخلاق الفردية والتعبّد لله، بصلاة وصوم، في وقت معين، أمّا مناهج الحياة الاجتماعية وتنظيمها وتنسيق معاملاتها، ذلك ما يقرّه المجتمع نفسه، ويفوّضونه إلى السلطات الحاكمة.

ولكن الإسلام يتعرض لكل شأن من شؤون الحياة، ويقنّن ويشرّع لكل أمر من أُمور المجتمع، المدنية والمعاشية، بالاضافة إلى تشريعاته وقوانيه الأخلاقية، والعبادية الفردية، ويسد باب التشريع في ذلك على غيره، فالسلطة التشريعية بيده وحده، وعلى المجتمع أن يختار السلطة التنفيذية والسلطة القضائية فقط، ضمن ما يشرعه الإسلام.

وملخص السؤال، انّ المجتمع الإنساني، يواجه أوضاعاً وأحداثاً جديدة تطرح عليه مشاكل لا عهد للأزمنة السابقة بها، فلا نجد في التشريع الإسلامي لهذه الأوضاع والأحداث حكماً من الأحكام، إذن فحاجة المجتمع إلى قوانين وتشريعات جديدة لا تزال تتزايد كل يوم تبعاً لذلك، وبما أنّ نصوص الشريعة من الكتاب والسنّة محدودة، وحوادث المجتمع غير محدودة، فكيف يمكن أن تفي النصوص المحدودة بالحوادث الطارئة غير المتناهية؟

الجواب:

انّ خلود التشريع وبقاءه في جميع الأجيال ومسايرته للحضارات الانسانية، واستغناءه عن كل تشريع سواه، يتوقف على وجود أمرين فيه:

الأوّل: أن يكون التشريع ذا مادة حيوية خلاقة للتفاصيل بحيث يقدر معها علماء الأُمّة والاخصائيون منهم على استنباط كل حكم يحتاج إليه المجتمع البشري في كل عصر من الأعصار.

الثاني: أن ينظر إلى الكون والاجتماع بسعة وانطلاق، مع مرونة خاصة تماشي جميع الأزمنة والأجيال، وتساير الحضارات الانسانية المتعاقبة.

وقد أحرز التشريع الإسلامي كلا الأمرين:

أمّا الأمر الأوّل، فقد أحرزه بتنفيذ أُمور:

الأوّل: الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة:

انّ من سمات التشريع الإسلامي التي بها يمتاز عن سائر التشريعات، ادخال العقل في دائرة التشريع، والاعتراف بحجيته في الموارد التي يصلح له التدخل والقضاء فيها، فالعقل أحد الحجج الشرعية وفي مصاف المصادر الأُخر للتشريع وأنّه يكشف عن الحكم الشرعي ويبيّن وجهة نظر الشارع في مورده، وأنّ من الممتنع أن يحكم العقل بشيء ولا يحكم الشرع على وفاقه أو يحكم بخلافه، فالملازمة بين العقل والشرع حتمية.

ولا يهمنا البحث في أنّ ما يدركه العقل في مورد هل هو نفس الحكم الشرعي ومن صميم التشريع الإسلامي أو أنّه يكشف عن نظر الشارع إذا توفرت فيه الشروط التي اعتبرها الشارع في حجية ادراكاته.

وإنّما المهم أن نقف على أنّ العقل احتل محلاً خاصاً في التشريع الإسلامي وانّ كل ما يحكم به العقل فكأنّه ينطق على لسان الشرع كالكتاب والسنّة، فعند ذاك اعتمد

عليه في تبليغ الأحكام إلى الناس كما اعتمد على القرآن والسنّة.

وقد فتح هذا الاعتراف للإسلام بقاء وخلوداً، وجعله صالحاً للانطباق مع عامة الحضارات الانسانية، وغدا التشريع الإسلامي في ضوئه ذا سعة وانطلاق وشمول لما يتجدد من الأحداث ولما يطرأ من الأوضاع الاجتماعية الجديدة.

هذا بخلاف ما إذا اعتبرناه عنصراً غريباً في صعيد التشريع وعزلناه عن الحكم ورفضنا كل ما يدركه من الأحكام العقلية المحضة، فإنّه يؤدي إلى تجميد المخطط القانوني وعدم صلاحيته للحكم والتطبيق في البيئات والظروف الاجتماعية المختلفة.

نعم ليس معنى الاعتراف بحجية العقل، أنّه يطلق سراحه في جميع المجالات حتى يتاح له (بما أُوتي من امكانات ووسائل محدودة) أن يتسرّع في الحكم في مصالح الفرد والمجتمع وشكل العلاقات والروابط الاجتماعية والعبادات والأحكام التوقيفية.

بل فسح له الحكم في مجالات خاصة إذا توفرت فيه الشرائط التي تصونه عن الاشتباه والخطأ واقترن بالضمانات الكافية التي تحفظه عن الزلل، وسوف نشير إلى هذه الشرائط والضمانات، وستوافيك نماذج من الأحكام العقلية في هذا البحث.

فالقارئ الكريم إذا لاحظ كتاب الله العزيز وسنّة نبيّه ﷺ وعترته ـ عليهم السلام ـ يرى فيهما الحث البالغ الأكيد على التدبّر والتفكّر والتعقّل لما يعسر على الانسان الاحاطة والاحصاء ولنكتف بذكر بعض ما اثر في المقام.

قال الإمام الطاهر موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ لتلميذه هشام:

إنّ الله تبارك وتعالى بشرّ أهل العقل والفهم في كتابه فقال: **﴿... فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾** (الزمر ١٧ـ١٨).

يا هشام: إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة فقال: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ**

وَالنَّهَارِ وَ الفُلْكِ التِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَ السَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ـ ١٦٤).

يا هشام: ثم وعظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وَ مَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ للدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام ـ ٣٢).

يا هشام: إنّ العقل مع العلم فقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاّ العَالِمُونَ﴾ (العنكبوت ـ ٤٣).

ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ـ ١٧٠).

يا هشام ثم ذكر أُولي الألباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية فقال: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الألباب﴾ (البقرة ـ ٢٦٩).

يا هشام: إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿انّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ يعني: عقل.

وقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمانَ الحِكْمَةَ﴾ (لقمان ـ ١٢) قال: الفهم والعقل.

يا هشام: ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلاّ ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

يا هشام: إنّ لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة وأمّا الباطنة فالعقول [١].

وقال الصادق: حجة الله على العباد، النبي، والحجة في ما بين العباد وبين الله،

---

(١) الكافي ج١ ص ١٣ ـ ١٦ ولم ننقله بطوله وإنّما اقتبسنا مقتطفات منه.

العقل.

هذا الحديث وما قبلـه وغيرهما يعرب عن نظر الإسلام السـامي في الأحكام التي يستقل بها العقل بشرط أن يتجـرّد عن الرواسب المنحرفـة والغرائز الحيوانيـة والعواطف الانسانيـة ويحكم حكماً باتـاً عقلانياً محضـاً غير منبعث عن هـذه الجوانب ويحترز عن بعض الأسـاليـب التي منـع الشـارع عن أعمالها في طـريـق استنبـاط الحكم الشرعـي كالاقيسة والاستحسانات.

نعم لا يخلص الحكم العقلي من الزلل والخطأ إلاّ بعد ملاحظة أُمور:

١ـ قصور الفكر الانساني وعجزه عن الاحاطة بمسائل الكون والنفس والاجتماع وضعف المدارك الحسية التي تـربط الانسان بالواقع الاجتماعـي والنفسي والكون الذي يعيشه.

٢ـ تأثّر الفكر الانساني بالجانب الانفعالي والحيواني من النفس كالغرائز النفسية والدوافع الحيوانية المستقرة في النفس التي لا تتخلّص منها النفس والفكر إلاّ بعد جهد شاق.

٣ـ انطباع الفكر بالرواسب اللاشعوريـة والأعراف والتقاليد التي يرثها الانسان من البيئـة الاجتماعيـة والتي تنتقـل في المجتمع مـع الأجيـال من دون أن تفقـد تأثيرهـا الخاص واطارها الاجتماعي الذي يسبغ عليها جانباً قدسياً في المجتمع.

وقـد حاول الإسـلام أن يحقق الضمانـات الكافيـة التي تعصم الفكـر من هـذه الوجوه الثلاثة في مجال الحكم والتشريع.

كما حاول الإسلام من جانب أن يفسح المجال للعقل في الحكم ليحفظ الدستور ويصلح للحكم والتطبيق في البيئات والظروف المختلفة.

ومن جـانـب آخـر حـاول الإسلام أن يحفـظ العقل ممّـا يمكـن أن يحفظ بـه إلى المستويات الحيوانية واللاشعورية أو ممّا تقصر عنه امكاناته العلمية [١].

---

(١) لاحظ المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

قال العلاّمة الحجة الشيخ محمد حسين الاصفهاني: إنّ القضايا المشهورة على أقسام:

منها ما فيه مصلحة عامة: كالعدل حسن، والجور قبيح، وعبّر عنها بالتأديبات الصلاحية.

منها: ما ينبعث عن الأخلاق الفاضلة كالحكم بقبح كشف العورة لانبعاثه عن الحياء وهو خلق فاضل.

منها: ما ينبعث عن رقة أو حمية أو أنفة أو غير ذلك واستلزام الحسن والقبح عقلاً للحكم الشرعي بالمعنى المتقدم في ما كان منشأه المصالح العمومية واضح لأنّ الشارع يرعى المصالح العمومية وكذا ما ينبعث عن الأخلاق الفاضلة لأنّ المفروض أنّها ملكات فاضلة، والمفروض انبعاث الحكم بالحسن والقبح عنها وأمّا ما ينبعث عن انفعالات طبيعية من رقة أو حمية أو أنفة أو غير ذلك فلا موجب لاشتراك الشارع مع العقلاء.

ولذا ترى الشارع ربّما يحكم لحكمة ومصلحة خاصة بما لا يلائم الرقة البشرية كالحكم بجلد الزاني والزانية غير ذات البعل مع كمال التراضي [١].

وللشيخ الرئيس في اشارته كلام يوقفنا على أقسام الادراكات العقلية فراجع الاشارات وشرحها للحكيم الطوسي [٢].

فإذا توفرت في الحكم العقلي هذه الشرائط وكان حكمه منبعثاً عن الجانب العقلي المحض، غير متأثر عن الجوانب اللاشعورية، والغرائز الحيوانية والعواطف الانسانية، وتجنب عن الأساليب الممنوعة وحكم من صميم التدبّر والتفكّر بحكم بات، يصير حجة بين الله وعبده، وحينئذ يجب السير والسلوك على مقتضى حكمه وتنفيذ ما يقضي به تأسيساً أو تحديداً لاطلاق حكم شرعي أو تخصيصاً لعمومه ويصير عند ذاك أحد

---

(١) نهاية الدراية ج٢ ص ١٣٠.

(٢) الاشارات ج١ ص ٢٢٠ ط طهران.

الأدلة التي يستنبط منها، الحكم الشرعي ويدور عليها رحى الاستنباط، ويعد قريناً للكتاب والسنّة، والاجماع ولا ينفك عن قرنائه وأعداله.

والباحث النابه، يجد الملازمة بين العقل والشرع، أحد القواعد المسلمة عند المحققين، من علماء الإسلام، الذين يعتنى بقولهم، فقد صرحوا بأنّ كل ما حكم به العقل، حكم به الشرع، وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل.

إنّ للعقل دوراً كبيراً في استنباط كثير من الأحكام التي يصلح للعقل القضاء فيها ويقدر على ادراك ملاك الحكم ومناطه نظير الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته، ووجوب الشيء وحرمة ضده أو عدمها، وجواز اجتماع الأمر والنهي وعدمه وصحة العبادة والمعاملة وفسادهما، واجزاء الأوامر الاضطرارية والظاهرية والأحكام المتفرعة على تنجيز العلم الاجمالي وما يستقل به العقل عند اليأس عن الأدلّة السمعية فيحكم بالبراءة أو الاشتغال أو التخيير، حسب ما اقتضاه المقام. بل له دور واسع في باب المعاملات وغيرها.

فهذه الملازمات وغيرها، من الأحكام العقلية، مصادر لاستنباط كثير من الأحكام واستكشاف ما هو المرضي لدى الشارع، يستريح إليه الفقيه في تأسيس الحكم الشرعي أو تحديده، وفي تشخيص الوظيفة العملية عند اليأس عن العثور على الأدلّة السمعية وبذلك يسد الفراغ المتوهم في التشريع الإسلامي.

كل ذلك يرشدنا إلى أنّ التشريع الإسلامي، يتبنى الواقع ولا يحيد عن متطلبات الحياة، وأنّه ليس لتعاليمه طابع الرمز والتعبد السماوي وأنّ للإسلام علاقة واقعية بالعقل، لا تجد مثلها في الشرائع الأُخرى، بل لا يسوغ لغيره أن يدخل العقل في مصادر تشريعه، ويعده أحد الأدلّة.

الثاني: إنّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد:

إنّ الأحكام الشرعية عند العدلية من المسلمين، الذين يمثلون الطبقة العليا

منهم، تابعة لمصالح ومفاسد في متعلقاتها، فلا واجب إلاّ لمصلحة في فعله، ولا حرام إلاّ لمفسدة في اقترافه، وقد تحقق عندهم إنّ للتشريع الإسلامي نظاماً لا تعتريه الفوضى وهذا الأصل، و إن خالف فيه بعض الأمّة، غير أنّ نظرهم محجوج بكتاب الله وسنّة نبيه ونصوص خلفائه ـ عليهم السّلام ـ ترى أنّه سبحانه يعلّل حرمة الخمر والميسر بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَ البَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَ المَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ عَنِ الصَّلٰوةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة ـ ٩١).

ويستدل على وجوب الصلاة بقوله سبحانه: ﴿وَ أَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَ المُنْكَرِ﴾ (العنكبوت ـ ٤٥) إلى غير ذلك من الفرائض والمناهي التي صرح أو أُشير إلى ملاكات تشريعها في الذكر الحكيم.

وقد قال الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا ـ عليه السّلام ـ: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يبح أكلاً ولا شرباً إلاّ لما فيه المنفعة والصلاح، ولم يحرّم إلاّ ما فيه الضرر والتلف والفساد» (١).

وقال ـ عليه السّلام ـ في الدم: «إنّه يسيء الخلق ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالده» (٢).

وهذا باقر العلوم وإمامها يقول: «إنّ مدمن الخمر كعابد وثن، ويورثه الارتعاش، ويهدم مروته ويحمله على التجسّر على المحارم من سفك الدماء وركوب الزنا» (٣).

وغيرها من النصوص المتضافرة عن أئمّة الدين (٤).

فإذا كانت الأحكام تابعة لمصالح ومفاسد في الموضوع، فالغاية المتوخّاة من تشريعها، إنّما هو الوصول إليها، أو التحرّز عنها، وبما أنّ المصالح والمفاسد ليست على

---

(١) مستدرك الوسائل ج٣ ص ٧١.

(٢) بحار الأنوار ج٦٢: ص١٦٥، الحديث٣. (٣) المصدر نفسه ص ١٦٤، الحديث٢.

(٤) راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق فقد أورد فيه ما أثر عن النبي ﷺ والأئمة ـ عليهم السّلام ـ في بيان علل التشريع وفلسفته.

وزان واحد، بل ربّ واجب يسوغ في طريق احرازه، اقتراف بعض المحارم، لاشتماله على مصلحة كبيرة لا يجوز تـركها أصلاً، وربّ حرام ذي مفسـدة كبيرة، لا يجوز اقترافه، و إن استلزم ترك الواجب أو الواجبات.

ولأجل ذلك قد عقد الفقهـاء باباً خاصاً، لتزاحم الأحكـام وتصادمها في بعض الموارد، فيقدمون «الأهم على المهم» والأكثر مصلحـة على الأقل منها، والأعظم مفسدة على الأحقر منهـا، وهكذا ... ويتـوصّلون في تمييز الأهم عـن المهم، بالطـرق والامارات التي تورث الاطمئنان، وباب التزاحم في علم الأُصول غير التعارض فيه،ولكلّ أحكام.

وقد أعان فتح هذا الباب على حل كثير مـن المشاكل الاجتماعية التي ربما يتوهم الجاهل أنّها تعرقل خطى المسلمين في معترك الحيـاة، وأنّها من المعضلات التي لا تنحل أبداً، ولنأت على ذلك بمثال، وهو:

أنّه قد أصبـح تشريح بدن الانسان في المختبرات من الضروريات الحيـوية التي يتوقف عليـه نظام الطب الحديث، فلا يتسنّى تعلم الطب إلاّ بـالتشريح والإطلاع على خفايا الأمراض والأدوية.

غير أنّ هـذه المصلحة تصـادمهـا، مصلحـة احترام المؤمن حيّـه وميّته، إلى حـد أوجب الشارع، الاسراع في تغسيله وتكفينه وتجهيـزه للدفن، ولا يجوز نبش قبره إذا دفن، ولا يجوز التمثيل به وتقطيع أعضـائه، بل هو من المحرمـات الكبيرة التي لم يجوز الشارع حتى بالنسبـة إلى الكلب العقور، غير أنّ عنـاية الشارع بالصحـة العامة وتقـدم العلوم جعلته يسوغ اقتراف هذا العمـل لتلك الغاية، مقدماً بدن الكـافر على المسلم، والمسلم غير المعروف على المعروف منه، وهكذا ...

الثالث: التشريع الإسلامي ذو مادة حيوية

إنّ التشريع الإسلامي في مختلف الأبواب، مشتمل على أُصول وقواعد عامة، تفي بـاستنبـاط آلاف من الفـروع التـي يحتـاج إليهـا المجتمع البشري، على امتـداد القـرون

والأجيال، وهذه الثروة العلمية، التي اختصت بها الأُمّة الإسلامية من بين سائر الأُمم، أغنت الشريعة الإسلامية عن التمسّك بكل تشريع سواها.

وقد تضافرت الروايات على أنّ جميع ما يحتاج الناس إليه قد جاءت فيه آية محكمة أو سنّة متّبعة.

أخرج الكليني باسناده عن عمر بن قيس عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال سمعته يقول: إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمّة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله وجعل لكل شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدل عليه، وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً.

روي باسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قال سمعته يقول: ما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنّة.

أُخرج عن سماعة عن أبي الحسن موسى ـ عليه السّلام ـ قال: قلت له: أكلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه، أو تقولون فيه؟ قال: بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيه [١].

وهذا العلاّمة الحلي، أحد فقهاء الإمامة في القرن الثامن، قد ألّف عشرات الكتب في الفقه وأُصوله، منها «تحرير الأحكام الشرعية» وقد حوى من الأحكام والقوانين ما يربو على أربعين ألف مسألة، استنبطها من هذه الأُصول الواردة في القرآن والسنّة النبوية، والأحاديث المأثورة عن أئمّة الدين، رتبها على ترتيب كتب الفقه في أربع قواعد: العبادات، والمعاملات، والايقاعات، والأحكام [٢].

وجاء من بعده من الفقهاء والمجتهدين، فبحثوا عن موضوعات وأحكام، لم تكن لعصره بها صلة، فاستخرجوا ما لها من الحكم الشرعي، من تلكم الأُصول والقواعد بوضوح وانطلاق، ولم يجدوا التشريع الإسلامي عاجزاً في هذه المجالات.

---

(١) راجع الكافي «باب الرد إلى الكتاب والسنّة» ج١ ص ٥٩ ـ ٦٢، تجد فيه أحاديث تصرح بما ذكر، والمراد منها أُصول الأحكام وجذورها لا فروعها وجزئياتها.

(٢) راجع الذريعة ج٤ ص ٣٧٨.

وهـذا «صاحب الجواهـر» ذلك الفقيـه الأعظم، من فقهـاء القرن الثـالث عشر الإسلامي، قـد جاء في مشروعه الوحيـد «جواهر الكلام» بأضعـاف ما جاء به العـلامة الحلي، فإنّ الباحث عندمـا يقف أمام هذا الكتاب الثمين وينظر في مباحثـه، يرى أمامه بحراً يزخر بـالدرر التي تحار في حصرها النهى والخواطر وتنبهر لها عيـون البصائر، فلقد حوى من الفروع والقوانين، ما يعسر عدها.

ولأجل ذلك استعارت منا الأُمم الغربية كثيراً مـن قوانينه، (بعكس ما نحن عليه الآن من تبعيّتنا للقـوانين الأجنبية) وليس ذلك إلاّ لأجـل كون الفقه الإسـلامي ذا مادة حيوية، وقواعد متموّجة، تستطيع أن تواجه الأحداث الطارئة طيلة القرون.

يوم كان الإسـلام يبسط ظله على أكثر من نصف المعمورة، حينـاً من الدهر وإنّ الأُمّة الإسلامية، كانت تتألّف من شعوب مسلمة مختلفة الألوان، لكلّ بيئة خواصها في العادات والتقاليد، ومـا يقع فيها من وقائع وأحداث، كان التشريع الإسـلامي بقواعده وأُصـوله الـوافرة، وافيـاً لاستخراج أحكـامها، مـن دون أن تمدّ يدهـا إلى المساعـدات الأجنبية.

الرابع: تشريع الاجتهاد

وهو بـذل الوسع في استنباط الأحكـام الشرعية عن مصـادرها المعينة، وهـو رمز خلود الدين وبقـاء قوانينه، لأنّه يحفظ غضـاضة الدين وطراوته، ويجدده ويصـونه عن الإندراس، ويغني المسلمين عـن موائد الأجانب، باعطـائه كل موضوع مـا يقتضيه من حكم.

«أما لزوم فتح هذا الباب في أعصارنـا هذه فلا يحتاج إلى البرهنة والدليل إذ نحن في زمن تتوالى فيه المخترعات والصناعات، وتجعلنا هذه المجالات أمام أحد أُمور:

أمّا بذل الـوسع في استنباط أحكام الموضـوعات الحديثة، من الأُصول والقـواعد الإسلامية.

أو اتّباع المبادئ الاوربية، من غير نظر إلى مقاصد الشريعة، وأمّا الوقوف من غير

اعطاء حكم»[١].

«وليس الاجتهاد من البدع المحدثة، فإنّه كان مفتوحاً في زمن النبوّة وبين أصحابه ﷺ فضلاً عن غيرهم، وفضلاً عن سائر الأزمنة التي بعده، نعم غايته إنّ الاجتهاد يومئذ، كان خفيف المؤونة جداً، لقرب العهد، وتوفّر القرائن، وامكان السؤال المفيد للعلم القاطع، ثم كلّما بعد العهد من زمن الرسالة وكثرت الآراء والأحاديث والروايات، ربّما قد دخل فيها الدس والوضع، وتوفرت دواعي الكذب على النبي، أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعي، يصعب ويحتاج إلى مزيد من المؤونة واستفراغ الوسع»[٢].

ويرشدك إلى وجوده في زمن النبي ﷺ قول الرسول لأمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ عندما بعثه إلى اليمن: قال علي ـ عليه السّلام ـ : بعثني رسول الله إلى اليمن، قلت يا رسول الله تبعثني وأنا شاب، أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء؟ قال: فضرب بيده في صدري وقال: «اللّهمّ أهد قلبه وثبّت لسانه» فو الذي نفسي بيده ما شككت في قضاء بين اثنين[٣].

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن: بم تقضي؟ قال: بما في كتاب الله، قال فإن لم تجد؟ قال: بما في سنّة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي، ولا آلو جهداً، فسر النبي ﷺ وقال: الحمد لله الذي وفّق رسول رسوله بما يرضي رسوله[٤].

---

(١) رسالة الإسلام، السنة الثالثة، العدد الثاني، عن مقال «أحمد أمين المصري».

(٢) أصل الشيعة وأُصولها، ص ١١٩ طبعة بيروت.

(٣) أعلام الورى ص ١٣٧ ،والبحار ج ٢١ ص ٣٦١، وشتان بين علمه واجتهاده ـ عليه السّلام ـ وعلم الآخرين واجتهادهم.

(٤) الطبقات الكبرى ج٢ ص ٣٤٧ والاستيعاب، لابن عبد البر ، في ترجمة «معاذ» واللفظ للثاني.
أقول: لو صح الحديث يكون المراد منه باعتبار وروده في أمر القضاء، هو فصل الخصومة في الأموال والنفوس، بما يعدها العقلاء عدلاً وأنصافاً وهذا المراد من قوله: اجتهد رأيي. وعندئذ لا يكون الحديث دليلاً على صحة مطلق الرأي حتى المستند إلى القياس والاستحسان واشباههما التي لا قيمة لها عندنا في عالم الاستنباط.

«وبطبيعة الحال، أنّ الصحابي قد يسمع من النبي ﷺ في واقعة، حكماً ويسمع الآخر في مثلها خلافه، وتكون هناك خصوصية في أحدهما اقتضت تغاير الحكمين وغفل أحدهما عن الخصوصية أو التفت إليها وغفل عن نقلها مع الحديث فيحصل التعارض في الأحاديث ظاهراً، ولا تنافي واقعاً، ولهذه الأسباب وأضعاف أمثالها، احتاج حتى نفس الصحابة الذين فازوا بشرف الحضور، في معرفة الأحكام إلى الاجتهاد، والنظر في الحديث وضم بعضه إلى بعض والالتفات إلى القرائن الحالية، فقد يكون للكلام ظاهر، ومراد النبي خلافه اعتماداً على قرينة في المقام، والحديث نقل، والقرينة لم تنقل».

«وكل واحد من الصحابة، ممن كان من أهل الرأي والرواية، تارة يروي نفس ألفاظ الحديث، للسامع من بعيد أو قريب، فهو في هذا الحال راوٍ ومحدّث وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات، بحسب نظره فهو في هذا الحال، مفت وصاحب رأي» (١).

ولم يزل هذا الباب مفتوحاً عند الشيعة، من زمن صاحب الرسالة إلى يومنا هذا، وقد تخرج منهم الآلاف من المجتهدين والفقهاء، قد أحيوا الشريعة وأنقذوها من الانطماس، وأغنوا بذلك الأُمّة الإسلامية في كل مصر وعصر، عن التطلع إلى موائد الغربيين، وألّفوا مختصرات ومتطوّلات، لا يحصيها إلاّ الله سبحانه.

وقد اقتدى الشيعة في فتح هذا الباب على مصراعيه في وجه الأُمّة بأئمّة دينهم وخلفاء رسولهم، الذين حثوا شيعتهم بأقوالهم وأفعالهم، على التفقّه في الدين والاجتهاد فيه، وأنّه «من لم يتفقّه ، فهو اعرابي» وأرشدوهم إلى كيفية استخراج الفروع المتشابكة، من الآيات والأُصول المتلقاة عنهم، بالتدبر في الآيات والأُصول المتلقاة عنهم، وأمروا أصحابهم بالتفريع (٢) وقد بلغت عنايتهم بذلك ما جعلهم ينصبون بعض من يعبأ بقوله ورأيه في منصب الافتاء، إلى غير ذلك.

---

(١) أصل الشيعة ص ١١٨.

(٢) ستوافيك روائع نصوصهم في هذا المضمار.

والاجتهاد كما عرّفناك هو بذل الجهـد في استنباط الأحكام عن أدلّتها الشرعية فلا يحتج به إلاّ إذا بنيت أحكامه على أساس الكتاب والسنّـة، وما يرجع إليها فهو مقيد من هذه الجهة و إن كان متحـرراً من سوى ذلك، فلا يتقيد بمذهب ولا بـرأي، بل هو فوق المذاهب.

غير أنّ أئمّة أهل السنّة، قد أقفلوا باب الاجتهاد، إلاّ الاجتهاد في مذهب خاص، كمذهب أبي حنيفـة والشافعي، وبما أنّ الفتاوى المنقـولة عنهم، مختلفـة أخذ علماء كل مذهب يبذلون جهدهم لتشخيص ما هو رأي كل إمام في هذا الباب.

ولا أدري لماذا اقفل هـذا الباب المفتوح من زمـن الرسول، و إن تفلسـف في بيان وجهه، بعض الكتّاب من متأخّريهم، وقـال: ولم يكن مجرد اغلاق باب الاجتهاد باجتماع بعض العلماء واصدار قرار منهم، و إنّما كان حـالة نفسية واجتماعية ذلك أنّهم رأوا غزو التتار لبغداد وعسفهم بـا لمسلمين، فخافوا على الإسلام ورأوا أنّ أقصى مـا يصبون إليه، هو أن يصلوا إلى الاحتفاظ بتراث الأئمّة مما وضعوه واستنبطوه [١].

ولا يكاد يخفى على القارئ الكريم ما في اعتذاره من الاشكال.

ولقـد صدع بـالحق الـدكتور «حـامـد حفني داود» أُستـاذ الأدب العربي بكليـة الألسن في القاهرة في ما قدمه على كتاب عقائد الإمامية [٢]وقال:

إنّ الصورة المتوارثـة عن جهابذة أهل السنّـة أنّ الأجتهاد أُقفل بابه بـأئمّة الفقه الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل.

هذا إذا عنينـا الاجتهاد المطلق أمّـا ما حـاوله الفقهـاء بعد هؤلاء مـن اجتهاد لا يعدو أن يكون اجتهاداً في المذهب أو اجتهاداً جـزئياً في الفروع، وأنّ هذا ونحوه لا يكاد يتجاوز عند أهل السنّة القرن الرابع بحال مـن الأحوال، أمّا ما جاء عن الغزالي في القرن الخامس، وأبي طـاهر السلفي في القـرن السادس، وعز الـدين بن عبد الله السـلام وابن

---

(١) رسالة الإسلام: العدد الثالث، من السنة الثالثة عن مقال لأحمد أمين المصري.

(٢) للعلاّمة المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر راجع ص ١٧ ـ ١٨ من المقدمة.

دقيق العيد في القرن السابع، وتقي الدين السبكي، وابن تيمية في القرن الثامن والعلاّمة جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي في القرن التاسع... فإنّ هذا ونحوه لا يتجاوز ـ في نظر المنهج العلمي الحديث ـ باب الفتوى ولا يدخل في شيء من الاجتهاد، وهو القدر الذي أوضحناه في كتابنا «تاريخ التشريع الإسلامي في مصر».

أمّا علماء الشيعة الإمامية فإنّهم يبيحون لأنفسهم الاجتهاد في جميع صوره التي حدّثناك عنها، ويصرّون عليه كل الاصرار ولا يقفلون بابه دون علمائهم في أي قرن من القرون حتى يومنا هذا.

وأكثر من ذلك تراهم يفترضون بل يشترطون وجود «المجتهد المعاصر» بين ظهرانيهم، ويوجبون على الشيعة اتباعه رأساً دون من مات من المجتهدين مادام هذا المجتهد المعاصر استمد مقوّمات اجتهاده ـ أُصولها وفروعها ـ من المجتهدين، وورثها عن الأئمّة كابراً عن كابر.

وليس هذا غاية ما يلفت نظري أو يستهوي فؤادي في قولهم بالاجتهاد.

وإنّما الجميل والجديد في هذه المسألة أنّ الاجتهاد على هذا النحو الذي تقرأه عنهم يساير سنن الحياة وتطوّرها، ويجعل النصوص الشرعية حية متحركة نامية متطورة، تتمشى مع نواميس الزمان والمكان، فلا تجمد ذلك الجمود الذي يباعد بين الدين والدنيا، أو بين العقيدة والحياة الذي نشاهده في أكثر المذاهب التي تخالفهم. ولعل ما نلاحظه من كثرة عارمة في مؤلفات الإمامية وتضخّم مطّرد في مكتبة التشيّع راجع ـ في نظرنا ـ إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه».

هذا هو الاجتهاد، وهذا دوره في خلود الدين وصلوحه للظروف والبيئات ولم يكن اغلاقه إلاّ جهلاً بأهميته أو ابتغاء للفتنة، أو تزلفاً إلى أبناء الدنيا، أو جبناً عن النطق بالصواب، وعلى أي تقدير فقد تنبّه بعض الجدد [1] من أهل النظر بلزوم فتحه وإنمائه، وأنّ الاجتهاد أحد مصادر الشريعة التي تسع كل تطور تشريعي، قال في مقال

(١) الأُستاذ علي علي منصور المصري مستشار مجلس الدولة لمحكمة القضاء الاداري.

له حول الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية بمصر وإثبات ما عليه القواعد الشرعية من سموّ وشمول ودقة وأحكام مع اتسامها دائماً بالجدة، وملائمة أحكامها لكل حضارة ولكل بيئة ولكل زمان: «النصوص الشرعية للأحكام التي وردت في الكتاب والسنّة قليلة إذا ما قيست بمواد القانون في أي شريعة وضعية، إذ الآيات القرآنية التي تضمّنت أُصول الأحكام على ما أحصاها ابن قيم الجوزية لا تعدو مائة وعشرين آية من نيف وستة آلاف آية، أمّا الأحاديث فخمسمائة من أربعة آلاف حديث، ولقد أراد الله بذلك أن يهيأ للناس فرصة الاجتهاد في الفروع دون الأُصول، فجعل النصوص الأصلية لقواعد الشريعة عامة، دون التعمّق في التفاصيل ليتسع لها عقل من نزل فيهم القرآن وليترك للقوى الانسانية التي أودعها مخلوقاته، فرصة العمل والتفكير والتدبير واستنباط الأحكام فيما لا نص فيه من كتاب أو سنّة، لما يجد ويعرض لهم في حياتهم من مشاكل وأقضية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهذا هو الاجتهاد وهو أحد مصادر الشريعة المحمدية.

ومشروعية هذا المصدر ثابتة من حديث معاذ بن جبل إذ أنّه لمّا بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قال له: بم تقضي يا معاذ؟ قال: بكتاب الله، قال الرسول ﷺ فإن لم تجد؟ قال: فبسنّة رسول الله، قال: وإن لم تجد؟ قال: اجتهد برأيي، فأقره على ذلك»[1] وما كان يمكن أن ينزل الكتاب والسنّة على غير هذا الاجمال والتعميم، لأنّ هذه الشريعة إنّما نزلت لكل زمان وكل مكان: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً﴾.

ولو أنّ صاحب الشريعة عني بالتفاصيل والجزئيات لوجب أن يقدر ما سيكون عليه العالم من نظم مختلفة واختراعات مستحدثة في جميع الأمكنة والأزمنة فيضع لها ولما تفرّع عنها، من التفاصيل، ولو أنّه فعل ذلك لما اتسع وقت الرسالة لهذا كلّه، بل لأعرض الناس عن هذه الدعوة لتعقدها، ولأنّها تضمّنت أحكاماً عن جزئيات ومخترعات لا تقع تحت حسهم، ويصعب عليهم تصورها، لأنّها لم تعرف في زمانهم، ولنضرب لذلك مثلاً

---

(١) قد مر المراد من الحديث فلاحظ.

فقد نـزلت في القرآن آية تضمّنـت الحكم العام لآداب التلاوة وجـرت على نسق مختصر: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلّكم ترحمون﴾ وحدث بعد نزولها بنيف وألف وثلثمائة عام أن اخترع المذياع (الراديو والتلفزيون)، ولما بدأ باذاعة آيات الذكر الحكيم بـه، بدأ التسـائل عن حكم الشرع والـدين في ذلـك أحلال هـو أم حرام؟ وهـل تصح اذاعته في منتدى ترتكب فيه الآثام والموبقات وتدار كؤوس الخمر؟

لا بدع في أنّ حكـم هذه الجزئية لم يـرد بنص صريح في الكتاب، وانّ ذلـك ترك للاجتهـاد على هدى الحكم العام الـوارد بالآية الشريفـة، لا بدع في ذلك، إذ لـو أُريد للشريعة أن تتضمّن الأحكام المفصلة لجميع الفروع والجزئيات لوجب أوّلاً افهام الذين نزل عليهم الدين وقت الرسالة ما هو الراديو وما هو التلفزيون، ولو حاول الرسول ذلك وقال لهم: إنّ مخترعات البشر باذن الله ستجيء للعالم بعد ألف وثلثمائة عام بآلة يستطيع بها الانسان أن يسمع ويـرى صورة المحدث وهو على بعد آلاف الفـراسخ والأميال، لما صدّقـوه لعدم امكانهم تصوره ولجادلـوه فأكثروا جـداله في كنه تلك الآلـة، ولما لزمتهم حجته في أنّ الذي يقوله ليس من عنده وإنّما هـو من عند الله لأنّ الحجة لا تلزمها صفة الاقنـاع إلاّ متى دخلـت مناط العقـل، أمّـا إذا كـانت فـوق إدراك المرسل إليهـم فهي داحضة...

والاجتهـاد هـو الباب الـذي دخلت منـه إلى حضيرة الشريعـة الإسـلاميـة كل الحضارات بما فيها من مشاكل قانونية ومـالية واجتماعية فوسعها جميعاً وبسط عليها من محكم آياته وسديد قواعده ما أصـاب المحجة، فكان للشريعة الإسلامية في ذلك تراث ضخم تسامي على كل الشرائع وأحاط بكل صغيرة وكبيرة من أُمور الدين والدنيا...

أفبعد ذلك يصح في الأفهام أن تتهم الشريعة الإسـلامية بالقصور، أو بأنّها نزلت لعرب الجزيرة لتعالج أُمورهم في حقبة مـن الزمان انقضى عهدها، أو أنّها تضيق عن أن تجد الحلول لمشـاكل الحضـارات الحديثة، إرجعوا إليهـا وإلى تراثهـا الضخم تجدوا أنّها عالجت الجليـل والخطير والصغير والكبير من أُمور الـدين والدنيـا فيها ذكر مـا مضى،

وفيها ذكر الحاضر، وفيها ذكر المستقبل وسيظل العلم الحديث يكشف عمّا فيها من كنوز وسترى المشاكل على العالم جيل بعد جيل، ويضطرب العالم في محاولة الحلول لها دون جدوى إلاّ إذا رجع إلى أحكام هذا الدين وهذه الشريعة المحكمة السمحة، حيث الدواء الشافي والعلاج الحاسم لكل ما يجيب العالم في حاضره وفي مستقبله [١].

وممّا يؤيد لزوم انفتاح باب الاجتهاد إلى يوم القيامة هو ما ذكره المقريزي في خططه حيث قال ما هذا ملخّصه:

انّه لم يكن كل واحد من أصحاب النبي ﷺ متمكناً من دوام الحضور عنده ﷺ لأخذ الأحكام عنه، بل كان في مدة حياته يحضره بعضهم دون بعض وفي وقت دون وقت، وكان يسمع جواب النبي ﷺ عن كل مسألة يسأل عنها بعض الأصحاب ويفوت عن الآخرين فلمّا تفرق الأصحاب بعد وفاته ﷺ في البلدان تفرقت الأحكام المروية عنه ﷺ فيها، فيروى في كل بلدة منها جملة، ويروى عنه في غير تلك البلدة جملة أُخرى حيث أنّه قد حضر المدني من الأحكام ما لم يحضره المصري، وحضر المصري ما لم يحضره الشامي، وحضر الشامي ما لم يحضره البصري، وحضر البصري ما لم يحضره الكوفي إلى غير ذلك، وكان كل منهم يجتهد فيما لم يحضره من الأحكام.

ولعدم تساوي هؤلاء المجتهدين في العلوم والإدراكات وسائر القوى والملكات تختلف طبعاً الآراء والاجتهادات، فمجرد تفاوت أشخاص الصحابة تسبب اختلاف فتواهم ثم تزايد ذلك الاختلاف بعد عصر الصحابة.

ثم قال: ثم بعد الصحابة تبع التابعون فتاوى الصحابة فكانوا لا يتعدون عنها غالباً، ولما مضى عصر الصحابة والتابعين صار الأمر إلى فقهاء الأمصار أبي حنيفة والسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة، وابن جريج بمكة، ومالك وابن الماجشون بالمدينة، وعثمان التيمي (الظاهر عثمان بن مسلم البطي) وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر فكان هؤلاء الفقهاء يأخذون من التابعين وتابعيهم أو يجتهدون.

---

(١) مجلة رسالة الإسلام لجماعة دار التقريب العدد الأوّل من السنة الخامسة.

وذكر المقريزي في الجزء الرابع من الخطط ما هذا ملخّصه:

انّه تولّى القاضي أبو يوسف القضاء من قبل هارون الرشيد بعد سنة ١٧٠ إلى أن صار قاضي القضاة فكان لا يولّي القضاء إلاّ من أراده، ولمّا كان هو من أخص تلاميذ أبي حنيفة فكان لم ينصب للقضاء ببلاد خراسان والشام والعراق وغيرها إلاّ من كان مقلّداً لأبي حنيفة، فهو الذي تسبب في نشر مذهب الحنفية في البلاد.

وفي آوان انتشار مذهب الحنفية في المشرق نشر مذهب مالك في افريقية المغرب، بسبب زياد بن عبد الرحمان، فإنّه أوّل من حمل مذهب مالك إليها، وأوّل من حمل مذهب مالك إلى مصر سنة ١٦٠ هو عبد الرحمان بن القاسم.

قال: ونشر مذهب محمد بن ادريس الشافعي في مصر بعد قدومه إليها سنة ١٩٨ وكان المذهب في مصر لمالك والشافعي إلى أن أتى القائد «جوهر» بجيوش مولاه «المعز لدين الله أبي تميم معد» الخليفة الفاطمي، إلى مصر سنة ٣٥٨ فشاع بها مذهب الشيعة حتى لم يبق بها مذهب سواه (أي سوى مذهب الشيعة).

ثمّ إنّ المقريزي بين بدء انحصار المذاهب في أربعة فقال:

فاستمرت ولاية القضاة الأربعة من سنة ٦٦٥ حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام غير هذه الأربعة وعودي من تمذهب بغيرها، وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب وأفتى فقهاؤهم في هذه الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها، والعمل على هذا إلى اليوم [1].

وهذه الكلمة الأخيرة «وتحريم ما عداها» تكشف عن أعظم المصائب على الإسلام حيث أنّه قد مضى الإسلام ما يقرب من سبعة قرون ومات فيها على دين الإسلام ما لا يحصى عددهم إلاّ ربّهم ولم يسمع أحد من أهل القرنين الأوّلين اسم المذاهب أبداً ثم فيما بعد القرنين كان المسلمون بالنسبة إلى الأحكام الفرعية في غاية من

---

(١) راجع الخطط المقريزية ج٢ ص ٣٣٣و٣٣٤و ٣٤٤.

السعة والحريـة، كان يقلـد عاميهم من اعتمـد عليه مـن المجتهدين وكـان المجتهدون يستنبطون الأحكام عن الكتـاب والسنّة على موازينهم المقررة عندهـم في العمل بالسنّة النبوية، فأي شيء أوجـب في هذا التاريخ على عامة المسلمين: «العـامي المقلد والفقيه المجتهد» أن لا يخرج أحد في الأحكام الشرعية عن حد تقليد الأئمّة الأربعة، وبأي دليل شرعي صار اتباع أحـد المذاهب الأربعة واجباً مخيراً، والرجوع إلى ماورائهـا حراماً معيّناً مع علمنا بأحوال جميع المذاهب من بدئها وكيفية نشرها وتأثير العوامل في تقدم بعضها على غيرها، بالقهر والغلبـة من الدولة والحكومة كما أفصح عن بعـض ذلك ما ذكره ابن الفـوطي في الحوادث الجامعة، ص ٢١٦ في وقـائع سنـة ٦٤٥ يعني قبل انقـراض بني العباس بـاحدى عشرة سنة في أيـام المستعصم الذي قتله هـولاكو، سنة ٦٥٦ فـلاحظ ذلك الكتاب[1].

وفي الختام نلفت نظر القارئ الكريم لمعـرفة قضية الاجتهاد وتطوره وعلل إيصاد بابه لدى بعض المسلمين إلى المصادر التالية:

١ـ المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار: تأليـف الشيخ تقي الدين أبو العباس المعروف بالمقريزي المولود في بعلبك عام ٧٦٦ والمتوفّـى بالقاهرة عام ٨٤٥.

٢ـ تاريخ اليعقوبي المعروف بابن واضح وقد طبع عام ١٣٥٨.

٣ـ الحوادث الجامعة في المائة السـابعـة لكمال الـدين عبـد الـرزاق بن المروزي الفوطي البغدادي المتوفّـي سنة ٧٢٣.

٤ـ الانصاف في بيان سبب الاختلاف.

٥ـ عقد الجيـد في أحكام الاجتهاد والتقليد: ألّفهما ولي الله الدهلـوي المولود سنة ١١١٤ والمتوفّـى ١١٨٠.

٦ـ الاقليد لأدلّة الاجتهاد والتقليد.

---

(١) راجع تاريخ حصر الاجتهاد لشيخنا العلامة الطهراني ص ١٠٤.

٧ـ الطريقة المثلى في الاشارة إلى ترك التقليد: ألّفهما صديق حسن خان القنوجي البخاري المتوفّى سنة ١٣٠٧، وطبعا بالاستانة عام ١٢٩٥.

٨ـ حصول المأمول من علم الأُصول: له أيضاً طبع في الجوائب سنة ١٢٩٦.

٩ـ مقالة صاحب السعادة أحمد تيمور باشا ابن إسماعيل بن محمد المولود في القاهرة سنة ١٢٨٨ وهي تحت عنوان نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، طبعت مستقلة في القاهرة سنة ١٣٤٤.

١٠ـ ما كتبه محمد فريد وجدي في دائرة معارفه في مادتي «جهد وذهب» وما كتبه يعد أبسط ما كتب في الموضوع.

١١ـ أعلام الموقعين عن ربّ العالمين: للحافظ ابن القيم.

١٢ـ تاريخ حصر الاجتهاد: لشيخنا العلاّمة الطهراني المتوفّى يوم الجمعة ١٣ ذي الحجة عام ١٣٨٩.

إلى غير ذلك من المؤلفات ، وقد أشار إلى ما لم نذكره ،صديق حسن خان في كتابه حصول المأمول في علم الأُصول ص ١٩٨.

الحقيقة بنت البحث:

كلمة موجزة ومثل سائر، يهدف إلى أوضح الحقائق وأنصعها ويفيد أنّ الوقوف على الحقيقة و إماطة الستر عن وجهها وليد النقاش العلمي ووليد المحادثة وهذا مما لا يرتاب فيه أحد ويدركه كل من له حظ من الفكر والنظر.

وفي الحقيقة إنّ التقاء أفكار ذوي الآراء كالتقاء الأسلاك الكهربائية، فكما أنّ الأشعة الكهربائية، تتفجر من اتصالها سلباً و إيجاباً، فكذلك نور الحقيقة يشع أمامنا بتبادل الفكرتين وتعارضهما بالنفي والإيجاب.

إذ طالما يتخيل للانسان أنّه صائب في فكره ونظره، فإذا عرضه للبحث والنقاش

وتوارد عليه النفي والاثبات ربّما ظهر وهنه وضعفه.

نعم يجب على الباحث عن الحقيقة أن يعرض آراءه وأفكاره للجو الهادئ المتحرر عن التعصب لفئة غابرة، أو فكرة حاضرة، الشاخص أمام كل رأي فارغ عن الدليل والبرهنة، فالاجتهاد بهذا النحو رمز كشف الحقيقة، رمز خلود الإسلام وبقائه، رمز كونه غضاً طرياً في كل عصر وجيل.

نعم ربّما يجد الناشئ الجديد في نفسه حرجاً عند وقوفه على اختلاف أصحاب الآراء والمذاهب في أُصول الإسلام وفروعه، ويتخيله حاجزاً يعرقل خطاه عن الوصول إلى الواقع، ويتمنّى رفع الخلاف الفكري في المسائل من رأس بتأسيس مؤتمرات علمية من ذوي الأفكار.

بل ربّما نسمع من بعض الشباب سؤالاً يوجهه إلى الهيئات العلمية الإسلامية ويقول كان في وسع النبي ﷺ أن يجمع أُصول الإسلام وفروعه وكل ما يرجع إليه في كتاب، ويتركه بين الأُمّة حتى يسد بذلك باب التقوّل من بعده على المتقوّلين، فلماذا لم يفعل ذلك؟!

لكنّه رأي غير ناضج، إذ لو جمعها النبي في كتاب وسلمه إلى الأُمّة، لاستولى الركود الفكري والتدهور العقلي على عقلية الأُمّة، وانحسر كثير من المفاهيم والقيم الإسلامية عن ذهنيتها، وأوجب ضياع العلم وتطرق التحريف إلى أُصوله وفروعه حتى إلى الكتاب الذي كتب فيه كل صغير وكبير.

فلم تقم للإسلام دعامة، ولا حفظ كيانه ونظامه، إلاّ على ضوء هذه البحوث العلمية والنقاشات الدارجة بين العلماء، ورد صاحب فكر على ذي فكر آخر بلا محاباة.

وقد حكى شيخنا العلاّمة المتضلّع شيخ الشريعة الاصفهاني [١] في مقدمة

---

(١) فقيه متضلّع، أُصولي بارع، خبير باسرار الحديث والتفسير فهو ممن يضن بهم الدهر إلاّ في فترات يسيرة، كان رحمه الله آية في الذكاء والحفظ، أثنى عليه كل من أدركه وقرأ عليه، توفّي عام ١٣٣٩ هجرية قمرية في النجف الأشرف ودفن في الصحن الحيدري.

كتابه[1] عن بعض الأعلام كلاماً يعرب عمّا قلناه، قال: إنّ عدم محاباة العلماء بعضهم لبعض من أعظم مزايا هذه الأُمّة التي أعظم الله بها عليهم النعمة، حيث حفظهم عن وصمة محاباة أهل الكتابين، المؤدية إلى تحريف ما فيها، وإندارس تينك الملتين، فلم يتركوا لقائل قولاً فيه أدنى دخول إلاّ بيّنوه، ولفاعل فيه تحريف، إلاّ قوّموه، حتى اتضحت الآراء وانعدمت الأهواء ودامت الشريعة البيضاء على ملئ الآفاق بأضوائها وشفاء القلوب بها من أدوائها، مأمونة عن التحريف، ومصونة عن التصحيف.

شبهة حول الاجتهاد الدارج في عصرنا:

ربّما يختلج في اذهان بعض القصر من الناس عدم مشروعية الاجتهاد الدارج في أعصارنا هذه مستدلاً بأنّ الفقه في هذه الأعصار أخذ لنفسه صورة فنية، وجاء على طراز سائر العلوم العقلية الفكرية بعدما كان في أعصار المتقدمين من العلوم البسيطة المبنية على سماع الأحكام من النبي والأئمّة وبثّها بين الناس من دون أن يجتهد الراوي في تشخيص حكم الله ويرجّح دليلاً على الآخر، أو يقيده أو يخصّص واحداً بالآخر، إلى غير ذلك من الأُصول الدارجة في زماننا.

الجواب عن الشبهة:

إنّ ذلك أشبه شيء بالشبهة ويمكن الجواب عنه بوجهين:

الأوّل: أنّ الاجتهاد بالمعنى الوسيع وأعمال النظر في الروايات، والتدقيق في دلالتها، وترجيح بعضها على بعض، كان موجوداً في أعصارهم، دارجاً بين أصحابهم فإنّ الاجتهاد وإن توسع نطاقه في أعصارنا وبلغ مبلغاًعظيماً، إلاّ أنّ أصل الاجتهاد بالمعنى الجامع بين عامة مراتبه كان دارجاً في تلك الأعصار وأنّ الأئمّة أرجعوا شيعتهم إلى فقهاء أعصارهم، وكانت سيرة الناس الرجوع إليهم من دون تزلزل وتردد، أمّا ما يدل

---

(١) ابانة المختار، مقدمة الكتاب.

على وجود الاجتهاد بهذا المعنى في أعصارهم فعدة روايات هي:

١ـ ما رواه ابن ادريس في «مستطرقات السرائر» نقلاً عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: إنّما علينا أن نلقي إليكم الأُصول وعليكم أن تفرّعوا [١].

٢ـ ما روى عن كتاب أحمد بن محمد بن أبي نصر عن الرضا ـ عليه السلام ـ: «قال علينا القاء الأُصول وعليكم التفريع» [٢] فإنّ التفريع الذي هو استخراج الفروع عن الأُصول الكلية الملقاة، وتطبيقها على مواردها وصغرياتها، إنّما هو شأن المجتهد وما هو إلاّ الاجتهاد، نعم التفريع والاجتهاد يتفاوت صعوبة كما يتفاوت نطاقه حسب مرور الزمان، فإذا قال ـ عليه السلام ـ: لا تنقض اليقين بالشك، أو روي عن النبي ﷺ: لا ضرر ولا ضرار، كان على المخاطبين وعلى علماء الأعصار المستقبلة استفراغ الوسع في تشخيص صغرياتها وما يصلح أن يكون مصداقاً له أو لا يصلح، فهذا هو ما نسميه الاجتهاد.

٣ـ ما رواه الصدوق في معاني الأخبار عن داود بن فرقد، قال: سمعت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ يقول: أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا إنّ الحكمة لتصرف على وجوه ولو شاء انسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب [٣].

فإنّ عرفان معاني الكلام ليس إلاّ تشخيص ما هو الأظهر بين المحتملات، بالفحص عن القرائن الحافّة بالكلام وبعرض أخبارهم على الكتاب والسنّة إلى غير ذلك ممّا يتضح به المراد، ويتعيّن ما هو المفاد، وليس هذا إلاّ الاجتهاد.

٤ـ ما رواه الصدوق في عيونه بإسناده عن الرضا ـ عليه السلام ـ قال: من رد متشابه القرآن إلى محكمه فقد هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال: إنّ في أخبارنا محكماً كمحكم القرآن ومتشابهاً كمتشابه القرآن فردّوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا [٤] فإنّ رد المتشابه إلى محكمه يجعل أحدهما قرينة على الآخر، لا يتحقق

(١و٢) وسائل الشيعة ج١٨: ص٤١ ــ ٤٢، كتاب القضاء الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٥١و٥٢.

(٣و٤) الوسائل ج ١٨ كتاب القضاء الباب التاسع من أبواب صفات القاضي الحديث ٢٧و٢٢.

بدون الاجتهاد.

٥ـ الروايات الواردة في تعليم أصحابهم كيفية استفادة الأحكام والفروع عن الذكر الحكيم، مثل قول الإمام الباقر ـعليه السلامـ بعد ما سأله زرارة بقوله: ألاّ تخبرني من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك وقال: يا زرارة قاله رسول الله ﷺ ونزل به الكتاب عن الله عزّ وجلّ قال: ﴿فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يغسل، ثم قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه فعرفنا أنّه ينبغي لهما أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال: ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ فعرفنا حين قال: ﴿برءوسكم﴾ أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنّ المسح على بعضهما ثم فسّر ذلك رسول الله ﷺ فضيّعوه [1].

٦ـ ما في رواية عبد الأعلى مولى آل سام بعد ما سأل الإمام عن حكم المسح على المرارة. قال: هذا واشباهه يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ قال الله تعالى: ﴿وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج ـ ٧٨) امسح على المرارة، فقد أوضح على السائل كيفية الاستنباط، ورد الفروع على أُصولها [2] ونظير ما تقدم بل أقوى منه ما في مرسلة [3] يونس الطويلة الواردة في أحكام الحائض والمستحاضة، فإنّ فيها موارد ترشدنا إلى طريق الاجتهاد إلى غير ذلك من الروايات المرشدة إلى دلالة الكتاب وكيفية الاستدلال، وهي منبثّة في طيات أبواب الفقه فراجع:

٧ـ قول الباقر ـعليه السلامـ لزرارة ومحمد بن مسلم حيث سألا أبا جعفر الباقر ـعليه السلامـ وقالا له: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي وكم هي؟ فقال: إنّ الله عزّ

---

(١) الوسائل ج ١ أبواب الوضوء الباب ٢٣ الحديث ١.

(٢) الوسائل ج١ أبواب الوضوء الباب ٣٩ الحديث ٥.

(٣) وسائل الشيعة ج٢ أبواب الحائض الباب ٣ الحديث ٤.

وجلّ يقول: ﴿وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلٰوةِ﴾ (النساء ـ ١٠١).

فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر، قالا قلنا: إنّما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فليس عليكم جناح﴾ ولم يقل: «افعلوا» فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال ـ عليه السلام ـ: أوليس قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة ـ ١٥٨).

ألاّ ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصنعه نبيه وكذلك التقصير شيء صنعه النبي وذكره الله في كتابه [١].

٨ـ مقبولة عمر بن حنظلة ورواه المشايخ العظام في جوامعهم وتلقاها الأصحاب بالقبول، بل عليها المدار في كتاب القضاء وهي تصرح بوجود الاجتهاد با لمعنى الدارج في زماننا في عصر الصادق ـ عليه السلام ـ ودونك متنها: سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة، أيحل ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنّما تحاكم إلى الطاغوت وما يحكم له فإنّما يأخذه سحتاً وإن كان حقّه ثابتاً لأنّه أخذ بحكم الطاغوت ـ إلى أن قال: ـ قلت: كيف يصنعان؟ قال: ينظران إلى من كان منكم ممّن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإنّي جعلته عليكم حاكماً ومن ردّه فإنّما بحكم الله استخف، وعلينا قد رد والراد علينا كالراد على الله وهو على حد الشرك بالله، قلت: فإن كان كل واحد اختار رجلاً من أصحابنا فرضيا أن يكونا الناظرين في حقهما فاختلفا فيما حكما وكلاهما اختلفا في حديثكم؟ قال: الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر.

قال: قلت: فإنّهما عدلان مرضيان عند أصحابنا لا يفضل واحد منهما على صاحبه؟ قال: فقال: ينظر إلى ما كان من روايتهما عنّا في ذلك الذي حكما به، المجمع

---

(١) الوسائل ج ٥: ص٥٣٨، الباب ٢٢ من أبواب صلاة المسافر، الحديث٢.

عليه عند أصحابك فيؤخذ به من حكمنا ويترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه، إلى آخر ما أفاده وفيه إرشاد إلى كيفية استنباط الحكم عن الكتاب والسنّة، وعلاج الخبرين المتعارضين بعرضهما عليهما [١].

٩ـ روى العباس بن هلال عن أبي الحسن الرضا ـ عليه السّلام ـ قال: ذكر أنّ ابن أبي ليلى وابن شبرمة دخلا المسجد الحرام فأتيا محمد بن علي ـ عليه السّلام ـ فقال لهما: بما تقضيان؟ فقالا: بكتاب الله والسنّة، قال: فما لم تجداه في الكتاب والسنّة؟ قالا: نجتهد رأينا، قال ـ عليه السّلام ـ: رأيكما أنتما؟

فما تقولان في امرأة وجاريتها كانتا ترضعان صبيين في بيت وسقط عليهما فماتتا وسلم الصبيان؟ قالا: القافة، قال: القافة يتجهم منه لهما، قالا: فاخبرنا؟ قال: لا !!

قال ابن داود: مولى له جعلت فداك بلغني أنّ أمير المؤمنين علياً ـ عليه السّلام ـ قال: ما من قوم فوّضوا أمرهم إلى الله وألقوا سهاهم إلاّ خرج السهم الأصوب فسكت [٢].

١٠ـ روى الصيقل عن أبي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قلت: رجل طلّق امرأته طلاقاً لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فتزوّجها رجل متعة أتحل للأوّل؟ قال ـ عليه السّلام ـ: لا، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا...﴾ (البقرة ـ ٢٣٠) والمتعة ليس فيها طلاق [٣].

١١ـ روى الحسن بن الجهم قال: قال لي أبو الحسن الرضا ـ عليه السّلام ـ: يا أبا محمد ما تقول في رجل يتزوّج نصرانية على مسلمة؟ قلت: جعلت فداك، وما قولي بين يديك؟ قال: لتقولنّ فإنّ ذلك تعلم به قولي، قلت: لا يجوز تزويج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة، قال: ولِمَ؟ قلت: لقول الله: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة ـ ٢٢١) قال : فما تقول هذه الآية:

---

(١) الوسائل كتاب القضاء ج ١٨ الباب التاسع من أبواب صفات القاضي الحديث ١.

(٢) التهذيب ج ٩ باب ميراث الغرقى والمهدوم عليهم ص ٣٥٩.

(٣) الوافي ج٣ أبواب النكاح باب تحليل المطلّقة لزوجها ص ٤٧.

﴿وَ المُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَ المُحْصَنَاتُ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؟ (المائدة ـ ٥) قلت فقوله: ﴿ولاتنكحوا المشركات﴾ نسخت هذه الآية فتبسّم ـ عليه السلام ـ ثم سكت [١].

١٢ـ بل يظهر من كثير من الروايات وجود الاجتهاد بين أصحاب الأئمّة ونورد من تلكم الروايات حديثاً واحداً.

روى حسن بن محمد بن سماعة قال: سمعت جعفر بن سماعة وسئل عن امرأة طلقت على غير السنّة: ألي أن أتزوّجها؟ فقال: نعم، فقلت: أليس تعلم أنّ علي بن أبي حمزة، روى: «إيّاكم والمطلّقات ثلاثاً على غير السنّة فإنّهنّ ذوات الأزواج»؟ فقال: يا بني رواية علي بن أبي حمزة أوسع على الناس، قلت: وأي شيء روى علي بن أبي حمزة؟ قال: روى عن أبي الحسن أنّه قال: الزموهم من ذلك ما ألزموا به أنفسهم، وتزوّجوهنّ فأنّه لا بأس بذلك [٢].

فقد اجتهد جعفر بن سماعة حيث قدم الخبر الثاني على الأوّل باحدى ملاكات التقديم.

وقد ألّف في هذا المضمار العلاّمة الحجة السيد عبد الرسول الشيرازي رسالة ممتعة وطبع قسم منها في بعض المجلاّت نسأل الله أن يوفّقه لنشر الجميع.

الخامس: حقوق الحاكم الإسلامي:

من الأسباب الباعثة على بقاء الدين وكونه ذا مادة حيوية صالحة لحل المشاكل والمعضلات الطارئة، كون الحاكم الإسلامي بعد النبي ممثلاً لقيادته الحكيمة في أُمور الدين والدنيا، التي من شأنها أن توجّه المجتمع البشري إلى أرقى المستويات الحضارية الصحيحة، فقد منح مثل هذا الحاكم بنص الشريعة الإسلامية كافة الصلاحيات

---

(١) الوافي ج٣ ص ٢٦ باب نكاح الذمية المشركة.

(٢) الوافي ج٢ كتاب الطلاق ص ١٦١ باب أنّ المخالف يقع طلاقه.

المؤدية إلى حق التصرف المطلق في كل ما يراه ذا مصلحة للأُمّة، لأنّه يتمتع بمثل ما يتمتع به النبي والإمام من النفوذ المطلق، إلاّ ما يعد من خصائصهما.

وإلى ذلك يشير شيخ الأُمّة الميرزا النائيني في أثره الخالد «تنبيه الأُمّة وتنزيه الملة» ويقول: «فوّض إلى الحاكم الإسلامي وضع ما يراه لازماً من المقررات لمصلحة الجماعة وسد احتياجاتها، في اطار القوانين الإسلامية» [1].

مثلاً إذا رأى الحاكم، أنّ المصلحة تقتضي فتح طريق أو شارع، فقد فوض إليه ذلك الأمر، فله أن يقرر وينفذ ما يحقق هذه الغاية، في ضوء العدل والانصاف كاجبار أصحاب الأراضي التي يمر بها الطريق على بيع أراضيهم ووضع ضريبة على صنف خاص من الشعب، أو كلّه لتأمين هذه الغاية.

وله أن يقرر ما يراه مناسباً لتنظيم السير، متوخياً في ذلك سلامة النفوس وسهولة الذهاب والاياب، كل ذلك في إطار القوانين العامة الإسلامية.

وهذه الحقوق كانت ثابتة في الدرجة الأُولى، للنبي الأعظم، لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب ـ ٦) وبعده لخلفائه المعصومين، أئمّة الدين، وفوضت من بعدهم، إلى علماء الأُمّة وفقهائهم الذين أُلقيت على كواهلهم أُمور تدبير حياة الأُمّة، وصيانة الشريعة، بالأدلّة القطعية المقررة في محلها.

إنّ الحاكم الإسلامي إذا نجح في تأسيس حكومة إسلامية في قطر من أقطار الإسلام أو في مناطقه كلّها وتوفرت فيه الشرائط والصلاحيات اللازمة وأخص بالذكر العلم الوسيع والعدل، يجب على المسلمين اطاعته، وله من الحقوق والمناصب والولاية، ما للنبي الأكرم من اعداد القوات العسكرية ودعمها بالتجنيد وتعيين الولاة وأخذ

---

(١) تنبيه الأُمّة وتنزيه الملة ص ٩٧ ولا ينافي ما ذكره شيخ الأُمّة المحقق النائيني مع ما حققناه في الجزء الأول من كون التقنين والتشريع مختصاً بالله سبحانه، فإنّ ما يضعه الحاكم الإسلامي، أو مجلس الشورى إنّما هو من قبيل التخطيط، وتطبيق الكليات على مواردها لا من قبيل التشريع والتأسيس.

الضرائب وصرفها في محالها إلى غير ذلك...

وليس معنى ذلك أنّ الفقهاء والحكّام الإسلاميين مثل النبي والأئمّة في جميع الشؤون والمقامات حتى في الفضائل النفسانية والدرجات المعنوية فإنّ ذلك رأي تافه لا يركن إليه، إذ إنّ البحث إنّما هو في الوظائف المخوّلة إلى الحاكم الإسلامي والموضوعة على عاتقه لا في المقامات المعنوية والفضائل النفسانية، فإنّهم صلوات الله عليهم في هذا المضمار في درجة لا يدرك شأوهم ولا يشق لهم غبار حسب روائع نصوصهم وكلماتهم.

وليست السلطة مفخرة للحاكم يعلو بها على سائر المحكومين بل هي من وجهة النظر الإسلامية مسؤولية اجتماعية كبرى أمام الله سبحانه أوّلاً، وأمام المسلمين ثانياً، والجهة الجامعة ما بين الحاكم والإمام في إدارة دفة الحكم وسياسة العباد ليس لها أي ارتباط بالمثل الخلقية والصفات النفسانية [1].

وهذه الوجوه التي مرت عليك بالاجمال أوجبت خلود الشريعة، وبقاءها وصلاحها لإدارة المجتمع في الأعصار كلّها، مع اختلافها في الحضارة والتقدم.

الأمر الثاني مرونة أحكامه:

من الأسباب الدافعة إلى صلوح الإسلام للبقاء والخلود، مرونة أحكامه التي تمكّنه من أن يماشي جميع الأزمنة والحضارات، وقد تمثّلت هذه المرونة بأُمور:

١ـ الإسلام دين جامع والأُمّة الإسلامية أُمة وسط:

إنّ من الأسباب التي أوجبت خلود الدين الإسلامي، وأعطته الصلاحية للبقاء مع اختلاف الظروف وتعاقب الأجيال، كونه ديناً جامعاً بين الدعوة إلى المادة والدعوة

---

(١) ولاية الفقيه للأُستاذ الأكبر الإمام الخميني ـ قدّس الله سرّه ـ ص ٦٣ـ ٦٦ وقد أشبعنا الكلام حول حقوق الحاكم الإسلامي في الجزء السابق فلاحظ.

إلى الروح، ديناً وسطاً بين المادّية البحتة والروحية المحضة، فقد آلف بتعاليمه القيمة بينهما، موالفة تفي بحق كل منهما، بحيث يتيح للانسان أن يأخذ قسطه من كل منهما بقدر ما تقتضيه المصلحة.

وذلك أنّ المسيحية غالت في التوجه إلى الناحية الروحية، حتى كادت أن تجعل كل مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى، فدعت إلى الرهبانية والتعزّب وترك ملاذ الحياة والانعزال عن المجتمع، والعيش في الأديرة وقلل الجبال، وتحمل الظلم والرفق مع المعتدين، كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كل قيمة روحية، وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت، المقصد الأسنى، ودعت إلى القومية الغاشمة والطائفية الممقوتة.

وهذه المبادئ سواء أصحت عن الكليم والمسيح ـ عليهما السّلام ـ أم لم تصح (ولن تصح إلاّ أن يكون لاصلاح انغمار الشعب الاسرائيلي في ملاذ الحياة يوم ذاك وانجائهم عن التوغل في الماديات وسحبهم إلى المعنويات بشدة وعنف) وإن شئت قلت: «كانت تعاليمه اصلاحاً مؤقتاً لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم والغلو يقاوم موقتاً بضده» (١). لا تتماشى مع الحضارات الانسانية التقدمية ولا تسعدها في معترك الحياة، ولا تتلائم مع حكم العقل ولا الفطرة السليمة.

لكن الإسلام جاء لينظر إلى واقع الانسان، بما هو كائن، لا غنى له عن المادة، ولا عن الحياة الروحية، فأولاهما عنايته، فدعا إلى المادة والالتذاذ بها بشكل لا يؤثر معه على الحياة الروحية ، كما دعا إلى الحياة الروحية بشكل لا يصادم فطرته وطبيعته.

وحصيلة البحث: أنّه لم يعطل الفطرة في تشريعه وتقنينه، بل جعلها مقياساً لحكمه بالوجوب والتحريم، فإذا كان الحكم مطابقاً لطبع من شرعت له الأحكام حافظاً لكيانه، لا يتعارض مع ما يحتاج إليه جسمه وروحه، كان ماضياً ونافذاً حسب بقاء الفطرة ودوامها.

---

(١) الوحي المحمدي ص ١٥٣.

وأمّا تفصيل الآيات التي تمثل رأي الإسلام في الدعوة إلى الدين والدنيا، إلى الروح والجسم، إلى المادة والمعنى، فليرجع فيه إلى الكتب المعدة لبيان ذلك.

ونختم البحث بكلمة عن أمير المؤمنين -عليه السلام- حيث قال: للمؤمن ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يرم فيها معاشه، وساعة يخلي بينه وبين نفسه ولذاتها(١).

فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس، بحيث جعل الجميع في مستوى واحد، فندب إلى عبادة الله، كما ندب إلى طلب المعاش، وتوخي اللذة بحكم واحد بلا مفاضلة.

فلو كان أداء الصلاة والصوم والقيام بالحج وظيفة دينية، فشق الطريق لطلب الرزق والمعاش، والقيام بالنزهة بين الرياض أو سباحة في البحر والعمل الرياضي البدني، وظيفة دينية للمؤمن، كما نص الإمام -عليه السلام-.

وهذا من الأُسس التي تنسجم مع الإسلام وتحول بينه وبين التصادم مع الحضارات المتواصلة، إلى عصرنا هذا، فإذا كان المنهج، منهجاً متوسّطاً بين المادية والروحية، مطابقاً لفطرة الانسان انقادت له مقاليد الحضارات الانسانية الصاعدة وارتفع التصادم.

٢ـ النظر إلى المعاني، لا المظاهر:

إنّ الإسلام ينظر إلى المعاني والحقائق، لا المظاهر والقشور، ولذلك لا تجد في الإسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة، له من القداسة ما يمنع تغييره، ويوجب حفظه إلى الأبد بشكله الخاص، ولأجل ذلك لا يقع التصادم بين تعاليمه مع التقدم العلمي الهائل في مظاهره، وأشكاله الخارجية.

توضيحه: أنّه لا شك أنّه كان في زمن النبي ﷺ هندسة خاصة للمساكن

(١) نهج البلاغة باب الحكم، رقم ٣٩٠.

والبيوت، وشكل خاص في المأكل والملبس، ونمط خاص لبث العلم والتربية... غير أنّ الذي كان يهم الإسلام ـ في جميع الأزمنة ـ لم يكن تخطيط الحياة البشرية على تلك الأشكال والأنماط بل كان الحقيقة والجوهر من كل ذلك، فإنّ الذي يبتغيه الدين الإسلامي هو وجود المسكن وتوفر الملبس و إشاعة العلم والتربية، وكون الغذاء حلالاً طيباً طاهراً.

وأمّا الكيفية والشكل والصورة فلا يهم الدين ولا يحدد شيئاً في مجاله، فليكن البيت بأيّة هندسة كانت، ولتصنع الملابس بأي شكل كان، وليطبخ الناس طعامهم على النحو الذي يريدون، وليشاع العلم بأيّة وسيلة كانت فليس كل ذلك مهماً ومطروحاً للدين.

وهذا هو سر خاتمية الدين الإسلامي وهذا هو سر خلوده، وتمشّيه مع تطور الحياة، وتقدم الحضارات.

والذي يوقفك على ذلك أنّ بيع الدم وشراءه كان من المعاملات المحرّمة ومصداقاً لقوله سبحانه:

﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾ (البقرة ـ ١٨٨).

وذلك لعدم وجود منفعة محلّلة للدم ولذلك قال الشيخ الأعظم الأنصاري في مكاسبه (ص ٤١):

«تحرم المعاوضة على الدم بلا خلاف» بل عن النهاية وشرح القواعد لفخر الدين والتنقيح: «الاجماع عليه، وتدل عليه الأخبار».

بيد أنّ تقدم العلوم والحضارة أوجد للدم منفعة محلّلة كبيرة، فعليها تقوم «العملية الجراحية» ومداوة الجرحى عن طريق الحقن الدموية.

ولهذا عادت المعاملة بالدم ـ في هذا العصر ـ معاملة صحيحة، لا بأس بصحّتها وجوازها ... وليس هذا من قبيل منسوخية الحكم بل لتبدّل الحكم بتبدّل موضوعه كتبدل الخمر إلى الخل.

وقس على ذلك سائر الأُمور فللإسلام خاصية الاهتمام باللب والجوهر في عامة المجالات وهذا أحد العناصر التي تجعله يساير عامة الحضارات الإنسانية إلى قيام يوم الدين.

٣ـ الأحكام التي لها دور التحديد:

من الأسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وانطباقه على جميع الحضارات الانسانية تشريعه للقوانين الخاصة التي لها دور التحديد والرقابة بالنسبة إلى عامة تشريعاته وقد اصطلح عليها الفقهاء، بالأدلّة الحاكمة، لأجل حكومتها وتقدمها على كلّ حكم ثبت لموضوع بما هو هو. فهذه القوانين الحاكمة، تعطي لهذا الدين مرونة يماشي بها كل حضارة انسانية، مثلاً: قوله سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج ـ ٧٨) حاكم على كل تشريع استلزم العمل به حرجاً، لا يتحمل عادة، للمكلف، فهو مرفوع، في الظروف الحرجية، ومثلاً قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» فكل حكم استتبع العمل به ضرراً شديداً، فهو مرفوع في تلك الشرائط، وقس عليهما غيرهما من القوانين الحاكمة.

نعم تشخيص الحاكم عن المحكوم، وما يرجع إلى العمل بالحاكم من الشرائط، يحتاج إلى الدقة والامعان والتفقّه والاجتهاد، ومن رأينا أنّ الموضوع يحتاج إلى التبسط أكثر من هذا، فالى مجال آخر أيها القارئ الكريم.

خاتمة المطاف:

إنّ بعض الكتّاب من الجدد طرح سؤالاً في المقام وجاء بجواب مبهم أوجد قلقاً واستياء في الأوساط العلمية ونحن ننقله بتعريب منّا:

السؤال: إنّكم تذهبون إلى ضرورة التكامل حتى في وجود الشخص النبي وأثبتم أنّ كل موجود يحتاج إلى السير التكاملي، إذن لماذا كان النبي محمد يقول: أنا خاتم

النبيين؟

الجواب: لقد أجاب على قسم من هذا الفيلسوف الإسلامي الكبير «محمد اقبال» وأضيف أنا الجواب على بقيته، وهو ما أذهب إليه وأنا مسؤول عنه، فأقول: عندما يقول النبي: «أنا خاتم الأنبياء» لا يريد أن يقول: «إنّ التشريعات التي أتيت بها تكفي البشرية إلى الأبد» بل الخاتمية تريد أن تقول: كان الانسان يحتاج حتى الآن ـ لاستمرار حياته إلى الهداية بها وراء ما يستمده من عقله وما توحيه تربيته البشرية ، والآن في هذا العصر (القرن السابع الميلادي) وبعد أن أوجدت المدنية اليونانية وحضارة روما والتمدّن الإسلامي، وبعد أن أُنزل القرآن والإنجيل والتوراة، بلغت التربية المذهبية إلى الحد الذي كان لابد منه. وبعد هذا العصر ـ وعلى ضوء هذا القسم من التربية ـ بإمكان الانسان أن يحيى ويتكامل من دون حاجة إلى وحي ونبوّة جديدة وعلى هذا ختمت النبوّة فشقّوا الطريق بأنفسكم.

ولم يظهر لنا ماذا قصد من هذا الجواب و إليك بعض احتمالاته:

١ـ أن يقصد من قوله: «لا يريد أن يقول انّ التشريعات التي أتيت بها تكفي البشرية إلى الأبد» ما أوضحناه عند البحث عن السؤال الخامس، من أنّه يجب على علماء الأُمّة وفقهائهم عندما يحدث شيء من المشكلات والأزمات في جميع مجالات الحياة من الحوادث التي لم تكن معهودة في عصر صاحب الرسالة، استفراغ الوسع في استنباط أحكامها على ضوء الكتاب والسنّة واطار سائر المصادر الشرعية، فلو أراد هذا فهو حق لا إشكال فيه غير أنّ تلك النظرية لا تختص به ولا بالفيلسوف الإسلامي «محمد اقبال» حتى يكون هو المسؤول فيما ذهب إليه واختار، بل كل مسلم يؤمن بأنّ الإسلام شريعة الله الخالدة الدائمة الكاملة الوافية بحل جميع أُمور الحياة ومشاكلها من أُصولها إلى فروعها.

٢ـ أن يكون المقصود منه الاعلام بختم النبوّة والرسالة دون ختم التشريع فهو مفتوح لم يوصد بعد، فعلى الأُمّة أن تشرّع من القوانين حسب ما تحتاج إليه عبر الزمان.

غير أنّ تلك فكـرة عليهـا مسحـة مسيحية محجـوجـة بما دلّت الضرورة والأدلّـة على أنّ التشريع من حقوق الله سبحانه على عباده لم يفوّضه لأحد من أفراد الأُمّة.

٣ـ أن يكـون المقصود أنّ هنا أحكامـاً ثابتة ومقـررات متغيّرة، حسب مقتضيات الزمـان ومصالح الـوقت، فلو أراد ذلك فقـد أوضحنا حـاله عند البحث عـن السؤال الرابع فلاحظ.

* * *

هذه هي الخاتمية، ودلائلها المشرقة، وشبهاتها الضئيلة، وأسئلتها الهامة، وأجوبتها الرصينة عرضناها للبحث والتنقيب، ولم يكن رائدنا إلاّ تبنّي الحقيقة وكشف الغطاء عن وجهها، متحررين من كل رأي سابق لا دليل عليه.

❁ الفصل الخامس ❁

النبي الأُمّي
في الذكر الحكيم

لم يختلف اثنـان من الأُمّة الإسلاميـة في أنّ النبي ﷺ كان أُمّيـاً لا يحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته لمصلحة صرّح الله بها في الكتـاب العزيز وسوف يوافيك بيانها. وصحائف حيـاته البيضاء أوضـح دليل على ذلك، وقد أجمع أهل السير والتـاريخ على أنّه ﷺ لم يدخل مدرسـة ولم يحضر على أحد للدراسة وتعلّم الكتابة، بل هـو منذ نعومة أظفاره، يوم كان في أحضان جده وعمّه إلى أن بلغ الأربعين، لم يحم حول هذه الأُمور وقد تواترت على ذلك كلمات العلماء الأبرار والفطاحل من أئمّة الإسلام، وقد اقتفوا في ذلك أثر كتاب الله العزيز ودونك نصوصه من مواضع مختلفة.

النص الأوّل قوله سبحانه:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت ـ ٤٨) سبحان الله ما أصرح كلامه وأوضح دلالته.

هل تجد من نفسك ريباً في أنّه بصدد نفي تلاوة أي كتاب عن نبيّه الأكرم قبل نزول الوحي عليه، وكتابة أي صحيفة عنه، أوليس من القواعد الدارجة بين أئمّة الأدب، أنّ النكرة في سياق النفي تفيد انتفاء الحكم عن كل أفرادها وتعطي شمول السلب كقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ (الحج ـ ١٨) وقد قال سبحانه: **﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب﴾** فأدخل النفي على النكرة وجعلها في سياقه، فإذن المراد من التلاوة المنفية تلاوة مطلق الكتاب كما أنّ المراد من الخط المنفى عنه تسطير أي كتاب وترسيم أي صحيفة تقع في ذهن السامع، فالضمير المتصل بالفعل (لاتخطه) عائد إلى (كتاب) وكأنّه جل شأنه قال وما كنت تخط كتاباً. وقد وافاك أنّ مثل هذا الكلام لوقوع النكرة في سياق النفي يفيد عموم النفي فالله سبحانه نفى عن نبيه، مطلق التلاوة والكتابة قبل بعثته.

ثم إنّه عزّ اسمه، علّل سلب هذا الأمر عن نبيّه بمصلحة أولى وألزم، وهي نفي ريب المبطلين وشك المشككين، إذ لو كان الرسول ﷺ في برهة من عمره تالياً للكتب، وممارساً للصحف، لساغ للبسطاء من أُمّته والمعاندين منهم أن يرتابوا في رسالته وقرآنه، ويلوكوا في أشداقهم بأنّ ما جاء به من الصحف والزبر والسور والآيات، إنّما تلقّاها من الصحف الدينية وقد صاغها وسبكها في قوالب فصيحة ، تهتز منها النفوس وترتاح إليها القلوب، فليست لما يدّعيه من نزول الوحي على قلبه، مسحة حق أو لمسة صدق.

وقد حكى سبحانه هذه الفرية الشائنة عن بعض المشركين فقال سبحانه: **﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً * وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** (الفرقان : ٤ ـ ٥) فالله سبحانه لقلع جذور الشك عن قلوب السذج من الأُمّة، والمبطلين منهم، صرفه عن تعلّم الكتابة حتى يصحّ لنبيّه أن يتلو على رؤوس الاشهاد قوله سبحانه: **﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** (يونس ـ ١٦).

يعني يا معشر العرب: أنتم تحيطون خبراً بتاريخ حياتي فإنّي تربيّت بين ظهرانيكم ولبثت فيكم عمراً يناهز الأربعين، فهل رأيتموني أتلو كتاباً أو اخط صحيفة، فكيف ترمونني بالافك الشائن: بأنّه أساطير الأوّلين اكتتبتها، ثم افتريتها على الله، وأعانني على ذلك قوم آخرون .

فلو لم يكن النبي أُمّياً لا يحسن القراءة والكتابة بل كان قارئاً وكاتباً وممارساً لهما على رؤوس الأشهاد، لما أمكن له أن يتحدى الأُمّة العربية وفي مقدمتهم صناديد قريش بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان ـ ٦). فلأجل تحقيق هذه المصلحة المهمة، نشأ النبي في أحضان قومه وشب وترعرع إلى أن ناهز الأربعين وهو أُمّي لا يحسن القراءة والكتابة، ولو كان وقتئذ قارئاً وكاتباً وهم أُمّيون لراجت شبهتهم في أنّ ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس وأثر نظر في الكتب.

وجاء المفسرون في المقام بكلمات درية وجمل موضحةللمراد فقال أمين الإسلام في تفسير الآية: «اللام» في قوله : ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ للقسم وفي الكلام حذف، تقديره: ولو خططته بيمينك أو تلوت قبله كتاباً إذاً والله لارتابوا، والمعنى لو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى إيجاد الشك في أمرك والقاء الريبة لضعفة الناس في نبوّتك ولقالوا: إنّما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الأوّلين فلما ساويتهم في المولد والمنشأ ثمّ أتيت بها عجزوا عنه وجب أن يعلموا أنّه من عند الله تعالى وليس من عندك، إذ لم تجر العادة أن ينشأ الانسان بين قوم يشاهدون أحواله من صغره إلى كبره، ويرونه في سفره وحضره، لا يتعلّم شيئاً من غيره، ثم يأتي من عنده بشيء يعجز الكل عنه وعن بعضه ويقرأ عليهم أقاصيص الأوّلين [١].

* * *

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٨٧.

نظريات شاذة للدكتور الهندي

ثم إنّ الدكتور عبد اللطيف الهندي المعاصر ـ في مقال خاص له حول أُمّية النبي الأعظم ـ رأياً شاذاً وقد ألقى مقاله هذا باللغة الانكليزية في المؤتمر الإسلامي المنعقد في حيدر آباد عام (١٩٦٤) فخرق الاجماع المسلّم بين طوائف المسلمين على أنّه ﷺ كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب، وخالف الرأي العام وقال إنّه ﷺ لم يكن أُمّياً لا يحسن القراءة والكتابة بل كان يقرأ ويكتب في حداثة سنّه إلى أُخريات أيّامه[1] ولما رأى أنّ تلك النظرية تخالف النص الصريح في القرآن الكريم جاء يتأوّل ظاهر الآية تأويلاً بارداً وقال ما هذا حاصله:

المراد من الكتاب في قوله: ﴿**وما كنت تتلوا من قبله من كتاب**﴾ إنّما هو الكتب السماوية نظائر التوراة والانجيل النازلة بغير اللغة العربية فلم يكن النبي عارفاً بتلكم اللغات ولا قادراً على تلاوتها وهو غير القول بأنّه ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً حتى باللغة العربية التي هي لسان قومه وبيته.

ولا أدري ماذا حمل الكاتب على هذا التأويل إذ لو كان المراد نفي معرفته بهذه الكتب المعينة، لما صح له أن يقول: ﴿**من كتاب**﴾ بل كان عليه أن يقول: ما كنت تتلو من قبله الكتاب أو الكتب مشيراً باللام إلى الكتاب أو الكتب المعهودة وقد أتى باللام فيما قصد نفي العرفان بالكتب السماوية عنه فقال تعالى: ﴿**وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَ لا الإِيمانُ وَلٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (الشورى ـ ٥٢).

وقال عزّ شأنه: ﴿**وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ**﴾ (العنكبوت ـ ٤٧).

---

(١) وقد تأثر في نظره عن رجال الكنيسة والتبشير، قال الحداد في كتابه ـ القرآن والكتاب ـ ص ٤١٠ محمد لم يكن أُمّياً بل تاجراً دولياً ومثقفاً ومطّلعاً وبحاثة دينياً ...

ترى أنّه سبحانه عندما رام أن يشير إلى هـذه الكتب المعهودة عرفها باللام إشارة إلى معهوديتها.

أضف إليه أنّ الهدف الأسمى لـلآية من نفي التلاوة والكتـابة عنه ﷺ هو قلع جذور الـريب والشك من قلوب المبطلين، ولا يتحصـل ذلك إلاّ بكونه أُمّيـاً غير قارئ ولاكاتب قط، ولا يحسن القـراءة والكتابة أصلاً. ولو صح ما يرتئيـه الدكتور لما نهضت الآية إلى رفع آثار الشـك وغبار الريب بل كان بـاب اكتساب الشك في أمره ﷺ والقاء الريب في قلـوب ضعفاء الناس بنبـوّته مفتوحـاً بمصراعيه. إذ كان للجـاحد المبطل أن يقول انّه ﷺ بمزاولته صحـف والكتب العربية، وقف على أحـوال الماضين وأقاصيص الأوّلين، فأودع نتـائج أفكـاره ومـا استحصـل عليه منهـا بعـد سبره لغـورهـا، في هـذه الصحائف وفي ضمنهـا من هـذه السور والآيات التـي افتراها على الله، وقـد رماه بهذه الفريـة الشائنـة رؤوس الكفر والعنـاد فيما حكاه عـزّ وجلّ: ﴿وَ قَالُـوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان ـ ٥).

وفي نفس الآيـة دليل بارز على أنّ الهدف منهـا هو نفي مطلـق التلاوة والكتـابة عنه ﷺ حيث عطف على الجملة الأولى: ﴿وما كنت تتلوا مـن قبله من كتاب﴾ قوله: ﴿ولا تخطّه بيمينك﴾ .

بيانه: لو كان المراد مـن الآية سلب القدرة عن النبي ﷺ في خصوص ما يتعلّق بتلاوة الكتب الدينية النازلة باللغة العبرانية أو غيرها من اللغات غير الدارجة في الجزيرة العربيـة، لكان له تعالى أن يقتصر عـل الجملة الأُولى، ولا يردفها بقـوله: ﴿ولا تخطّه﴾ لـوضوح الملازمـة بين السلبين. فإذا كـان الرجل لا يقـدر على قـراءة كتاب أُلّف بلغـة خاصـة، فهو لا يقدر على خطهـا وترسيمها بتـاتاً، فعلى ذلك لماذا جيئ بـا لمعطوف مع امكان الاستغناء عنه بما تقدم عليها.

ولكن لو كان الغـرض هو التنبيه على أُمّية النبي بأوضـح العبارات، والاجهار بها بأصح الأساليب، وأنّه ﷺ قبل بعثته لم يكن قارئاً ولا كاتباً بتاتاً، بل كان بعيد عن ذلك

كل البعد، لصح عطفها على ما تقدم عليها، لأنّ العرف إذا حاول توصيف الرجل بالأُمّية يقول في حقه: إنّه لا يعرف القراءة والكتابة، أو أنّه ليست بينه وبين التلاوة والكتابة أية صلة، ولا يقتصر على نفي الأُولى بل يردفها بنفي الأُخرى أيضاً، توضيحاً للمراد. والله سبحانه لمّا أراد التركيز على أُمّية النبي وأنّه طيلة عمره كان بعيداً عن مجالات العلم والدراسة، أتى بما هو الدارج في لسان العرب، إذا أرادوا توصيف الشخص بالأُمّية.

والشاهد على ما ذكرنا: أنّك لو ألقيت هذه الآية على أي عربي عريق في لغته ولسانه، يقضي بأنّ المقصد الأسنى منها نفي معرفته ﷺ بالتلاوة والكتابة على الاطلاق. نعم الآية خاصة بما قبل البعثة، لا تعم ما بعدها ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الأبحاث الآتية فانتظر.

وربما يقال [1]: إنّ الآية تنفي مطلق التلاوة والكتابة ولكنّه لا يدل على نفي احسانهما عنه: قلت: سيوافيك جوابه عند البحث عن وضع النبي ﷺ بعد البعثة.

النص الثاني من القرآن على كونه أُمّياً:

يدل على ذلك قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ .

﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧ـ١٥٨).

قد وصف سبحانه نبيّه في هذه الآية بخصال عشر وهي: أنّه رسول، نبي، أُمّي،

---

(١) نقله الشيخ الطوسي في تبيانه راجع ج٨ ص ٢١٦ ط بيروت.

مكتوب اسمه في التوراة والانجيل، ومنعوت فيهما بأنّه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يحل لهم الطيبات، يحرّم عليهم الخبائث، يضع عنهم الإصر، ويرفع عنهم الأغلال.

وهذه الصفات التي تضمّنتها الآية في حق النبي الأكرم واضحة حتى الوصف الذي هو موضوع البحث (الأُمّي) إذ الأمّي حسب تنصيص الكتاب المبين هو من لا يقدر على القراءة ولا يحسن الكتابة كما يقول سبحانه: ﴿**وَ مِنْهُم أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ**﴾ (البقرة ـ ٧٨).

قوله سبحانه: ﴿**لا يعلمون الكتاب**﴾ توضيح لقوله أُمّيون أي منهم أُمّة منقطعون عن كتابهم لا يعلمون منه إلاّ أوهاماً وظنوناً يتلوها عليهم علماؤهم، الذين يحرفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها، ويحسب هؤلاء السذّج أنّه الكتاب المنزل إليهم من ربّهم. ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ**﴾ (البقرة ـ ٧٩).

فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قراءته وتلاوته لما اغتروا بعمل المحرّفين، ولميّزوا الصحيح من الزائف غير أنّ أُمّيتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أُمنيتهم.

قال الرازي: إنّه تعالى وصف محمداً في هذه الآية بصفات تسع [1] إلى أن قال: الصفة الثالثة كونه أُمّياً، قال الزجّاج: معنى الأُمّي الذي هو على صفة أُمّة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب [2] فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون، والنبي كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أُمّياً [3].

---

(١) لا، بل عشر، كما عرفت.

(٢) إيعاز إلى ما رواه البخاري في صحيحه ج١ ص ٣٢٧ عن النبي ﷺ أنّه قال: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا أو هكذا، مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٠٩.

وقال البيضاوي: الأُمّي لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهاً على أنّ كمال علمه مع حاله هذا، إحدى معجزاته [١].

هذا وقد أصفقت على ما ذكرنا من المعنى للأُمّية معاجم اللغة المؤلّفة في العصور الزاهرة بأيدي الخبراء الأساطين وفي مقدّمهم: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفّى عام ٣٩٥ صاحب «مقاييس اللغة» [٢] وغيرها من الكتب الممتعة ودونك كلامه:

«أم» له أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب وهي الأصل، والمرجع والجماعة والدين، قال الخليل: كل شيء تضم إليه ما سواه مما يليه، فإنّ العرب تسمّي ذلك أُمّاً ومن ذلك أُم الرأس: وهو الدماغ، أُم التنائف: أشدها وأبعدها، أُم القرى: مكة وكل مدينة هي أُم ما حولها من القرى، وأُم القرآن: فاتحة الكتاب وأُم الكتاب ما في اللوح المحفوظ، وأُم الرمح: لواؤه وما لف عليه، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها: أُم مثوى، وأُم كلبة: الحمى، وأُم النجوم: السماء، وأُم النجوم: المجرّه ... إلى أن عد كثيراً من هذه التراكيب فقال: الأُمّي في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جبلة الناس لا يكتب، فهو في أنّه لا يكتب على ما ولد عليه [٣].

ومحصل كلامه أنّه ليس للأُم إلاّ مادة واحدة وهي الأصل لغيرها ومنه يتفرع غيرها فأُم الانسان أُم لأنّها أصله وعرقه وهكذا ...

وهذا الزمخشري إمام اللغة والبلاغة فسر قوله تعالى: **﴿ومنهم أُمّيّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنون﴾** بأنّهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٣ ص ٢٣٠ مع شرحه لاسماعيل القنوي.

(٢) بلغ ابن فارس الغاية في الحذق باللغة، وكنه أسرارها وفهم أُصولها، وقد حاول في تأليف هذا المعجم أن يوحّد المعاني المتعددة المفهومة من لفظ واحد وذلك بارجاعها إلى أصل واحد تفرّعت عنه تلك المعاني في الاستعمال ــ وقد إنفرد من بين اللغويين بهذا التأليف ولم يسبقه إلى مثله أحد، ولم يخلفه غيره.

(٣) المقاييس ج١ ص ٢١ ـ ٢٨ والكشاف ج١ ص ٢٢٤.

ويتحققوا ما فيها [١].

وقال أمين الإسلام في مجمع البيان: ذكروا للأُمّي معاني:

أوّلها: أنّه الذي لا يكتب ولا يقرأ.

ثانيها: أنّه منسوب للأُمّة والمعنى أنّه على جبلة الأُمّة قبل استفادة الكتاب.

ثالثها: أنّه منسوب إلى الأُم والمعنى أنّه على ما ولدته أُمّه قبل تعلم الكتابة.

قلت: هذه المعاني متقاربة تهدف إلى مفهوم واحد. وإنّما الاختلاف في انتسابه إلى الأُم أو الأُمّة وقد جمع ابن فارس في كلامه كلا الاحتمالين.

هذه نصوص بعض أئمّة اللغة وأساطين التفسير، إذا شئت فلاحظ كلمات الباقين منهم.

الآراء الشاذة في تفسير الأُمي:

ربّما يجد القارئ في طيات بعض التفاسير معاني أُخر للأُمّي لا تتفق مع ما أصفقت عليه أئمّة اللغة والتفسير فلا بأس بذكرها ودحضها:

١ ـ الأُمي منسوب إلى أُم القرى وهي علم من أعلام مكة كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿**وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا**﴾ (الشورى ـ ٧) وعلى ذلك فالمراد من الأُمي أنّه مكي.

وفيه مواقع للنظر والنقد:

أوّلاً: إنّ أُم القرى ليست من أعلام مكة ـ وإن كان يطلق عليها ـ غير أنّ الإطلاق لا يدل على كونه من أعلامها، بل هو موضوع على معنى كلي وهي إحدى مصاديقه ولا تنس ما ذكره ابن فارس بقوله: «كل مدينة هي أُم ما حولها من القرى» فيعلم من ذلك

---

(١) المقاييس ج١ ص ٢١ ـ ٢٨ والكشاف ج١ ص ٢٢٤.

أنّ أُم القرى مفهوم كلي يصح اطلاقه على أية بلدة تتصل بها قرى كثيرة بالتبعية، وهذه القرى تعمتد عليها في أُمور حياتها، ويعاضد ما ذكرناه (كون أُم القرى كلياً) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ (القصص ـ ٥٩) فالآية (بحكم رجوع الضمير في أمها إلى القرى) صريحة في أنّها ليست علماً لموضع خاص، لأنّ مشيئته تعم الأُمم في هذا الأمر (أهلاك الأُمم وإبادتهم بعد انذارهم ببعث الرسل) ولا تختص بأُمّة دون أُخرى، أو نقطة دون نقطة، وعلى هذا، فمفاد الآية أنّ الله سبحانه يمهل أهل القرى من دون فرق بين قرية وقرية، حتى يبعث في مركزها الذي هو مركز الثقل بالنسبة إليها، والمجتمع لأكثر الناس، وملتقى أفكارهم، رسولاً يبشّرهم وينذرهم، فإذا ضربوا عنه صفحاً وهجروا مناهجه، يبيدهم ويهلكهم بألوان العذاب وهذه مشيئة الله وعادته في الأُمم السالفة البائدة جميعاً، مكية كانت أم غيرها.

وثانياً: لو صح كونه من أعلام مكة فالصحيح عند النسبة إليها هو القروي لا الأُمّي، هذا ابن مالك يقول في ألفيته:

وانسب لصدر جملة وصدر ما ... ركب مزجا ولثان تتما

اضافة مبدوة بابن وأب ... أو ما له التعريف بالثاني وجب

فيما سوى هذا انسبن للأول ... مالم يخف للبس كعبد الأشهل

قال ابن عقيل في شرحه: إذا نسب إلى الإسم المركب فإن كان مركباً تركيب جملة أو تركيب مزج، حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسب فتقول في تأبّط شراً: تأبطي، وفي بعلبك: بعلي، وإن كان مركب إضافة، فإن كان صدره ابناً أو أباً أو كان معروفاً بعجزه، حذف صدره وأُلحق عجزه ياء النسبة، فنقول في ابن الزبير: زبيري، وفي أبي بكر: بكري، وفي غلام زيد: زيدي، وإن لم يكن كذلك ... [1].

والاقتصار على الابن والأب من باب المثال والحكم يعم الأُم والابنة والأخ

---

(١) شرح ابن عقيل ج٢، ص٣٩١.

والأُخت، لاشتراك الجميع معهما في المناط والملاك ـ وهو كونها مركبة تركيب اضافة وحصول الالتباس لو اُلحقت بصدرها.

وثالثاً: إنّ الله وصف نبيّه في الآية بصفات تناسب موضوع النبوّة ، فلو كان الأُمّي فيها بالمعنى الذي أوضحناه، لتلاءم الكلام، وتكون تلك الصفة هادفة إلى آية نبوّته وبرهان رسالته، لأنّه مع كونه اُمّياً لا يقرأ ولا يكتب، أتى بشريعة كافلة لسعادة الناس وسيادتهم وجاء بكتاب فيه هدى ونور، وتضمن من الحقائق والمعارف ما لا يقف عليه حتى الأوحدي من الناس فضلاً عمّن لم يقرأ ولم يكتب، وهذا برهان رسالته ودليل صلته بالله وكونه مبعوثاً ومؤيداً منه تعالى.

ولو كان المراد منه ما زعمه القائل من كونه مكياً وأنّه وليد ذلك البلد، لكان الاتيان به في ثنايا تلك الأوصاف والخصال اقحاماً بلا وجه واقتضاباً بلا جهة.

وإن شئت قلت: لو كان المراد من الأُمي ما ذكرناه لكان فيه إشارة إلى أنّ النبي ﷺ مع كونه باقياً على الحالة التي ولد عليها، قد أتى بكتاب عجز الناس عن تحدّيه، وكلّ البلغاء عن معارضته، وخرس الفصحاء لديه، مضافاً إلى ما فيه من المعارف الالهية والحقائق العلمية والدساتير والقوانين الاجتماعية والاقتصادية في شؤون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة، وهذا دليل على صدق دعوته، وأنّه مبعوث من عنده تعالى، وهذه النكتة تفوتنا إذا فسرناه بأنّه مكي ووليد الحرم والبلد الأمين إذ ليس في كونه مكياً أي امتياز حتى ينوّه به.

وإلى ما ذكرنا يشير قوله عزّ وجلّ: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَ الحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾** (الجمعة ـ ٢).

فإنّ توصيف النبي ﷺ بأنّه منهم (أي من الأُمّيين) للاشارة إلى أنّه مع كونه اُمّياً مثلهم يعلّمهم الكتاب والحكمة ، وما ذلك إلّا لكونه مؤيداً منه تعالى بروح تعاضده وموجهاً بتوجيهه لارتقاء تلكم المدارج، فالآية من قبيل اتيان الشيء ببيّنته وبرهانه.

نعم ورد في بعض المأثورات حول تفسير الأُمّي انتسابه إلى اُم القرى، وسوف نرجع إلى هذه الروايات بالإيراد والمناقشة في اسنادها ومضامينها.

الرأي الثاني:

٢ـ ما اختاره الدكتور عبد اللطيف الهندي في مقاله المومى إليه فقال: الأُمّي من لم يعرف المتون العتيقة السامية، ولم ينتحل إلى ملّة أو كتاب من الكتب السماوية والشاهد عليه أنّ الله جعل الأُمّي في الكتاب العزيز، مقابل أهل الكتاب فيستظهر منه أنّ المراد منه هي الأُمّة العربية الجاهلة بما في زبر الأوّلين من التوراة والانجيل غير منتحلة إلى دين أو ملة لا من لا يقدر على التلاوة والكتابة.

أقول: ما ذكره الدكتور زلّة وعثرة لا تستقال فإنّ اطلاق الأُمّيين على العرب المشركين ليس «بسبب جهلهم بالمتون السامية، وإن كانوا عارفين بلسان قومهم قادرين على تلاوته وكتابته» كما حسبه الدكتور، بل بسبب جهلهم بقراءة لغتهم وكتابتها لأنّ الثقافة العربية بمعنى قراءة اللغة العربية وكتابتها، كانت متدهورة في العصر الجاهلي وكانت الأُمّية هي السائدة ولا يسودهم في تلكم الظروف شيء غيرها وكانت القدرة على القراءة والكتابة محصورة في ثلّة قليلة لا يتجاوز أفرادها عدد الأصابع.

فهذا الإمام البلاذري أتى «في فتوح بلدانه» بأسماء الذين كانوا عارفين بالقراءة والكتابة في العهد الجاهلي فما تجاوزت عدتهم عن سبعة عشر رجلاً في «مكة» وعن أحد عشر نفراً في «يثرب» وقال: اجتمع ثلاثة نفر من طي بـ «بقة» وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي،ثم السكوني صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً فتعلم «بشر» الخط العربي من أهل الحيرة ثمّ أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن اُمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد

مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلّمهما الخط فعلّمهما الهجاء، ثمّ أراهما الخط فكتبا، ثمّ إنّ بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخط منهم وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلّم الخط منه عمرو بن زرارة بن أعدس فسمّي عمرو الكاتب، ثمّ أتى بشر الشام فتعلّم الخط منه ناس هناك وتعلّم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب، فعلّمه رجل من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بها وعلّم الخط قوماً من أهلها ـ إلى أن قال:ـ فدخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب، عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب و... [١].

وهذا ابن خلدون يحكي في مقدمته، أنّ عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً وقريباً بعهد الرسول فقد تعرفوا عليها قبيل ظهور الإسلام حيث قال في الفصل الذي عقده لبيان أنّ الخط والكتابة من عداد الصنايع الانسانية:

كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الأحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمّى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان فيها دولة آل المنذر بسبأ التبابعة إلى أن قال: ومن الحيرة لقّنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر، يقال إنّ الذي تعلّم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أُمية ويقال حرب بن أُمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنّهم تعلّموها من أياد أهل العراق وهو بعيد، لأنّ اياداً و إن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخط من الصنايع الحضرية فالقول بأن أهل الحجاز إنّما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير ، هو الأليق من الأقوال [٢].

فإذا كان هذا مبدأ تعرفهم بالكتابة والقراءة وكان هذا مقياس ثقافتهم وتعرفهم عليها في المنطقتين (مكة والمدينة) فما ظنك بهم في المناطق الأُخرى، نعم كانت الربوع

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤١٨، طبع بيروت، الطبعة الرابعة.

المختصة باليهود والنصارى، تزدحم بأحبـارهم وحفّاظ كتبهم، فكانت القراءة والكتابة رائجتين بينهم، لمسيس حاجتهم إلى معرفة كتابهم وما فيه من الطقوس والسنن.

فإذا ألممت أيها الباحث ولـو إلمامة عابرة بروح ذلـك العصر، ووقفت على ما كان يسود في تلكم الظروف والبيئات، لقضيت بـأنّ المراد من الأُمّي حتى في ما استعمل عند أهل الكتاب هو العاجز عن القراءة والكتابة بقول مطلق كقوله سبحانه: ﴿**وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتٰبَ وَ الأُمِّيِّنَ ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾ (آل عمران ـ ٢٠) ويوضح ما ذكرنـاه قوله سبحانه: ﴿**وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّـونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَـابَ إِلاّ أَمَانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّـونَ**﴾ (البقرة ـ ٧٨) [(١)] فالآيـة بحكم رجوع الضمير ﴿**ومنهم**﴾ إلى اليهـود، تقسم اليهود إلى طـائفتين، طائفـة يعلمون الكتاب ، وأُخـرى طائفة أُمّية لا تعلم مـن الكتاب شيئاً بل تتخيله أمـانياً فقد أطلق الأُمّي في هذه الآيـة على بعض أهل الكتاب بملاك جهلـه بكتابه، قراءة وكتـابة، ولكن الجهل بالكتاب الذي نزل بلسانه ولسان قومه يلازم الجهل بسائر اللغات طبعاً.

فهـذا الكتابي بما أنّـه لا يحسن القـراءة والكتابـة قط، أُمّـي كالعـربي الأُمّي بـلا تفاوت.

وقصارى مـا يمكن أن يقـال: إنّه ليس لـلأُمّي إلاّ مفهوم واحـد وضع لـه وضعاً واحداً، غير أنّ مفهـومه يختلـف حسب اختلاف الظـروف والبيئات، حسـب اختلاف الاضافات والنسب، فالأُمّي في أجواء الكتابيين عبارة عمّن لا يعرف لغة كتابه فلو قيل: ذلك الكتابي أُمّي فالمقصود منه بقرينة لفظ «الكتـابي» كونه أُمّياً بالنسبة إلى كتابه الذي ينتحل إليه، كما أنّ الأُمّي في البيئات العـربية عبارة عمّن لا يحسن العربية قـراءة وكتابة وهكذا ...

وبناء على ذلك فالأُمّيون في قوله سبحانه: ﴿**ومنهم أُمّيون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ**﴾ عبارة عن الطائفة الجاهلة بالمتـون السامية من أهل الكتاب، لا يحسنون تلاوتها

---

(١) هذه الآيـة بما أنّها تقسّم أهل الكتاب والمنتحلين إليه إلى طـائفتين أُمّية وغير أُمّية، تبطل مـا ادعاه الدكتور من أنّ الأُمّي عبارة عن من لم ينتحل إلى الدين ولم ينسب إلى ملّة.

ولا كتابتهـا، إلاّ أنّ ذلك الاطلاق لا يثبت كون الأمّي مـوضوعاً على من لا يعـرف اللغة السامية كما حسبه الدكتور. بل لمّا كان محور البحث في الآية أهـل الكتاب وانقسامهم إلى طائفة عـالمة بها في كتابهم، وطائفة جاهلـة به، أُمّية لا تعلم من الكتـاب شيئاً، صار ذلك كالقـرينة على أنّ المقصود من الأمّيين فيهـا، هي الطائفـة الجاهلة بالمتون السـامية واللغة التي أُنزلت بها كتبهم.

وهذا الوجه لا يشمل «الأمّي» في غير هـذه الآية ولا على الموارد العارية عن هذه القرينة ولا يثبت كونه موضوعاً لمن يكون جاهلاً بالمتون السامية، كما ادعاه القائل.

إذا وقفت على ما ذكرناه وقوف المستشـف للحقيقة، لأذعنت أنّه ليس للأُمّي إلاّ مفاد واحد وهو الباقي على الحالة التي ولد عليها. ولو اطلق في مورد أو موارد على من لا يعرف المتـون الساميـة، فلأجل قرينـة دلّت عليه، فهـو من باب تطبيـق الكلي على فرده الخاص لا أنّه موضوع على ذلك الخاص.

بحث وتنقيب:

لقد بان الحق بأجلى مظـاهره بحيث لم تبق لمجادل شبهة في دلالـة الذكر الحكيم على أنّ النبي ﷺ كان أُمّيـاً لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يختاره الله تعـالى للتبشير والانذار، وظهر ما هو الحق الصراح في معنى الأُمّي الذي وصف الله به نبيّه الأكرم، نعم روي عن بعض أئمّـة أهل البيـت في تفسير الأُمّي مـا يتراءى منه خـلاف مـا أوضحناه وحققنـاه ودونك ما روي عنهم في هذا الباب [١].

١ـ أخرج الصدوق في علل الشرائع ومعاني الأخبار عن أبيه عن سعد [٢] عن ابن

(١) سوف نرجع في آخـر البحث إلى تحقيق القول في الروايات الواردة عـن أئمة أهل البيت وغيرهم في المقام والغرض هنا عرض ما يرجع إلى خصوص تفسير لفظ الأُمّي فقط.

(٢) سعد بن عبد الله القمي ترجمه شيخ الطائفة في باب أصحاب العسكري ـ عليه السّلام ـ.

عيسى [1] عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا ـ عليه السّلام ـ فقلت: يا بن رسول الله لم سمّي النبي الأُمّي؟ فقال: ما يقول الناس؟ قلت: يزعمون أنّه سمّي الأُمّي لأنّه لا يحسن أن يكتب، فقال: كذبوا عليهم لعنة الله في ذلك، والله يقول في محكم كتابه: ﴿هو الذي بعث في الأُمّيّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتٰب والحكمة﴾ فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو قال: بثلاثة وسبعين لساناً وإنّما سمّي الأُمّي لأنّه كان من أهل مكة، ومكة من أُمّهات القرى وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام ـ ٩٢) [2].

وأخرج الشيخ الأقدم محمد بن الحسن الصفار المتوفّى عام ٢٩٠ في بصائر الدرجات عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي مثله.

ونقله الشيخ المفيد معلّم الأُمّة في «اختصاصه» بهذا السند أيضاً.

والحديث على كل تقدير ينتهي إلى محمد البرقي وهو مختلف فيه جداً لاستناده إلى المراسيل والضعاف، وهو يروي عن جعفر بن محمد الصوفي الذي أهمله أصحاب المعاجم فالحديث ساقط عن الحجية.

أضف إليه ما في متنه من الشذوذ، وفيه جهات من النظر:

أوّلاً: قوله إنّ النبي يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً، يعطي أنّه ﷺ كان مشغولاً بقراءتها والكتابة بها في عامة حياته أو رسالته فقط، وحمله على الإمكان والتعليق وأنّه ﷺ كان قادراً عليهما باثنين وسبعين لساناً لو شاء وأراد، ولكنّه لم يشأ ويقرأ ولم يكتب بها أصلاً، خلاف الظاهر، وعلى ما استظهرناه فالرواية تخالف ماهو المتواتر من حياة النبي ﷺ .

---

(١) أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري، ثقة جليل.

(٢) علل الشرائع ص ٥٣، ومعاني الأخبار ص ٢٠.

إذ لو كان النبي ﷺ على النحو الذي تصفه الرواية لذاع ذكره وطار صيته بهذا الوصف ولا يكاد يخفى على الناس أمره. على أنّه ﷺ في البيئة العربية الأُمية كان في منتأى عن سماع الألسنة أو رؤية أصحابها فلم يكن في موطنه ولا دار هجرته من يعرفها أو يتكلم بها فكيف يتكلم بهذه اللغات، وهو لا يجد من يشافهه بها، ولم تكن تحضره صحيفة أو صحائف كتبت بغير اللغة العربية.

ثانياً: إنّ تفسير الأُمّي بكونه منسوباً إلى أُمّ القرى، يخالف ما اتفقت عليه أئمّة الأدب، وجهابذة اللغة، وأعلام التفسير بل يخالف القرآن الكريم حيث فسّر سبحانه بغير ذلك وقال: ﴿**ومنهم أُمّيّون لا يعلمون الكتاب**﴾ فلا يصح الركون في هذه المسألة إلى حديث ينتهي إلى من اختلف في وثاقته، إلى من أهمله علماء الرجال في كتبهم.

ولسنا من الفئة التي تعرض القرآن والحديث الصحيح على القواعد العربية المدوّنة بعد أجيال من نزول القرآن ونشر الحديث، بيد علماء الأدب، فإنّ تلك الفئة ضالّة مضلّة مستحقة للرد والطعن. إذ الصحيح عرض القواعد على القرآن والحديث دون العكس، فإنّ المقياس الوحيد لتمييز الصحيح عن غيره، إنّما هو كلام أهل اللسان والأساليب الدارجة بينهم، لا القواعد المدوّنة إذا لم ترجع إلى مصدر وثيق.

وعلى هذا فلو وجدنا القاعدة الأدبية المصطادة من تتبع بعض الموارد ومن كلام العرب، مخالفة للقرآن الكريم أو الحديث الثابت عنهم، أو الكلام الصادر عن عربي صميم، وجب علينا هدم القاعدة، ورميها بالخطأ والغلط، لا تأويل الذكر الحكيم والحديث الصحيح، والكلام المنقول عن أهل اللسان إذ القرآن سواء أقلنا إنّه كلام إلٰهي أُوحي إلى نبيّنا الأكرم أم قلنا إنّه من منشآته ومبدعاته (وأجل النبي عن هذه الفرية الشائنة) كلام صحيح، صادر أمّا عن الله سبحانه أو عن عربي صميم شب وترعرع بين الأُمّة العربية وقضى عمره وحياته بين ظهرانيهم.

وعلى أي تقدير فهو الحجة في تدوين القاعدة وتأسيسها دون العكس ومثله الآثار المنقولة عنه ﷺ.

ونحن مع هذا الاعتراف الصريح لا نقر بما جاء في الحديث حول تفسير الأُمي وأنّه منسوب إلى أُم القرى ولا نرمي أئمّة الأدب بالخطأ والاشتباه، إذ الحديث قاصر سنداً وينتهي إلى من اختلفت فيه كلمة أهل الجرح والتعديل، إلى من لم تتضح حاله ووثاقته، ولو ثبت صدوره عن أئمّة أهل البيت، لهدمنا القاعدة النحوية في باب النسب وأخذنا بما فيه.

ثالثاً: إنّ الحديث لا ينسجم مع مضمون ما سيوافيك من الحديثين [1]، فإنّ مفادهما هو كون النبي يقرأ ولا يكتب أصلاً، وهذا يثبت له القراءة والكتابة باثنين وسبعين لساناً، فلا مناص في مقام الترجيح عن الأخذ بهما وطرح ذاك، لقوة اسنادهما وصحتهما على ما عرفت.

٢ـ أخرج الصدوق في معاني الأخبار عن ابن الوليد عن سعد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن أسباط وغيره رفعه إلى أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: قلت: إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله ﷺ لم يكتب ولم يقرأ؟ فقال: كذبوا لعنهم الله أنّى يكون ذلك وقال الله عزّ وجلّ: ﴿**هو الذي بعث في الأُمّيّن رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتٰب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾، فيكون يعلّمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرأ أو يكتب به؟ قال: قلت: فلم سمّي النبي الأُمي؟ قال: نسب إلى مكة وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ولتنذر أُم القرى ومن حولها**﴾ فأُم القرى مكة فقيل أُمّي لذلك [2].

ونقله صاحب البصائر عن عبد الله بن محمد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن أسباط وغيره رفعه إلى أبي جعفر [3].

---

(١) راجع البحث الآتي تحت عنوان «عرض وتحقيق» والمقصود من الصحيحين ما رواه هشام بن سالم، والحسن الصيقل عن الصادق ـ عليه السّلام ـ.

(٢) علل الشرائع ص ٥٤٢.

(٣) بصائر الدرجات ص ٦٢، بحار الأنوار ج ١٦ ص ١٣٣.

ويؤسفنا أنّ الحديث مع ما في متنه من العلات، غير موصول السند إلى الإمام، فالرواية مرفوعة وهو نوع من المرسل الذي لا يعتمد عليه.

وفي هذا المقال يلمس القارئ حقيقة ناصعة هي من أجلى الحقائق الدينية ألا وهي مغزى كون النبي لا يحسن القراءة والكتابة قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والانذار.

نعم بقي الكلام في أمره ﷺ بعد البعثة ولأجل ذلك عقدنا لتحقيقه الفصل التالي:

أمر النبي ﷺ
بعد بزوغ دعوته

قد اهتدينا بهدى القرآن وساقتنا الأدلّة إلى القول بأنّه ﷺ كان قبل البعثة أُمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يسجل التاريخ له ﷺ في ذلك العهد قراءة لوح أو كتابة صحيفة، ولم يكن ذلك اختلاقاً تواطأ عليه المسلمون لهدف خاص كما حسبه الدكتور في مقاله [1] بل كان تقريراً للواقع وقد قابلنا التفكير السطحي الخاطئ بالرد والنقد.

غير أنّنا طلباً لوضوح الحقيقة، واكمالاً للبحث، نردف المقال بالبحث عن وضع النبي ﷺ بعد بزوغ دعوته وبعثته إلى الناس، وأنّه هل بقي على ما كان عليه من الأُمية، لنفس المصلحة التي أُوجبت أُميته قبل أن يبعث إلى هداية الناس، أو لم يبق عليه، بل كشف الحجاب عن ضميره الحي وعقله الواعي، وقلبه الواسع، عندما بزغت دعوته وبعث رسولاً إلى الناس ولا يمكن القضاء البات إلاّ بعد الوقوف على ما ذكره الفطاحل من رواة الحديث وأعلام التفسير.

وقد اختار ثلة جليلة من المحققين القول الثاني أنّ تمكن النبي ﷺ باذنه سبحانه

---

(١) زعم الدكتور في مقاله أنّ أُمية النبي ﷺ فكرة حديثة بين المسلمين، لصيانة القرآن عن التحريف وحفظه عن حدوث الزيادة والنقيصة عليه من جانب النبي ﷺ فإنّ الأُمي يعكس كل ما أُلقي عليه بلا تغيير وتحريف، ولا يقدر على تحويره بخلاف غيره، فانظر ما أجرأ هذا الرجل على تحريف الكلم عن مواضعه.

من القـراءة والكتابة بعـد ما نـزل عليه الوحـي واستدلوا على ذلـك بوجوه لا تخلـو من مناقشات واشكلات، ونحن نذكر تلكم الوجوه، ثمّ نردفها بما هو المختار عندنا:

١ـ الوجوه التي اعتمد عليها شيخنا المفيد:

هذا هو الشيخ المفيـد استدل بأدلة ووجوه اعتقد أنّها الحجج الكـافية لاثبات ما يرتئيه من أنّ النبي كان عارفاً بالقراءة والكتابة بعد بعثته ودونك ما أفاده برمّته:

١ـ إنّ الله تعالى لما جعل نبيّه ﷺ جامعاً لخصال الكمال كلهـا، وخلال المناقب بأسرها لم تنقصه منزلة بتمامها، ليصح له الكمال، ويجتمع فيه الفضل والكتابة فضيلة من منحها فضل، ومن حرمها نقص.

٢ـ إنّ الله تعالى جعل النبي ﷺ حاكماً بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه، فلا بد أن يعلمه الحكم في ذلك، وقد ثبـت أنّ أُمور الخلق قد يتعلق أكثرها بـالكتابة فتثبت بها الحقوق، وتبرأ بها الـذمم، وتقـوم بها البيّنات، وتحفظ بها الـديون، وتحاط بها الأنسـاب، وأنّها فضل تشرف المتحلّي به على العاطل منه، وإذا صح أنّ الله جلّ اسمه قد جعل نبيّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت أنّه كان عالماً بالكتابة، محسناً لها.

٣ـ إنّ النبي لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعـرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمّنته الكتب من الحقوق وغير ذلك إلى بعض رعيته، ولـو جاز أن يحوجه الله في بعض ما كلّفه الحكم فيه إلى بعـض رعيته لجاز أن يحوجه في جميع مـا كلّفه الحكم فيـه إلى سواه، وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمة باعثه، فثبت أنّه ﷺ كان يحسن الكتابة.

٤ـ إنّ الله سبحانـه يقول: ﴿**هُوَ الَّـذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُـوا عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَ يُزَكِّيهِـمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَ الحِكْمَـةَ وَ إِنْ كَانُـوا مِنْ قَبْلُ لَفِـي ضَلالٍ مُبِين**﴾ (سـورة الجمعة ـــ ٢) ومحال أن يعلمهم الكتاب وهـو لا يحسنه، كما يستحيـل يعلمهم الكتـاب والحكمة وهـو لا يعـرفهما، ولا معنى لقـول من قـال: إنّ الكتـاب هو القـرآن خاصة، إذ اللفظ عام والعموم لا ينصرف عنه إلاّ بدليل، لا سيما على قول المعتزلة وأكثر

أصحاب الحديث.

٥ـ يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت ـ ٤٨) فنفى عنه احسان الكتابة وخطه قبل النبوّة خاصة، فأوجب احسانه بذلك لها بعد النبوّة، ولولا أنّ ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يعقل، ولو كان حاله ﷺ في فقد العلم بالكتابة بعد النبوّة، كحاله قبلها لوجب إذا أراد نفي ذلك عنه أن ينفيه بلفظ يفيده، لا يتضمن خلافه فيقول له: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذ ذاك ولا في الحال، أو يقول: لست تحسن الكتابة ولا يتأتى منك على كل حال، كما أنّه لما أعدمه قول الشعر ومنعه منه نفاه بلفظ يعم الأوقات فقال الله تعالى: ﴿وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِي لَه﴾ (يس ـ ٦٩) وإذا كان الأمر على ما بيّناه ثبت أنّه ﷺ كان يحسن الكتابة بعد أن نبّأه الله تعالى ما وصفناه، وهذا مذهب جماعة من الإمامية ويخالف فيه باقيهم وسائر أهل المذاهب والفرق يدفعونه وينكرونه [١].

وفي ما ذكره رحمه الله مناقشات نشير إليها:

أوّلاً: انّ الكتابة وإن كانت من الكمالات «ومن منحها له سبحانه فضل ومن حرمها نقص» غير أنّ ذلك يعد للعاديين الذين ينحصر طريق اكتسابهم للمعارف بها وحدها، وأمّا من لا يحتاج إليها بل له طريق آخر لدرك الحقائق واكتساب المعارف كما هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا ﷺ فلا يعد التمكن من الكتابة والقراءة فضيلة له حتى يكون عدمها نقصاً في حقه، كيف وهو ﷺ قد عرف الواجب جلّ اسمه وصفاته وأفعاله ووقف على حقائق الكون ودقائقه عن طريق الوحي الذي هو أوثق وأسدّ الطرق الممكنة، لا يخطأ ولا يشتبه وعند ذاك لا حاجة له إلى هذه الطرق العادية غير المصونة عن الخطأ والاشتباه.

أضف إليه لو فرضنا أنّ بقاء النبي على ما كان عليه من الأُمية كان يرفع الشك

---

(١) أوائل المقالات ص ١١١ـ ١١٣ ط تبريز.

عن قلوب السذج من الناس ويؤكد ايمانهم واذعانهم بنبوّته وبما جاء به من الشريعة والكتاب وجب على المولى سبحانه ابقاءه على ما كان عليه من الصفات والنعوت، طلباً للغاية التي بعثه لأجل احرازها وتحققها، فإذا كان هو الملاك في أُمّيته قبل بزوغ دعوته فليكن هو الملاك في بقائه عليها فلا وجه لعد أحدهما نقصاً في حقه ﷺ دون الآخر.

ثانياً: إنّ ما ذكره «انّ الكتابة فضل تشرف المتحلي به على العاطل منه وإذا صح أنّ الله قد جعل نبيّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت أنّه كان عالماً بالكتابة محسناً لها» صحيح جداً وقد فضّل الله سبحانه نبيّنا على جميع الأنبياء والرسل ومنحه من الفضائل ما لم يمنحه لغيره غير أنّه لما كانت هناك مصلحة أولى وأهم كما صرح الله بها سبحانه في كتابه وهي طرد الريب عن القلوب الضعيفة، صرفه الله سبحانه عن تعلّم القراءة والكتابة طيلة عمره، ولم يمكنه منها طلباً لهذه الغاية المهمة وترك المهم توخّياً للأهم لا يعد نقصاً لو لم يعد كمالاً.

وإلى ذلك يشير الفاضل القنوي في تعليقه على «أنوار التنزيل» بقوله: ولذلك صارت الأُمية شرفاً وفخراً في شأنه ﷺ وصفة نقص في حق غيره.

وبذلك نجيب عن ما أفاده رحمه الله:

« لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمّنته الكتب من الحقوق وغير ذلك إلى بعض رعيته، ولو جاز أن يحوجه الله في بعض ما كلّفه الحكم فيه إلى بعض رعيته لجاز أن يحوجه في جميع ما كلّفه الحكم فيه إلى سواه وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمته» لأنّه إذا جاز احتياج النبي الأعظم في مورد خاص إلى بعض رعيته توخياً لبعض المصالح المهمة، لا يستلزم جواز احتياجه في الموارد الخالية عنها فإنّ الأوّل لا يعد نقصاً عند العقلاء ولأجل ذلك يرجّحون الأهم على المهم عند التزاحم، بخلاف الثاني.

ثالثاً: إنّ قوله سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَاب وَالحِكْمَةَ﴾ لا يدل على ما رامه أمّا إذا قلنا إنّ المراد من الكتاب هو القرآن كما هو الظاهر المتبادر إلى الذهن فإنّ تلاوة الآية

لا تفتقر إلى معرفة الكتـابة إذا تلقى التالي محفوظاتـه من وحي أو تلقين، ومن الناس من يتعلّم القرآن من الصدور لا السطور ويتلوه كما حفظ بدون توقف على معرفة الخط، وأمّا إذا قلنا إنّ المقصود منه الكتابة و إن كـان بعيداً جداً فليس معناه تعليم النبي ﷺ لقومه الكتابة مباشرة إذ لم يعهد ولم يـر بأسانيد صحيحة أنّه ﷺ جلس مع أفراد أُمّته يعلّمهم نقوش الحروف الهجائيـة وتراكيبها الأبجديـة قطعاً، و إنّما المراد أنّه قام بأمـر تعليم الأُمّة مهمة الكتابة، فقد تواتر عنه ﷺ اتّخاذه الأسرى يشترط عليهم أن يعلّمـوا أهل مدينتـه الخط والكتابة [١]فكان الأسير إذا علّم الكتـابة عشرة من المسلمين أطلق النبـي سراحه مكافأة لعمله وبهذه الوسيلة البسيطة عمّم في اتبـاعه صناعة الخط وأخرجهم من ظلمة الأُمّية وأصبح مقـر الاسراء مدرسة يتعلّم فيها صبيـان المدينة ما يحتاجون إليـه من علوم ذلك العهد.

وأمّا ما تمسك به من مفهوم الآية وأنّ لفظة : ﴿من قبله﴾ يفهم منها أنّه كان قارئاً وكاتباً بعد الوحي إليه فيوافيك نقده في البحث التالي:

ثم إنّ للعلاّمة الشهـرستاني كلمة قيمة في المقام يجري مجرى الجواب عـن ما ذكره المفيد فلاحظه [٢].

٢ـ الاستدلال بمفهوم الآية:

نقل شيخ الطـائفة استدلال القوم على أُمّيـة النبي الأعظم بقوله سبحـانه: **﴿وما كنت تتلـوا من قبله من كتـاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتـاب المبطلون﴾** (العنكبوت ـ ٤٨) ثم اعترض عليهم بما هذا ملخصه:

---

(١) قال الأُستاذ عمر أبو النصر في كتابه «العـرب ص ٢٣»: وكان فداء الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابـة تلقين عشرة من صبيان المدينة الكتـابة، وكذلك أصبـح مقر الأسرى مدرسـة يتعلّم فيها صبيان المدينة.

(٢) راجع مجلة المرشد البغـدادية لسنتها الرابعة ص ٣٢٧ ـ ٤٢٨ ما أفاده العلامة الحجـة السيد هبة الدين الشهرستاني على ما نقله عنها العلامة المتتبع الجرندابي في تعاليقه على أوائل المقالات.

«إنّ الآية لا تدل على أنّ النبي كان أُمياً بل فيها أنّه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه كما لا يكتب من لا يحسنه...».

«ولو دلّت الآيـة على أنّه لم يكن يحسن الكتابـة قبل الايحاء إليه، لدلّت بـا لمفهوم على أنّه كـان يحسنها بعـد الايحاء إليه، حتـى يكون فـرقاً بين الحالتين ولا يكـون الاتيان بالقيد ـ قبله ـ لغواً» [١].

وفي ما أفاده مواقع للنظر:

أوّلاً: ففرق واضح بين من يحسن الكتابة ويتركها، ومن لا يحسنها أصلاً ، فانّ من يحسن الكتـابـة، لا يتركهـا دائماً، بـل يتركهـا مـؤقتـاً بسبب ظـروف تلـم بـه ولا يصح الاستدلال بتركـه مؤقتاً، على أنّه لا يحسنهـا ولا يستكشف حاله منه، وأمّـا من لم يكتب منـذ نعومـة أظفـاره إلى أن بلغ الأربعين بل نـاهـز الخمسين كما هـو الحال بالنسبـة إلى نبيّنا ﷺ ، فيعد ذلك دليلاً عند العرف على أنّه لا يحسنها أصلاً وبتاتاً.

فالآية حسب ما يفهم منها عرفاً، تدل على أنّه ﷺ كان أُمياً لا يقدر على الكتابة، وقوله سبحـانه: ﴿**ومـا كنت تتلـوا مـن قبلـه من كتـاب ولا تخطّـه بيمينـك إذاً لارتـاب المبطلون**﴾ بالنـظر إلى ذيلـه وهـو رفـع الشك عـن قلـوب المبطلين، كنـايـة عـن كونه ﷺ كان أُمّياً لا يحسن شيئاً من القراءة، لا أنّه كان عارفاً بها ولكنّه تركها لمصلحة أو غيرها.

وثانياً: إنّ استفـادة المفهوم من الآية ودلالة القيـد ـ من قبله ـ عليـه مشكلة جداً وإن قلنا بدلالتـه على المفهوم في مقام آخر، وذلك أنّ دلالة القيـد عليه إنّما هي إذا كان بقاء الحكم وعدمه عند ارتفاع القيد سواسيـة، فعند ذلك يستدل بأخذ القيد في موضوع الحكم على دخلـه في الغرض وفي الحكم المذكـور في القضية ويكـون مرجعـه إلى ارتفاع الحكم السابق بارتفاع القيد كما إذا قيل: أكل زيد قبل طلوع الشمس، وأمّا إذا كان بقاء

(١) التبيان ج٨ ص ٢١٦ ط لبنان ويظهر من الآلوسي في تفسيره الاعتماد على هذا الوجه.

الحكم عند ارتفاع القيد أولى في نظر السامع كما في المقام فلا يستنبط منه المفهوم فإنّ من بقى على أُميته حتى ناهز الأربعين بل الخمسين أولى بأن يبقى على تلك الحالة في ما بقي من عمره، فإنّ الرجل إذا لم يحصل على ملكة الكتابة إلى أن ورد في العقد الخامس من عمره لا يحتمل في حقه عادة أن يعود إلى تحصيلها بعد هذه المراحل الطويلة، وعلى ذلك فلا يمكن الاستدلال على رفع الحكم المستفاد من قوله: ﴿**ما كنت تتلو من قبله**﴾ وقوله: ﴿**ولا تخطّه**﴾ عند ارتفاع القيد، أي لا يدل على أنّه كان قارئاً وكاتباً بعد بعثته كما هو المقصود.

خلاصة القول: إنّ الآية غير دالة على وضع النبي ﷺ بعد بزوغ دعوته ولا يدل على شيء من الطرفين والتمسك بمفهوم القيد : ﴿**من قبله**﴾ إنّما يصح إذا سيق الكلام لأجل افادته والإيماء إلى اختلاف حاله في المقامين وأمّا إذا سيق الكلام لغير هذه الغاية فلا يدل على ما استظهره من المفهوم، فانّ الغاية من الإتيان بالقيد هو الاستدلال بأُمّيته قبل نزول الوحي عليه، على صدق مقاله ودعوته فإنّ الأُمّي إذا أتى بكتاب أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان بل أدهش بقوانينه اساطين القوانين والنظام، يعد كتابه هذا بهذه الأوصاف والنعوت آية على كونه وحياً إلهياً خارجاً عن طوق القدرة البشرية، وأمّا أنّه هل بقي على الأُمّية بعد ما صار نبيّاً يوحى إليه أو لا ؟ فخارج عن هدف هذه الآية وليست له صلة بمرماها ومقصدها وعلى ذلك نظائر في اللغة والعرف.

ولقد أحسن المرتضى، فلم يجعل الآية دليلاً على تغيّر حاله بعد بعثته، وسلك مسلكاً متوسطاً غير ما سلكه استاذه الشيخ المفيد وما قصده تلميذه شيخ الطائفة الطوسي ودونك نقل كلامه:

هذه الآية: ﴿**ما كنت تتلوا من قبله من كتب**﴾ تدل على أنّ النبي ما كان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا ما بعدها فالذي نعتقده في ذلك، التجويز لكونه عالماً بالقراءة والكتابة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع بأحد الأمرين وظاهر الآية يقتضي

أنّ النفي قد تعلق بما قبل النبوّة دون ما بعـدها، ولأنّ التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوّة (١) لأنّ المبطلين إنّما يرتابون في نبوّته لـو كان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا مـا بعدها فـلا تعلق له بالـريبة والتهمة فيجـوز أن يكون تعلّمها مـن جبرئيل بعد النبوّة(٢).

وكلامه هذا يعرب عن توقفه في المسألة كما هو صريح قوله: «من غير قطع بأحد الأمرين» وما ذكـره «ظاهر الآية يقتضي أنّ النفي قد تعلق بما قبل النبـوّة دون ما بعدها» صحيح لو أراد بذلك نفي دلالة الآية على أحد الأمرين وأمّا لو أراد به دلالتها على كونه قارئاً وكاتباً بعد فموهون بما أوضحناه عند البحث عن كلام تلميذه الجليل شيخ الطائفة رحمه الله، مع أنّه بعيد عن ظاهر كلامه.

وأمّا مـا أفاده من «إنّ المبطلـون إنّما يرتابـون في نبوّته لـو كان يحسن الكتابـة قبل النبوّة فـأمّا ما بعـدها فلا تعلّـق له بالـريبة والتهمة» غير ثـابت ولاظاهـر بل يمكن أن يتطرق الشـك إلى نبوّته لـو كان يحسنهـا بعد النبوّة إذا تظـاهربها في مـرآى ومسمع من الناس، فلاحظ التعليقة السابقة.

٣ـ الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿يتلوا صحفاً مطهرة﴾

استـدل الدكتـور عبد اللطيف الهنـدي بقولـه سبحانـه: ﴿رَسُـولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُـوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَـا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة : ٢ ــ ٣) قال: «إنّه يـدل على تحقق التلاوة منهﷺ أيام رسالته وفي رحاب دعوته».

لكنّه لا يدل على ما رامه فإنّ التلاوة كما تصدق على التلاوة عن الكتاب، تصدق

(١) اختصاص التعليل بما قبل النبـوّة غير ظاهر بل لو تظاهر النبـي بالقراءة والكتابة بعد نبـوته، فهو وإن كان يعد معجزة ومفخـرة له عند من خلصت نيته، وطهر قلبه، لكنّـه يوجب تسلل الشك إلى أُمّيته قبل نبـوته عند المبطلين والمشككين فيضلّـون ويضلّون، وينشرون الأوهام والأراجيـف حول دعوته ورسالته، نعم لو كان عارفاً بها غير متظاهر لصح اختصاص التعليل بما قبل النبوّة.

(٢) مجمع البيان ج٨ ص ٢٨٧، مناقب آل أبي طالب ج١ ص ١٦١.

على التلاوة عن ظهر القلب، ويؤيده أنّه لم يرو عن النبي ﷺ في أيام رسالته أنّه تلا القرآن عن غير ظهر قلبه، أضف إلى ذلك ما ذكره المفسرون في «صحف مطهرة» من الاحتمالات التي تخرجها عن محيط هذه الصحف المادية التي يرومها المستدل ومن شاء الاحاطة بها فليرجع إلى التفاسير.

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاتَنْسَى * إِلاّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى﴾ (الأعلى: ٧ـ٨) إذ معناه: سنقرأ عليك القرآن فلا تنساه ونجعلك قارئاً باذن منه فلا تنسى ما تتلقاه من أمين الوحي، إلاّ بمشيئة منه فإنّ الاقراء والانساء كليهما بيده سبحانه، فلا يدل إلاّ على تلاوة القرآن وقراءته عن ظهر القلب فقط كما كان هو دأب النبي في تلاوة كل ما أُوحي إليه، وهو غير ما يرومه الدكتور وأمثاله.

قال الزمخشري: بشّر الله تعالى باعطاء آية بيّنة وهي أن يقرأ عليه جبرئيل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أُمّي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه.

وأمّا الاستثناء فلا يدل على تحقق الانساء منه سبحانه بالنسبة إلى الرسول ﷺ بل هو للتنبيه على أنّ الأمر كله بيده، وإن منحت كرامة الحفظ إليه ﷺ فليس بمعنى تفويض الأمر إليه وخروجه عن يد الله سبحانه، بل الأمر في كلا الحالين بيده، فالله الذي جعله قارئاً لا ينسى، قادر على أن يصيره ناسياً لا يحفظ شيئاً، ولا يخطر على روعه شيء، فوزان الاستثناء في هذه الآية وزان الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰواتُ وَ الأَرْضُ إِلاّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود ـ ١٠٨).

فلا يدل على تحقق المشيئة في المستقبل منه سبحانه حتى ينافي خلود المؤمنين في الجنة.

٤ـ الاستدلال بقوله سبحانه: ﴿اكتتبها﴾

استدل بعض الأعلام بقوله سبحانه: ﴿وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً﴾ (الفرقان ـ ٥) وفسّره في الكشّاف بقوله: اكتتبها: اكتتبها لنفسه

وأخذها كما تقول: استكب الماء واصطبه: إذا سكبه وصبّه لنفسه وأخذه [١] وكأنّه يريد أن يفهم أنّ زيادة التاء في «اكتتبها» للدلالة على أنّ كتابته كانت لنفسه بخلاف المجرد عنها كقولنا «كتب فلان» فإنّه أعم من أن يكون ذلك لنفسه أو لغيره.

وقال الشيخ الطوسي: اكتتبها هو وانتسخها فهي تملى عليه حتى ينسخها [٢] وجه الاستدلال، أنّ المشركين قالوا: إنّ القرآن أساطير كتبها محمد لا من تلقاء نفسه بل بالإملاء عليه من غير، فقولهم: يكتب الأساطير بإملاء الغير عليه، صريح في أنّه بعد الايحاء إليه كان كاتباً يكتب القرآن، وبما أنّ الكتابة صفة كمال لا ينسبها إليه خصومه كذباً وافتراء فلا بد أن تكون ثابتة له في تلك الحال [٣].

ولكن ما أقامه من الدليل موهون جداً فإنّ الكتابة و إن كانت صفة كمال إلاّ أنّ شهادة الخصم إنّما تدل على اتصافه بها إذا كانت الشهادة صادرة عن خلوص وصفاء وأمّا إذا جعلها ذريعة لإنكار نبوّته، فلا يعد رميه بها دليلاً على صدق النسبة فإنّ القوم لما عجزوا عن الوقيعة في قرآنه ولم يتمكنوا من معارضته ومباراته دخلوا من باب آخر، حتى يفتحوا بذلك باب الريب على نبوّته وكتابه وقالوا إنّ هنا من يملي عليه القرآن بكرة وأصيلاً، وهو يكتب ما يملى عليه ولا هدف لهم من تلك الفرية إلاّ التشكيك في نبوّته ونزول الوحي عليه ولولا ذلك لما وصفوه بها ولا بغيرها من الصفات، فإنّ التوصيف، بأدنى مراتب الكمال، يخالف ما يرمون إليه من انتقاصة.

على أنّ هنا في لفظة «اكتتبها» احتمالاً آخر وهو أنّه أمر بالكتابة والاستنساخ ، احتمله الرازي بل اختاره وقال: معنى «اكتتب» ههنا، أنّه أمر أن يكتب له كما يقال: «احتجم» و «افتصد» إذا أمر بذلك [٤].

إلى هنا تم ما وقفنا عليه من الأدلّة القرآنية التي أقامها القائلون على أنّ النبي كان قارئاً وكاتباً بعد نزول الوحي عليه، وقد عرفناك وهن الجميع، ووقفت على ما فيها من

---

(١) الكشاف ج٢ ص ٤٠٠.
(٢) التبيان ج٧ ص ٤٧٢.
(٣) تفسير الآيات المتشابهات ص ٤٧ ـ ٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب ج٦ ص ٣٥٣.

المناقشات.

نعم هناك وجوه عقلية واستحسانات، اعتمد عليها بعض من اختار هذا النظر، ونحن نأتي بها.

٥ـ الاستدلال بالأولوية:

استدل بها المجلسي وقال إنّه ﷺ كان قادراً على التلاوة والكتابة بالاعجاز وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الأوّلين والآخرين، انّ هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف، ومن كان قادراً باذن الله على شق القمر وأكبر منه، كيف لا يقدر على نقش الحروف والكلمات على الصحائف والألواح والله تعالى يعلم [١].

وما ذكره لا يخرج عن حدود الاستحسان إذ من الممكن أن لا يمكنه الله من القراءة والكتابة لمصلحة هو أعلم بها، أو لأجل رفع الريب والشك عن جانب نبوّته كما هو غير بعيد حتى بالنسبة إلى ما بعد النبوّة، إذا تظاهر بالقراءة والكتابة.

٦ـ التجارة تتوقّف على الكتابة:

قال بعض من عاصرناه: «إنّ المشركين رموه بالكذب والسحر والجنون والفرية ولم ينسبوه إلى الأُمية مع كونها صفة نقص لا سيما للتجار ذوي رحلة الشتاء والصيف، فإذا لم يعيبوه بالأُمّية كان ذلك دليلاً على أنّه كان بعد النبوّة قارئاً وكاتباً» [٢].

ونناقش ما أفاده:

أوّلاً: إنّ عدم رميه ﷺ بالأُمّية، فلعدم كونها عيباً عندهم، كيف والقوم كانوا جماعة أُمّية وكانت تلك الصفة هي السائدة عليهم، وكان الرامي بها والمرمى إليها في هذا الوصف سواسية.

---

(١) بحار الأنوار ج١٦ ص ١٣٦.

(٢) تفسير الآيات المتشابهات ص ٥٠.

ثانياً: إنّ التجارة و إن كانت تتوقف على القراءة والكتابة في الأوساط المدنية غير أنّ الدارج في البيئات البعيدة عن الحضارات كان غير ذلك، خصوصاً قريش الذين كانت لهم رحلة الشتاء والصيف، فكانوا يبيعون أو يشترون ،ويرجعون، من دون أن يبقى لهم أو عليهم شيء.

هذا ما لدى القائلين من الأدلّة على كونه ﷺ قارئاً وكاتباً بعد بزوغ نبوّته، هلم معي ندرس بعض ما وقفنا لهم في المقام من كلمات تؤكد من نقلناه عنهم.

قال الشيخ: «إنّ الحاكم يجب أن يكون عالماً بالكتابة والنبي عليه وآله السلام كان يحسن الكتابة بعد النبوّة وإنّما لم يحسنها قبل البعثة»[١].

وتبعه ابن ادريس الحلي في باب سماع البيّنات من كتاب القضاء وجاء بعين ما نقلناه عن الشيخ[٢].

واختاره العلامة الحلي في كتاب النكاح عن تذكرته عند البحث عن مختصات النبي الأكرم حيث قال: كان يحرم عليه الخط والشعر تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته قال الله تعالى: ﴿**ولا تخطّه بيمينك**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾ (يس ـ ٦٩).

وقد اختلف في أنّه هل كان يحسنها أو لا: وأصح قولي الشافعي الثاني وإنّما يتجه التحريم على الأول[٣] أي على القول بأنّه كان يحسن الكتابة إذ على فرض عدم عرفانه بها، فالتحريم يكون لغواً وتحصيلاً للحاصل.

غير أنّ دلالة الآية على حرمة الكتابة عليه، مبني على كون «لا» في قوله: ﴿**ولا تخطّه**﴾ ناهية وهو خلاف الظاهر، خصوصاً بملاحظة سياق الآية أي قوله تعالى: ﴿**ما كنت تتلوا من قبله من كتاب**﴾ فإنّه جملة خبرية وهو يقتضي أن تكون الجملة التالية لها أيضاً خبرية لا انشائية.

---

(١) المبسوط: كتاب القضاء ج٨ ص ١٢٠.

(٢) السرائر: باب سماع البيّنات من كتاب القضاء.

(٣) تذكرة الفقهاء ج٢ ص ٥٦٦ الطبعة الجديدة المرقمة.

وقد اقتفى في ذلك قول الشيخ في مبسوطه حيث قال: «وقد خصّ الله نبيّه محمداً بأشياء ميّزه بها عن خلقه وهي أربعة أضرب: واجب، ومحظور، ومباح ، وكراهة ـ إلى أن قال: ـ وأمّا المحظورات فحظرت عليه الكتابة وقول الشعر وتعليم الشعر»[١].

اُمّية النبي في الأحاديث:

لقد بان الحق وظهرت الحقيقة من هذا البحث الضافي حول هذه الآيات، فلم نجد آية تدل على أنّه ﷺ بعد بزوغ دعوته، صار قارئاً أو كاتباً.

نعم وردت أحاديث وروايات، رواها الفريقان، ربّما يركن إلى بعضها، ويستدل به على تمكنه من القراءة والكتابة بعد بعثته، بإعجاز منه سبحانه، وإن كان الكل لا يخلو من اشكال ونحن نورد هنا تلكم الأحاديث:

منها: حديث بدء الوحي

ررى أصحاب السير والتفسير:

كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً حتى إذا كان الشهر الذي بعثه الله سبحانه فيه خرج رسول الله ﷺ إلى حراء حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبرئيل بأمر الله، ولنترك وصف ذلك إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ بقوله:

«فجاءني جبرئيل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ ؟ قلت: ما أقرأ؟ فغتني به[٢] حتى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتني به حتى ظننت أنّه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ماذا أقرأ؟ فغتني

---

(١) راجع المبسوط أوائل كتاب النكاح ج٤ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) كذا في جامع الأصول والطبري والغت: حبس النفس، وفي صحيح البخاري والمواهب «غطني» وهي بمعنى الغت أيضاً.

به حتى ظننت أنّه الموت، ثـمّ أرسلني فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ماذا أقـرأ؟ ما أقول ذلك إلاّ افتداءاً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال: ﴿**اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّـذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ قـال: فقـرأتها ثمّ انتهى، فـانصرف، وهببت مـن نـومي، فكأنّما كتبـت في قلبي، قـال: فخرجت حتـى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صـوت من السماء يقول: يـا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل، قال: فـرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا بجبرئيل في صورة رجل صف قدميه في افق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل».

ويظهـر من البخـاري مـن صحيحه أنّ جبرئيـل نـزل بسـورة العلق حينما كـان النبيﷺ يقظاً لا نائماً، وأنّه تحمّل بدء الوحي في حال اليقظة حيث قال: فجاءه الملك فقال: اقرأ؟ مـا أنا بقارئ [1] قال: فـأخذني فغطني حتـى بلغ منّي الجهـد، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ؟ قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ؟ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثمّ أرسلني فقال: ﴿**اقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسان من علق**﴾ .

كلمة حول سند الحديث:

إنّ سند الحديث ينتهي إلى أشخـاص ثلاثة يستبعد سماعهـم الحديث عن نفس الرسول الأكرم ﷺ ودونك أسمائهم.

١ ـ عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، أخـرج الحديث عنه ابن هشام في سيرته ج ١ ص ٢٣٥، والطبري في تفسيره ج٣٠ ص ١٦٢، وتـاريخه ج٢ ص ٣٠٠، وقـد تـرجـم الرجل ابن الاثير في أُسد الغابة ج٣ ص ٣٥٣، وقـال ذكر البخاري أنّه رأى النبي وذكر مسلم أنّه ولـد على عهد النبي، وهو معـدود في كبار التابعين يروي عـن عمر وغيره من

---

(١) وهذا شاهـد على أنّ الملك لم يرد أن يلقنه الآيات ليتـابعه في القراءة فإنّ ذلك أمـر مقدور للقارئ والأُمّي، ولو أراد هذا كان المناسب أن يقول ماذا أقرأ، بل أراد أن يقرأه النبي بنفسه بلا متابعة.

الصحابة.

٢ـ عبد الله بن شداد، أخرج الحديث عنه الطبري في تفسيره ج٣٠ ص ١٦٢ وفي تاريخه ج٢ ص ٢٩٩. ترجمه ابن الأثير في أُسد الغابة ج٤ ص ١٨٣. وقال ولد على عهد النبي روى عن أبيه وعن عمر وعلي.

وعلى ذين السندين فالحديث مرسل غير موصول السند إلى النبي الأكرم إذ من البعيد أن يرويا الحديث عن النبي ﷺ نفسه.

٣ـ عائشة أُمّ المؤمنين، أخرج البخاري عنها الحديث في صحيحه ج١ ص٣ و ج٣ ص١٧٣ في تفسير سورة العلق والطبري في تفسيره ج٣٠ ص ١٦١. وعلى ذلك فقد تفردت هي بنقل هذا الحديث، ومن البعيد جداً أن لا يحدث النبي هذا الحديث بغيرها، مع اشتياق غيرها إلى سماع أمثال هذه الأحاديث عنه ﷺ. وعند ذلك يشكل الاستدلال بالحديث جداً.

نعم ورد مضمون الحديث في تفسير الإمام العسكري كما في البحار ج ١٨ ص ٢٠٦ لكن كون التفسير من الإمام فيه كل الشك والريب ونقله من أعلام الطائفة ابن شهر آشوب في مناقبه ج١ ص ٤٠ـ ٤٤، والمجلسي في بحاره ج ١٨ ص ١٩٦.

توضيح مفاد الرواية:

إنّنا مهما جهلنا بشيء من الأشياء، فلا يمكن أن نجهل بأنّ النبوّة منصب إلٰهي لا يتحمله إلاّ الأمثل فالأمثل من الناس، ولا يقوم بأعبائها إلاّ من عمر قلبه بالإيمان، وزود بالخلوص والصفاء وغمره الطهر والقداسة، وأُعطي مقدرة روحية عظيمة لا يتهيب حين ما يتمثل له رسول ربّه وأمين وحيه، ولا تأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه، وتلك المقدرة لا تفاض من الله على عبد إلاّ بعد معدّات ومقدّمات:

منها: شموخ أصلاب آبائه وطهارة أرحام أُمّهاته، حتى ينتقل من صلب شامخ إلى صلب آخر مثله، ومن رحم طيبة إلى أُخرى مثلها.

منها: البخوع للعبادة، والعكوف على المجاهدات النفسانية والرياضات التي لا تنازع الفطرة، بل تعدل الميول والغرائز وتهديها سبيل الرشاد والسلام.

منها: التفكير في آثار صنعه وعجائب خلقه وبدائع كونه بتعمّق وتدبّر حتى يهديه التفكير في جمال الطبيعة إلى معرفة بارئها معرفة تامة تليق بحال نبيّه.

منها: أن يكون في رعاية أكبر ملك يهديه إلى طرق المكارم ومحاسن الأخلاق كما أشار إليه مولانا أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة: «لقد قرن به ﷺ من لدن ان كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أُمّه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوّة، ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلاّ أنّك لست بنبي ولكنّك وزير، وأنّك لعلى خير» (١).

هذا البيان الضافي من أمير الإسلام والبيان - عليه السّلام - يؤمي إلى كثير مما ذكرناه من المقدمات، ويرسم لنا صورة اجمالية من حياة النبي ﷺ الأكرم قبل بعثته وأنّه ﷺ منذ نعومة أظفاره، ومنذ أن فطم من الرضاع، وقع تحت كفالة أكبر ملك يسلك به طريق المكارم، ويرشده إلى معالم الهداية ومدارج الكمال، ويصونه طيلة حياته من طفولته إلى شبابه وإلى كهولته من كل سوء.

هذا البيان يفيدنا بأنّ نفس أي انسان لا تستعد لقبول الوحي إلاّ بعد اقتحام عقبات وطي مراحل، وأنّ الملك الأكبر لم يزل يواصل نبي الإسلام ليله ونهاره حتى استعدت نفسه لقبول الوحي، وتمثّل أمينه بين يديه، والقاء كلام ربّه إليه ووعيه له منه، بانطباعه في لوح نفسه، وإذا اقتحم تلكم العقبات وتحققت تلكم المقدمات والمعدات

---

(١) نهج البلاغة الخطبة القاصعة ص ٣٧٤ طبع عبده.

وتم الاستعداد، ارتقت نفسه إلى ذلك الحد الأسمى فانحسرت عن قلبه الأغطية وارتفعت عنه الحجب، حيث أخذ يعاين الأشياء على ما هي عليه، ويقف على الحقائق على النحو الذي يليق به ويقدر على تلاوة ما لم يكن قادراً عليها.

وقد تحققت تلك الغاية وبلغت نفسه الشريفة إلى ذلك الحد في الشهر الذي اختاره الله تعالى فيه رسولاً إلى الناس، فجاءه أمين الوحي بلوح برزخي يحتوي على آيات من القرآن الكريم فعرضه على النبي ﷺ وطلبه منه أن يقرأه فأبى وتجافى عن قراءته قائلاً بأنّه أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وأنّه ماقرأ وما كتب طيلة عمره فغطه الأمين ثلاث مرات فإذا به يقرأ.

نحن لا نعلم كنه هذا الغط ولا نستطيع إدراكه، وليس هو إلاّ أثراً مادّياً لأمر معنوي كاماطة الستر عن روحه وقلبه، وهذا أمر طبيعي في مثل هذا الموقف العظيم الجليل الذي تنوء به أجسام وأرواح البشر، فإنّ لكل عمل روحي ولا سيما لمثل كشف الغطاء أثراً خاصاً في أبداننا، والأثر البارز المادي لكشف الغطاء عن قلب النبي ونفسه، هو الغط الذي أحسّه في ذلك الحين، وإلاّ فالغط المادي لا مدخلية له في القدرة على القراءة والتلاوة.

هكذا كانت هذه اللحظة الحاسمة من حياته ﷺ منعطفاً رائعاً إلى مرحلة جديدة، فكشف عنه الغطاء آن الغط، فقدر على قراءة ما لم يقدر عليه فعرف الحروف والنقوش، بل الحقائق فصار أكمل إنسان يطأ الأرض بقدميه، ويعيش في اديمها ويتظلّل بسمائها.

وهذا البيان منضمّاً إلى ما سمعته من حديث بدء الوحي يدفعنا إلى القول بأنّه ﷺ قد انقلبت حاله بعد البعثة بإعجاز من الله سبحانه واقدار منه تعالى. غير أنّ ما ذكرنا مبني على صحة الحديث واتصال سنده إلى النبي ولكنّك عرفت أنّ الحديث مقطوع غير موصول بالنبي الأكرم فلاحظ.

منها: حديث المطالبة بالقلم والدواة:

أخرجه أصحاب الصحاح والسنن ونقلها أهل السير والأخبار كافة ويكفيك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب قال النبي ﷺ : هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، فقال عمر: إنّ النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ : قوموا، فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم [1].

أخذ المستدل بظاهر الحديث وقال: النبي ﷺ طلب أن يكتب كتاباً، وظاهره كون الكاتب نفسه لا غير، لكنّه نسى أو تناسى أنّ في الإسناد مجازاً وأنّه من باب كتب الأمير، أو كتب الملك وليس معناه أنّه كتب بنفسه، بل السيرة على أنّ الملك أو الأمير يمليان والكاتب يكتب وينفّذانه بخاتمها، وكان رسول الله ﷺ يملي والكاتب يكتب ولا يكتب بيده، وهكذا كانت سيرة الخلفاء من بعده، ما كانوا يكتبون إلاّ في مواقف خاصة.

منها قصة الحديبية:

ملخّصه: لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ قالوا: لا نقر بهذا، لو نعلم أنّك رسول لله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله، فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثمّ قال لعلي ـ عليه السّلام ـ :

---

(١) صحيح البخاري ج٢ ص ٢٢ كتاب العلم، وأخرجه مسلم في آخر الوصايا في صحيحه ج٢ ص ١٤، وأحمد في مسنده ج١ ص ٣٢٥ وغيرهم من أعلام الأمّة.

امح رسـول الله، قال علي: لا والله لا أمحوك أبـداً، فأخذ رسـول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب هـذا ما قاضى محمـد بن عبد الله ﷺ لا يدخل مكـة السلاح إلاّ السيف في القراب الخ (١).

وقد تمسك بظاهـر الرواية «أبو الوليد البـاجي» فادّعى أنّ النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة وانّ الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم:

برئت ممّن شرى دنيا بآخرة وقال إنّ رسول الله قد كتبا

فجمعهم الأمير فاستظهر «الباجي» عليهم بما لديـه من المعرفة وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن بل يـؤخذ من مفهوم القرآن، لأنّه قيد النفـي بما قبل ورود القرآن، فقال: ﴿**وما كنت تتلـوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينـك إذاً لارتاب المبطلون**﴾ وبعد أن تحققت اُمنيته وتقـررت بذلك معجزتـه، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانـع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة اُخرى.

وذكر «ابن دحيـة» أنّ جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلـك منهم شيخه ابن أبي شيبة وعمـر بن شبة من طريـق مجاهد، عن عون بـن عبد الله، قال: ما مـات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ، قال مجاهد: فذكرته للشعبي فقال: صدق قد سمعت من يذكر ذلك (٢).

الجواب عن الاستدلال بالرواية:

إنّ ما رواه البخاري وغيره ممّن جنح إليه على خـلاف ما يرتئيه المستدل أدل، فإنّ

(١) صحيح البخاري ج٥ باب عمرة القضاء ص ١٤١، الكامل ج٢ ص ١٣٨، مسند أحمد ج٤ ص ٢٩٨ ولفظه هكذا: فكتب مكان رسـول الله، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبـد الله ألاّ يدخل مكة السلاح إلاّ في القراب.

(٢) فتح البـاري ج٩ ص ٤٤ وأضاف البـاجي بأنّ في معـرفة الكتـاب بعد اُمّيتـه ﷺ معجزة اُخرى لكونها من غير تعليم، لاحظ مناهل العرفان ج١ ص ٣٥٨.

قوله: «وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب» أصدق شاهد على أُميته.

أضف إلى ذلك ما ورد في بعض الروايات من قول النبي الأعظم ﷺ لعلي: «أرني إيّاها» أو قوله: «فضع يدي عليها» فهو شاهد صدق على بقائه على ما كان عليه من الأُمّية.

ولأعلام الحديث والتاريخ كلمات ضافية حول الرواية تميط الستر عن وجه الحقيقة، فلنأت بها وقفنا عليه.

١ ـ قال ابن حجر: إنّ النكتة في قوله: «فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب» هو بيان قوله: «أرني إيّاها» فإنّه ما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع علي ـ عليه السّلام ـ من محوها، إلاّ لكونه لا يحسن الكتابة.

على أنّ قوله بعد ذلك «فكتب» فيه حذف تقدير، أي فمحاها لعلي فكتب وبهذا جزم ابن التين وأطلق «كتب» بمعنى أمر بالكتابة، وهو كثير كقوله: كتب إلى قيصر وكتب إلى كسرى.

وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة، أن يصير عالماً بالكتابة ويخرج عن كونه أُمّياً فإنّ كثيراً ممّن لا يحسن الكتابة، يعرف تصوير بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده وخصوصاً الأسماء ولا يخرج بذلك عن كونه أُمّياً.

واحتمل أن يكون المراد: جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسنها فخرج الكتاب على وفق المراد، فيكون معجزة أُخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أُمّياً وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني أحد أئمّة الأُصول من الأشاعرة وتبعه «ابن الجوزي» وتعقب ذلك السهيلي وغيره بأنّ هذا وإن كان ممكناً ويكون آية أُخرى لكنّه يناقض كونه أُمّياً لا يكتب وهي الآية التي قامت بها الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال السهيلي والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً، والحق أنّ معنى قوله فكتب: أي أمر علياً

أن يكتب[١].

٢ـ قال الحلبي: تمسك بعضهم بظاهر الحديث وقال: إنّ النبي كتب بيده يوم الحديبية معجزة له، مع أنّه لا يقرأ ولا يكتب وجرى على ذلك أبو الوليد الباجي المالكي فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه وقالوا: هذا مخالف للقرآن .

ــ إلى أن قال ــ:والجمهور على أنّ الروايات التي فيها «أنّه أخذ الكتاب بيده فكتب» محمول على المجاز أي أمر أن يكتب الكاتب [٢].

أقول: إنّ لفظة «بيده» ليست في نسخ صحيح البخاري ونص على ذلك الحلبي أيضاً وقوله: «ليس يحسن أن يكتب» الوارد في صحيحه وغيره من المصادر الأصلية [٣] دال على ما نرتئيه في هذا المقال.

نعم رواه البخاري في كتاب الصلح بصورة أُخرى قال: «فلمّا كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ، فقالوا: لا نقرّ بها فلو نعلم أنّك رسول الله ما منعناك ــ إلى أن قال ـ: ثم قال لعلي: امح رسول الله ﷺ قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاح إلاّ في القراب» [٤].

إنّ تلك الواقعة قد رويت بصورتين أُخريين، رواهما أعلام السير والتاريخ.

الأُولى:إنّ رسول الله ﷺ أمر علياً أن يمحو لفظ «رسول الله» فامتنع علي من محوه فقال رسول الله: أرنيه، فأراه علي، فمحاه بيده الشريفة، ثم أمر علياً أن يكتب ودونك لفظ الرواية: أمر رسول الله ﷺ علياً أن يكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ

---

(١) فتح الباري ج٩ ص ٤٥.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٤ وسيرة زيني دحلان في هامش السيرة ج٢ ص ٢١٤ ولكن اللفظ للأخير.

(٣) راجع الأموال ص ١٥٨ ونقله عن المجلسي في بحاره ج٢٠ ص ٣٧١.

(٤) صحيح البخاري ج٣ ص ١٨٥ فحذف قوله وليس يحسن يكتب.

سهيل بن عمرو، فقال: فعلى مَ نقاتل؟ اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فأمر بمحوها فعند ذلك كثر الضجيج واللغط وأشاروا إلى السيوف فقال علي -عليه السلام- ما أنا بالذي أمحوه، فقال رسول الله ﷺ ستدعى إلى هذا وأنت مضطهد مقهور [1] إلى أن قال: وضج المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون لا نعطي هذه الدنية، وجعل رسول الله يخفضهم ويومي بيده إليهم أن اسكتوا ثمّ قال: أرنيه، فأراه علي -عليه السلام- فمحاه بيده الشريفة ثمّ أمر علياً أن يكتبه.

نعم يظهر من البخاري أنّ النبي محاه من دون أن يريه علي -عليه السلام- وربّما يستدل به على تمكّنه من القراءة، فروى في كتاب الصلح: لما صالح رسول الله أهل الحديبية - إلى أن قال:- فقال لعلي: أمحه، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله بيده وصالحهم على أن يدخل ... [2].

ويحتمل أنّه تركه للاختصار، اعتماداً على ما نقله في كتاب «الجزية والموادعة مع أهل الحرب» وقد نقل القصة فيه عن «البراء» هكذا ... فقالوا: لو علمنا أنّك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله - إلى أن قال:- فقال لعلي: امح رسول الله ، فقال علي: لا أمحاه أبداً ، قال: فأرنيه؟ قال: فأراه إيّاه، فمحاه النبي ﷺ بيده [3].

ومع هذا التصريح لا يعبأ بما نقله من دون هذه الزيادة.

---

(١) هذا من أعلام النبوّة فلاقى علي أمير المؤمنين يوم صفين عندما رضوا بالحكمين ما لاقاه رسول الله في هذا اليوم، روى أهل السير والتاريخ أنّ علياً أمر لكاتبه أن يكتب: هذا ما اصطلح عليه أميرا المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام- ومعاوية بن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أمير المؤمنين ما حاربناك ولكن أكتب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب، فقال أمير المؤمنين -عليه السلام-: صدق الله وصدق رسوله أخبرني رسول الله ﷺ بذلك ثم كتب الكتاب، راجع السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب الصلح ج٣ ص ١٨٤ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الجزية ج٤ ص ١٠٤ .

وروى الشيخ الأكبر المفيد أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي: فضع يدي عليها، فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال لأمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ ستدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض ثم تمم أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ الكتاب (١).

وفي اعلام الورى: قال النبي ﷺ: امحها يا علي، فقال له: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة. قال: فضع يدي عليها فمحاها رسول الله بيده وقال لعلي: ستدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض (٢).

روى أمين الإسلام الطبرسي القصة بطولها وقال: ثمّ قال رسول الله ﷺ امح رسول الله، فقال: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة، فأخذ رسول الله ﷺ فمحاه ،ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله (٣).

وعلى هذه الصورة من الرواية: أنّ رسول الله نفسه محا لفظة رسول الله، لكن علياً كتب الكتاب بأمره دون رسول الله.

الثانية: وهي تشترك مع الأُولى في التصريح بأنّ الكتاب كتبه علي ـ عليه السّلام ـ من بدئه إلى ختمه بأمر رسول الله واملاء منه وتفترق عنها بأنّه ليس فيها عن محو لفظة رسول الله عين ولا أثر.

خلاصتها: أنّه عندما أحسّ الهدوء وانخفضت الأصوات بإيماء منه ﷺ أمر رسول الله علياً أن يكتب هذا ما صالح أو قاضى عليه محمد بن عبد الله ... فكتب على حسب ما املاه عليه رسول الله ﷺ ودونك نقل ما رواه الطبري في تاريخه.

قال سهيل: لو شهدت أنّك رسول الله لم اقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ﷺ

---

(١) السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٤ وسيرة زيني دحلان ج٢ ص ٢١٢، والارشاد ص ٦ واللفظ للأخير.

(٢) اعلام الورى ص ١٠٦.

(٣) مجمع البيان ج٩ ص ١١٨ راجع تفسير القمي ص ٦٣٤.

وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب [١] وقريب منه ما رواه البخاري نفسه في موضع آخر [٢] واليعقوبي في تاريخه [٣] والواقدي في مغازيه [٤] وابن هشام في سيرته [٥] وغيرهم من أساطين التاريخ والحديث [٦] ويقرب منه ما رواه الكليني في روضته حيث قال: قال رسول الله لعلي: اكتب: هذا ما قاضى رسول الله وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: فعلى مَ نقاتلك يا محمد؟ فقال ﷺ: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فقال له الناس أنت رسول الله، قال:اكتب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فقال له الناس: أنت رسول الله [٧].

فبعد هذا الاتفاق والاصفاق من أعلام التاريخ والحديث والتفسير على أنّ الكتاب كتبه علي باملاء من النبي ﷺ من أوّله إلى آخره فهل يصح الركون إلى ما تفرد به البخاري وأحمد واعتمد عليهما الجزري في كامله، مع أنّ البخاري نقض ما نقله في باب «عمرة القضاء» في كتاب الصلح على ما عرّفناك.

على أنّ التضارب الصريح الذي نشاهده في نقل البخاري في المقام يمنع النفس عن الركون إليه، فقد اضطرب نقله وكلامه من وجوه:

١ـ تراه أنّه نقل القصة في موضع هكذا «أخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله» [٨]، وفي الوقت نفسه ساقها في موضع آخر من كتابه بنفس اللفظ السابق، ولكنه حذف قوله: «وليس يحسن يكتب» [٩].

٢ـ تراه أنّه يصرح بأنّ النبي أمحا لقبه بإراءة علي ـ عليه السلام ـ حيث يقول: فقال لعلي: امحه، فقال علي ـ عليه السلام ـ لا أمحاه أبداً، قال: فأرينه؟ قال: فأراه إيّاه فمحاه النبي بيده [١٠].

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص ٢٨١.
(٢) صحيح البخاري كتاب الصلح ج٣ ص ١٩٥.
(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٤٥.
(٤) المغازي ج٢ ص ٦١٠.
(٥) السيرة ج٢ ص ٣١٧.
(٦) راجع صحيح مسلم ج٥ ص ١٧٤.
(٧) روضة الكافي ص ٣٢٦.
(٨) صحيح البخاري ج٥ ص ١٤١.
(٩) نفس المصدر ج٣ ص ١٨٥.
(١٠) صحيح البخاري ج٤ ص ١٠٤.

ومع ذلك تراه ينقل امحاء النبي، من دون أن يشير بـأنّه كان بإراءة من علي حيث قال: « فقال لعلي: امح رسول الله، فقال: ما أنا بالذي امحاه، فمحاه رسول الله بيده» [١].

٣ـ يظهـر منه في موضـع أنّ علياً هو الـذي كتب اسم النبي بعـد امحائه ما امحاه حيث قال: «فقال النبي ﷺ: والله إنّي لرسـول الله و إن كذّبتموني، اكتب محمـد بن عبد الله» [٢].

منها كتاب النبي إلى العذار:

روى البخاري عن العذار بن خالد قال كتب لي النبي ﷺ: هذا ما اشترى محمد رسول الله من العذار بن خالد بيع المسلم المسلم لا داء ولا خبيثة ولا غائلة [٣].

ودلالته على أنّه ﷺ، كتب الكتاب بنفسه ضعيفة، لا يمكن الركون إليه في هذه المسألة إذ كثيراً ما يسند الفعل إلى الأُمراء والملوك ويراد منه التسبيب لا المباشرة.

كما أنّ الاستدلال على بقاء النبي على ما كانت عليه قبل الدعوة بقوله في الحديث المروي: إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب، ليس بسديد إذ يكفي في صدق مضمونه كون أكثر من بعث إليه أُمّيون لا يكتبون ولا يحسنون.

فذلكة البحث:

مـا سردنـاه لـك من الأحـاديث في هـذه الصحـائف، قـد رواه الجمهـور في صحاحهم، وقد وافاك عـدم دلالة كثير منها على ما نرتئيه، غير حديـث بدء الوحي ولو صح سنـده واعتمدنا على مـا تفردت بنقله «عـائشة» فإنّما يـدل على أنّه سبحانـه مكّن عبده مـن قراءة اللـوح الذي كان بيـد أمين الوحـي، ولم يكن ذاك اللوح، لـوحاً مـادياً

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ١٨٥.

(٢) راجع المصدر السابق ج٣ ص ١٩٥.

(٣) صحيح البخاري ج٣ ص ٧.

وصحيفة جسمانية بل كان لوحاً برزخياً، ومن قدر على قراءة نقوش ذاك اللوح وحروفه وجمله يقدر على قراءة ما كتب في الألواح والصحائف المادية، ولكنّك قد وقفت على إرسال الرواية وأنّ الحديث غير موصول بالنبي ﷺ إلاّ من ناحيتها.

بقيت في المقام روايات ضعاف ومراسيل، نقله بعض المتأخرين، ولا يمكن الاستدلال بها في مثل هذه المسألة، ودونك ما نقلوه:

قال القاضي الحافظ أبو الفضل بن عياض بن موسى بن عياض: انّه ﷺ كان لا يكتب ، ولكنّه أُوتي علم كل شيء حتى قد وردت آثار بمعرفته بالخط وحسن تصويرها، كقوله لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم (١) رواه ابن شعبان (٢) من طريق ابن عباس، وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنّه كان يكتب بين يديه ﷺ فقال له: الق الدواة (٣) وحرف القلم (٤) وأقم الباء (٥) وفرق السين (٦) إلى آخر ما نقله ... (٧) والمظنون أنّ الحديث من ولائد النزعات الباطلة تزلّفاً للأُمويين.

عرض وتحقيق:

لا بأس بإكمال البحث بما وصل إلينا من الروايات من أئمّة أهل البيت مع ترجمة رجال اسنادها وتوضيح مضامينها على وجه الاجمال وقد نقل المجلسي منها كثيراً في بحاره في الباب السادس من الجزء السادس عشر المختص بحياة نبيّنا ﷺ (٨).

---

(١) قال القارئ في شرحه: أي مد سينه من غير تبيّن روى الدارمي عن زيد بن السن إذا كتبت فبيّن السين.

(٢) هو أبو إسحاق العصري المالكي له ترجمة في الميزان مات سنة خمسة وستين وثلاثمائة.

(٣) أمر من الاق الدواة إذا جعل لها ليقة وأصلح لها مدادها.

(٤) أي اجعل شقه الأيمن أزيد من الطرف الآخر قليلاً لأنّه أسرع في الكتابة وأبدع في اللطافة.

(٥) أي طولها. (٦) أسنانها.

(٧) راجع فتح الباري ج٩ ص ٤٤، شرح الشفاء ج١ ص ٧٢٦ ـ ٧٢٧.

(٨) بحار الأنوار ج١٦ ص ١٣١ ـ ١٣٥.

١ـ أخرج الصدوق في علل الشرائع عن ابن الوليد عن سعد [١] عن ابن عيسى [٢] عن الحسين بن سعيد ومحمد البرقي عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قال: كان النبي يقرأ الكتاب ولا يكتب [٣].

والحديث صحيح رجاله كلهم ثقاة بالاتفاق ولكنّه ظاهر، أو محمول على عهد الرسالة لما عرفت من تنصيص الكتاب العزيز على كونه أُمّياً قبل البعثة.

٢ـ أخرج الصدوق في علله عن أبيه عن سعد [٤] عن عيسى عن البزنطي عن أبان عن الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله ـ عليه السّلام ـ يقول: كان مما منّ الله على نبيّه ﷺ أنّه كان أُمّياً لا يكتب ولا يقرأ الكتاب [٥] والسند صحيح إلى البزنطي، نعم اختلفت كلماتهم في أبان ورمَوْه بالناووسية والنسبة غير محققة، والرجل من أصحاب الاجماع، والحسن الصيقل مهمل في كتب الرجال لم يوصف بالوثاقة ولم يرد فيه طعن، والحديث وإن لم يكن صحيحاً لكنّه يعتبر خصوصاً لنقل «أبان» الذي هو أحد أصحاب الاجماع عنه، والحديث نظير ما تقدم عليه في الحمل والظهور بل أظهر من سابقه في كونه راجعاً إلى أيام نبوّته وعهد رسالته ﷺ بقرينة قوله: «كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ به على نبيّه».

٣ـ أخرج الصدوق في علل الشرائع عن أبيه عن سعد عن معاوية بن الحكيم عن البزنطي عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قال: كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ على رسول الله ﷺ أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلما توجه أبو سفيان إلى «أُحد» كتب العباس إلى النبي فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه، ولم يخبر أصحابه وأمرهم أن يدخلوا المدينة، فلما دخلوا المدينة أخبرهم [٦] والخبر صحيح إلى البزنطي وهو

---

(١) المراد سعد بن عبد الله.

(٢) أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي.

(٣) علل الشرائع ص ٥٣.

(٤) قد أوضحنا المراد منه ومن بعده في الحديث المتقدم.

(٥) علل الشرائع ص ٥٣ ومعاني الأخبار ص ٢٠.

(٦) علل الشرائع ص ٥٣.

من أصحاب الاجماع ورجاله كلهم ثقـاة غير أنّ في آخره اجمالاً واهمالاً، يلحقه با لمراسيل نعم لا بأس بمضمـونه فهو يؤيـد ما قدمنـاه من الصحيحين، وأنّ النبيﷺ كان يقـرأ أحيانـاً في عهد الرسالـة لكن نقله زيني دحـلان في سيرته بصورة أُخـرى ودونك نصه: كتب العباس للنبي ﷺ وأخبره بجمعهم وخـروجهم وراودوه على الخروج معهم فـأبى واعتذر بما لحقه يوم بـدر ولم يساعدهم بشيء من المال فجاء كتابه للنبـي وهو بقبا وكان العباس أرسـل الكتاب مع رجل مـن بني غفار استـأجره وشرط عليه أن يـأتي المدينة في ثلاثة أيام بليـاليها ففعل ذلك، فلما جاء الكتاب فك ختمـه ودفعه لأُبي بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أُبياً ثم نزل ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس [١].

٤ـ أخرج الشيـخ الأقدم محمد بن الحسن الصفـار عن الحسن بن علي عن أحمد بن هـلال عـن خلف بن حماد عـن عبـد الرحمن بـن الحجـاج قـال: قال أبـو عبـد الله ـعليه السلامـ : إنّ النبي كان يقرأ ويكتـب ويقرأ ما لم يكتب [٢] ويكفي في ضعف الحديث أنّه مـروي عن أحمد بن هلال الـذي خرج التـوقيع عن الناحيـة المقدسة في لعنـه ونقل الصدوق عن شيخـه ابن الوليد عن سعد أنّـه قال: ما سمعنا ورأينـا بمتشيّع رجع عن تشيّعه إلى النصب إلاّ أحمد بن هلال.

أضف إليـه أنّـه مخالف لما قـدمنـاه من الصحيحين من أنّـه ﷺ كـان يقـرأ ولا يكتب [٣].

فاتضح أنّ ما يصح من هذه المأثـورات إنّما هو الحديث الأوّل والثاني ويؤيدهما الثالث وهي بمجموعها تهدف إلى أنّ النبي ﷺ كان يقرأ ولا يكتب أيام رسالته ورحاب دعوتـه ولا ضير في الالتزام بـه خصوصـاً إذا كان غير متظـاهر بـالقراءة، مكتفيـاً بقدر الضرورة، ويؤيدها حديث بدء الرسالة.

---

(١) سيرة زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية ج٢ ص ٢٤.

(٢) بصائر الدرجات ص ٦٢.

(٣) راجع الحديث الأوّل والثاني.

٥ـ أخرج الكليني في كتاب الحجة بـاسناده عن الحسن بن العباس بن الحريش عن أبي جعفر الثاني ـعليه السّلامـ عن أبي عبد الله قال:

كان علي ـعليه السّلامـ كثيراً ما يقول: ما اجتمع التيمي والعدوي عند رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿إنّا أنزلناه﴾ بتخشّع وبكـاء فيقولان: ما أشـد رقّتك لهذه السـورة؟ فيقول رسول الله لما رأت عيني ووعـىٰ قلبي، ولما يرى قلب هـذا من بعدي فيقولان: ومـا الذي رأيت ومـا الذي يرى؟ قـال: فيكتب لهما في التراب: ﴿تَنَزَّلُ الملائِكَةُ وَ الـرُّوحُ فِيهَا بِإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْـرٍ﴾ قال: ثـمّ يقول: هل بقى شيء بعـد قوله عـزّ وجلّ : ﴿كلّ أمر﴾ فيقولان: لا، فيقـول: هل تعلمان من المنـزل إليه بـذلك؟ فيقـولان: أنت يا رسـول الله، فيقول: نعم، فيقول: هل تكون ليلة القـدر من بعدي؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول:فهل ينزل ذلك الأمر فيهـا؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: إلى من؟ فيقـولان: لا ندري، فيأخذ برأسي ويقول: إن لم تدريا فادريا هو هذا مـن بعدي، قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله ﷺ من شدة ما يداخلهما من الرعب [١].

وجه الدلالة: أنّ قوله ـعليه السّلامـ: «فيكتب لهما في التراب» بصيغة المعلوم دال على أنّ النبي كان يكتب هذه الآيات في التراب.

ويؤسفنا أنّ الحديث ضعيف للغاية.

لأجل الحسـن بن العباس بـن الحريش، قـال النجاشي: «أبـو علي روى عن أبي جعفر الثاني ضعيف جداً له كتاب «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» وهو كتاب رديء الحديث، مضطرب الألفاظ [٢].

وقال الغضائري: «أبو محمد ضعيف جـداً يروي عن أبي جعفر الثاني فضل «إنّا أنزلناه في ليلـة القدر» وله كتاب مصنف فـاسد الألفاظ، تشهد مخائله على أنّـه موضوع وهذا الرجل لا يلتفت إليه ولا يكتب من حديثه».

---

(١) الكافي كتاب الحجة باب «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» وتفسيرها ص ٢٤٩ طبع مكتبة الصدوق.

(٢) فهرست النجاشي ص ٤٥ ط الهند.

قال المحقق التستري: «إن أردت أن تقف على صحة ما قاله النجاشي والغضائري في حق الرجل فراجع باب «فضل إنّا أنزلناه» من الكافي تجد صحة كلامهما فترى أنّه روى في ذاك الباب تسعة أخبار بسند واحد كلها عن الحسن بن عباس بن الحريش عن الجواد ـ عليه السلام ـ فلفظها فاسد ومعناها كاسد وهكذا راجع تفسير القمي في أول سورة محمد ﷺ»[1].

ثم نقل بعض أحاديثه، ونقده نقداً نزيهاً.

حصيلة الكلام في أُمّية النبي ﷺ:

قد أصبحت أُمّية النبي الأعظم ﷺ قبل أن يختاره الله لإبلاغ رسالته أمراً واضحاً كوضوح شمس الضحى، لا يشك فيها ذو مسكة ومن له أدنى إلمام بتاريخ الجزيرة وحياة الأُمّة العربية، العائشة فيها وأمّا حديثها بعد البعثة فالامعان في ما نقلناه من حديث بدء الرسالة والصحيحين المرويين عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ يعطي أنّه كان يقرأ ولا يكتب، فلو جاز الركون في مثل المقام إلى هذه النقول المروية بصورة الآحاد من الأخبار، فنحكم بمفادها، وإلاّ فالحكم ببقائه على ما كان عليه من الأُمّية قبل البعثة أوثق وأسد، ويؤيد الأخير ما نقلناه في قصة الحديبية في بعض صورها التي عرفناك، والتعليل الوارد في الآية الكريمة أعني قوله سبحانه: ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ خصوصاً لو كان مراد القائل تظاهره ﷺ بصناعة القراءة والكتابة على أظهر الناس، ورؤوس الأشهاد، فإنّه يجر الشك إلى ما قبل الرسالة كما لايخفى.

نحن وقساوسة الغرب والمستغربة:

بالرغم من شهادة تاريخ الحجاز في الدور الجاهلي، ومحيطه البدوي على أُمّية النبي وعشيرته وأقربائه، نجد مغالطات وتشكيكات أثارتها قساوسة الغرب حول

---

(١) قاموس الرجال ج٣ ص ١٨٢ ـ ١٨٣، راجع تنقيح المقال ج١ ص ٢٨٦.

أُمّيته ﷺ وتبعهم بعض المستغربة في الشرق، الذين يتطفّلون على موائد الغربيين في كل شيء، حتى فيما يرجع إلى الإسلام والمسلمين، والشرق والشرقي، غير واقفين على نواياهم وما تكنه صدورهم وضمائرهم، من القضاء على الإسلام والمسلمين، والحقد والعداء للنبي الأعظم ورسالته، وما يستهدفون من بث هذه التشكيكات والمغالطات، التي لها طابع التحقيق، حول الرسول الأكرم وأُمّيته.

وفي الوقت نفسه، لا مصدر لهم في انكار أُمّيته إلاّ مراسيل عن مجاهيل، أو انتحالات أعداء الدين، نظراء ابن أبي العوجاء و ... كل ذلك لبثّ الريب في قلوب البسطاء من المسلمين بالنسبة إلى رسالته، ودينه، وكتابه، حتى يتخذوا ذلك ذريعة لانكار رسالته الالهية واتصاله بالعوالم الروحية حتى يصوّروا لهم، أنّ النبي كان قارئاً وكاتباً وأنّ ما جاء به من المعارف والأحكام هي انتاج عبقريته الفذة وشخصيته اللامعة، وسبره في الكتب وغوره فيها، شأن كل باحث متتبع.

غير أنّ جهلهم أو تجاهلهم الحقيقة ودعاياتهم الواسعة لا يؤثر شيئاً في قلوب المثقفين من الأُمّة، كيف وقد تسالمت عليها الأُمّة منذ ألف وقرون لم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، حتى جعل صاحب المنار وغيره «أُمّية» النبي أحد وجوه اعجاز القرآن وقالوا: إنّ الضمير في قوله سبحانه: ﴿فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعود إلى ـ المبلغ ـ بكسر اللام أي الرسول نفسه لا إلى القرآن، وقال في تفسير الآية: «فإن خفي عليكم الحق بذاته فهذه آية من أظهر آياته، وهي عجزكم عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، من رجل أُمّي مثل الذي جاءكم به، وهو عبدنا ورسولنا محمد وإن عجزتم عن الاتيان بسورة من مثله، تساوي سورة في هدايتها وتضارعها في اسلوبها وبلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة وعصركم أرقى عصور الفصاحة فاعلموا ما جاء به، بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلاّ بوحي إلهي وامداد سماوي» (١).

وما ذكره من رجوع الضمير إلى النبي وإن كان خلاف ظاهر الآية، خصوصاً في

(١) المنار ج١ ص ١٩١.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء ـ ٨٨) وفي قوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَات﴾ (هود ـ ١٣) إلاّ أنّه أحد وجوه اعجازه.

قال العلاّمة الشهرستاني: «إنّ من وجوه اعجاز القرآن والاعجاب به صدوره من مثل محمد الأُمّي ربيب البادية، البعيد عن حضاير الفنون، البعيد عن حواضر الحكماء ومحاضر العلماء ـ إلى أن أوضح مقاله بمثال ـ وقال: الشعب الواثق بأنّ سفيره لا يقرأ ولا يكتب ولا يخون، ولا يكذب ولم يعهد منه الشعر ففي وضع راهن كهذا لو يفاجئهم سفيرهم بكتاب فذ في الكتابة والإنشاء والإملاء ... وادعى أنّه مرسل به من ناحية السلطان ... فإنّ الشعب ضروري ايمانه واذعانه له، وعدم اتهامه بأنّه المباشر لهذه الفرية».

❁ الفصل السادس ❁

علم الغيب
في
الكتاب العزيز

أظنّك أيّها القارئ الكريم في غنى عن بيان معنى «الغيب» ومفاده، لغةً وعرفاً، فإنّ للغيب «أصلاً صحيحاً يدل على تستر الشيء عن العيون، ثم يقاس من ذلك الغيب ما غاب، ممّا لا يعلمه إلاّ الله».

«ويقال: غابت الشمس تغيب غيبة وغيوباً وغيباً. وغاب الرجل عن بلده. وأغابت المرأة فهي مغيبة، إذا غاب بعلها، ووقعنا في غيبة وغيابة أي هبطة من الأرض يغاب فيها. قال الله تعالى في قصة يوسف ـ عليه السّلام ـ : ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ والغابة: الاجمة والجمع غابات وغاب، وسمّيت لأنّه يغاب فيها» [1].

وقال الراغب: «الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين يقال: غاب عن كذا، قال تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ واستعمل في كل غائب عن

---

(١) مقاييس اللغة ج٤ ص ٤٠٣.

الحاسة، وعما يغيب عن علم الانسان بمعنى الغائب قال تعالى: ﴿ومَا مِنْ غَائِبَةٍ في السماءِ والأرض إلاّ في كتـٰبٍ مبين﴾ ويقال: للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنّه لا يغيب عنه شيء كما لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وقوله: ﴿عالمُ الغَيبِ والشهادة﴾ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه والغيب في: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنّما يعلم بخبر الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ [١].

توضيحه: أنّ الغيب يقابل الشهود، فما غاب عن حواسّنا وخرج عن حدودها، فهو غيب، سواء أكان أمراً مادياً، قابلاً للإدارك بالحواس، كالحوادث الواقعة في غابر الزمان، والمتكوّنة حالياً، الغائبة عن حواس المخبر، أو بعد لاي من الدهر، أم كان مما يمتنع إدراكه بالحس أو وقوعه في أفقه، كذاته تعالى، وحقيقة البعث والنشور، والحساب، ونفخ الصور، والميزان، وملائكة الله، وجنته وناره، ولقائه، وحقيقة الحياة، في النشأة الأُخرى، والوحي والنبوّة إلى آخر ما يجب الإيمان به وتصديقه، كما يدل عليه قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلـٰوةَ ... وبِالآخرةِ هُم يُوقِنُون﴾ (البقرة:٣ ـ ٤).

وقد أوضحه بعض الأعلام بقوله:

الغيب: في العرف العربي اسم لمعنى يقابل الحضور وضد الشهود، كما في القرآن: ﴿عالمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وفي الحديث النبوي: «ألا فليبلغن الشاهد الغائب» وفي كلام الإمام علي ـ عليه السّلام ـ: «شهود كالغيب».

والشهود: كناية عن اتصال الحواس بالحاضر لديها وهو المراد من الحضور أيضاً فالغيب كالغائب، ما لا يتصل به الحس، وبه سمّي المسافر غائباً، وخلافه حاضراً، فالنبأ الغيبي، بناء على ما عرفت، هو النبأ الذي لا يتصل بالمحسوس لديك فعلاً، وإن

---

(١) مفردات الراغب ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

كان أصله محسوساً من قبل، ثم غاب كالمسافر أو بالعكس كالمولود الذي كان في غيابة الرحم ، محجوباً عن الحواس ثمّ ولد بعد، فصار محسوساً بين الناس.

وربّ أُمم دوّخت الأقيال والأجيال في سالف الدهر، كجرهم وأياد، ثمّ بادت، وهم اليوم غيب، وأنباؤهم الخطيرة تعد في زوايا التاريخ من الغيوب، وربّ جراثيم الأمراض كانت محجوبة، أو لا تزال محجوبة عن الحواس، ثمّ في مستقبل الأجيال تقوى الآلات على استكشافها، فتصير محسوسة مشهودة، وربّ طعام يقصر عن شمّه حسّ الانسان والحيوان، إلاّ النمل الذي فاق حسّه على غيره، فيهتدي إليه ولا يغيب عنها، أو كحبة خردل لا تغيب عن الغراب، لحدة بصره، بينما هي غائبة عن غيره، أو صوت متحرك في دياجير الظلام لا يغيب عن احساس الفرس، لقوّة سمعه بينما يغيب عن غيره... [١].

وهذا البيان الضافي يوقفنا على أنّ الغيب على قسمين: مطلق واضافي، فالمطلق منه ما لا يقع في أُفق الحس أبداً ويمتنع إدراكه بالآلات والأدوات المادية كذاته سبحانه وصفاته وغيرهما ممّا عدّدناه، والاضافي ما يتفاوت بحسب الظروف والاشخاص، فربما يكون غيباً في ظرف، فجرثومة السل كانت غيباً في غابر الزمان، قبل أن يقف عليها مكتشفوها، ويروها تحت المجهر إلى أن عادت أمراً محسوساً في هذه الظروف التي كثرت فيها الأدوات العلمية، وسهل الوقوف على صغار الموجودات التي لا يدركها الطرف مجرداً عن الآلات الحديثة ...

وإلى ذلك يشير العلامة الطباطبائي بقوله: الأشياء المجهولة، أي غير الواقعة تحت الحواس، غيب، ومن الحري أن نسمّيها عندئذ غيباً نسبياً، لأنّ هذا الوصف الطارئ عليها، وصف نسبي يختلف بالنسب والاضافات، كما أنّ ما في الدار مثلاً، من الشهادة بالنسبة إلى من فيها، ومن قبيل الغيب بالنسبة إلى من هو في خارجها، وكذا الأضواء والأكوان المحسوسة بحاسّة البصر، من الشهادة بالنسبة إلى البصر، ومن الغيب

---

(١) المعجزة الخالدة ص ٧١ـ٧٢.

بالنسبة إلى حاسّة السمع، والمسموعات التـي ينالها السمع، شهادة بالنسبة إليه، وغيب بالنسبة إلى البصر، ومحسوساتهما جميعاً من الشهادة بالنسبة إلى الانسان الذي يملكهما في بدنه ومن الغيب بالنسبة إلى غيره من الاناسي [١].

وبذلك يصح لنـا أن نصطلح ونعبّر عن الغيب البحت [٢] بـ «الغيب عن العالم المادي» وعن الغيب النسبي بـ «الغيب في العالم».

بما أنّ الغيب البحـت، لا يخرج عن تحت الخبـاء، فـلا يتفـاوت حـالـه بحسـب الظـروف والأحوال، فـالـواجب على الانســان، الإيمان بـه، إذا قام الـدليل على وجـوده لامتناع شهـودها، والتعـرف على حقيقتها مـا لم يخرق الانسان الحجب الماديـة، ولم يلق الستار عن مشـاعره، حتى يتعرّف عليهـا كتعرّفه على المحسوسـات ولا يحصل ذلك إلاّ بالموت، والتحلل من الجسد، والتحرر من المادة حتى يصدق عليه قوله سبحانه:

﴿وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ * لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾ (ق : ٢١ ـ ٢٢).

أنواع المغيبات في القرآن:

إنّ المغيبات الواردة في القرآن لا تزيد اُصولها على أقسام ثلاثة:

الأوّل:

الخبر عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته، والخبر عن الروحانيات وملائكته وتدبيره العوالم الأرضيـة، والسماويه، وشـؤون الاحياء بعـد الموت في البرزخ وحالـة الأرواح قبل المعـاد وبعده من نعيـم أو جحيم، والقرآن يمـوج بهذه المعـاني الغيبية المطلقـة التي لا

---

(١) الميزان ج٧ ص ١٢٨.

(٢) ما أسميناه غيباً بحتاً فإنّما هـو مجرد اصطلاح ليحصل الفـرق بين القسمين وإلاّ فإنّما هـو غيب بحت بالنسبـة إلى العالم المادي، وأمّا بالنسبة إلى نفسـه أو ما يسانخه من الموجـودات أو الواجب سبحانه فليس غيباً أصلاً.

يتعرف عليها الحس ولا تقع في أُفقه في هذا الظرف.

الثاني:

الإخبار عن أُمم قد خلت من قبل وطويت حياتها، فأصبحوا ممّا لا يرى حتى مساكنهم ومواطنهم، من دون أن يرجع إلى كتب السير والتاريخ والكهنة والربانيين أو يطالع كتاباً أو باباً خاصاً في هذا الموضوع. ومثله الخبر عن شؤون البشر في مستقبل أدواره وأطواره، والاشعار بملاحم وفتن وأحداث في مستقبل الزمن، كإخبار القرآن عن إنّ ابا لهب وامرأته يموتان كافرين، في قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ**﴾ (المسد: ١ـ٥)، وإخباره عن غلبة الروم، بعد بضع سنين في قوله سبحانه: ﴿**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِمْ سَيَغلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ...**﴾ (الروم: ١ـ٤).

وتلحق بذلك الأُمور التي قيل اختص علمه بها سبحانه، كوقت الساعة: والمستور في ظلمات الارحام، ... الواردة في قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (لقمان ـ ٣٤).

وسوف نرجع إلى البحث عن هذه الآية وتقف على نظرنا فيها.

الثالث:

الإخبار عن بعض الموجودات أو النواميس السائدة في الكون، وقد كان مغيباً عند نزول الوحي عن ادراك الحواس المجردة عن الأدوات المخترعة في هذا الزمان، كإخباره سبحانه عن زوجية الأشياء عامة بقوله: ﴿**وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (الذاريات ـ ٤٩) ووجود الدابة في السماوات بقوله: ﴿**وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمْوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِما مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إذا يَشَاءُ**

قَدِيرٌ﴾(الشورى ـ ٢٩).

إلى غير ذلك من إخباراته عن الحقائق العلمية والنواميس المطردة في الكون.

ثمّ إنّ الزرقاني أرجع أُصول أنباء الغيب الواردة في القرآن إلى أُمور ثلاثة على وجه يقرب ممّا ذكرناه، قال: من ذلك قصص عن الماضي البعيد، المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلاً عن التحدث به وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء ـ إلى أن قال:ـ أمّا غيوب الماضي فكثيرة تتمثّل في تلك القصص الرائعة التي يفيض بها التنزيل ولم يكن لمحمد إليها من سبيل كقصة نوح، وموسى ، ومريم، وأمّا غيب الحاضر فنريد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنّة والنار ونحو ذلك ممّا لم يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به، فضلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح.

ومن غيب الحاضر أو الماضي ما جاء في طي القرآن من حقائق ومنافع ومبادئ لم يكشف عنها إلاّ العلم الحديث، وأمّا غيب المستقبل فهو تنبّأ بحوادث وقعت كما أخبر...[1].

نعم أرجع العلاّمة الشهرستاني أنواع المغيبات إلى ثمانية أقسام [2] ويرجع أُصولها إلى الوجوه الثلاثة التي أوضحناها.

ثمّ إنّ هذا التقسيم، إنّما هو بالنسبة إلى البشر المحدود، الذي تغيب الأشياء عنه، وأمّا بالنسبة إليه سبحانه فالأشياء كلّها حاضرة لديه، بأعيانها الخارجية فالماضي والحال والمستقبل عنده سواسية: ﴿وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ (يونس:٦١) فهو المحيط بكل ما دق وجل، ولا يشذ عن محيط علمه خبر خطير ولا صغير ... إلاّ يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير.

---

(١) مناهل العرفان ج٢ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) المعجزة الخالدة ص ٧٢.

الإخبار عن الغيب أحد وجوه إعجازه:

ثمّ إنّ المغيبات التي أشرنا إليها اجمالاً، دلّت قبل كلّ شيء على كون القرآن كتاباً سماوياً، أوحاه سبحانه إلى أحد سفرائه، فإنّ الإخبار عن المغيبات الكونية، والنواميس السائدة في الوجود، أو الإخبار عن الأُمم البائدة على النحو الذي ذكرناه أو الإخبار عن شؤون البشر في مستقبل أدواره، والإيماء إلى الملاحم والفتن، والتي لا يدل عليها ولا يرشد إليها الحس، أمر خارج عن طوق البشر، فلا مصدر لها إلاّ كونها وحياً أو إلهاماً، من خالقه إلى مخلوقه ورسوله الذي ارتضاه فهو عالم الغيب والشهادة فلا يطلع على غيبه أحداً إلاّ من ارتضاه من رسول، فمستند النبي في مثل هذه المغيبات هو الله علام الغيوب.

وقد عرفت أنّ الإخبار عن الغيب بأقسامه الثلاثة كثير في القرآن المجيد، وأنّ استقصاء الموضوع بعامّة نواحيه، يحوج الباحث إلى تأليف مفرد. وقد قام عدة من الفضلاء في عصرنا بجمع الآيات التي أخبرت عن النواميس السائدة على الكون من أسرار الخلقة ونواميس الطبيعة، مما كانت مختفية في عصر نزول القرآن، ولم يكن سبيل إلى استكشافها إلاّ من طريق الوحي ففسرّوها وأوضحوا مداليلها [١] وبذلك أغنونا عن أفاضة القول في هذا القسم من الغيب، وأمّا غير هذا القسم من أقسام المغيبات التي جاءت في القرآن فمجمل القول فيه:

إنّ المتفحّص في ما أخبر القرآن به من أحوال الأُمم والحوادث الماضية، يجد من نفسه أنّ المصدر الوحيد لبيان تلك الحوادث هو الوحي الالهي ليس غير وأنّ النبي الأعظم ﷺ لم يتلقها من مثقفي عصره ولا من الكتب الدارجة في عهده، التي تنسب إلى الوحي وتعزى إلى الأنبياء، إذ لو فرضنا أنّه أخذ ما أتى به من القصص من أحبار اليهود وأساقفة النصارى وقسيسيهم وكهنة العرب والكتب الدينية الرائجة من التوراة

---

(١) راجع كتاب العلوم الطبيعية والقرآن، والقرآن والعلوم الحديثة وغيرهما.

والانجيل، لوجب أن تنعكس على كتابه ظلال مصادر علمه، ومآخذ نقله، ونحن نرى مخالفة القرآن لكتب العهدين في جميع النواحي عامة وفي ناحية القصص خاصة.

إنّ القرآن اشترك في بعض القصص مع التوراة الرائجة التي اتفق اليهود والنصارى على أنّها كتاب الله المنزل على رسوله «موسى» -عليه السّلام- فأوردت التوراة الدارجة تلك القصص مملوءة بالخرافات وجاء في بيانها بجمل تشابه كلام المبتلى بالهذيان.

غير أنّ القرآن الكريم لما كان كلام الله القدوس، ووحيه، قد نقل كثيراً من قصص الأُمم وتواريخها، بأبلغ العبارات وأحسنها، وأنصع الجمل وأسدّها نزيهة عمّا يمس كرامة الله سبحانه وكرامة أنبيائه ورسله، ولو صح ما ذكر من اختلاق النبي الأكرم للقرآن من جانب نفسه يجب أن يتأثر بمصادر نقلها، وامتنع حسب العادة أن لا يذكر شيئاً من محتوياتها مع ما فيها من القعقعة التاريخية، والناقل لقصص العهدين يستحيل أن لا ينعكس على أفكاره وكلامه، ما يجده فيهما.

يجب على علماء المسلمين ولاسيما الاخصائيين منهم في علم السير والتاريخ القيام بتأليف موسوعة كبيرة [1] تتضمن عرض ما جاء في العهدين من القصص والحوادث على ما جاء في القرآن ثمّ القضاء الصحيح بين النقلين حتى يتبيّن أنّ ما يحتوي عليه القرآن من سمّو المعارف ورصانة التعليم، لا يمكن أن يعزى إلاّ إلى الوحي السماوي، وأنّ ما تشتمل عليه كتب العهدين من قصص الخرافة وأباطيل الأحاديث لا تلتئم مع البرهان، ولا تتمشّى مع المنطق الصحيح، وأنّ هذه الكتب قد دست وزورت

---

(١) نعم، قد قام لفيف من الفطاحل الأعلام فألّفوا في هذا المضمار كتباً ورسائل تسد جوع القارئ بعض السد فعالجوا بعض النواحي من هذه الاطروحة شكر الله مساعيهم، فراجع إلى «الهدى إلى دين المصطفى» و «الرحلة المدرسية» للعلامة الحجة البلاغي و «نفحات الاعجاز» و «البيان في تفسير القرآن» لآية الله الخوئي و «الميزان في تفسير القرآن» ج٣ تأليف المفكر الإسلامي الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي، ثمّ حكّم عقلك ووجدانك هل ترى أنّ النبي الأعظم ﷺ أخذ معارف كتابه واقتبس معارف قرآنه وقصصه من هذه الكتب.

وتطرّق إليها التحريف بيد أُناس لا خلاق لهم من الدين ولا الشرف الانساني.

بقي من أقسام الغيب الوارد في الكتاب العزيز أمران:

١ـ ما يرجع إلى الإخبار عن الله سبحانـه وأسمائه وصفاته والعوالم الروحية وغيرها التي يمـوج بها القرآن، فقـد خصصنا لبيان هـذه المعارف الجزء السادس من كتابنا هذا فشرحنا لك هذه المعـارف وما فيها من سمو ورصانة واحـداً بعد واحد حسب الترتيب الذي وقفت عليه في مقدمة الكتاب.

٢ـ ما يـرجع إلى الخبر عن شؤون البشر في مستقبل أدواره وأطواره ومـا يلم به من ملاحم وفتن، فهذا هو الذي نبحث عنه في المقام على وجه الاختصار فنقول:

إنّ القرآن قد أخبر عن الحوادث التي كان التكهّن والفـراسة يقتضيان خلافه من حيث النظر إلى الحال الحاضر وطغيان الشرك وضعف الدعـوة الإسلامية، وما يجري من النكال والتشريد، والجفاء على ملبيها، مع أنّه صار صادقاً في جميع ما اخبر به ولم يخالف الواقع في شيء منها، ولا شك أنّه لم يكن له طريق في الإخبار بهذه المغيبات إلاّ الوحي، هب أنّـه تكهّن أو تفـرّس في بعض إخبـاراته ــ وأجل نبي العظــمة عن هـذه الفريـة الشائنة، فهل يمكن القـول بأنّه تفرس في جميع ما اخبر به، وأنّـه تنبأ معتمداً على علائم وإمارات كـانت ترشده إليهـا، مع أنّ المفروض أنّ الأحوال الحاضرة في بعض إخبـاراته كـانت تقتضي خلاف مـا اخبر بـه كما سيوافيك بيـانـه، ونحن نأتي في المقـام بكثير من الآيات التي تتضمن الإخبار عن الحوادث المستقبلية التـي تحققت بعد إخبارها في زمن الرسولﷺ أو بعد لحوقه بـالرفيق الأعلى بيسير، وأمّا الاستقصـاء في ذلك فلنتركه إلى من أراد الغور أكثر من ذلك.

نقول: هناك مغيبات عن ملاحم أحـداث وفتن اخبر بها القرآن وظهر صدقها في عصر الرسول ﷺ أو بعده بقليل، فهذه الأخبار تدل قبل كل شيء على صحة نبوّته وأنّ القرآن منـزّل من عنده سبحانـه، ولا يمكن حملها على مـا يحدث بالمصادفـة أو القرائن أحيـاناً من أقـوال الكهنة أو العـرّافين والمنجمين فإنّ كـذب هؤلاء أكثـر من صـدقهم

والناس لا يحصون عليهم أقوالهم، ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم، وإنّما يذكرون بعض ذلك إذا اقتضته الحال، كتشنيع أبي تمام على المنجمين في زعمهم أنّ عمورية لا تفتح إلاّ عند نضج التين والعنب في قصيدته المعروفة التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب　　　في حده الحد بين الجد واللعب

إلى أن يقول:

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت　　　جلودهم قبل نضج التين والعنب

على أنّ دأب المنجمين هو أن يعبرّوا عمّا يتوقعون من أحداث المستقبل بآرائهم وبقرائن الأحوال وأخبار الصحف الدورية، برموز وكنايات واشارات يفسرون بها الوقائع بأهوائهم، وأمّا ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم المحرم ولا من علم الغيب في شيء [1].

---

(١) راجع المنار ج١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

مغيبات القرآن
وأخباره الغيبية

١ ـ تنبؤ القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله:

لقد تحدى القرآن في مواضع عديدة من آيات سوره تحدّياً يثير روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم، وتحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة حيث انقرضت طبقة المخاطبين ومضت أجيال من عرب وأعجام، وكلهم اعترفوا بالعجز عن المعارضة مع كثرة من تتطاول أعناقهم إلى هدم بناء الدين، وإبطال معجزة الإسلام الخالدة.

إنّ المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة أن يستدركوا على السابقين إمّا نقصاً يعالجوه بالكمال أو كمالاً يعالجونه بما هو أكمل منه، وإذا فرضنا أنّ واحداً قد عجز عن هذا، فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة، وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أُمّة، وإذا عجزت أُمّة، فمن البعيد أن يعجز جيل، وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال، فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدّي عن رجل يعرف ما يقول فضلاً عن رجل عظيم، فضلاً عن محمد أفضل المرسلين؟ وهل يمكن أن يفسر هذا التحدّي الجريء الطويل العريض، إلاّ بأنّه استمداد من وحي السماء واستناد إلى من يملك السمع والأبصار، وحديث عن من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه [1].

---

(١) مناهل العرفان ج٢ ص ٢٦٨.

وقد نص بذلك التحدّي في موارد من آيات سوره.

منها قوله سبحانه:

﴿وَ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنَا عَلىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣ـ٢٤).

أخبر القرآن في بداية أمر النبي بمكة عن عجز البشر عن مباراة القرآن ومعارضته إلى يوم القيامة، وأنّ الناس لا يسعهم الاتيان بمثل هذا القرآن، مهما تظاهروا وتناصروا وحتى اليوم تنقضي على هذا التحدي والتنبؤ قرون وهو صادق في وعده وعهده وسيبقى التحدّي قائماً مادام القرآن، ويستمر عجز البشر عن مجابهة هذا التحدي.

قال الطبرسي: «ولن» في قوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ تنفي على التأبيد في المستقبل وفيه دلالة على صحة نبوّة نبيّنا ﷺ لأنّه يتضمن الإخبار عن حالهم في مستقبل الأوقات بأنّهم لا يأتون بمثله، فوافق المخبر عنه الخبر [1].

ويليها في التنبؤ بعجز البشر والجن عن معارضة القرآن، قوله سبحانه:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء ـ ٨٨).

وقد بلغ في تحدّيه إلى أن اكتفى من المتحدّي بإتيان عشر سور مثله، بل سورة واحدة من سوره.

قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود ـ ١٣).

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ

---

(١) مجمع البيان ج١ ص ٦٣.

مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس ـ ٣٨).

ترى في هـذه الآيات من التنبّـؤ الواثق بعجـز الانس والجن عن معارضـة القرآن ولكن المستقبل كما يقال «غيب» لا يملكه النبي ولا الوصي ولا أي شخص سواهما غير أنّ النبي صار صادقاً في تنبّؤه هذا، ولا يـزال صادقاً في الحال فعلى أي مصدر اعتمد هو في هذا التحـدي الطويل العريض، غير الإيحاء إليـه الذي لم يزل يصدر عنـه في اخباره وتشريعه؟

٢ـ التنبّؤ بانتصار الرومان على الفرس:

قال سبحانه: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الـرُّومُ * فِـي أَدْنى الأرْضِ وَهُـمْ مِنْ بَعْـدِ غَلَبِهِمْ سَيَغلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأمْـرُ مِنْ قَبلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَـومئِذٍ يَفْرَحُ المؤمِنُـونَ * بِنَصـرِ اللهِ يَنْصُرُ مَن يَشاءُ وَهُوَ العَـزِيزُ الرَّحيمُ * وعْدَ اللهِ لا يُخلِفُ اللهُ وَعْـدَهُ ولكنَّ أكْثَرَ النـاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ١ ـ ٦).

وقد وقـع ما أخبرت به الآيـة بأقل من عشر سنين، فغلب الـروم ودخل جيشهم مملكة الفـرس باجماع من أهل التـاريخ، ودونك اجماله: انّ دولـة الرومان وهـي مسيحية كانت قـد انهزمت أمام دولـة الفرس وهي وثنية بعـد حروب طاحنـة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتمّ المسلمون بسبب أنّها هزيمـة لدولة متديّنة أمام دولة وثنية، وفـرح المشركون وقالوا للمسلمين بشماتـة: إنّ الروم يشهـدون أنّهم أهل كتـاب، وقـد غلبهم المجـوس، وأنتم تزعمون أنّكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أُنزل عليكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم.

فنزلـت الآية الكريمـة يبشّر الله فيها المسلمين: بأنّ هـزيمة الروم هـذه سيعقبها انتصار للمسلمين في بضـع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنـوات وتسع، ولم يك مظنونـاً وقت هـذه البشارة، انّ الـروم تنتصر على الفرس في مثل هـذه المدة الوجيـزة بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها، لأنّ الحروب الطاحنة انهكتها حتى غزيت في عقر دارها، كما يدل عليه النص الكريم: ﴿في أدنى الأرض﴾ ولأنّ دولة الفرس كانت

قوية منيعة وزادهـا الظفر الأخير قوة ومنعة، ولكن الله تعالى أنجـز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة.

واحتمل «الزرقاني» أنّ الآية الثانية حملت نبوءة أُخرى وهي البشارة بأنّ المسلمين سيفرحون بنصر عزيـز في الوقت الذي ينصر فيه الروم، وقـد صدق الله وعده في هذه كما صدقـه في تلك، وكان ظفر المسلمين في غـزوة بدر الكبرى واقعاً في الظرف الـذي ظفر الرومان، وهكـذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسبـاب في انتصار الروم، كما علمت، ومع تقطع الأسباب أيضـاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة، لأنّهم كانوا أيـامئذ في مكة في قلة وذلة يضطهدهم المشركـون ولا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمة ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نزلت الآيات كما ترى تـؤكد البشـارتين وتسوقهما في مـوكب من التـأكيدات البـالغة التي تنـأى بهما عن التكهنات والتخرصات [١].

غير أنّ من المحتمـل أن يكون فـرح المؤمنين لأجل انتصار الـرومان على الفـرس تفؤلاً بذلك حيث كـان التدين بالله سبحانه وشرائعـه السماوية يجمعهما في أمر واحد لا لأجل انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى.

نعم الآية محتملة لكل من الـوجهين وإن أصر الكاتب على استفادة المعنى الأوّل منها.

٣ـ اخباره عن صيانة النبي عن أذى الناس:

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ـ ٦٧).

أصفقت صحاح السنّة [٢]، وأحاديث الشيعة المتواترة [٣] على أنّ الآية نزلت يوم

---

(١) مناهل العرفان ج٢ ص ٢٦٦.

(٢) راجع الغدير ج١ ص ١٩٤ ـ ٢١٧.

(٣) راجع غاية المرام ص ٣٣٥.

الغدير، حينما أمره سبحانه أن ينصب علياً ـ عليه السلام ـ إماماً للناس، وكان النبي على حذر من الناس في تنصيب علي للخلافة، فأخبره الله سبحانه بأنّه سيعصمه من أذى الناس وشرّهم، ولا يصلون إليه بقتل ولا يتمكنون من اغتيال شخصه الشريف وتحققت نبوءة القرآن وصدّق الخبر الخبر.

ولو رفضنا صحاح القوم ولم نعتقد بما أثبته المتواتر من الروايات، وقلنا إنّ المراد من الناس هم المشركون وأعداء الإسلام، الذين أضمروا في أنفسهم عداء لقائده، فالآية متضمنة للتنبّؤ بالغيب أيضاً، إذ لم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم، وكانوا يتربصون به الدوائر، ويتحيّنون به الفرص، للايقاع به والقضاء عليه، وعلى دعوته وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً، فمن الذي يملك هذا الوعد إذن، إلاّ الله الذي يغلِب ولا يغلَب.

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٩٤ ـ ٩٦) أخبر سبحانه عن أنّه يكفيه عن أذى المستهزئين ومؤامراتهم، وقد كفاه الله أشرف كفاية لم تكن تتعلق بها الآمال بحسب العادة، وقد بان للمشركين وعلموا ما في قوله سبحانه في آخر الآية: ﴿فسوف تعلمون﴾.

روى البزاز والطبراني عن أنس بن مالك أنّها نزلت عند مرور النبي ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون هذا الذي يزعم أنّه نبي ومعه جبرئيل[1] فأخبرت الآية عن ظهور دعوة النبي، وانتصاره على أعدائه، وخذلانه للمشركين الذين ناووه واستهزأوا بنبوّته واستخفّوا بأمره، وكان هذا الإخبار في زمان لم يخطر فيه على بال أحد من الناس، اندحار قريش، وانكسار شوكتهم وظهور النبي عليهم.

قال الطبرسي: أي كفيناك شر المستهزئين واستهزاءهم بأن أهلكناهم وكانوا

---

(١) لباب العقول ص ١٣٣.

خمسة نفر من قريش أو ستة ثم ذكر أسماءهم وكيفية هلاكهم [١].

قال سبحانه: ﴿وَلَو لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ (النساء ـ ١١٣) والمراد من الإضرار هو القتل فالله سبحانه حافظه وناصره.

٤ـ تنبّوءات حول المنافقين والمخلّفين من الأعراب:

تجد في سورة التوبة والفتح والحشر نماذج من هـذا القسم، يقول سبحانه: ﴿فإِن رَجَعَكَ اللهُ إلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فاسْتَئذَنُوكَ لِلخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ﴾ (التوبة ـ ٨٣).

فأخبر عن قعودهم، وعدم خروجهم مع النبي، فقوله سبحانه: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِي أَبَداً ﴾ معناه لن يكون لكم شرف صحبة الإيمان، بالخروج معي إلى الجهاد في سبيل الله، ولا إلى غيره من النسك أبداً ما بقيت: ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً﴾ من الأعداء لا بالخروج والسفر إليهم، ولا بغير ذلك.

ويتلوه ما جاء فيه من التنبّؤ بما يحلف به المنافقون كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة ـ ٤٢).

فأخبر عن حلفهم في المستقبل القريب، وعن كذبهم في حلفهم هذا. قال: الطبرسي وفي هذه دلالة على على صحة نبوّة نبيّنا إذ أخبر أنّهم سيحلفون قبل وقوعه فحلفوا وكان خبره على ما أخبر به [٢].

ومثله قوله سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

---

(١) مجمع البيان ج٣ ص ٣٤٦.

(٢) مجمع البيان ج٣ ص ٣٣.

فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة ـ ٩٥)
وفي هذه السورة شيء كثير من هذا الضرب من التنبّؤ، فتدبّر في آياتها ومضامينها تجدها مملوءة من الإخبارات الغيبية، وقد نزلت في حق المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك.

ونظير تلكم الآيات ما ورد في سورة الفتح من التنبّؤ حول الأعراب الذين تخلّفوا عن النبي في الخروج إلى الحديبية ودونك بعض الآيات: **﴿سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوالُنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِر لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾** (الفتح ـ ١١).

وقوله سبحانه: **﴿سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إلاّ قَليلاً﴾** (الفتح ـ ١٥).

وفي هاتين الآيتين إخبارات غيبية عن كثير مما تفوّه به المخلفون وعن ما يضمرون في أنفسهم، وما يصيبهم في المستقبل، يظهر ذلك لكل من أمعن النظر في مفاد الآيتين ودونك تفسيرهما:

لمّا أراد النبي المسير إلى مكة عام «الحديبية» معتمراً وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر من حول المدينة من القبائل إلى الخروج معه، وهم «غفار» و«أسلم» و «مزينة» و«جهينة» و «أشجع» و«الدئل»، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو بصد وهو أحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنّه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، فتخلّفوا عنه، واعتلوا بالشغل، فأخبر سبحانه عن العذيرة التي سوف يتشبّثون بها، عند رجوع النبي وأصحابه عن الحديبية بقوله: **﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾** كما أخبر عن أنّهم سوف يطلبون من النبي أن يستغفر لهم والحال أنّهم كاذبون في معذرتهم التي تمسّكوا بها، وفي ما يطلبون من النبي الأكرم ﷺ من الاستغفار لهم، وهم لا يبالون استغفر لهم النبي أم لم يستغفر.

ثمّ أخبر سبحانه عن أنّ النبي بعد منصرفه عن الحديبية بالصلح، سوف يتوجّه

إلى «خيبر» ويأخـذ من أهلها مغانـم، وأنّ هؤلاء المتخلّفين يطلبون من النبـي أن يتبعوه حتى يشاركوا المسلمين في ما يأخدون من المغانم، وأنّ النبي يجيبهم بأنّكم: **﴿لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾** ولأجل ذلك خص النبي مغانم «خيبر» لمن شهد الحديبية.

ويظهر من قوله سبحانه: **﴿كذلكم قال الله﴾** أنّ الله سبحانه كـان قد أخبر نبيّه عن تخلفهم في الحديبية، أيضاً كما أخبره عن تخلّفهم في غزوة خيبر.

ونظير ما سبق قولـه سبحانه: **﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعْـرَابِ سَتُدْعَونَ إِلـى قَومٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾** (الفتح ــ ١٦).

فأخبر المتخلّفين عن غزوة الحديبية بأنّهم سيدعون إلى معركـة عنيفة تدور بينهم وبين قوم أُولي بأس شديد، فدعاهم النبي بعد سنتين إلى المقاتلة مع قبائل هوازن وحنين وثقيف، وكـانوا أقوامـاً ذوي نجدة وشدة حسـب مانقرأه في السير والتـاريخ، ثم أخبر سبحانه عن أنّهم يأخذون مغانم كثيرة بقوله: **﴿وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾** (الفتح : ١٩ـ ٢٠).

فقد أخذوا بعد غنائم خيبر التـي أشارإليها بقوله: **﴿فعجّل لكم هٰذه﴾** غنائم كثيرة في محاربة قبائل حنين وهوازن.

ثمّ إنّه أخبر عمّــا أضمره المنافقـون وأسرّوه من الكفر والعصيـان وأنهم ليعدون وعداً ثم يخالفونه قال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّـذِينَ نَافَقُوا يَقُولُـونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِـنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَـنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُـمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـاذِبُونَ * لَئِـنْ أُخْرِجُـوا لا يَخْرُجُـونَ مَعَهُمْ وَ لَئِـنْ قُوتِلُـوا لا يَنْصُرُونَهُـمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ (الحشر:١١ـ ١٢).

وحاصل الآيات: أنّه سبحانه يخاطب النبي ويقول: ألم تر يا محمد إلى الذين نافقوا فأبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان يقولون لأخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب يعني يهود بني النضير لئن اخرجتم من دياركم وبلادكم لنخرجن معكم مساعدين لكم ولا نطيع في قتالكم وفي مخاصمتكم أحداً أبداً أي محمداً وأصحابه، بل وعدوهم النصر بقولهم: وإن قوتلتم لننصرنكم،ثم كذبهما الله في ذلك بقوله: ﴿**والله يشهد إنّهم لكاذبون**﴾ فإنّه لو خرج أهل الكتاب لا يخرج المنافقون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرهم هؤلاء المنافقون، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار وينهزمون.

وقد نقل المفسرون أنّ الآية نزلت قبل إخراج بني النضير وأُخرجوا بعد ذلك فلم يخرج معهم منافق ولم ينصرونهم [1].

وقال سبحانه في بني النضير من اليهود ومن مال إليهم من المنافقين: ﴿**لايُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلاّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**﴾ (الحشر ـ ١٤).

أخبر سبحانه عن أحوال المنافقين مخاطباً للمؤمنين، بأنّهم لا يقاتلونكم إلاّ في قرى محصّنة لا يبرزون لحربكم وإنّما يقاتلونكم متحصّنين بالقرى أو من وراء جدر يرمونكم من ورائها بالنبل والحجر بأسهم بينهم شديد، فعداوة بعضهم لبعض شديدة فليسوا بمتّفقي القلوب تحسبهم جميعاً متجمعين في الظاهر وقلوبهم شتى، خذلهم الله باختلاف كلمتهم ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون.

والآية تنطبق كل الانطباق على بني النضير، فلاحظ سيرة ابن هشام ج ٢ ص١٩١.

٥ـ الإخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة:

قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ**

---

(١) مجمع البيان ج٥ ص ٢٦٣.

الشَّوْكَةِ تَكُـونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَـاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الكَـافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَ يُبْطِلَ البَـاطِلَ وَلَوْ كَـرِهَ المُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُـونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَـابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَـا جَعَلَهُ اللهُ إِلاّ بُشْرىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* ... إِذْ يُـوحِي رَبُّكَ إِلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِـي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاْضْرِبُـوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاْضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ٧ ـ ١٢).

الآية نزلت في وقعة «بدر»، وقد وعد الله فيها المؤمنين بالنصر على عدوهم ويقطع دابرهم، والمؤمنـون على ما هم عليه من قلـة العدد والعدة، حتى أنّ الفـارس فيهم كان المقـداد أو هو والـزبير بن العوام، والكـافـرون هم الكثيرون الشديـدون في القوة، وقـد وصفتهم الآية بـأنّهم ذو شوكة، وأنّ المؤمنين اشفقـوا من قتالهم، ولكن الله يـريد أن يحق الحق بكلماته، وقد وفى للمؤمنين بوعده، فنصرهم على أعدائهم وقطع دابر الكافرين.

«قـال رسـول الله سيروا على بـركـة الله فـإنّ الله عـزّ وجـلّ قـد وعـدني ﴿إحدى الطائفتين﴾ ولن يخلف الله وعـده، والله لكأنّي أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشـام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان ، وأمر رسول الله بالرحيل وخرج إلى بدر» [١].

فأخبر سبحانـه بقوله: ﴿ويقطع دابر الكـافرين﴾ عن هـزيمـة المشركين وقتل أعوانهم واستئصـال شأفتهم ومحق قوّتهم، فـإنّ دابر القوم آخـرهم الذي يأتي في دبـرهم ويكون مـن ورائهم، ولن يصل إليه الهلاك إلاّ بهلاك مـن قبله من الجيش، وهكـذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر لما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة [٢].

وليس تنبّؤ القرآن بالقضاء على مشركي قـريش في معركة بدر منحصرة بهذه الآية بل تنبّأ بذلك في آية أُخرى وهي قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ

---

(١) مجمع البيان ج٤ ص ٥٢٢.

(٢) المنار ج٩ ص ٦٠١ ، والناظر الـدقيق المتأمّل في مفاد هذه الآيات السبـع يجد فيها تنبّؤات كثيرة تحقّقت كلّها في غزوة بدر، فاقرأ سيرة النبي الأكرم ولاحظ مفاد هذه الآيات.

الجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر:٤٤ـ٤٥) فـأخبر عن انهزام جمع الكفار وتفـرّقهم وقمع شوكتهـم، وقد وقع هـذا في يوم «بـدر» أيضاً حين ضرب أبـا جهل فـرسه وتقـدم نحو الصف الأوّل قائلاً: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحـابه، فأباده الله وجمعه وأنار الحق ورفع منـاره، وأعلى كلمته فانهزم الكـافرون وظفـر المسلمون عليهم حينما لم يكن يتـوهّم أحد بأنّ ثلاث مائة وثلاثة عشر رجـلاً ليس لهم عدة يظفرون فيها بجمع كبير تام العدة وافر العدد، وكيف يستفحل أمر أُولئك النفر القليل على هذا العدد الكثير، حتى تذهب شوكته كرماد اشتدت به الريح [١].

٦ـ التنبّؤ بصيانة القرآن عن التحريف:

تنبّأ القرآن بـأنّه سيبقى مصونـاً عن التحريف بعـامة معانيه، فمـع أنّ القرآن بل التاريخ يقصّان علينـا تحريف الكثير من كتب الله ووحي السماء، ومع أنّ المستقبل مليء بشتيت الحوادث المرة والليـالي حبالى مثقـلات، جاء القـرآن يخبر بـوضوح بأنّ الأيـدي الجائرة لا تتمكن من التلاعب به حيث قال: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** (الحجر ـ ٩) والمراد من «الذكر» بقـرينة قوله سبحانه: **﴿وَ قَالُوا يَا أَيُّهَـا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُون﴾** (الحجـر ـ٦) هـو القـرآن لا النبي كما احتملـه بعضهم، وبما أنّ النبي ﷺ لم يكن من الذين يطلبون المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة ويسيرون على الخيال، فلا مناص من أن تكون صادرة عن وحي سماوي، معبّرة عن رأي من يملك الأرض والسماء والماضي والمستقبل.

نعم نوقش في دلالة الآية على صيانة القرآن عن التحريف بوجوه زائفة لا قيمة لها في ميزان الانصاف [٢].

---

(١) البيان ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) راجع في الوقوف على تلكم الشبهات وأجوبتها، تفسير البيان ص ١٤٤ ـ ١٤٦.

٧ـ الاخبار عن نجاح الإسلام والرسول:

قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَ دِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٢ ــ ٣٣ ويقرب منهما ما ورد في سورة الصف ٨ ــ ٩، باختلاف يسير) فأظهره على الدين كلّه أعزّ اظهار، أُرغمت به آناف المشركين، وقبض ولحق بالرفيق الأعلى، ولم يبق في الجزيرة العربية وثن ولا وثني، ولأعلام التفسير حول الآية كلمات تفسر الآية بغير ما ذكرناه.

قال صاحب المنار بعد ما حقّق وفصل أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لأن يكون عالمياً، ويظهر على الدين كلّه، وأنّه صح عن النبي ﷺ : «أنّ الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أُمتي ما زوى لي منها» ،قال: ومن العلماء من يقول إنّ بعض البشارات هذه لا يتم إلاّ في آخر الزمان عند ظهور المهدي وما يتلوه من نزول عيسى بن مريم ـ عليه السّلام ـ من السماء و إقامته لدين الإسلام [1].

وفسّر الطبرسي «الظهور» بالغلبة بالحجة والقهر معاً، وقال أي ليظهر دين الإسلام على جميع الأديان بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلاّ مغلوباً، ولا يغلب أحد الإسلام بالحجة وأهل الإسلام يغلبون أهل سائر الأديان بالحجة، وأمّا الظهور بالغلبة فهو أنّ كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك ولحقهم قهر من جهتهم.

وقيل: أرادعند نزول عيسى بن مريم فانّه لا يبقى أهل دين إلاّ أسلم أو أدّى الجزية، وقال أبو جعفر ـ عليه السّلام ـ إنّ ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلا يبقى أحد إلاّ أقرّ بمحمد ﷺ ، وقال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام أمّا بعزّ عزيز وأمّا

---

(١) المنار ج١٠ ص ٤٦٠.

بذل ذليل ... [١].

وقال في موضع آخر: وفي هذه دلالـة على صحّة نبوّة نبيّنا محمد ﷺ لأنّه سبحانه قد أشهر دينه على جميع الأديان بالاستعلاء والقهر واعلاء الشأن كما وعده ذلك في حال الضعف وقلّـة الأعوان. روى عبايـة: أنّه سمـع أمير المؤمنين يقول: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الدين كلّه**﴾ أظهر بعد ذلك؟ قـالوا: نعم، قال: كلا، فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلاّ وينادى فيها شهادة أن لا إله إلاّ الله بكرة وعشياً [٢].

نعم يمكن أن يقال: المراد من الظهور معناه الجامع العام أي الظهور والغلبة أعم من الغلبة بالبرهـان والحجة والغلبة بالقدرة والسيطرة، ثم الظهـور أعم من الظهور على الشرك والوثنية السائدة في الجزيرة العربية يوم نزول الآية، والظهور على الشرائع كلها، في مشـارق الأرض ومغاربها، فللظهـور مراتب ودرجـات تحقق بعضهـا في عصر الرسـول والبعض الآخر بعده ﷺ والدرجة العليـا منها إنّما تتحقق بظهور المهـدي من آل محمد «عجل الله تعالى فرجه».

على أنّ هنـا آيات تنبّأت بمستقبـل الإسلام ونجـاحه نجـاحاً بـاهـراً مثل قولـه سبحانه: ﴿**كَذٰلِكَ يَضْـرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَـأَمَّا الزَّبَدُ فَيَـذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّـا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**﴾ (الرعد ـ ١٧).

فتنبّأ بـأنّ الإسلام سيخلـد ويبقى، وأنّ الباطـل والوثنيـة سيذهب جفـاء، أخبر بذلـك في الوقت الـذي كان فيه المسلمـون في مكة مضطهديـن مستضعفين يخافون أن يتخطّفهم الناس، وقريب منه قـوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْـفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّماءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (إبراهيم: ٢٤ـ٢٥) فالمراد من الكلمة الطيبة، هي كلمة التوحيد وما يتفـرّع عنها من أحكام وفروع، فالاعتقاد بالله سبحـانه ووحدانيته هو

(١) مجمع البيان ج٣ ص ٢٤. (٢) مجمع البيان ج٥ ص ٢٨٠.

الأصل الثابت والمحفوظ من كل تغير وزوال، ومن طروء أي بطلان عليه، وتتفرّع عنها أحكام ونسك وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحيى بها الانسان، ويعمّر بها المجتمع، وتعطي أُكلها وثمارها التي هي عبارة عن صلاح المجتمع الانساني وتكامله كل حين.

فالآية تشير إلى أنّ العقائد الحقّة وما يتفرع عنها من الأحكام، كشجرة طيبة فكما هي تضرب عروقها في الأرض وتعلوا أغصانها إلى السماء، ويتظلّل بها الناس، ويستفيد من ثمارها القريب والبعيد، فهكذا الدين الحق والكلمة الطيبة التي هي كلمة التوحيد والإسلام، سوف تستقر في قلوب الناس، وتضرب عروقها في ضمائرهم وقلوبهم، وترفع أغصانها في مظاهر حياتهم، يتظلّل بها العرب والعجم ويستفيد من آثارها الداني والقاصي، وبها يستقر السلام العام وتأمن سعادة الناس، وبها يتكامل المجتمع البشري في مراحل الحياة ومظاهرها، فتبقى دائمة على مرّ الليالي والأيام.

فهذه الآية تنبّىء عن مستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً في وقت لم يكن من بواسم الآمال ما يلقى ضوءً على نجاح هذا الدين، ولم يكن عند النبي من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح، وليس النبي بشهادة تاريخ حياته ورجاحة عقله واتزانه ودقته، من الذين يلقون القول على عواهنه غير متريّثين بما يقولون بل كان يثبت في كلامه، ويتحرّى في مقاله حتى اشتهر بالصدق والأمانة، ومع ذلك فقد أخبر بلغة الواثق فيما يقول، عن نجاح دينه في المستقبل وأنّه سوف يضرب بجرانه خارج مكة بل خارج الجزيرة العربية إلى أقاصي الدنيا.

وأعطف على ذلك تنبّؤ القرآن بكل وعود تدل على نجاح الرسل والمؤمنين في ميادين الحياة ومعارك التنازع، كقوله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾** (الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣) وقوله سبحانه: **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾** (غافر ـ ٥١) وقوله سبحانه: **﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ**

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهِـمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (النور ـ٥٥) [١].

فهذه الوعود المؤكدة الكريمة و إن وردت بصورة عامة، لكنّها تعم النبي الأكرم والذين آمنوا بـه، فقد نصر النبي وجنده وغلبهم على مخالفيهم وأعـدائهم، ومكّن الذين آمنوا وعملوا الصـالحات في أرضه واستخلفهم فيها، وبدل خوفهم أمنـاً حتى استطاعوا أن يعبدوه آمنين غير خائفين إلى يومنا هذا.

«إنّ الإسـلام لقى مـن ضروب العنت مـراراً وتكـراراً في أزمـان متطاولـة وعهـود مختلفة، ما كـان بعضه كافياً في محوه وزوالـه ولكنّه على رغم أنف هذه الأعـاصير العاتية بقي ثابتاً، يسـامي الجبال، شامخاً يطاول السماء، على حين انّ سجّـلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها، مـا يشيب الوليد من ألـوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الـرسول وأتباعه في مكـة والمدينة وقد رمتهم العرب بقوس واحـدة، عندما نزلوا المدينـة وكانوا لا يبيتون إلاّ بالسـلاح ولا يصبحون إلاّ فيه، وقد وعدهم بـالنصر والغلبة وهم يضطهدون، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي، رغم هذه الأحـوال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم واستخلفهم في أقطـار الأرض وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم بعد خوفهم آمناً، يا لها نبوءة تأبى عادة أن يتحدّث بها إلاّ من يملك تحقيقهـا ويخرق إن شـاء عادات الكـون ونواميسـه من أجلهـا، **﴿إِنْ تَنْصُـرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم﴾ ﴿وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**» [٢].

كيف وهو لم يكتف بهذا بل تنبّأ في الوقت الذي لم يكن فيه من بواسم الآمال، ما يـوجب اطمئنانـه بنجاحـه ونجاح دينـه وبأنّـه سيعود إلى معـاده وموطنـه في حين أنّ المسلمين كانوا بمكة في أذى وغلبة من أهلها، وكان هو بالجحفة أثناء هجرته إلى المدينة

---

(١) راجع ما أسلفـاه حول الآيات المتقـدمة من عموميـة المعنى وأوسعيته وكـونه ذا مراتب فـلا ينافي تأويلها بخروج الإمام المنتظر.

(٢) مناهل العرفان ج٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ بتصرف.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (القصص ـ ٨٥) فأخبر عن رجوعه إلى معاده من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر [١].

وانّك لتجد في سبرك الذكر الحكيم آيات أُخرى غير ما ذكرناه تبشر بنجاح الإسلام والمسلمين، وتعبّر عن غلبتهم على أعدائهم، وهذه الآيات الكثيرة الواردة في هذا القسم من المغيبات، قد تحققت كلها ولم تتخلّف منها واحدة ولو تخلّفت منها واحدة لزمرت وطبّلة على تلك السقطة أعداؤه وطفقوا يرقصون فرحاً بالخلاف الذي وجدوه في كتابه الذي به تحدّاهم فهدم كيانهم وسفه أحلامهم.

ولا بأس بذكر بعض ما يناسب المقام من الآيات التي تنبّأت بانتصار الرسول والمسلمين على أعدائهم وأنّهم سوف يدخلون مكة بل يفتحونها.

قال سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرؤيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح ـ ٢٧)، روى أصحاب السير والتاريخ: «إنّ الله تعالى أرى نبيّه في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية، انّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر بذلك أصحابه، وأنّهم سوف يدخلون مكة، فلمّا خرجوا من المدينة وبلغوا الحديبية، خرج منها رسول الله ﷺ في عدد من أصحابه حتى إذا كان بذي الحليفة بعث النبي ﷺ عيناً، وجاء فأخبره بأنّ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش طليعة، وبعد محادثات جرت بين المسلمين وقريش اصطلحوا على أن يضعوا الحرب عشر سنين وأن يرجع رسول الله ومن معه من أصحابه في عامه هذا فلا يدخل مكة إلاّ من العام القابل، فيقيم بها ثلاثاً ومعه سلاح الراكب والسيوف في القرب، ولا يدخلها بغيره، فلمّا أنصرف رسول الله ومن معه من أصحابه، قال المنافقون: ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية وأخبر أنّه أرى رسوله الصدق في منامه، لا

---

(١) مجمع البيان ج٤ ص ٢٦٩.

الباطل وأنّهم يدخلـونه وأقسم على ذلك وقال: ﴿لتدخلن المسجد الحرام﴾ أي العام القابل وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنـة ولعلّ التقييد بالمشيئة لعلمه سبحانه بأنّ منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لأنّ لا يقع في الخبر خلف[1].

ونختم هذا القسم بتنبّؤين:

١ـ تنبّؤ القرآن بـانتصاره على أعدائه من قريش وفتحه عـاصمة الوثنيين ودخول الناس في دين الإسـلام فوجاً بعـد فوج، قال سبحـانه: ﴿إِذَا جَـاءَ نَصْـرُ اللهِ وَ الفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّـاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِيـنِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ * إِنَّـهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر: ١ـ٤) فـأظفره الله على أعدائه وفتح مكـة ودخل الناس في ديـن الإسلام زمرة بعـد زمرة، ولأجل ذلـك النصر العظيم أمره سبحـانه بتنـزيه الله عمّـا لا يليـق به، وليست هذه هي المرة الوحيدة التي تنبّأ فيها القرآن الكريم بفتح مكة، بل تنبّأ بفتح مكة مرة أُخرى وهو قـوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَـكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ (الفتح ــ١) فقد روي أنّ المسلمين رجعوا عن غزوة الحديبية وقـد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة إذ أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ فأدرك الرسول السرور والفرح، ما شاء الله، ففتحت مكة بعد عامين من نزول السورة ،ومعنى قوله: ﴿إنَّا فتحنا﴾ إنّا قضينا لك بالفتح.

وقال سبحانه: ﴿وَ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْـرٌ مِن اللهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف ـ ١٣) والمراد من «فتح قريب» أمّا فتح مكة أو فتح بلاد الفرس والروم [2].

٢ـ تنبّؤالقرآن بأنّه لا يضر ارتداد من ارتد ممّن آمن به فانّ الله يأتي بقوم رحماء على المؤمنين أشـدّاء على الكافـرين، يجاهدون في سبيـل الله لاعلاء كلمـة الله و إعزاز دينـه، حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَـوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ

(١) سيرة ابن هشام ج٢، ص ٣٠٨ ـ ٣٢٢، مجمع البيان ج٥ ص ١٢٦.

(٢) مجمع البيان ج٥ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ و ٢٨٢.

يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّـةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيـنَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة ـ ٥٤).

وروي أنّ النبي ﷺ سئل عن هـذه الآية، فضرب بيـده على عاتـق سلمان فقال: هذا وذووه... ثـم قال: لو كـان الدين معلّقـاً في الثريّـا لتناولـه رجال من أبنـاء فارس، ونقلت في هدف الآية أقوال أُخر [١].

٨ـ التنبّؤ بأحداث جزئية:

ومن غرائب التنبّؤات الإخبار عن أحداث جزئية ، تحققت بعد الإخبار كما أخبر، فأخبر بأنّ أبا لهب وامـرأته يموتان على الكفـر، ولا يحظيان بسعادة الإسلام الـذي يكفّر عنهما آثام الشرك ويحط أوزارهما، فماتـا على الكفر، كما أخبر بـه اخباراً حتميـاً وذلك في قوله سبحانه:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِـى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْـهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَـىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُـهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَـا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾ (المسد: ١ـ٥) ، فأخبر بأنّه يدخل ناراً عنيفة الاشتعال تلتهب عليه، وهي نار جهنم وجاء المخبر كما أخبر.

كما أخبر عن الوليد بن المغيرة ومصير أمره وعاقبـة حياته، وأنّه يموت على الكفر، وأنّه سبحانه يدخلـه في عذاب لا راحة فيه، وذلك عندما اتهم النبي بأنّـه ساحر، فأنزل الله سبحانه فيه الآيات التالية: **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَ بَنِينَ شُهُوداً * وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيـدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ * فَقُتِـلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَـرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَـرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاّ سِحْـرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـذَا إِلاّ قَوْلُ البَشَرِ * سَـأُصْلِيهِ سَقَـرْ * وَمَا أَدْرٰيكَ مَـا سَقَر * لا تُبْقِي وَ لا تَـذَرُ * لَوَّاحَـةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَر﴾** (المدثر: ١١ـ٣٠).

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص ٢٠٨.

روي أنّ قريشاً اجتمعت في دار الندوة فقال الوليد لهم أنّكم ذووا أحساب وذووا أحلام، وأنّ العرب يأتوكم، فتنطلقون من عندكم على أمر مختلف، فاجمعوا أمركم على شيء واحد ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: إنّه شاعر، فعبس وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر، فقالوا: إنّه كاهن، قال: إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة، قالوا: إنّه لمجنون، فقال: إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً، قالوا: إنّه ساحر، قال: وما الساحر؟ فقالوا: بشر يحبب بين المتباغضين ويبغض بين المتحابين، قال: فهو ساحر، فخرجوا فكان لا يلاقي أحد منهم النبي إلاّ قال: يا ساحر يا ساحر، واشتد ذلك فأنزل إليه هذه الآيات [١].

وهذا التنبّؤ صدر عنه ﷺ في مكة وكان في وسع الرجل أن يقلب حاله ويصلح باله ولكنّه بقي على ما كان عليه من كفره وعدائه للنبي والإسلام.

وقد تنبأ القرآن به بصورة أُخرى وهو أنّه سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها، حيث قال سبحانه: **﴿وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾** (القلم: ١٠ ــ ١٦) وقد حضر الرجل في معركة بدر الكبرى فخطم أنفه بالسيف، وبقي أثر هذه الضربة سمة وعلامة له كما هو أحد الوجوه في تفسير قوله: **﴿سنسمه على الخرطوم﴾** [٢].

ولا ينحصر تنبّؤ القرآن بعدم إيمان عمّه أو الوليد بل تنبأ في آية أُخرى عن عدم إيمان ثلة كبيرة من الكافرين فقال سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** (البقرة:٦).

وقال سبحانه: **﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون﴾** (يس ـ ١٠).وليس المراد عموم الكافرين لبطلانه بالضرورة لدخول كثير منهم في الإسلام بل

---

(١) مجمع البيان ج١ ص ٣٨٧.

(٢) الكشاف ج٤ ص ٢٥٨.

المراد هم الذين كانوا يظاهرون بعدوانه.

قال الطبرسي: تدل الآية على أنّه يجوز أن يخاطب الله تعالى بالعام والمراد به الخاص لأنّا نعلم أنّ في الكفّار من آمن وانتفع بالانذار[1].

ومثله تنبّؤ القرآن بأنّ عدو النبي ﷺ (العاص بن وائل السهمي هو الأبتر) وأنّ الله سبحانه سيرزق نبيّه ذرية كثيرة حتى يصير نسبه أكثر من كل نسب، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[2]. قال في تفسير الفخر: إنّ هذه السورة إنّما نزلت رداً على من عابه ـ عليه السّلام ـ بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم ولم يبق من بني أُمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا ـ عليهم السّلام ـ والنفس الزكية وأمثالهم.

كل ذلك دليل على أنّه لا مصدر لهذه التنبّؤات والإخبارات الغيبية إلاّ الله سبحانه علاّم الغيوب.

٩ـ تنبّؤ القرآن في مكّة بما سيصيب كفّار قريش:

تنبأ القرآن بالمستقبل الأسود الذي كان ينتظر قريشاً، وذلك عندما دعا النبي على قومه لما كذبوه بقوله: اللّهمّ اجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف، فأجدبت الأرض فأصابت قريشاً المجاعة، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، وأكلوا الميتة والعظام، ثمّ جاءوا إلى النبي وقالوا: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وقومك قد هلكوا فسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة، فكشف عنهم ثم عادوا إلى الكفر[3] وإلى ذلك يشير قوله سبحانه:

---

(١) مجمع البيان ج١ ص ٤٣.

(٢) لاحظ مجمع البيان ج٥ ص ٥٤٠ ومفاتيح الغيب ج٨ ص ٤٩٨.

(٣) مجمع البيان ج٥ ص ٦٣، البرهان، ج٤، ص ١٦٠.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (الدخان : ١٠ ـ ١٦).

فقد تنبّأ في هذه الآيات السبع عن عدة مغيبات هي:

١ ـ الإخبار عن القحط الذي يقع بهم، وشدة الجوع الذي يغشاهم، إلى حد يتصوّر الرجل السماء كالدخان، لما به من شدة الجوع، حيث قال سبحانه: ﴿وٱرتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ .

٢ ـ الإخبار بابتهالهم وتضرّعهم إلى الله سبحانه، عندما تلم بهم هذه الأزمة، ويحل بهم الجوع والغلاء، قال سبحانه: ﴿ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون﴾ .

٣ ـ الإخبار برفع العذاب وكشفه عنهم قليلاً، قال سبحانه: ﴿إنّا كاشفوا العذاب قليلاً﴾.

٤ ـ الإخبار بعودهم إلى ما كانوا عليه من الكفر والإنكار ، قال سبحانه: ﴿إنّكم عائدون﴾.

٥ ـ الإخبار بأنّ الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى، وهو يوم بدر الكبرى حيث انتقم منهم وقتل من صناديد قريش، سبعون رجلاً وأسر منهم مثله وفرّ الآخرون.

وهذه الكثرة الوافرة من الأنباء الغيبية لم تتخلّف واحدة منها، بل تحققت كما أخبر بها، ولو لم يتحقق لنقل لتوفر الدواعي على نقله وتواتره.

نعم قيل إنّ الدخان الوارد في الآية من أشراط الساعة [1]، وهو بعد لم يأت وإنّما يأتي قبل يوم الساعة، وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص، ويستمر ذلك أربعين يوماً. ولا يخفى أنّ المعنى الأوّل أظهر وأنسب لقوله سبحانه: ﴿أنّى لهم

---

(١) مجمع البيان ج٥ ص ٦٢.

الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبينٌ * ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلَّمٌ مجنونٌ﴾ إذ لو كان الدخان الوارد في الآيـة من أشراط الساعـة، لغشي الناس جميعاً، ولم يختـص بكفار قريـش وعند ذاك لا يصح لوم الجميع بقوله: **﴿أنّى لهم الذكرى وقد جـاءهم رسولٌ مبينٌ * ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلَّمٌ مجنونٌ﴾** فإنّ كثيراً من المحشـورين في يوم القيامـة، ليسوا من أُمّـة نبيّنا «محمد» ولم يتولّوا عنه ولم يتّهموه بأنّه معلّم مجنون.

ثمّ إنّ القرآن كما تنبّأ في مكة بما يصيب كفار قريـش لم يزل يتنبّأ أيضاً بعدما هبط النبي في المدينة وأخذ يتنبّأ بما سيصيب الكفار من المشركين واليهود ويخبر عن مؤامراتهم ضد الإسلام فقال:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ المِهَادُ﴾(آل عمران ـ ١٢) فالآية أمّا نازلة في حق اليهود أو في مشركـي مكة، وعلى كلّ حال فالآية صادقة في حق كلتا الطائفتين [١]وسيوافيك بيانها.

ومثل الآية قوله سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَـا ثُمَّ تَكُـونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُـونَ وَ الَّذِيـنَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّـمَ يُحْشَرُونَ﴾** (الأنفـال ـ ٣٦)، والآيـة تخبر عن مؤامـرة المشركين وانفـاق أموالهم في معصيـة الله، ثم ينكشف لهم من ذلك الانفـاق ما يكون حسرة عليهم من حيث إنّهم لا ينتفعـون بذلك الانفاق، لا في الـدنيا ولا في الآخـرة، بل يكون وبـالاً عليهم ثم يغلبـون في الحرب، فقد روى أنّها نزلـت في أبي سفيان بن حـرب الذي استـأجر يـوم أُحد ألفين من الأحـابيش يقاتل بهم النبي، سوى من استأجرهم من العرب.

وروي أيضاً غير ذلك [٢].

---

(١) مجمع البيان ج١ ص ٤١٣.

(٢) مجمع البيان ج٢ ص ٥٤١.

١٠ـ التنبّؤ حول اليهود والنصارى:

من عجائب التنبـؤات القرآنية وغرائبهـا، تحدّيه اليهود بأبسط الأشيـاء وأسهلها ومطـالبتـه إيّاهـم بما هـو ميسـور لهم في كلّ وقت وحين، وفي متنـاول قـدرتهم، ودائرة استطاعتهم في كل زمان، ومع ذلك عجزوا عن تكذيبه وانصرفوا عن مخالفته، وهذا يدل قبل كلّ شيء على أنّ القرآن كلام من بيده القلوب والضمائر.

قال سبحانه: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْـدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّـوا المَوْتَ إِنْ كُنْتُـمْ صَادِقِيـنَ * وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَـداً بِمَـا قَدَّمَـتْ أَيْدِيهِـمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَ لَتَجِدَنَّهُـمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُـوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْـفَ سَنَةٍ وَ مَـا هُوَ بِمُـزَحْزِحِهِ مِـنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّـرَ وَ اللهُ بَصِيرٌ بِمَـا يَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٩٤ ـ ٩٦).

لما زعم اليهـود أنّهم الشعب المختار عند الله، وأنّ الـدار الآخرة خـالصة لهم كما تحكي عنـه الآية ويدل عليـه أيضاً قـوله سبحـانه: ﴿**وَ قَالُـوا لَنْ تَمَسَّنَـا النَّارُ إلاّ أَيَّـاماً مَعْدُودَةً**﴾ (البقرة ـ ٨٠).

عـرض عليهم سبحـانـه، رداً على مقـالهم (انّ نعيم الآخـرة وقـف على الشعب المختـار، وانّ الدار الآخـرة خالصـة لهم) أن يتمنّـوا الموت جنانـاً ولسانـاً وعمـلاً، فإنّ الانسان بفطرته إذا خيّر بين العيش الخالص عـن التعب والألم، والعيش الممزوج بألوان العذب والكـد، يختار الأوّل، ولا ريب أنّ عيش الآخـرة هو العيش الخالص عن شـائبة التعب، فلو أنّهم يزعمون أنّهم صادقون في ما يقولون بألسنتهم من أنّ لهم الدار الآخرة، وأنّهم الأُمّة المختـارة من بين شعوب النـاس بالحياة الـدنيا، يجب أن لا يكونـوا أحرص الناس على الحياة الدنيـا، بل يلزم عليهم تمنّي الموت تمنّياً صادقـاً، تظهر آثاره في حياتهم وتقلبهم بين الناس.

غير أنّ التاريخ والحس يقضيـان بخلاف ما يـدّعونه، وأنّهم أحـرص الناس على

الحياة وكل واحد منهم يودّ لو يعمّر ألف سنة، وما تمنى ولن يتمنّى أحد منهم الموت أبداً تمنّياً تلوح منه آثار الصدق، لا أقول إنّهم ما تمنّوا تلفّظاً ولقلقة باللسان، بل تمنّياً من صميم الروح، تظهر آثاره على الجوارح والأفعال، ولذلك قال سبحانه:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَولِياءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللهُ عَلَيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٦ـ٧).

نعم إنّ الزرقاني فسّر الآية على وجه يشمل التمنّي باللسان وقال: «ولقد كان بمقدور اليهود في العادة أن يقولوا ولو بألسنتهم نحن نتمنّى الموت كي تنهض حجّتهم على محمد ويسكتوه، لكنّهم صرفوا فلم يقولوا ولم يستطع أحد أن يقول: إنّي أتمنّى الموت» (١)، غير أنّ ما ذكره خلاف ظاهر الآية فإنّ التمنّي حالة نفسانية للنفس، واللفظ الدال عليه معبر عمّا في الضمير، ولا يطلب القرآن منهم التمنّي الكاذب ولا يدعوهم إليه بل التمنّي الصادق الكاشف عن الإرادة الجدية والطلب الحقيقي له، مع ظهور آثاره في حياة المتمنّي وسلوكه...

ثمّ إنّ القرآن تنبّأ بانهزام اليهود في مضمار الحرب والنضال مع النبي والمسلمين قال سبحانه:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ المِهَادُ﴾ (آل عمران ـ ١٢).

قال الطبرسي: روى محمد بن يسار عن رجاله: لما أصاب رسول الله قريشاً ببدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود احذروا من الله مثلما نزل بقريش يوم بدر، واسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، وقد عرفتم أنيّ نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، فقالت اليهود: يا محمد لا يغرّنك أنّك لقيت قوماً اغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنّا والله لو قاتلناك لعرفت إنّا نحن الناس فأنزل الله هذه

---

(١) مناهل العرفان ج٢ ص ٢٧٦.

الآية [1]، ولقد صدق الخبر، الخبر، فغلب النبي على من في الجزيرة من اليهود فضلاً عن خصوص القانطين منهم في المدينة.

ثمّ إنّ في القرآن تنبّؤات بالمستقبل المظلم الأسود الذي لم يزل يواكب بعضها اليهود طيلة أربعة عشر قرناً من نزول القرآن إلى يومنا هذا، لم ينخرم أي واحد منها أبداً، وذلك قوله سبحانه: **﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلَّا أذىً وَ إنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُم الأدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ أيْنَ مَا ثُقِفُوا إلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ الأنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذِلِكَ بِمَا عَصَوا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** (آل عمران: ١١١ـ ١١٢).

وفي هاتين الآيتين تنبّؤات:

١ـ إنّ هذا الشعب الماكر اللئيم، لا يمكنه القيام بحرب مواجهة ومقابلة الند للند، وإنّما يقع ضررهم على المسلمين عن طريق الغدر والمكر.

٢ـ ولو قاتلوا المسلمين لولّوهم الأدبار.

٣ـ ضرب عليهم الذل كضرب السكة على الدينار والخيمة على الانسان، نعم كتب عليهم الذل والهوان إلاّ إذا تمسّكوا بحبل من الله ودخلوا في عهد منه أو عهد من الناس يستعينون بهم ويستظلّون بظلالهم.

٤ـ ضربت عليهم المسكنة وهي زي الفقر والخوف منه، وفيهم من يملك آلاف الآلاف وليس فيه غنى النفس، فهم أشد الشعوب خوفاً من الفقر، وأشدها طمعاً وشرها في جمع الدنيا، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال، ولا يتورّعون عن الجري وراء الدنايا، بأحط الوسائل.

٥ـ حلول غضب الله عليهم كما يعطيه قوله: **﴿وباءو بغضب من الله﴾** .

والمراد من الضمير المتصل من قوله: **﴿لا يضروكم﴾** وإن كان هو أهل الكتاب،

(١) مجمع البيان ج١ ص ٤١٣.

الوارد في الآية المتقدمة، غير أنّ المقصود منه هم اليهود بلا كلام لما في ذيل الآية التالية من تعليل ضرب الذل والمسكنة عليهم بقتلهم الأنبياء وهو من فعل اليهود.

ويؤيده قوله سبحانه، في شأن اليهود: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ بَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة ـ ٦١) وبذلك يظهر أنّ ما يقال من عمومية الآية، لمطلق أهل الكتاب، أخذاً بمفاد الضمير المتصل، الراجع إلى أهل الكتاب، المذكور في الآية السابقة، ليس بسديد.

وقد تنبأ سبحانه بقوله: ﴿لن يضرّوكم إلاّ أذى و إن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار﴾ بما جرى بين المسلمين وطوائف من اليهود من «بني النضير وقريظة وقينقاع» فحاربوا المسلمين ولم يثبتوا بل استسلموا، وهو تنبّؤ صادق شهد به التاريخ الصحيح، بل يمكن أن يكون تنبّأ بعامة ما جرى بينه وبين اليهود أيام حياته ﷺ فهو قد طهّر الجزيرة العربية من هذه العناصر الماكرة، أعداء الله وأعداء الانسانية في مدة قليلة ولم ينصروا بعد قط.

والمراد من الاستثناء في قوله سبحانه: ﴿لن يضرّوكم إلاّ أذى﴾ هو الضرر اليسير الذي ليس فيه كبير تأثير من سب باللسان وخوض في النبي، وقد تحقق المخبر به كما أخبر في تطهير أرض المدينة وما حولها من الطوائف الثلاث الذي اسميناهم، فلم ينالوا من المسلمين إلاّ سبّاً باللسان أو ضرراً قليلاً كما هو الحال في غزوة خيبر على ما هو مسطور في السير والتاريخ، ومفاد الآية راجع إلى عصر الرسالة فقط كما أوضحنا، ويفيده التدبر في الآية وفي الضمائر الواردة فيها من قوله: ﴿لن يضرّوكم و ...﴾ [1].

وأما الآية الثانية المتضمّنة لضرب الذلة والمسكنة عليهم فربّما يحتمل اختصاص مفادها بعصر الرسالة غير أنّه محجوج بأمرين:

---

(١) قال الطبرسي ففي هذه الآية دلالة على صحة نبوّة نبينا ﷺ لوقوع مخبره على وفق خبره لأنّ يهود المدينة من بني قريضة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر الذين حاربوا النبي والمسلمين لم يثبتوا لهم قط وانهزموا (مجمع البيان ج١ ص ٤٨٨).

الأوّل: إنّ المتبادر من قوله سبحانه: ﴿**ضربت عليهم الذلّة**﴾ في كلتا الآيتين هو العموم والشمول وكأنّه يريد أن يقول: عجنت طينتهم بالذل والهوان والمسكنة ولا تنفك عن تلكم الطائفة في أي جيل و زمان.

الثاني: انّه سبحانه علّل ضرب الهوان والذل والمسكنة عليهم بأمرين: أحدهما: الكفر بآيات الله وهو مشترك بين الجميع. وثانيهما: وهو يرجع إلى أسلافهم وأجدادهم، من قتل الأنبياء ولكن اليهود المعاصرين لعصر الرسالة لما رضوا بفعالهم وعملهم الشنيع، صاروا مثلهم «فإنّ من رضي بفعل قوم فهو منهم» فأسند سبحانه الفعل إليهم أيضاً، فضرب الذلة على جميعهم من أوّلهم إلى آخرهم. ولو كان هذا هو الملاك لضرب الذل على يهود عهد الرسالة فهو بعينه موجود في الباقين بعده إلى زمانا هذا، ولا وجه لاختصاص الذل والمسكنة ببعضهم دون بعض، إذ ليس الهوان أو المسكنة، إلاّ جزاءً ونكالاً من الله سبحانه بالنسبة إلى هذه الطائفة، فهم بين مقترف لأشد المعاصي وأهولها، وبين راض بما ارتكبه قومه من الجنايات الموبقة، فكل من الطائفتين يعاقب ويؤخذ بجزاء عمله كما قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيكُمْ وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ (آل عمران: ١٨١ ـ ١٨٢).

وقد أثبتت القرون والأجيال صدق ما تنبّأ به القرآن من لدن نزوله إلى عصرنا، ولكي نتحقق من ذلك لا بد من الرجوع إلى التاريخ: « فها هو «بخت نصر» دخل أورشليم وقاد أكثر أهلها أسرى وكان ذلك عام ٥٨٧ ق.م وفي سنة ٣٠٢ ق.م أثقل ملوك سوريا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم.

وأمّا إضطهادهم بعد الإسلام فكثير، فقد أجلى النبي «بني قينقاع» «وبني النضير» وقتل «بني قريظة» لما تآمروا عليه كما هاجمتهم جميع الأُمم المسيحية فلم يجدوا ملجأ إلاّ الأندلس حيث أحاطهم أُمراء الإسلام بعطف خاص، لكن عندما احتل النصارى الأندلس أخذوا بتشريد اليهود وطردهم و إجبارهم على مغادرة البلاد الإسبانية، وقد

وقع كثير منهم في أيـدي القراصنة الذي انتشروا حـول الشواطئ فجرّدوهـم من أموالهم واتخذوهم عبيداً ارقّاء.

هذا ما عدا الذيـن ماتوا جوعاً أو أُصيبوا بالطاعـون فأهلكهم ثم لجأ ثمانون ألفاً إلى البرتغال ارتكـاناً إلى وعد ملكهـا، لكن القساوسـة الأسبانيين أثاروا الـرأي العام في تلك البلاد ضدهم، وعمدوا إلى اقناع ملك البرتغـال بعدم إيوائهم، فأصدر أمراً يقضي بابعـاد جميع اليهود البالغين، أمّـا الأولاد الذين لا تتجـاوز سنهم أربعة عشر عامـاً فقد انتزعوا من أحضان أُمّهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادئ الدين المسيحي.

ولم يقتصر الغربيون على طرد اليهود من أسبـانيا والبرتغال فقط بل طردوا وشردوا من انجلترا، فرنسا، بلجيكا، هولندا، ايطاليا، ألمانيا، روسيا و ...» [١].

أي ذل وهوان أوضح من هذا الـذي صادفوه طيلة القرون الغابـرة إلى يومنا هذا، كل ذلك مضافاً إلى تنفّر الناس عـن كل يهودي ماكر، وإسرائيلي لئيم، وابتعادهم عنهم في حلّهم وترحالهم، لما هـم عليه من الغدر والمكر والشره والطمع وعدم انـدماجهم مع غيرهم وعـدم وفائهم للـذين استضـافوهم وآزروهـم، لما يظنون أنّهم شعب يمتـاز على الشعوب التي يعيشون بينها، وأنّهم يحق لهم اغتصاب حقوق الغير أخذاً بتعاليم التلمود حيث يعبّر عن املاك غير اليهود بـ «أنّه كالمال المتروك الذي يحق لليهودي أن يملكه».

هذا وذاك أوجب بأن يعلن القرآن منذ أربعة عشر قرناً بأنّه سبحانه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيـامة حيث قال سبحانه: ﴿وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ القِيَـامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُـوءَ العَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَـابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف ـ ١٦٧).

فقضى الله سبحانه أنّه ليسلّطنّ على بني اسرائيل إلى يوم القيامة من يذيقهم أشد العذاب، جزاء لهم على أعمالهم ونكـالاً بهم، فكما هو سبحانه سريـع الصفح عن ذنب التائب، فهو أيضاً سريع العقاب.

---

(١) راجع لمعرفة تفصيل ذلك كتاب «اليهود في القرآن» ٩٤ ـ ٩٦.

إجابة عن سؤال

إلى هنا يكون قد تبيّن صحة تنبؤ القرآن حول اليهود، وأنّه ما تخلف طيلة أربعة عشر قرناً، قدر شعرة غير أنّ هنا سؤالاً، يوجهه الشباب حول الآية وهو أنه كيف وصفهم الله بضرب الذل والهوان عليه مع أنّه استقرّت لهم السيادة في الأراضي المحتلة فجمعوا من العدة والعدد ما أوجب نجاحهم في هذه المعارك الرهيبة لا سيما في نكسة الخامس من حزيران، وتمكن الاجابة عن هذا السؤال بوجوه:

الجواب الأوّل:

إنّ مشيئة الله سبحانه في خلقه وعباده تجري على وفق القوانين والسنّن الكونية ولا تختلف باختلاف الأُمم، فالعارف بفن السباحة ـ مثلاً ـ يعوم ويصل إلى شاطئ الأمان والجاهل بها يرسب ويكون عرضة للهلاك، ومن زرع حصد ومن لم يزرع لم يحصد، والإيمان لا ينبت قمحاً والكفر لا ينبت شوكاً في هذه الحياة، وكذلك من أعدّ العدّة لعدوّه واحتاط له، ظفر به وإن كان ملحداً ، إذا لم يكن الآخر على حذر واستعداد،ومن تقاعس وأهمل خسر، وإن كان من الأولياء والصديقين، قال تعالى مخاطباً أصحاب الرسول ﷺ بالآية ٤٦ من الأنفال: ﴿وَ لا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقال الإمام علي ـ عليه السلام ـ : «إنّ هؤلاء ـ يشير إلى أصحاب معاوية ـ قد انتصروا باجماعهم على باطلهم وخذلتم ـ الخطاب لأصحابه ـ بتفرّقكم عن حقّكم»، إذن الحق لا ينتصر لمجرد أنّه حق، والباطل لا يخذل لمجرد انّه باطل، بل هناك سنن في هذه الحياة تسيّر المجتمع، وتتحكّم به، والله سبحانه لا يسقطها ولا يعطّل سيرها، تماماً كما هو شأنه في سنن الطبيعة، انّ الله سبحانه قد خلق الحياة وجعل لها قوانين تحكمها، وتأبى هذه القوانين أن تمطر السماء نصراً على غير العاملين له.

وعليه فلا عجب أن تغتال الصهيونية جزءً من أرضنا بمعونة الاستعمار مادمنا في

غفلة عنهـا وعن مقاصد أعـوانها منقسمين إلى دويلات لا جامع بينهـا إلاّ لفظ العرب والعربية [١].

إنّ للسعادة والشقاء والحضـارة والتقدّم والتدهور والانحطـاط، قوانين وسنن لا تنفك عنها آثارهـا ومسبباتها ومن دق باباً ولج ولج، من غير فرق بين أُمّـة وأُمّة أو طائفة دون أُخرى، انّ نكسـة الخامس من حـزيران والاحتـلال الصهيوني لـلأراضي المقدسـة الإسلاميـة، كان نتيجـة عمل طويـل واعداد متواصـل من قبل اليهوديـة العالميـة التي تـلاقت أهـدافهـا مع مصـالح الاستعمار في الشرق الأوسط مـن جـانب، ومع الفسـاد السياسي الاجتماعي الشامل الـذي كان المسلمون يعيشون فيه من جانـب آخر، فالعدوّ تمسّك بأقوى وسـائل القهر والغلبة، وأعد نفسه للتقابـل مع المسلمين في معارك صعبة قرابة قـرن، وتحمّل في طريقه جهوداً وبـذل من نفسه وماله الكثير، وأمّـا المسلمون ففي القرن الـذي كان العدوّ يجمع العـدة والعدد، ويتجهّز بـالعلم والصنعة وتـربية الخبراء ومهرة الفن، كانوا يعيشون في فرقة ونفاق، يضطهـد بعضهم بعضاً، مضافاً إلى ما يعانون من ميـوعـة وخيانـة و إنحـلال في الأخلاق، والمشي على المخططـات التي رسمهـا لهم الأعداء المصبوغة بطابع الود والاحسان.

وعلى ذلك فلا غرو في أن يحتل العدو الغاشم جزءً كبيراً من أرضنا ويترصد لأخذ جزء آخر، و إذن الظهـور والغلبة لهم والنكسة للعرب جـاءت على وفق القوانين والسنن التي تحكم على الحياة.

إذا عرفـت ما ذكـر، فالجواب عن السـؤال واضح بعد الإمعـان في الآية التـالية: **﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الـذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَ حَبْلٍ مِـنَ النَّاسِ وَ بَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ﴾** (آل عمران ـ ١١٢).

ترى أنّه سبحـانه حكم بضرب الذل والهوان عليهم ثمّ استثنى عنـه بقوله: **﴿إلاّ بحبل من الله وحبل مـن الناس﴾** وفي الوقـت نفسه حكم بضرب المسكنة عليهـم بلا

---

(١) من هنا وهناك ص ٤٢ـ٤٣.

استثناء.

وبعبارة أُخرى: ترى أنّه سبحانه استثنى من احاطة الذل والهوان صورتين: إذا تمسّكوا بحبل من الله، وإذا تمسّكوا بحبل من الناس، وبهذين السببين يمكن أن يدفعوا عن أنفسهم الذل والهوان، والمراد من الحبل هو العهد [١] فلو دخلوا في عهد الله وهو الإسلام ودفعوا الجزية وعملوا بشرائط الذمة وتركوا الغدر والحيلة مع المسلمين فسيعود لهم العز كسائر الذمّيين، ويعاملون بالمساواة، وتصان دماؤهم وأعراضهم وأموالهم، ويذاد عنهم كما يذاد عن غيرهم، ولو تمسّكوا بحبل من الناس واستعانوا باحدى الأُمم ممّن له منعة وقدرة يتيسر لهم بواسطتها أن يطردوا عن أنفسهم الذل والهوان، ويستحصلوا على العز والقدرة ما داموا كذلك.

ولا شك أنّ أُمّة اليهود ما احتلت أرضاً، وما كسبت سلطاناً، وما أدركت عزّاً إلاّ بحبل من الناس ومساعدة من الأُمم الكبرى ممّن توافقت أهدافهم العالمية مع مصالح العدو الطريد [٢].

«إنّ إسرائيل ليست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الأسلحة الحديثة، اقامتها الولايات المتحدة ، لحماية مصالحها في بلاد العرب، وأهمّها شركات البترول التي يحتاج بقاؤها والاحتفاظ بها، إلى نصف مليون جندي امريكي لولا وجود اسرائيل ... فليس من المعقول أن تكون للولايات المتحدة شركات احتكارية في بلد من البلدان ولا يكون إلى جانبها قاعدة حربية أو حلف عسكري يحميها من الثورات والحركات الوطنية، وقد وجدت في إسرائيل غنى عن القواعد والأحلاف» [٣].

أضف إلى ذلك أنّ إسرائيل وإن أُسّست باسم الدين وصبغت بالصبغة الشريعة

---

(١) سمّي حبلاً لأنّه يعقد به الأمان كما يعقد الشيء بالحبل.

(٢) قال الطبرسي في تفسير قوله: ﴿إلاّ بحبل﴾ أي بعهد من الله وحبل من الناس أي وعهد من الناس على وجه الذمة وغيرها من وجوه الأمان، مجمع البيان ج١ ص ٤٨٨.

(٣) من هنا وهناك ص ٩٩.

إلاّ أنّ كثيراً منهم لا يمتون إلى الدين بشيء، ولا صلة بينهم وبين دين اليهود، فحكومتهم حكومة ذات نزعة عنصرية طائفية، مدفوعة بكونهم من أولاد إسرائيل واخلافهم سواء أكانوا مؤمنين بدينه أم كافرين به، ملتزمين بأحكام التوراة أم لا، وما تنبّأ به القرآن إنّما هو راجع إلى اليهود الذين آمنوا بشريعة اسرائيل وما بعده إلى موسى والتزموا بأُصول دينهم وفروعه، ووقفوا في وجه سائر الشرائع، متنسّكين بشريعة، وليست اسرائيل ومن يعيش في أرضها يمثلون هؤلاء، فهي دولة مادية صبغت باسم الدين وطابعه كما هو واضح لمن لاحظ كتبهم وجرائدهم ومجلاّتهم، وعلى كل حال فخذلان بني اسرائيل التي يحتّمها القرآن إنّما تكون حتمية فيما لو وقفوا تجاه المسلمين بما هم يدينون بدين اليهود، لا بما أنّهم يتعصّبون إلى يهوديتهم تعصّباً عنصرياً أعمى من غير تدين.

الجواب الثاني:

ربّما يجاب عن الإشكال بوجه آخر وهو أنّ المراد من ضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم، والدليل على ذلك قوله: ﴿أين ما ثقفوا﴾ فإنّ ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أي تسلطوا عليهم، وهو يناسب الذلة التشريعية التي من آثارها الجزية فيؤول معنى الآية إلى أنّهم أذلاّء، بحسب حكم الشرع الإسلامي إلاّ أن يدخلوا تحت الذمّة أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء [1].

غير أنّ هذا الجواب لا يلائم ظهور الآية فإنّ القضاء التشريعي بذلتهم لا يختص بتلكم الطائفة بل يعم أهل الكتاب جميعاً، وقد أوضحنا أنّ الآية مختصة باليهود.

الجواب الثالث:

إنّ القرآن و إن تنبّأ بضرب الذلّة والمسكنة على اليهود، غير أنّه تنبّأ أيضاً بعود القدرة والمنعة إليهم في فترة من الزمن، مرتين فيفسدون في الأرض، إلى أن يقيّض الله

---

(١) الميزان ج٣ ص ٣٨٤.

رجالاً أُولي بأس شديد، ينتقم منهم، ودونك الآيات في سورة الإسراء:

﴿وَ قَضَيْنَا إِلىٰ بَنِي إِسْرٰءِيلَ فِي الكِتٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ .

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلٰلَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ .

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ .

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوا تَتْبِيراً﴾ .

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُّمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ (الإسراء: ٤ ـ ٨).

فإنّ الآيات تعرب عن افساد الطائفة المذكورة في الأرض مرتين وانتقام الله سبحانه منها بعد كل فساد تقوم به، ويدل على الفساد الأوّل قوله سبحانه: **﴿فإذا جاء وعد أُولاهما﴾** وعلى الفساد الثاني قوله عزّ وجلّ: **﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾**.

أمّا الانتقام الأول فيدل عليه قوله سبحانه: **﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأس شديد فجاسوا خلٰل الديار ﴾**.

أمّا الانتقام الثاني فيدل عليه قوله تعالى: **﴿ ليسوءُوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرة وليتبّروا ما علوا تتبيرا﴾**[1].

ثمّ إنّ المفسرين مالوا يميناً وشمالاً في تفسير هذه الآيات ولم يأتوا بأمر مقنع تطمئن إليه النفس ودونك بعض ما ذكروه من الوجوه:

١ ـ المراد من الفساد الأوّل قتل يحيى بن زكريا، ومن الانتقام غلبة بخت نصر مع

---

(١) الضمائر كلّها ترجع إلى «عباد أُولي بأس شديد» المحاربين لليهود.

النبطيين على بني اسرائيل، والمراد من الفساد الثاني غلبة بني اسرائيل على النبطيين مرة ثانية ولم يذكروا المراد من الانتقام الثاني.

٢ـ الفساد الأوّل هو قتل زكريا والثاني هو قتل يحيى بن زكريا، والانتقام الأوّل تسلّط «سابور» ذي الاكتاف، والانتقام الثاني هجوم «بخت نصر» على اليهود.

٣ـ المراد من الفساد الأوّل قتل زكريا وغيره من الأنبياء وبالانتقام الأوّل تسلّط «بخت نصر» على اليهود، والمراد من الفساد الثاني طغيان اليهود بعد اخذ استقلالهم على يد كوروش، ومن الانتقام الثاني ما وقع بيد «انطياخوس» ملك الروم [1].

وهذه الوجوه وأضرابها مما يحصل من تركيب بعضها مع بعض لا يمكن الركون إليها فإنّها منقولة عن اناس كانوا يأخذون ما يقولونه عن أحبار اليهود وعلمائهم فهي قصص اسرائيلية يجب تنزيه القرآن عنها.

أضف إلى ذلك أنّ لفظي: ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾ يعرب عن مكانة المنتقمين عند الله وأنّهم مبعوثون من جانبه سبحانه وهم عباد ممدوحون له، وهل يمكن عد نظراء بخت نصر، ذلك الكافر السفّاك الأثيم الذي اقترف من الجرائم ما لا يعد ولا يحصى، أو سابور ذي الاكتاف ذلك الرجل القاسي المجرم الذي فعل مع العرب ما فعل، أو انطياخوس واضرابه، من العباد الممدوحين وأنّهم كانوا مبعوثين من جانبه سبحانه.

ويليه في الضعف ما يقال انّ المراد من الفساد الأوّل قتلهم أشعيا النبي، والانتقام الأوّل تسلط جالوت على بني اسرائيل، ومن الفساد الثاني هو غلبة بني اسرائيل على جالوت.

أو ما يقال من أنّ المراد من أحد الانتقامين ما جرى بيد ادولف هتلر من الأُمور القاسية، كما اختاره سيد قطب في ظلال القرآن.

إذ كيف يمكن أن يقال أنّ جالوت وعملاق ألمانيا أو غيرهم من الجبابرة كانوا

---

(١) تفسير الطبري ج١٥ ص ٣٨، ومجلة الهادي العدد الثاني.

مبعوثين من جانبه سبحانه، فقد حارب جالوت داود ومن معه من صالحي بني اسرائيل وكما حارب طالوت الذي بعثه الله ملكاً، وأمّا عملاق ألمانيا فحدث عن جرائمه ولا حرج.

وما يقال إنّه لما كان تسلّط بخت نصر وقهره لهم جزاء لهم على أعمالهم السيئة فأسنده سبحانه لنفسه وقال: بعثنا عليكم عباداً لنا [1] توجيه لا تركن إليه النفس، ونضيف إلى ما ذكر أنّ كل هذه الوجوه لا تلائم ظاهر الآية لاستلزامها التفكيك بين مراجع الضمائر إذ الظاهر أنّ الضمائر الغائبة في: **﴿ثمّ رددنا لكم الكرّة عليهم﴾** وفي: **﴿ليسُوءُوا﴾** و: **﴿ليدخلوا﴾** و: **﴿دخلوا﴾** و: **﴿ليتبروا﴾** يرجع إلى من وصفهم الله بقوله ثم: **﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأس شديد﴾** ولازم ذلك اتحاد الفئة التي تحارب اليهود في المرة الأُولى مع الفئة المتغلبة عليهم في المرة الثانية، وإن هناك حربين تقعان بين اليهود وجماعة خاصة، لا أنّ كل واحد من الحربين تقع مع جماعة غير الجماعة الأُخرى.

وهذا الأمر غير موجود في الوجوه التي ذكروها إذ لم يقع أي إشتباك مجدد بين اليهود وبخت نصر، أو بينهم وبين سابور، ولم تصدر كرّة منهم عليهم مجدداً، أضف إلى ذلك أنّ ظاهر قوله سبحانه وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرة أنّ المحاربين لليهود يدخلون المسجد مرتين ويتسلّطون على المسجد الأقصى كما يستفاد من تعريفه باللام، مرة بعد مرة، مع أنّ بخت نصر وسابور لم يتسلّطا على المسجد أكثر من مرة ، وما دخلوه أكثر منها.

وعلى الجملة: انّ هذه الوجوه لا تلائم ظاهر الآية ويحتمل أن تكون الآيات مشيرة إلى الأحداث الجارية في الأراضي المحتلة، ويعلم الله سبحانه أنّ أي واحد من الوعدين تحقق،وأنّ الوضع الحاضر يمثل أيّاً منهما ولا شك أنّهم مزوّدون بالأموال والبنين مضافاً إلى دعم الدول العالمية الكبرى لهم، وبعد ذلك كلّه فما ذكرناه إنّما هو أحد الآراء

---

(١) الميزان ج١ ص ٤٠.

المذكورة حول الآية، ولسنا حاكمين بواحد من هذه الوجوه، والله سبحانه هو العالم.

وعلى أي حال فالتوفيق سهل بين ضرب الذلّة والهوان عليهم، وبين ما ترى فيهم من القوة والمنعة، والأوّل من هذه الوجوه هو الأولى.

ختامه مسك:

فلنختم البحث بتنبّؤات وردت في آية واحدة وهي قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ .

١ـ ﴿وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَ البَغْضَاءَ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ﴾.

٢ـ ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾.

٣ـ ﴿وَ يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ (المائدة ـ ٦٤).

ودونك بيانها على وجه الاجمال.

١ـ الظاهر أنّ الضمير في «بينهم» راجع إلى اليهود المذكورين في صدر الآية وما في المنار [1] من رجوعه إلى اليهود والنصارى المذكور في الآية الحادية والخمسين بعيد جداً بل كان الأولى له عندئذ أن يقول انّه راجع إلى أهل الكتاب الوارد ذكرهم في الآية التاسعة والخمسين، أي قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ... ﴾ فالآية حاكية عن تضارب اليهود بعضهم ببعض واختلافهم في المذاهب إلى يوم القيامة، ويفسره قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَ الحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ * وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ

---

(١) ج٦ ص ٤٥٧، ولو رجع الضمير إلى الأمتين فلا مانع أيضاً أن يكون المراد تضارب بعض الفرق من كل أُمة مع الأخرى كتضارب اليهود بعضهم ببعض وتضارب الفرقة الكاثوليكية مع البروتستانت، أو النسطورية والملكانية واليعقوبية من أُمّة المسيح بعضهم مع بعض.

مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيمَا كَـانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الجاثية: ١٦ـ١٧).

والفرق بين العـداوة والبغضاء أنّ الأُولى عبـارة عن البغض الـذي يظهر أثـره في الخارج، وأمّا البغضاء فهو مطلق المنافرة و إن لم يستعقب شيئاً من العمل.

هذا إذا قلنا برجوع الضمير إلى اليهود فقط، وأمّا إذا قلنـا بمقالة المنار من رجوعه إلى اليهـود والنصارى فـالعـداوة بينهم غير منقطعة، وأوضحـه صـاحب المنـار بقولـه: «العدواة على أشـدها في بـلاد روسيا على أقلها في انكلترا وفـرنسا والمانيا واليهـود أغنى أهلها والمديرون لأرحية أعظم الأعمال المالية فيهـا، وهم على مكانتهم هذه مبغوضون في جماهير النصارى، فكـم اُلّفت كتب في فرنسـا وغيرها في التحـريض عليهم، قـال: «قد أخبرني ألماني من المستشرقين أنهّم لايعـدون اليهودي من بـلاده منهم بل يقـولون هـذه يهودي وهذا ألماني» [1].

نعم تنبّأ القرآن في آية اُخرى باغـراء الله سبحانه العداوة والبغضاء بين النصارى إلى يوم القيامة قال سبحانه: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً ممّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاء إِلـىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** (المائدة ـ ١٤) والعـداوة بين فرق النصارى أشد وأوضـح لمن زاولهم وطالع كتبهم.

وفي الوقت نفسه فإنّ الآيتان تنبئان عن بقاء دينهـم إلى يوم القيامة وهو تنبّؤ آخر تضمّنته الآيتان، فلاحظ.

٢ـ قوله سبحانه: **﴿كلّما أوقدوا ناراً للحرب ... ﴾** فالحرب ضد السلم وهو أعم من القتـال والقتال يصدق بـالاخلال بـالأمن والنهب والسلب وتهييج الفتـن والاغراء بالقتـال، وقد أغرى اليهـود المشركين بالنبي والمؤمنين وهم الـذين حزّبـوا الأحزاب على

---

(١) المنار ج٦ ص ٤٥٧.

رسول الله، حتى قدموا على قريش مكة وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أديننا خير أم دينه؟قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه(١).

بل منهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين ويأوي أعداءهم ويساعدهم ككعب بن الأشرف.

ويمكن أن تكون الآية ناظرة إلى الأعمال الإجرامية التي كانوا يرتكبونها قبل الميلاد وبعده ثم ضد المسلمين.

والمراد من الاطفاء خذلانهم في كل ما يكيدون لرسوله وللمؤمنين، امّا بخيبتهم في ما يسعون إليه من الاغراء والتحريض، وامّا بنصر الله رسوله والمؤمنين وعلى أي تقدير، المراد خيبة مساعيهم في الحروب التي يوجهونها على دين الله ورسوله والمؤمنين، بما هم متدينون ومؤمنون بالله وآياته، وأمّا الحروب والنيران التي يوقدونها لا لمحق الدين بل لأغراض سياسية، أو تغلب جنسي، فهي خارجة عن مساق الآية.

قال الطبرسي: وفي هذا دلالة ومعجزة لأنّ الله أخبر فوافق خبره المخبر عنه، فقد كانت اليهود أشد أهل الحجاز بأساً وأمنعهم داراً حتى أنّ قريشاً كانت تعتضد بهم والأوس والخزرج تستبق إلى محالفتهم وتتكثر بنصرتهم، فأباد الله خضراءهم واستأصل شأفتهم واجتث أصلهم، فأجلى النبي بني النضير وبني قينقاع وقتل بني قريظة وشرّد أهل خيبر وغلب على فدك، ودان له أهل وادي القرى فمحى الله آثارهم صاغرين (٢).

٣ـ قوله سبحانه: ﴿**ويسعون في الأرض فساداً**﴾ فليس الهدف من تقلبهم في البلاد، السعي وراء صالح الأعمال والأخلاق، أو اصلاح شؤون الاجتماع، بل لا

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢، ص ٥٤ و ٥٥و٢١٤.

(٢) مجمع البيان ج٢ ص ٢٢١.

يستهدفون إلاّ منع خروج المسلمين من الأُمية إلى العلم، ومن الوثنية إلى التوحيد، وهم يحسدونهم في ذلك حباً في دوام امتيازهم عليهم.

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً غير أنّا نحسها في يومنا هذا بوضوح، فإنّ من مخططاتهم تقويض الأخلاق عند الغير، لأضعافه والسيطرة عليه، وهل الإباحية والخلاعة إلاّ أحد مخططاتهم التي تتجلى في الأفلام السينمائية والمرابع والحانات وحتى في الساحات العامة.

وفسره سبحانه في آية أُخرى وقال: ﴿**وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة ـ ٦٢).

ملاحظة:

هذه هي الأخبار الغيبية الواردة في القرآن ولم نعرضها على وجه التفصيل والاستقصاء، وإنّما جئنا بها على وجه الاجمال وفي ما ذكرناه غنى وكفاية.

قل لي بربّك هل انخرم واحد من تلكم الأخبار أو تخلّف، أو كلّها غيب تحققت في المستقبل، كما أنّ ما سألوا عنه حول أصحاب الكهف وذي القرنين والروح غيب أما تحقق في الماضي أو جار فيه، وفي الحال كما في السؤال عن الروح وقد أجابهم عن ما سألوه ولم يكن عنده شيء يستند إليه سوى الوحي، ولم يكذّبوه فيما حدثهم.

وكل واحد من هذه الانباء معجزة كبرى ولو عددت كل ما ورد في الكتاب من الانباء الغيبية على أقسامها، تبين لك عدد تلكم المعجزات، ويزيدك اعجاباً بها إذا وقفت على أنّ المتحدث بها أُمّي ربيب البادية لم يحضر على أحد في شيء من تلكم الأخبار والمغيبات.

ويزيدك اعجاباً أكثر أنّ انجيل «متى» تنبّأ بأمر واحد حول المسيح وهو أنّه يبقى مدفوناً في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولكن ما برح انجيل «متى» أن كذّب في

أواخره هذا الإخبار فوافق الأناجيل الثلاثة الأُخر على أنّ المسيح في مساء ليلة السبت طلب بعض الناس جثته من بيلاطس فأنزلها عن الصليب وكفّنها ودفنها، وقبل الفجر من يوم الأحد قام المسيح من الموت، وخرج من قبره، وعلى ذلك لا يكون المسيح بقي في القبر إلاّ ليلة السبت ونهاره وليلة الأحد، وذلك نهار وليلتان [1].

﴿إنّ في ذلك لآيات لأُولي النهى﴾ .

---

(١) مقدمة آلاء الرحمن للعلامة البلاغي.

❁ الفصل السابع ❁

اختصاص العلم بالغيب بالله سبحانه

لقد ورد لفظ الغيب في الذكر الحكيم، مع بعض مشتقاته أربعاً وخمسين مرة، وقد عرفت بما أسلفناه ما هو المراد من الغيب، غير أنّا نريد في المقام أن نتحدث عن ناحية أُخرى لها تعلّق به، وهي أنّه هل الغيب مختص بالله سبحانه لا يعدو غيره أو غير مختص به ويتصف به سواه؟!

والقول الفصل في المقام هو أنّ العلم بالغيب على ضربين:

أحدهما: ما هو مختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره، ولا يتجاوز إلى سواه، وأنّ ما جاء في الذكر الحكيم من الاشارة إلى علم الغيب، لا يراد منه إلاّ هذا، فقوله سبحانه: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاّ اللهُ﴾ (النمل ـ ٦٥) لا يراد منه إلاّ هذا المعنى المختص به تعالى كسائر أوصافه ونعوته.

ثانيهما: ما يتصف به غيره سبحانه من ملائكته ورسله ومن يظهره على غيبه، وهذا لا يصح اطلاقه على الله سبحانه، وهذا الانقسام كما يجري في علم الغيب كذلك

يجري في سائر نعوته وصفاته من قدرته وحياته و ... فما يجري منها على الواجب سبحانه لا يمكن تشريك الغير فيه، ولا يصح اطلاقه عليه، وما يجري على من سواه لا يصح اطلاقه عليه سبحانه، ولا يطلق إلاّ على غيره من المخلوقين، فلنذكر ما يدل على اختصاص العلم بالغيب بالمعنى الأول والذي يمكننا استفادته منه وجوه:

١ـ قصره على الله سبحانه في بعض الآيات:

فمن الآيات الدالّة على الحصر به قوله سبحانه: ﴿وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاّ هُوَ﴾ (الانعام ـ ٥٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَ الأرْضِ الغَيبَ إلاّ اللهُ﴾ (النمل ـ ٦٥).

وأمّا قوله سبحانه: ﴿فَقُلْ إنَّما الغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرينَ﴾ (يونس ـ ٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَ للهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَ الأرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النحل ـ ٧٧) وقوله سبحانه: ﴿وَللهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ وَ إلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود ـ ١٢٣)، فلا يدل على مانحن بصدده.

إذ المقصود من قوله: ﴿إنّما الغيب لله﴾ هي الآيات الباهرات والمعجزات التي يستدل بها على نبوّة المدعي وصلته به سبحانه، وذلك ظاهر لمن أمعن النظر في سياق الآيات. وأمّا قوله سبحانه: ﴿ولله غيب السمٰوات والأرض﴾ فالمراد منه: أنّ الحكومة المطلقة في السماوات والأرض غيبهما وشهادتهما، باطنهما وظاهرهما، لله سبحانه، وأنّه تعالى يملك غيب السماوات والأرض ملكاً لا حدود له، وله أن يتصرّف فيه كيف يشاء كما يملك شهادتهما، وكيف لا وغيب الشيء لا يفارق شهادته وهو موجود ثابت معه، وله الخلق والأمر؟!

ويؤيده ذيل الآية، وهو قوله: ﴿وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب﴾ والمعنى أنّ الساعة الموجودة، ليست بأمر محال حتى لا تتعلّق بها قدرة، بل هي من غيب

السماوات والأرض، وحقيقتهما المستورة عن الافهام، في هذا الزمان، فهي مما استقر عليه ملكه تعالى، وله أن يتصرف فيه بالاخفاء تارة وبالاظهار أُخرى، وليست بصعبة عليه تعالى، فإنّما أمرها كلمح البصر أو أقرب من ذلك لأنّ الله على كل شيء قدير.

ومن ذلك يظهر المقصود من قوله سبحانه: **﴿ولله غيب السمٰوات والأرض وإليه يرجع الأمر كلّه﴾** فإنّ الآيتين متقاربتان في المعنى والمقصد، ومفاد صدر الآية: يعني كونه سبحانه مالكاً لغيب السماوات، علّة لذيلها أعني قوله سبحانه: **﴿وإليه يرجع الأمر كلّه﴾** ورجوع الكل إليه، من غيب السماوات والأرض، ومن يملك غيبهما قادر على إرجاع الأُمور إليه.

ونظيره قوله سبحانه: **﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾** (الكهف ـ ٢٦) والمعنى إذا كان سبحانه مالكاً لغيب السماوات والأرض بحقيقة معنى الملك، وله كمال البصر والسمع، فهو أعلم بما لبثوا!!.

٢ـ ما يستفاد منه الحصر بمعونة القرائن:

وهناك آيات يستفاد منها الحصر بمعونة القرائن وهي كثيرة مثل قوله في بدء الخليقة عند تفنيد مزعم الملائكة: **﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾** (البقرة ـ ٣٣) فالآية بصدد تنزيه سبحانه عن الجهل وترفيعه على من سواه بصفة تختص به سبحانه ولا يشاركه فيها غيره، وقوله سبحانه: **﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** (فاطر ـ ٣٨) وقوله سبحانه: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾** (المائدة ـ ١٠٩) والصيغة في المقام للتكثير لا للمبالغة نظير قوله سبحانه: **﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾** (آل عمران ـ ١٨٢) والمراد من اللفظين في كلا الموردين هو الانتساب إلى المبدأ أعني الغيب والظلم فيؤول المعنى إلى أنّه المنسوب إلى علم الغيب فقط دون غيره، أو أنّه لا صلة بينه وبين الظلم.

كقول امرؤ القيس:

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبال

أي وليس بصاحب نبل، ولا صلة ونسبة بينه وبين النبل أبداً.

وقد ورد توصيفه سبحانه بهذا اللفظ في الذكر الحكيم أربع مرات [١] ووزان هذا القسم من الآيات، وزان قوله سبحانه: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ (الأنعام ـ ٧٣) وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالمِ الغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ﴾ (التوبة ـ ٩٤) وقوله: ﴿وَ سَتُرَدُّونَ إِلَى عَالمِ الغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ـ ١٠٥) إلى غير ذلك مما يبلغ توصيفه في الذكر بهذا النحو عشر مرات [٢]، فإنّ الظاهر من هذا التوصيف بهذه الكثرة هو اختصاصه سبحانه بالعلم بالغيب والشهادة، على نحو لا يشاركه غيره.

٣ـ سلب العلم بالغيب عن غيره:

هذا القسم من الآيات يدل بالملازمة العرفية على اختصاصه به سبحانه، مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ـ ١٨٨)، ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ (هود ـ ٣١) [٣].

ومن هذه الوجوه الثلاثة يستفاد اختصاص العلم بالغيب به سبحانه وأنّه لا يشاركه فيه غيره، غير أنّ اختصاصه به سبحانه على الوجه اللائق بساحته لا ينافي إمكان إطلاع الغير على الغيب باذن منه سبحانه.

---

(١) المائدة ١٠٩ و١١٦ ، التوبة ٧٨ ، سبأ ٤٨.

(٢) الأنعام ٧٣، التوبة ٩٤ ، و ١٠٥ ، الرعد ٩، المؤمنون ٩٢، السجدة ٦، الزمر ٤٦، الحشر ٢٢، الجمعة ٨، التغابن ١٨.

(٣) سيوافيك توضيح مفاد الآية وما يماثلها التي تسلب العلم بالغيب عن النبي ﷺ عن قريب فانتظر.

توضيحه: أنّ ما يجري على الله سبحانه من صفات ونعوت تختلف عمّا يجري على غيره سبحانه لا بمعنى أنّ للعلم معنيين مختلفين بأحدهما يجري على الواجب وبالمعنى الآخر يجري على الممكن، فإنّ ذلك باطل بالضرورة إذ ليس للعلم ولا لسائر أوصافه في اللغة والعرف إلاّ معنى واحداً وهو في العلم انكشاف المعلوم لدى العالم بطريق من الطرق، وكذا الحياة والقدرة والسمع والبصر بل المراد اختلاف المحمول عند الجري على الواجب والممكن من جانب آخر. وهو الاختلاف في كيفية الجري والاتصاف، فإنّ العلم: منه واجب ومنه ممكن ،منه ذاتي ومنه اكتسابي، منه مطلق ومرسل عن القيود، ومنه مقيّد محدود، منه ما هو عين الذات بلا تعدد بين الوصف والموصوف، ومنه زائد على الذات وعارض عليه، وهكذا واللائق من هذه الأقسام بساحته تعالى هو القسم الأوّل.

كما أنّ الصحيح عند الحمل على الموجود الممكن هو الثاني لما تحقق وثبت بالبراهين العلمية أنّ علمه سبحانه مطلقاً بذاته أو غيره، ذاتي له لا عرضي، مطلق لا مقيّد. مرسل لا محدود.

وعلى ذلك ـ فعلمه سبحانه بكل شيء، عين ذاته، لا عارض عليه، فالذات هو نفس العلم والعلم هو عين الذات بلا تعدد ولا اثنينية بين الذات وعلمه ونظير المقام اطلاق علمه، فعلمه سبحانه مطلق عن القيود، مرسل عن الحدود، فلا يحدده كيف ولا يقيّده أين، مجرد عن الامكان وأحكامه، منزّه عن التجزئة والمقدار وآثاره إلى غير ذلك من أحكام الممكنات ولوازمها.

فهذه الآيات الدالة على اختصاص العلم بالغيب به سبحانه لا تهدف إلاّ إلى ما يناسب ساحته وهو العلم الواجب الذاتي المرسل المطلق عن الحدود، الذي لا يشاركه غيره، لا ما يمكن أن ينعت به الممكن ويتصف به غير الواجب واتصاف الغير بالعلم الامكاني الكسبي منه سبحانه، المحدود بالزمان والمكان وغيرها من الحدود، الزائد على ذات الموصوف، والعارض عليه، لا يعد نقضاً للحصر، بل لا يستلزم استثناء عن الحكم

استثناء حقيقياً متصلاً ولا يستلزم مشاركة الواجب والممكن في هذا الوصف، كاتصاف سائر الموجودات بالحياة والقدرة، والسمع والبصر وغيرهما من الصفات الثبوتية.

فالغيب المختص بـه سبحانه إنّما هو هـذا النوع من العلم الذي لا يشـاركه فيه شيء، بل يمتنع أن يشاركه فيه أحد لاستلزامه الشرك وتعدد الواجب.

وعليه يحمل كـل ما دلّ على أنّ علم الغيب مختص بـه سبحانه، فالعلـم بالغيب الذي هو عين ذاتـه سبحانه الذي لا يحده شيء، ولا يقيده قيد، مخصـوص به تعالى، لا يشاركه في هـذا العلم أحد من خلقه، بل العلـم بالشهادة على هذا الوجـه أيضاً مختص به، كما قال سبحانه: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ وَ الشَّهَـادَةِ وَ هُوَ الحَكِيـمُ الخَبِيرُ**﴾ (الأنعام ـ ٧٣) إلى غير ذلك ممّا يلمح إلى انحصار كلا العلمين فيه سبحانه.

وهذه قـرينة واضحـة على أنّ المقصود مـن الآيات الـدالة على اختصـاص علم الغيب به سبحانه، هو ما يليق بساحة الـواجب الذي لا يشاركه فيه أحد، وإلاّ فالعلم بـالشهادة على غير الـوجـه الذاتي، وغير المطلـق المرسل عن القيـود، بأن يكـون محدوداً ومقيداً وعرضياً، فغير مختص به، بل يوجد عند كل من أعطى له الإدراك والشعور، وقدرة الاتصال بـالخارج، فما دل على انحصار كـلا العلمين (العلم بـالغيب والشهادة) فيـه سبحانه إنّما يراد منه ما يليق بساحته عزّ وجلّ.

هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب:

إنّ في وسع المولى سبحانـه أن يظهر على غيبه من شاء من عبـاده ويطلعه على ما حدث وغبر، أو يحدث ويتحقق من ملاحم وأحداث وفتن أو غيرها، في حين أو أحايين ويوقفه على ما لم يره ولم يشهده، وليس في ذلك أي تصادم مع اختصاصه بالله، فهو يعلم الغيب بالأصالة، وغيره بتعلّم منه ومن طريق التبعية.

قال الشيخ الرئيس في اشاراته ما هذا لفظه: «التجربة والقياس متطابقان على أنّ للنفس الانسانيـة أن تنال من الغيب نيلاً ما، في حـالة المنام، فلا مـانع من أن يقع مثل

ذلك النيل في حال اليقظة إلاّ ما كان إلى زواله سبيل، ولارتفاعه إمكان، أمّا التجربة فالتسامح والتعارف يشهدان به، وليس أحد من الناس إلاّ وقد جرب ذلك في نفسه، تجارب ألهمته التصديق اللّهمّ إلاّ أن يكون أحدهم فاسد المزاج، نائم قوي التخيل والتذكر، وأمّا القياس فاستبصر فيه من تنبيهات» ثم ذكر بعض التنبيهات لاثبات ما ارتآه [1].

وقد صرّح بذلك في آيات:

الأولى: قوله سبحانه: **﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إلاّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾** (الجن: ٢٦ـ٢٨) فمعناه أن الغيب كلّه مختص به، لا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول فيظهر رسوله على ما شاء من الغيب، فهذه الآية إذا انضمت إلى قوله سبحانه: **﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ الغَيْبَ إلاّ اللهُ﴾** (النمل ــ ٦٥) يتضح أنّ الهدف من الآية، اختصاصه به على وجه الأصالة والذاتية، واطلاع الغير بتعليم منه سبحانه وليس ابطالاً له بل استثناء منه يشبه الاستثناء المنقطع، فإنّ علمه بالأشياء بالأصالة وعلم غيره بالتبعية، والعلم التبعي الاستنادي، لم يكن داخلاً فيه، حتى يحتاج إلى اخراجه إلاّ بضرب من التأويل، لتشابه بين العلمين من بعض الجهات و إن افترقا من جهات شتى، فصح أن يقال: إنّ العلم بالغيب مختص به سبحانه وفي الوقت نفسه يظهر على غيبه بعض عباده من دون أن يمس كرامة اختصاصه به.

ونظير المقام قوله سبحانه: **﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾** (الزمر ـ ٤٢) فهو ظاهر في أنّ التوفّي منحصر في الله سبحانه مع أنّه سبحانه أسنده إلى ملك الموت في مورد و إلى رسله في مورد آخر، وقال: **﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾** (السجدة ـ ١١) فالتوفّي وأخذ الأرواح والنفوس، من فعل الله سبحانه على وجه

---

(١) راجع الاشارات والتنبيهات النمط العاشر ج٣ ص ٣٩٩.

الأصالة ومن فعل غيره على وجه التسبيب والتبعية، ومع ذلك لا ينافي اختصاصه به سبحانه على الاطلاق لاختلاف الفعلين من جهة وتشابههما من جهة أُخرى.

نعم ما يظهره على رسوله من الغيب لما كان في مظنة التغيير لم يكتف بنفس الاظهار والاعلام بل عين له رصداً وحفظة يحفظون ما يلقى إليه، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله: ﴿**فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾.

ولما كان علم الرسول بالغيب محاطاً بعلمه سبحانه قال: ﴿**وأحاط بما لديهم**﴾ أي ما لدى الأنبياء والخلائق وهم لا يحيطون إلاّ بما يطلعهم الله عليه فقد: ﴿**أحصى كل شيء عدداً**﴾.

ثمّ إنّه وإن خصص العام في هذه الآية بالرسول حيث قال: ﴿**إلاّ من ارتضى من رسول**﴾ إلاّ أنّه لا يأبى عن ورود مخصص آخر عليه فإنّه سبحانه كما أظهر غيبه على رسله، أظهره على أنبيائه الآخرين حيث قال سبحانه: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوحَيْنَا إِلىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ (النساء ـ ١٦٣) والوحي أحد مصاديق المغيب على ما عرفناك.

هذا إذا قلنا باختلاف الرسول والنبي في المصداق وأنّ بين اللفظين حسب المصداق عموم مطلق أو عموم من وجه، أمّا إذا قلنا باختلافهما في المفهوم وتساويهما في المصداق كما هو غير بعيد، فلا يلزم تخصيص آخر.

ومن هنا يظهر الحال في علم خلفاء الرسول بالغيب فإنّهم ـ عليهم السّلام ـ لما جعلوا مصدر علمهم بالغيب، التعلّم من ذي علم وهو الرسول والوراثة منه [١] لا يلزم عندئذ تخصيص آخر على الآية، غير أنّ كون مصدر علمهم منحصراً فيها لا يخلو من غموض لما سيوافيك من كونهم ـ عليهم السّلام ـ محدثين ـ بالفتح ـ فانتظر.

وربّما يقال: انّ المراد من الغيب في قوله سبحانه: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلاّ من ارتضى من رسول**﴾ (الجن ـ ٢٦ـ٢٧) وهكذا في نظائره ممّا استدل به على جواز تعرّف النبي ﷺ على الغيب، هو الوحي القرآني الذي نزل على قلب

---

(١) وقد عقد الكليني في أُصوله باباً لذلك فراجع ج١ ص ٢٢٣.

النبي ﷺ ، وهذا ممّا لا خلاف فيه، وإنّما الخلاف في تعرّفهم على الغيب، من غير هذا الطريق، وممّا يدل على ما استظهر، قوله سبحانه في عدة مواضع من القرآن: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فلاحظ (آل عمران ـ ٤٤، ويوسف ـ ١٠٢، وهود ـ ٤٩).

والاجابة عنه سهلة بعد الوقوف على معنى الغيب في اللغة والعرف ومصطلح القرآن في غير هذه المواضع ويتضح الجواب بملاحظة أُمور:

١ ـ أنّ الغيب يطلق في اللغة على الأمر الغائب عن الحس في مقابل الشهود الذي يطلق على المعنى المحسوس بأحد الحواس، وإذا أُطلق على الوحي كلمة الغيب فإنّما هو بسبب خفاءه عن حواسنا كالحوادث الغائبة عن حواسنا الواقعة في هذا الكون وعندئذ فما هو المبرر لتخصيص كلمة الغيب بالوحي فقط.

إنّ القرآن الكريم يجعل أحد علائم المتقين في كتابه هو (الإيمان بالغيب) حيث يقول: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ فهل يسوغ المعترض لنفسه تفسير الغيب في الآية بالوحي فحسب؟ في حين أنّ الغيب هنا يحمل معنى واسعاً يكون الإيمان بالقيامة والوعد والوعيد أحد مصاديقه أيضاً، التي يؤمن بها المتقون رغم عدم إدراكهم لها بالحواس، أضف إلى ذلك أنّ الغيب في اللغة بمعنى الأمر الغائب عن الحس مقابل (الشهادة)، ومن هنا يقول القرآن في وصفه سبحانه: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ وليس المراد منه خصوص الوحي قطعاً، واطلاق الغيب على الوحي، ليس لأنّ الوحي هو معناه، بل لأنّ الوحي هو من بعض مصاديقه باعتبار عدم ادراكنا له بالحس أيضاً، فهذا الاشتباه من قبيل اشتباه المصداق بالمفهوم في مصطلح العلماء، وقد تصور المعترض أنّ الغيب بمعنى الوحي فقط بينما ليس الوحي إلاّ أحد مصاديق الغيب حسبما عرفنا الآن، وقد ورد لفظ الغيب في القرآن الكريم أربعاً وخمسين مرّة ولم يقصد فيه إلاّ الأُمور الغائبة عن الحس أيضاً حتى الآيات التي استدل بها المعترض على ما يقوله من تفسير الغيب بالوحي فقط.

إنّ هذه الآيات تشير إلى قصص مريم ويوسف ونوح التي لم تكن معروفة عند

الناس بشكلها الصحيح، فبيّنها القرآن لهم بالشكل المطلوب الصحيح، وفي الواقع كان الوحي هنا أحد طرق معرفة الغيب، لا أنّ الغيب موضوع للوحي خاصة، ولعلك لا تعثر في القرآن كلّه على موضع واحد أُطلق فيه لفظ الغيب وأُريد منه الوحي فقط وإليك بعض النماذج:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (البقرة ـ ٣٣) ، **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾** (الأنعام ـ٥٩)، **﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾**(سبأ ـ١٤)[1].

٢ـ إنّ كلمة (الغيب) في قوله سبحانه: **﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾** (الجن ـ ٢٦) بمعنى الأُمور الغائبة عن الحس كما قدمناه وليست بمعنى الوحي كالقرآن مثلاً، وذلك لأنّ الآية السابقة [2] قد عرضت موضوع اطّلاع النبي ﷺ على موعد القيامة وكانت الآية قد نفت ـ بلسان النبي ﷺ ـ مثل هذا الاطّلاع عنه ﷺ ، وحين يأتي بعد هذا النفي المباشر قوله سبحانه: **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾** .

يكون موضوع القيامة داخلاً في اطار كلمة (الغيب) المستعملة في الآية أيضاً وتكون الآية الأخيرةبمثابة تعليل لما تقدم في الآية السابقة من نفي العلم بموعد القيامة عن النبي ﷺ بجعلها من علم الغيب المختص بالله سبحانه ولا يمكننا بعد ذلك تفسير (الغيب) في الآية بخصوص الوحي، لأنّ سياق الآية يمنع من إخراج العلم بموعد القيامة عن مورد الآية. وإذا كان العلم بموعد القيامة ممّا تتضمنه الآية أيضاً حسب السياق، لا يمكننا استثناء سائر المواضيع الغيبية من هذه الآية، وحينئذ يكون معنى الآية كما يلي:

﴿أنّ الله عالم الغيب ـ كل من غاب عن الحس من وحي وغيره ـ **فلا يظهر على غيبه أحد * إلاّ من ارتضى من رسول﴾** . وتكون الآية دليلاً واضحاً على اطّلاع

---

(١) راجع المعجم المفهرس.

(٢) تقول الآية السابقة: **﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربّي أمداً * عالم الغيب ...﴾** .

النبي ﷺ على الغيب من وحي وغيره بأمر من الله تعالى.

٣ـ إنّ المفسرين فسرّوا الغيب في الآيـة المبحوث عنها من (سـورة الجن) بالأُمور الغائبـة عن الحس، وأيدوا بها اطّلاع الأنبياء على هـذه الأُمور، ويعلل طائفـة من هؤلاء المفسرين كـالطبرسي والقرطبي وصاحـب (روح البيان) اطّلاع الأنبيـاء على الغيب بأنّ ذلك دليل متمّـم على صدق رسـالتهم، ومعجزة لهم، حيث إنّ علمهم بالغيـب سبب لوثوق الناس بهم، ودليل على ارتباطهم بالسماء. وبعد هذا هل يمكن تخطئة جميع هؤلاء المفسرين وتصحيح ما قاله المعترض فقط؟!

إنّنا راجعنا التفاسير التـالية فوجدناها جميعاً تفسر (الغيـب) بكل أمر غاب عن الحس مطلقاً ولم يفسر أحـد منهم الغيب بـالوحي خـاصة وإليك أسماء التفـاسير التي راجعناها مع أرقام الصفحـات والمجلدات: تفسير التبيان للشيخ الطوسي ١٠/ ١٥٨، ومجمع البيان للطبرسي ١٠/ ٣٧٤، تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٣، تفسير القاضي البيضاوي ص ٤٤٥ الطبعـة الحجـريـة، تفسير جـوامع الجوامـع للطبرسي ص ٥١٤، الكشـاف ٤/ ٦٣٣، زاد المسير لابـن الجوزي ٧/ ٣٨٥، تفسير القـــرطبـــي ١٠/ ٦٨١٩، تفسير الجلالين ص ٧٦٦، الطنطاوي ٢٤/ ٢٨١، المراغي ٢٩/ ١٠٦ تفسير گازر ١٠/ ١٩١، في ظلال القرآن ٢٩/ ١٦٢، تفسير القمي ص ٧٠٠، الصافي ٢/ ٧٥٣، تفسير شبر ص ١١٦٤، مقتنيات الدرر ١١/ ٢٧٣، منهج الصادقين ١٠/ ٤، روح البيان ١٠/ ٢٠١.

الثانية: قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَـى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَـى الْغَيْبِ وَ لٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران ـ ١٧٩) فهو بظـاهره يفيـد أنّ الله سبحانـه لا يظهر على غيبـه أحـداً من النـاس ليعلم ما في قلـوب الآخرين، ويميز المؤمن مـن المنافق، ولكن يختار من يشاء من رسلـه فيوقفه على الغيب ويطلعه عليه.

ولا يتوهّم أنّ المقصود من الغيب هو الوحي القـرآني فإنّه لايناسب مفاد الآية إذ

المقصود من ﴿**الخبيث**﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، كما أنّ المقصود من ﴿**الطيب**﴾ هم المؤمنون الحقيقيون.

إنّ الله تعالى يلفت أنظار الأُمّة في مطلع هذه الآية بأنّه تعالى سوف لا يدع الأُمّة بهذا الشكل المختلط من المؤمنين والمنافقين بل أنّه تعالى سيميز بين الفريقين بأحد الطريقين التاليين:

١ ـ فرض الامتحان والابتلاء عليهم جميعاً وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان فيعرف المؤمن من المنافق.

٢ ـ عن طريق علم الغيب وذلك بأن يطلع نبيه على شؤون المؤمنين والمنافقين والفوارق بينهما، ولكن هذا الطريق مختص بالنبي والأنبياء فقط، وليس كل الأنبياء، بل أُولئك الذين يجتبيهم الله من أنبيائه ورسله. ولقد أشار الى هذه الحقيقة بقوله: ﴿**وما كان الله**﴾. ويتضح من ذلك كلّه أنّ ليس المقصود من الغيب في هذه الآية هو الوحي المصطلح، بل معناه الاطّلاع على المواضيع الخارجية مثل تمييز المنافق من المؤمن، لأنّه لو كان المراد منه الوحي المصطلح ما كان هناك داع لتخصيصه بطائفة من الرسل، في حين أنّ جميع الأنبياء ينزل عليهم مثل هذا الوحي.

أضف إلى ذلك أنّ الهدف من اطّلاع الأنبياء على الغيب هنا، حسبما يدل عليه السياق هو تمييز المؤمن من المنافق، ولا يكون هذا إلاّ بأن يطّلع النبي ﷺ على كل شؤون المنافقين ويعرف كل فرد منهم، والقرآن وإن بين بعض صفات المنافقين على وجه العموم، ولكنّه لم يعرفهم بشكل تفصيلي يؤدي إلى التمييز بينهم وبين المؤمنين، والدليل على أنّ المقصود من الآية هو معرفة المنافقين تفصيلياً هو ما يرويه التاريخ من أنّ النبي ﷺ عرف جميع المنافقين يوم تبوك وعرّفهم لحذيفة [1] أيضاً. ولقد تحقق مفهوم هذه الآية: ﴿**حتى يميز الخبيث من الطيّب**﴾ بمعرفة النبي ﷺ للمنافقين، عن طريق تحقق

---

(١) لاحظ المصادر التالية: تاريخ بغداد ج١ ص ١٦١، أُسد الغابة ج١ ص ٣١٩، الاستيعاب ج١ ص ٢٧٧، الدرجات الرفيعة ص ٢٨٤ وغيرها وقد عرف حذيفة بأنّه صاحب سر رسول الله ﷺ.

محتوى هذه الآية.

إنّ من يمعن النظر في الآية يذعن بأنّه ليس المقصود من «الغيب» فيها وحي السماء بل المقصود هو: معرفة الخبيث (المنافق) من الطيب (المؤمن) الحقيقي، ومثل هذه المعرفة التفصيلية لا تحصل عن طريق الأُمور الكلية والعامة، بل لا بد من طريق آخر يعرّفهم النبي ثم يعرّفهم للآخرين.

الثالثة: قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * وَ مَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ**﴾ (التكوير: ٢٣ـ ٢٤)، المراد من «الغيب» هو الوحي النازل عليه والمعنى أنّه لا يبخل بشيء مما يوحى إليه، فلا يكتمه ولا يحبسه ولا يغيره، بل يبلّغ الناس على النحو الذي أُمر بابلاغه فتدل الآية على اطّلاعه على الغيب.

الرابعة: قوله سبحانه: ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**﴾ وقد تكررت الآية في الذكر الحكيم فراجع آل عمران ــ ٤٤، يوسف ـ ١٠٢، وقال سبحانه: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيكَ**﴾ (هود ـ ٤٩) وعلى أي تقدير فتدل هذه الآيات الأربعة على أنّه سبحانه يظهر غيبه على رسوله ويطلعه عليه، وعلى الأنباء الغيبية مما لم يكن يعلمه لا هو ولا قومه.

وقد استدل في بعض الروايات على اطّلاع النبي والأئمة على الغيب بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرسِلِين**﴾ (الدخان : ٣ـ ٥)، وبقوله سبحانه: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ...**﴾ (القدر : ١ـ٥).

ونقلها الكليني في أُصوله [1] عن الحسن بن العباس بن الحريش وقد عرفت حال الرجل وأنّه لا يلتفت إليه ولا يكتب حديثه وأنّه ... [2].

---

(١) الكافي ج١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٩.

(٢) راجع ما أسلفناه ص ٣٤٢ ــ٣٤٣ من كتابنا هذا، وجامع الرواة ج١ ص ٢٠٥ وقاموس الرجال ج٣ ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

نعم استدل بعض الأكابر [1] على عموم علم النبي والأئمة من أهل بيته لكل غابر وحادث بل على فعلية علومهم بكل شيء بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمايُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهَلَ البَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب ـ ٣٣)، وبقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾ (آل عمران ـ ٣٣).

حيث قال: «إنّ عموم إذهاب الرجس والتطهير والاصطفاء، الظاهري والباطني والتنزيه عن شوائب الكدر، وظلمات الجهل والسهو دال على كلّ من المطلوبين من عموم علمهم وفعليته » لكن في دلالة الآيتين على المطلوب خفاءً.

أمّا الأُولى: فإنّ دلالتها على اعتصام أهل البيت بالعصمة الالهية في غاية الظهور على ما هو مقرر في محله، وأمّا دلالتها على سعة علمهم وفعليته ففيه خفاء تام، فإنّ الرجس هو الشيء القذر يقال: رجل رجس، ورجال أرجاس، والقذارة أمر وجودي توجب تنفر النفس من الشيء المتلبس بها وهي إمّا بحسب ظاهر الشيء كما في الخنزير كقوله سبحانه: ﴿إِلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمَاً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ (الأنعام ــ ١٤٥)، أو بحسب باطنه وهي القذارة المعنوية كالشرك والكفر ومساوئ الأخلاق والخمر والميسر بما لهما من الآثار الموبقة، قال سبحانه: ﴿وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة ـ ١٢٥)، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يُرِد أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام ـ ١٢٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّما الخَمْرُ وَ المَيْسِرُ وَ الأَنْصَابُ وَ الأَزْلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة ـ ٩٠). والمتفحص في موارد استعماله يذعن بأنّه أمر وجودي في الشيء إمّا بحسب ظاهره مما يدركه الناس أو باطنه مما يجب أن ينبه عليه من جانب العقل أو الشرع، والغاية من إذهاب الرجس عنهم هو إزالة كل صفة خبيثة في النفس، تدعو إلى الاعتقاد الباطل أو العمل السيء في مقابل العصمة الالهية، التي هي هيئة

---

(١) السيد عبد الحسين النجفي الشيرازي.

علمية نفسانية، تصون الانسان عن الزلل في الرأي والقول والعمل.

أمّا الجهل بالشيء مطلقاً خصوصاً الجهل بالفتن وملاحم أحداث وكل ما يجري في الكون من نوازل أو ملمات أو ما يحكم فيه من نواميس وقوانين فليس أمراً وجودياً أو هيئة في النفس، يورث التنفّر والتجنب، حتى يدل إذهاب الرجس على إذهابه فلو جهل الانسان بنواميس الكون والقوانين السائدة في الأفلاك لا يعد جهله هذا رجساً، أترى من نفسك أن جهل الفقيه با لمعادلات الجبرية والقوانين الطبية رجس، أو جهل الأديب بفنون الصنايع رجس؟

وأمّا عد الإلحاد والشرك من الرجس، فليس لأجل كون الملحد والمشرك جاهلاً بالله سبحانه وصفاته بل لأجل تعلق قلبه بأمر باطل لا يعدو كونه أمراً وجودياً وإن كان يجتمع مع الجهل أيضاً [1].

وأمّا الآية الثانية: فلأنّ المراد من الاصطفاء هو أخذ صفوة الشيء وتخليصه ممّا يكدر، فالمناسب له، هو اصطفاؤهم من الزلل في الرأي والقول والعمل الذي هو عبارة عن العصمة الالهية وهي الجهة الجامعة الوحيدة بين المصطفين أعني آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، فإنّ المراد من آل إبراهيم هم الطيبون من ذريته كإسحاق وإسماعيل والطاهرون من ذريتهما، كما أنّ المراد من آل عمران هي مريم وابنها المسيح أو هما وزوجة عمران بقرينة ذكر قصة امرأة عمران ومريم ابنته بعد الآيتين. وعلى أي تقدير فالمراد اصطفاؤهم من كدر الشرك وقذارة الذنوب وتطهيرهم من مساوئ الأعمال وقبائحها ويؤيد ذلك قوله سبحانه: **﴿وَ إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾** (آل عمران ـ ٤٢).

نعم إنّ الله سبحانه وإن اصطفى آدم بتعليمه الأسماء حين قال سبحانه: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** (البقرة ـ ٣١) لكنّه اصطفاه بأمور أُخرى أيضاً فهو أوّل خليقة وطأ الأرض من النوع الانساني قال تعالى: **﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ**

---

(١) راجع المفردات للراغب ص ١٨٨ والميزان ج١٦ ص ٣٣٠.

فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ــ ٣٠)، وأول من اجتباه بقبول تـوبته قال سبحـانه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ﴾ (طه ـ ١٢٢) إلى غير ذلك من خصائص ومناقب ، كما أنّه اصطفى نوحاً بجعله أوّل الخمسة من أُولي العـزم أصحاب العزائم القوية والشريعة لقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ (الشورى ـ ١٣) إلى غير ذلك، واصطفى إبراهيم وآله بأُمور وخصال يجدها المتفحص في سيرتهم المذكورة في القرآن.

لكن الجهة الجامعة المشتركة بين الجميع في الآية، التي يمكن أن يكون الاصطفاء لأجلها ليسـت إلاّ العصمة الالهية، أعني التطهير مـن الذنوب وكـدر الشرك أو هي مع النبوّة في غير مريـم، لا ما يختص بكل واحد منهم من صفـات وخصال كتعليم الأسماء لآدم مثلاً حتـى تكون الآية نـاظرة إلى اصطفـاء المذكورين في الآيـة بتعليمهم كل شيء واطلاعهم على كل أمر، ويدل بالنتيجة على اطلاع النبي وآله على الغيب.

القرآن يدل على تحقق التنبّؤ من الأنبياء والصالحين:

ما مر عليك من الآيات تدل بصورة كلية على أنّ رجال الوحي يمكنهم الاطّلاع على الغيب والتطلع على ما ليس بمشهود لغيرهم، هلم معـي نتدبر في الآيات التي تدل على تحقق التنبّؤ عنهم في مواقف شتى.

ولنقدم كلمة، وهي: أنّ كل ما أتى به الرسول ﷺ من أُصول وفروع وقصص و... كلّها أنباء غيبيـة أظهره الله عليها قال سبحانـه في شأن النبي الأعظم: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُـوحِيهَا إِلَيْكَ مَـا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَـوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هـذا فَٱصْبِرْ إِنَّ العَـاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ـ ٤٩) فأي غيب أعلى وأجلى ممّا أظهر نبيه عليه من القرآن المبين الذي يعد بنفسه نبأً غيبياً ويحتوي من الإخبار بالمغيبـات الوافرة ما لا يعد ولا يحصى، فكل ما جـاء به في مجالات مختلفـة، غيب بلفظـه ومعناه أطلعـه الله عليـه وأوحاه إليـه بصورتـه ومادته، إذ المفروض أنّ القرآن معجز بلفظه ومعناه والمعجزات احدى المغيبات.

وعلى كل تقديـر أنّ القرآن يدل بفضل نصـوصه على أخبار غيبيـة، تنبأت بها ثلّة

جليلة من عباده المخلصين من انبيائه ورسله وخيار عباده وان الله أظهر من علمه المكنون ما كان خفياً، على بعض رسله وانبيائه وثلّة من أوليائه ودونك ما وقفنا عليه عند التدبر في الذكر الحكيم.

١ـ النبي آدم عليه السلام والاطلاع على الغيب:

قال سبحانه: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هـؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ*قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة: ٣١ـ٣٣).

والنظر الدقيق في هذه الآيات الثلاث يقودنا إلى أنّه سبحانه أطلع نبيه آدم ـ عليه السلام ـ على جملة من الحقائق كان يغيب علمها عن الملائكة وقد أخبر آدم ـ بأمر من الله ـ الملائكة عن هذه الحقائق التي عبر عنها القرآن بالأسماء، وليس المراد من الأسماء في الآية : ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ أسماء الأشياء فقط فإنّ معرفة الأسماء لا تعد فضيلة لآدم ـ عليه السلام ـ .

وإنّما المقصود منها مسمّياتها ـ أي حقائق الأشياء ـ وعلى هذا علمه سبحانه أسرار الخليقة فاطّلع على خواص الأشياء وآثارها فصارت نتيجة تعليم الأسماء لآدم ـ عليه السلام ـ هو نصب الحقائق الكونية بين يديه وإخباره عن واقع الحياة [1]. والاتيان بضمير الجمع المذكر العاقل في قوله تعالى: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ دون الاتيان بضمير المفرد المؤنث يدل على ما قلناه فلو كان الهدف تعليم نفس الأسماء لآدم ـ عليه السلام ـ فحسب لكان ضمير المفرد المؤنث جديراً بالمقام. وهذه الآيات الكريمة دلّت على وجود علم الغيب الفعلي عند آدم ـ عليه السلام ـ وذلك لأنّ الاطّلاع على الغيب

---

(١) قد نقل العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان ج١ ص ٧٦ طبع صيدا، أقوال المفسرين حول المراد من الأسماء واختار ما ذكرناه.

والإخبار عن شؤون البشر في المستقبل، والايحاء إلى الملاحم والفتن ليس بأعلى من الوقوف على حقائق المسمّيات التي كلت دون إدراكها ملائكة الله سبحانه حتى أنبأهم وأطلعهم عليها.

٢ـ تنبّؤ نوح عليه السلام :

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَر عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح: ٢٦ ـ ٢٧).

لقد سار شيخ الأنبياء نوح ـ عليه السلام ـ بأمته سيراً سجحاً وتحمّل في سبيل دعوته المحن والكوارث، وجابه ضوضاء الشرك بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يئس من إيمانهم، فدعا ربّه بإهلاكهم و إبادتهم مخبراً عن مآل قومه ومن يرثهم وذلك كما تقدم في الآية، أوليس هذا إخباراً عن عواقب أُمورهم وأخلافهم، وأنّه لن يؤمن أحد منهم ولا من أخلافهم؟

ولعل المعترض يقول: إنّ نوحاً بعد أن قضى ردحاً مديداً من الزمن مع قومه، رأى أنّ البيئة الاجتماعية أصبحت منحرفة إلى درجة لا تسمح مطلقاً بمقتضى علمه العادي أن يوجد فيها فرداً صالح وهذا أمر متصور. أو أنّه وقف على مآل أمر قومه، بعد إخباره سبحانه بذلك كما قال: ﴿وَ أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (هود ـ ٣٦).

أقول: هب أنّه فهم مآل قومه من القرائن أو من اخباره سبحانه لكنّه من أين وقف على أحوال خلفهم و إن من يرثهم لا يكون إلاّ فاجراً كفاراً؟ وليس ذلك إلاّ بتعليم من الله واظهاره على نبيه باحدى الطرق.

٣ـ إبراهيم عليه السلام وملكوت السماوات والأرض:

إنّ القرآن يصف إبراهيم بصفات كثيرة ويشرح أمره في بدء الدعوة ويقول:

﴿وَ كَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾ (الأنعام ـ ٧٥).

فالملكوت هـو الملك كالطاغوت والجبروت و إن كان آكـد بالنسبة إلى الملك كما أنّ الطاغوت والجبروت آكد بالنسبة إلى الطغيان والجبر والجبران.

والمراد من اراءة ملكوت السماوات والأرض لإبراهيم هو توجيه نفسه الشريفة إلى مشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه استناداً لا يقبل الشرك بحيث عاد إبراهيم بعد تلك الاراءة فحكم أنّ ليس في صفحة الوجـود ربّ غيره سبحانه يتولى تدبير النظام و إدارة الأمور حتى صار من الموقنين.

وهذه الاراءة لا تقـل عن علم الغيب بما هـو خارج عـن إطار الحس لـو لم يكن أشرف منه.

وللبحث حول قصـة إبراهيم ودلائله الباهـرة في إبطال ربوبية الأجـرام السماوية والأرضية مجال آخر قدمنا بعضه في الجزء الأوّل من هذه الموسوعة [1].

٤ـ اطّلاع لوط عليه السلام على الغيب:

هذا هو لوط أحد الأنبياء، المعاصر لإبراهيم فقد اطّلع على مسير قومه وهلاكهم في وقت الصبح عن طريق جنود ربّه ورسله قال سبحانه:

﴿قَالُوا يَـا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَـنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِـكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَـا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب﴾ (هود ـ ٨١).

فلو أخبر هذا النبي الكريم بطانتـه الصالحين بأنّ قومه سيهلكون في الصبح وأنّ موعدهـم هو ذاك الوقت، يصح أن يقـال: إنّه مخبر عن الغيب وعالم بـه و إن كان علمه

---

(١) لاحظ الجزء الأول ص ١٣٢ ـ ١٤٣.

محدوداً ومتناهياً، مكتسباً غير ذاتي.

٥ـ تنبّؤ يعقوب عليه السلام :

قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ القَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف : ٤ـ ٦).

تدل الآيات على أنّ يعقوب ـ عليه السلام ـ فسر رؤيا ولده يوسف، مخبراً عن حقيقة مستورة من خلال تلكم الرؤيا وكانت تلك الحقيقة وصول ولده يوسف إلى المقام الشامخ في الدنيا، والاطلاع على الواقع من خلال الرؤيا وهو لون من الاطّلاع على الغيب، خص تعالى بعض عباده بهذا الفضل.

لمّا طلب اخوة يوسف من أبيهم يعقوب أن يرسل يوسف حتى يرتع ويلعب معهم، أجابهم يعقوب بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِئْبُ وَأَنْتُم عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف ـ ١٣)، أفليس قوله: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ تنبّؤ بفكرتهم الشيطانية في حق يوسف كيف وقد حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (يوسف ـ ١٧).

ثمّ أنّ يعقوب لمّا سمع تقولهم في حق أخيهم عاد يكذّبهم بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف ـ ١٨) قائلاً: بأنّ يوسف حي يرزق ولم يأكله الذئب أوليس هذا إخباراً عن ما وراء الحس؟

ولا غرو في ذلك فإنّ الله يصف نبيه يعقوب بقوله: ﴿وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ـ ٦٨).

ولأجل تلك المكانة لما أخبر الاخوة بأنّ ابنه (أخا يوسف) سرق، كذّبهم أو كذّب

الخبر بأنّه: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ (يوسف ـ ٨٣).

ولمّا اعترض أولاده على بكائه بقولهم: ﴿تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ أجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَايْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٥ـ٨٧).

هذه تنبّؤات نبي الله يعقوب فيعرب عن صدق قوله سبحانه: ﴿وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ كما يدل على صدق قوله: ﴿وَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

أفبعد هذه التنبّؤات يصح لقائل أن ينفي علمه بالغيب بتاتاً.

أضف إلى ذلك قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ (يوسف ـ ٨٣).

مخبراً عن حياة يوسف وأخيه وأنّه وأخاه سوف يأتي الله بهما.

وهكذا قوله سبحانه:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَ لَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونَ﴾ (يوسف :٩٣ـ ٩٤).

فلو لم يك يعقوب ـ عليه السلام ـ عالماً بمصير يوسف ولم يدر عما بلغ إليه ولده من جلال وعظمة، ولم يك مطلعاً على تعرف الاخوة على أخيهم ورجوعهم بخبره السار، كيف يقول: ﴿أني لأجد ريح يوسف﴾ أليس هذا علماً بالغيب وهبه الله لنبيه المبتلى يعقوب؟

٦ ـ تنبّؤ يوسف عليه السلام:

قال سبحانه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ

السَّمٰـوَاتِ وَ الأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِـي الـدُّنْيَـا وَ الآخِـرَةِ تَـوَفَّنِـي مُسْلِمـاً وَ أَلْحِقْنِـي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف ـ ١٠١).

والآية تصرح بأنّ الله سبحانـه علم نبيه يوسف ـ عليه السّلام ـ تفسير الرؤيا وتأويلها وذلك قسم من علم الغيب.

وقال سبحانه: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَـانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرانِـي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قَالَ الآخَرُ إِنِّـي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْـرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّـا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * ... يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان﴾(يوسف:٣٦ ـ ٤١) وتحقق الأمر الذي أخبر عنه يوسف ـ عليه السّلام ـ فنجى أحدهما وأصبح ساقي البلاط بينما أُعدم الثاني ومن الوضوح بمكان أنّ هذا اللون من التفسير للرؤيا هو قسم من الغيب الذي نطق به يوسف ـ عليه السّلام ـ.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَـانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُـلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَـابِسَاتٍ يَا أَيُّهَـا المَلأُ أَفْتُونِـي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلـرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَـالُوا أَضْغَاثُ أَحْـلاَمٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْـلاَمِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّـذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّـةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَـا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ... * قَـالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِيـنَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّـمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيـلاً مِمَّا تَأْكُلُـونَ* ثُـمَّ يَأْتِي مِـنْ بَعْـدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِـدَادٌ يَـأْكُلْنَ مَـا قَـدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيـلاً مِمَّـا تُحْصِنُونَ*ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُون﴾ (يوسف:٤٣ ـ ٤٩).

وفي هذه القصة يخبر يوسف ـ عليه السّلام ـ عن ثلاثة أُمور غيبية وذلك ضمن تفسيره لـرؤيا الملك وهـذه الأُمور هـي: ١ـ ينعمـون بسبع سنوات مليئـة بالبركـات والخيرات ويتحسن وضعهم الزراعي. ٢ـ يصابون بعدهـا بسبع سنوات جدب حيث تغلق عنهم أبواب الـرحمة. ٣ـ وفي الخامسة عشر مـن هذه السنين تعود إليهـم النعم والخيرات من جديد وتفتح عليهم أبواب الرحمة.

٧ـ صالح عليه السلام والتنبّؤ بالغيب:

قال سبحانه: ﴿وَ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَ لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود: ٦٤ ـ ٦٥).

أخبر نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ بمصير قومه السيء إذا مسوا الناقة بسوء، تلك الناقة التي كانت تمثل معجزته حين دعاهم إلى الله و إلى التصديق بنبوته، وهكذا يتحقق ما أخبر به هذا النبي عن مصير قومه بعد أن عقروا الناقة فيأتيهم البلاء بعد ثلاثة أيام فقط كما قال تعالى: ﴿وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الذاريات:٤٣ ـ ٤٤) وأي غيب أعظم من هذا يا ترى؟

٨ـ اطّلاع سليمان عليه السلام بالغيب:

قال سبحانه: ﴿وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ (النمل ـ ١٦) وهل معرفة داود وسليمان منطق الطير إلاّ قسماً من الغيب؟

وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾(النمل:١٨ ـ ١٩).

ألا يعد اطّلاع سليمان على لسان النمل من علم الغيب؟ ثمّ ألا يكون هذا خرقاً للعادة البشرية؟

وقال سبحانه: ﴿وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِين* ... فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِين﴾ (النمل: ٢٠ـ٢٢).

وهل الاطّلاع على لسان الهدهد إلاّ اطّلاع على الغيب؟

٩ـ المسيح عليه السلام والتنبّؤ بالغيب:

قال سبحانه: ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(آل عمران ـ ٤٩).

طفق المسيح ـ عليه السلام ـ ينبئ قومه ـ بإذنه سبحانه ــ بأسرارهم وما كانوا يدّخرون في الصيف لشتائهم بمقداره ولونه وحقيقته. وكان ذلك إحدى معجزاته.

وكذا قوله:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف ـ ٦).

أليس في إخبار عيسى ـ عليه السلام ـ وتبشيره بقدوم النبي محمد ﷺ بعد ستمائة عام إخباراً عن الغيب؟

ونظيره ما ورد في العهدين حول نبينا الأعظم ﷺ من ذكر أسمائه وصفاته وما يحل به وبأولاده وأُمته وغلبة دينه على جميع الشرائع، فإنّ تلكم البشارات الواردة فيها مع تحقق مضمونها تعتبر دليلاً على أنّ المبشرين بها كانوا يعلمون الغيب وهم إمّا أنبياء الأُمم السالفة أو أوصياؤهم.

١٠ـ انباء النبي الأكرم ﷺ بالغيب:

قال سبحانه: ﴿وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ﴾ (التحريم ـ ٣).

قال الطبرسي: إنّ النبي ﷺ أسرّ إلى حفصة حديثاً، أمرها باخفائه لكن حفصة أخبرت غيرها به، فأفشت سره ﷺ وأطلع الله نبيه على ما جرى من افشاء سره فعرّف رسول الله ﷺ حفصة ببعض ما ذكرت وأفشت، وأعرض عن بعض ما ذكرت فلم يخبر

بجميع ما أخبرت به، فسألته عن أنّه كيف اطّلع على اخبارها وافشائها سره فقال : نبّأني العليم الخبير بسرائر الصدور [١]، وهو يدل على أنّ الله أطلع نبيه على الغيب عن طريق القرآن.

هذه الآيات التي مرّت حتى الآن ذكرت لنا بعض المواضع التي أخبر فيها أنبياء الله عن الغيب، مثل آدم ونوح و إبراهيم ويعقوب ويوسف وصالح و داود وسليمان وعيسى وخاتم الأنبياء محمد ﷺ. وهناك آيات قرآنية أُخرى دلّت على أنّ أشخاصاً غير الأنبياء أيضاً أخبروا عن الغيب، ويتضح من هذا أنّ موضوع الاطّلاع على الغيب لا ينحصر بطبقة الأنبياء بل هو فضل الله يخص به من يشاء من عباده الصالحين و إليك الآن بعض هذه الآيات:

١١ـ اطّلاع مريم ـ عليها السلام ـ على الغيب:

قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسْيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦).

وهل يدخل ادراك مريم بانّها سترزق ولداً رغم عدم تزوجها ثم علمها باسمه وخصائص شخصيته إلاّ في قائمة الأُمور الغيبية؟

١٢ـ الغيب وامرأة إبراهيم:

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَىٰ قَالُوا سَلاماً ... * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (هود: ٦٩ـ٧٣)

---

(١) مجمع البيان ج١ ص ٣١٦.

أمّا تعرّفت زوجة إبراهيم بأنّ الله سبحانـه وتعالى سيرزقها ولداً عند كبر سنها عن طريق الغيب؟ إنّ مثل هـذه المواضيع التي ينحصر معرفتها عن طريق الملائكـة يعرفها أناس ليسوا بأنبياء وهل نستطيع أن نفسر معرفتهم لها عن غير طريق الغيب؟

١٣ـ الغيب وأُم موسى:

قال سبحانه: ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَـىٰ أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَـإِذَا خِفْتِ عَلَيهِ فَأَلْقِيـهِ فِي اليَمِّ وَ لاَ تَخَافِي وَ لاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾ (القصص ـ ٧). ويظهر من هذه الآية أنّ أُم موسى عرفت عن طريق الغيب مستقبل ولدها وأنّ الله تعالى سيحفظه إلى أن يعيده إليهـا سا لماً، فنحن هنا لا نجد أي فرق بين اطـلاعها على الغيب أو اطلاع أحد من الأنبياء والأوصياء عليه.

١٤ـ الغيب وصاحب موسى:

هذا صـاحب موسى الذي آتـاه الله رحمة وعلماً من عنده، قد أحـاط بما لم يحط به موسى ـعليه السّلامـ فخـرق السفينة، علماً منـه بأنّ وراء السفينـة ملكـاً يأخـذ كل سفينـة غصباً، فخرقهـا حتى لا يرغب فيها، وقتل غـلاماً كان أبواه مـؤمنين فخشى أن يرهقهما طغيانـاً وكفراً وأقـام جداراً يريـد أن ينقض لعلمه بأنّ تحتـه كنزاً لغـلامين يتيمين وكان أبـوهما صالحاً، فأراد ستره وصيـانتـه عن أعين الناس حتـى يبلغا أشـدهما ويستخرجـا كنـزهما، ثم أسنـد علمه وعملـه هـذا إلى الله تعالى وقـال: ﴿وَ مَـا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْـرِي﴾ (الكهف: ٦٠ ـ ٨٢).

فـدلّ هذا على أنّ الله تعـالى هو الـذي أخبره عن هـذه الأسرار الغيبية. والنظـرة الموضوعيـة في هذه الأدلة الكـافية من القرآن الكـريم لا تدع للبـاحث مجالاً للشك أو التردد في هذه المسألة.

والحقيقة التـي نصل إليها بعـد كل هذا: أنّـه لا يمكن لمن آمن بالقـرآن أن ينفي

(علم الغيب) عن البشر لأنّ القرآن أثبت ـ كما رأينا ـ هذا العلم للأنبياء ولغيرهم من بعض الصالحين، وأمّا الآيات القرآنية التي دلّت بظاهرها على اختصاص علم الغيب بالله ونفيه عن البشر فقد أوضحنا المقصود منه، فلاحظ.

ولا بأس ختاماً للبحث أن نذكر بعض الآيات الأُخرى التي استدل بها علماؤنا الإمامية في هذا المجال و إن كان للمناقشة مجال في بعضها:

١٥ـ النبي شهيد على الأُمّة:

إنّ النبي ﷺ شهيد على الأُمّة بنص القرآن العظيم والشهادة على الشيء فرع العلم به وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة ـ ١٤٣) وقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء ـ ٤١).

وليس المراد من الشهادة في الآيتين وغيرهما الشهادة على صور الأعمال والأفعال حتى يكتفي فيه بالحواس العادية والقوى الكامنة في البدن بل الشهادة على حقائق الأعمال والمعاني القلبية من الكفر والإيمان والإخلاص والرياء وغيرها وهي مما لا تكفيه الحواس العادية بل يحتاج إلى احساس آخر وراء الاحساس العادي.

١٦ ـ المؤمنون شهداء على المنافقين:

ما دل على أنّ الله ورسوله بل المؤمنون يرون عمل المنافقين وذلك في قوله سبحانه: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ـ ٩٤).

ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ المُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ـ ١٠٥).

لكن في دلالة الآيتين على تعرّف النبي والمؤمنين على الغيب تأملاً لأنّ المتبادر في بادىء النظر من رؤية الأعمال هو شهودها بأنفسها أو شهودها بآثارها ونتائجها والآية الأولى تهدف إلى أنّ العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير وهو لا يخفى بعد على الله ورسوله، والمتبادر من الآية الثانية هو ذاك أيضاً لأنّه عطف على قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أي أعملوا لدنياكم وآخرتكم وهو لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على الناس وهو ممّا تكفي فيه الحواس الظاهرية ولا يتوقف على العلم بالغيب.

ورؤية الأعمال بهذا المعنى وإن كانت لا تختص بالمؤمنين بل تعم الناس جميعاً غير أنّه لمّا كان البحث والحوار في الآية دائراً بين المؤمنين والمنافقين خص الله سبحانه المؤمنين بالذكر وأعرض عن غيرهم.

نعم ربّما يستظهر أنّ المراد من رؤية عملهم هو الوقوف على حقائق الأعمال ومقاصدهم من أعمالهم وهو مما لا يمكن الاطّلاع عليها من طريق الآثار والنتائج بل يتوقف على ادراك غيبي وعند ذاك يكون المراد من المؤمنين شهداء الأعمال لا كلّهم.

حصيلة البحث:

ليس هناك أي مانع من أن يعلم الله أحد أوليائه بشيء من غيبه المكتوم وسره المخفي مما كتمه على غيره وستره عنه.

نعم لا يجب على كل من اطلع على الغيب، اعلام الناس به أو العمل به فلا يستلزم العلم بالشيء، العمل به أو إخباره الناس بذلك فإنّ هناك مراحل ثلاث مرحلة الاطّلاع، مرحلة العمل، ومرحلة الاعلام، ولكلّ مقتضيات وشرائط وموانع تجب رعايتها نظير القاضي إذ ليس له إلاّ الحكم على وفق ما سمع واقيمت عنده البينة لا على وفق ما علم.

وسيوافيك توضيح هذا الأمر عند الأجابة عن التساؤلات الموجودة حول علم الغيب.

ما هو مفاد الآيات النافية

لعلم الغيب عن النبي ﷺ ؟

ثم إنّ هناك آيات تسلب بصراحة العلم بالغيب عن النبي ﷺ فما مفادها وكيف يجتمع مفادها مع الآيات المثبتة و إليك الآيات:

١ ـ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَ لاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ مَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الأحقاف ـ ٩).

٢ ـ ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَ لاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَ البَصِيرُ أَفَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام ـ ٥٠).

٣ ـ ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(هود ـ ٣١).

٤ ـ ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لاَ ضَراً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ـ ١٨٨).

٥ ـ ﴿ وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ

تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة ـ ١٠١).

٦ ـ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء ـ ١٠٩).

٧ـ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ علاَّمُ الغُيُوبِ﴾ (المائدة ـ ١٠٩).

٨ـ ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالمَلَإِ الأعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (ص: ٦٩ـ٧٠).

فما مفاد هذه الآيات النافية لعلم الغيب عن النبي ﷺ بصراحة إزاء ما دلّت آيات أُخرى على وجود علم الغيب عند الأنبياء، بل عند بعض الصالحين أيضاً وكيف تفسر هذه الآيات؟

الجواب:

إنّ الوقوف على مفاد هذه الآيات النافية سهل بعد الوقوف على ما ذكرناه من أنّ علم الغيب الثابت للنبي، غير الثابت لله سبحانه، وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة في الجزء الأوّل وقلنا: بأنّ القرآن بينما يثبت فعلاً لله سبحانه على وجه الحصر في مورد، يثبته لغيره أيضاً، فمثلا عندما يقول: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على وجه الحصر نافياً طلب العون من غيره سبحانه، يأمر بالإستعانة بالصبر والصلاة وهما غيره سبحانه حيث يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلٰوةِ﴾ (البقرة ـ ٤٥).

فعندما يقول: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر ـ ٤٢) ويجعل التوفيّ فعلاً مختص بالله سبحانه، يثبته لغيره كالملائكة حيث يقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ﴾ (النحل ـ ٣٢).

إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة التي بينما ينسب فيه الفعل إليه سبحانه على وجه الحصر، ينسب إلى غيره أيضاً، والحل في الجميع واحد وهو أنّ اللائق بساحته الأقدس

والمنسوب إليه سبحانه، غير الثابت لغيره، فالثابت هو الفعل الاستقلالي غير المتكىء على أحد، إلاّ ذاته سبحانه، والمنفي عن عباده هو ذاك الفعل الاستقلالي أو الثابت لهم هو الفعل التبعي القائم بالله سبحانه، وبالوقوف على ما ذكرناه ينفتح عليك باب من أبواب معرفة الذكر الحكيم، وقد أوعزنا إلى ذلك الأمر في هذه الموسوعة غير مرّة [1].

ولأجل إيضاح مفاد هذه الآيات النافية، نبحث عن كل واحدة بحثاً مستقلاًّ، ليتضح الحق بأجلى مظاهره فنقول:

أمّا الآية الأُولى فهي مكونة من أربع فقرات، ولمعرفة دلالة الآية بصورة صحيحة لابد من معرفة دلالة كل فقرة من هذه الفقرات الأربع المكوّنة للآية بشكل كامل وهذه الفقرات هي:

١ ـ **﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾**.

٢ ـ **﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾**.

٣ ـ **﴿إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليَّ﴾**.

٤ ـ **﴿وما أنا إلاّ نذير مبين﴾**.

تشير الفقرة الأُولى إلى خطأ المشركين في ظنهم بأنّ النبي ﷺ يجب أن يستثنى من سائر البشر العاديين، ولا يشابههم في عادتهم من أكل وشرب ونوم وما شاكل ذلك، وكانوا يقولون لو كان محمد نبياً حقاً لما كان مثل الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فلا يمكن أن يكون نبياً ـ حسب زعمهم ـ إلاّ أن يتنزّه من تلكم الصفات الموجودة في البشر عادة، وقد أشار القرآن إلى زعمهم بقوله: **﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾** (الفرقان ـ ٧).

وقد كشف القرآن عن خطأهم في هذه الفقرة من الآية حيث قال: **﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾** ومعناها أنّ هذا النبي الجديد لا يختلف عن الأنبياء السابقين في هذه

(١) لاحظ الجزء الأوّل ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

الصفات البشرية من أكل الطعام ومشي في الأسواق، وهذه الصفات ليست أمراً جديداً في هذا النبي بل أنّها صفات دائمة لكل نبي بعثه الله تعالى.

كما كشف في سورة الفرقان أيضاً وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**﴾ (الفرقان ـ ٢٠).

ويفهم من هاتين الآيتين أنّ المشركين كانوا يتوقعون من النبي ﷺ أُموراً هي فوق طبيعة البشر، حيث زعموا عدم اجتماع النبوّة مع أكل الطعام والمشي في الأسواق.

بل كانوا معتقدين بلزوم وجود قدرة غير متناهية عند النبي المبعوث يختلف بها عن غيره من البشر، وبذلك انتظروا من النبي ﷺ أن يعلم الغيب ذاتياً دون ارتباط بالله تعالى، يعلمه وكأنّ الأمر قد فوّض إليه.

إنّ الله تبارك وتعالى خاطب نبيّه مبطلاً هذا الزعم بقوله: ﴿**وما أدري ما يفعل بي ولا بكم**﴾ أي قل لهم يا محمد إنّني بشر ولا يستطيع أحد من البشر أن يتنبأ بمصيره أو مصائر الآخرين دون إلهام من الله تعالى. فالآية الكريمة اذن تنفي ذلك اللون من علم الغيب الذي يتصوره بشكل ذاتي، وبصورة تفويض مطلق من غير ارتباط بالله تعالى، وهو الأمر الذي طلبه المشركون، وهو لا يصطدم ـ أبداً ـ بما أثبتناه نحن من وجود علم الغيب عند الأنبياء بتعليم من الله.

ولأجل نقد هذه المزعمة يقول في الفقرة الثالثة: ﴿**إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليَّ**﴾ وقد وقفت على أنّ الوحي أحد الطرق التي يطلع الله بها أنبياءه على الأُمور الغائبة عن الحس والأشياء الخفية.

ولو كانت الآية الكريمة تريد نفي (علم الغيب) عن النبي ﷺ اطلاقاً استقلالاً وتبعاً ذاتياً واكتسابياً لكانت الآية مناقضة لنفسها، حيث أثبتت قسماً من الغيب للنبي وهو الغيب الذي يأتي عن طريق الوحي وذلك في الفقرة الثالثة، ولو كانت الفقرة الثالثة من الآية قد جاءت على طريقة الاستثناء لأمكننا تصديقه بأنّها جاءت على وجه الاستثناء، ولكنّها لم تأت على طريقة الاستثناء كما هو واضح.

فقد اتضح مما ذكرناه أنّ الفقرة الثانية من الآية لا تنفي عن النبي إلاّ علم الغيب بشكله الذاتي بينما أثبتت الفقرة الثـالثة منها للنبي ﷺ علم الغيب عن طـريق الوحي بشكله التبعي، والفقرة الرابعة من الآية توضح ما وصلنا إليه أيضاً حيث تقول: ﴿**وما أنا إلاّ نذير مبين**﴾ ومعناها: أنّ ما ترتقبونـه منّي من علم غيب ذاتي ليس إلاّ عبثاً، إنّما أنا نبي نذير أُخبركم عمّـا أطلع عليه عن طريق الوحي فقط، ولا أعرف شيئاً دون تعليم الله تعالى.

أمّا الآية الثانية أعنـي قوله سبحانه: ﴿**قُلْ لاَ أَقُـولُ لَكُمْ عِنْدِي خَـزَائِنُ اللهِ وَ لاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوْحىٰ إِلَيَّ**﴾(الأنعام ـ ٥٠) فبالنظر إلى ما ذكرناه من التصورات الخاطئة التي حملها المشركون في أذهانهم عن الأنبياء، يتضح مفهوم هذه الآية أيضاً، إذ أنّهم ترقبوا من النبي ﷺ أن يعلـم الغيب من عند نفسه ودون سابـق ارتباط بـالله، ولكن الآية تـرد عليهم هـذا الارتقاب غير الصحيح بقـولها: ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾ أي لا أعلم الغيب إلاّ من الله، والفقرة الأخيرة مـن الآية تدل على ذلك: ﴿ **إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليَّ** ﴾ أي انّي عن طريق الوحي أطلع على الغيب.

أمّا الآية الثالثة أعني قوله سبحانه: ﴿**وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَ لاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَ لاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ (هود ـ ٣١).

فغنية عن التوضيح إذ أنّها لا تختلف عن الآية الثانية لفظاً ومفاداً.

أمّا الآية الرابعة أعنـي قوله سبحانه: ﴿ **قُلْ لا أَمِلِكُ لِنَفْسِـي نَفْعاً وَلاَ ضَـرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَـوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْـرِ وَ مَا مَسَّنِيَ السُّوءَ إِنْ أَنَا إِلاّ نَـذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُون**﴾ (الأعراف ـ ١٨٨).

فيتضح مفهومها بملاحظة ما قدمناه حول الآية الأُولى حيث أنّها تبطل ما يحمله المشركون في أذهانهم تجاه النبي ﷺ من تصورات خاطئة من قبيل أنّ النبي ﷺ يجب أن يحظى بقـدرة فائقة وسلطـة عريضة في هـذا الكون دون اتصـال بالله تعالى، فيجلـب ـ استناداً لهذه القدرة الفائقة ـ كل خير إلى نفسـه ويبعد كل شر مرتقب عنه، ثم يخبر عن

الغيب أيضاً.

فيأمر الله تعالى نبيّه أن ينفي عن نفسه أيّة قدرة أو علم دون الإرتباط بالله تعالى والاستمداد منه، وذلك تفنيداً لمزاعم المشركين الباطلة.

وتأتي جملة: ﴿**إلاّ ما شاء الله**﴾ في الآية الكريمة دليلاً آخر على أنّ الآية ليست في مقام نفي القدرة والعلم عن النبي ﷺ بصورة مطلقة، بل أنّها نفت عنه ﷺ ذلك اللون من العلم والقدرة اللّذين يتصور أنّ النبي واجد لهما استقلالاً وبصورة التفويض، ولأجل ذلك فالآية لم تنف عن النبي ﷺ العلم والقدرة اللّذين يقتبسهما من الله، بل أثبتت ذلك له حسب الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿**إلاّ ما شاء الله**﴾ .

وبالتالي يتضح لنا مفهوم الفقرة الأُخرى من الآية وهي قوله: ﴿**لو كنت أعلم الغيب**﴾ الخ .

ومعناها: لو كنت أعلم الغيب دون إلهام من الله تعالى لحصلت على الخير الكثير ودفعت عن نفسي الشر الكثير، ولكن لا أستطيع ذلك لأنّ علم الغيب ليس وصفاً ذاتياً لي، بل هو فيض من الله، يعطيني ذلك حين يشاء، وفي جانب قدرة التصرف في هذا الكون أحظى بمقدار ما يشاء.

أما الآية الخامسة أعني قوله سبحانه: ﴿ **وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ (التوبة ـ ١٠١).

فالآية الكريمة وإن كانت تدلّ ـ بحكم كلمة ﴿**لا تعلمهم**﴾ ـ على وجود منافقين في المدينة لا يعرفهم النبي ﷺ ، وهو لا يتفق مع ما يدعى له ﷺ من علم الغيب؟ إلاّ أنّ الآية لا تدل على أكثر من نفي العلم عن النبي بالنسبة للمنافقين في ظرف نزول الآية فقط، ولا يعني هذا نفي العلم عن النبي ﷺ تجاه المنافقين في كل الظروف والأحوال، ولا شك في أنّ الله تعالى أخفى عن نبيّه بعض الحوادث عند وقوعها، وكان منها وضع المنافقين المؤسف في المدينة لما يحمل في طياته من ألم عميق للنبي ﷺ .

ولكن هذا الأمر يختلف من أن نقول: إنّ الله أخفى عن نبيّه أحوال المنافقين حتى آخر عمره.

وثانياً: في الوقت الذي يخاطب الله نبيّه بقوله: ﴿لا تعلمهم﴾ في مورد المنافقين، يخاطبه في موضع آخر بقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد ـ ٣٠) فهذه الآية الثانية تعرفنا امكان معرفة النبي للمنافقين عن طريق أقوالهم.

وثالثاً: لم يكن المنافقون مجهولين للنبي ﷺ دائماً كيف وقد عرفهم القرآن بذكر الأوصاف المختلفة لهم كما في الآية التالية: ﴿وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون ـ ٤).

لقد وصفوا في هذه الآية بالأوصاف التالية:

١ـ اعطوا بسطة في الجسم.

٢ـ يمثّلون في ظاهرهم الحق والدين.

٣ـ إنّهم كالخشب المسندة التي أُسندت إلى جدار [١].

وهناك آيات أُخرى تعرف المنافقين في نفس هذه السورة (المنافقون) وهي ظاهرة لمن نظر إليها بدقة بل كشف النقاب عن المنافقين وعرفهم بصورة واضحة في صورة التوبة بقوله سبحانه: ﴿وَ لاَ يَأْتُونَ الصَّلٰوةَ إِلاَّ وَ هُمْ كُسَالَىٰ وَ لاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَ هُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة ـ ٥٤) وهكذا سائر الآيات الواردة في هذه السورة.

ورابعاً: إنّ الله يأمر نبيّه بمحاربة الكفّار والمنافقين وعدم اتباع أقوالهم كما في قوله:

---

(١) والمقصود من هذا التشبيه: أنّ آيات القرآن وكلمات النبي ﷺ الحكيمة لم تؤثر فيهم الأثر الحسن المطلوب، ولم يظهر منهم أي رد فعل ايجابي تجاه تلكم الأقوال الهادية، فهم كالخشب المسندة أجسام لا روح فيها.

١ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَ المُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة ـ ٧٣).

٢ـ ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكَـافِرِينَ وَ المُنَـافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَـوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأحزاب ـ ٤٨).

فهل يمكن أن يـأمر الله نبيّـه محمداً ﷺ بجهاد المنـافقين والغلظة عليهـم ثمّ لا يعرّفهم له طيلة عمره ﷺ ؟ إنّ هذه الآيات تدل ـ على سبيل الملازمة ـ على أنّ كتمان أمر بعض المنافقين عن النبي ﷺ لم يك بصورة دائمية و إنّما كان حكماً مؤقتاً.

ويخاطب الله نبيّه أيضاً بقوله: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَـاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَ رَسُـولِهِ﴾ (التوبـة ـ ٨٤) والآية نـازلة في حق المنـافقين انّ هذه الآيات وغيرها تحكي لنا معرفة النبي ﷺ بالمنافقين، ولم يكن النبي وحـده الذي يعرف المنافقين بل كان قد أودع أسماءهم وأوصـافهم عند (حذيفة) [١] الصحابي الشهير. ومن هنا كان الخليفة الثاني لا يصلّـي على أحد يشك في نفاقه إلاّ أن يسأل حذيفة عنه، وهذا أمر مذكور في سيرة النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء والصحابة من بعده.

أمّا الآية السادسة أعنـي قوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُـلْ آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء ـ ١٠٩).

فالجواب عن الاستدلال بها واضح إذ البحـث في أصل ثبوت علم الغيب للنبي والإمام لا في المقدار الذي يتحمّله صدر النبي أو الإمام من علم الغيب.

وإذا كان النبي ﷺ قد نفـى في موضوع مـا عن نفسه علم الغيـب فإنّ ذلك لا يتنافى أبداً مع ما نحن فيه من اثبات علم الغيب لـه، وهناك نقطة جديرة بالذكر في هذه

---

(١) راجع أسد الغابة ١/ ٣٩١ وسائر الكتب التي تترجم الصحـابة ونص كلام (أُسد الغابة) كما يلي: «وحذيفة صـاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين لم يعلمهـم أحداً إلاّ حذيفـة أعلمهم لـه رسول الله ﷺ وسأله عمر: أفي عمّالي أحد من المنافقين؟ قال: نعم، أحد ، قال: من هو؟ قال: لا أذكره، قال حذيفة: فعـزله كأنّما دل عليه، كان (عمر بن الخطاب) إذا مات ميـت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه صلّى عليه و إن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضره عمر.

الآية وهي:

انّ النبي ﷺ حين ينفي عن نفسه علم الغيب هنا فهو ينفيه عن موضوع يختص علمه بالله تعالى وذلك هو يوم القيامة، ووقت تحقق الوعد والوعيد اللّذين أنذر بهما عباده.

وسيوافيك أنّ العلم بالساعة وبموعد القيامة من الموضع أو المواضيع التي خص الله به نفسه ولم يطلع عليها أحداً، والآيات القرآنية في هذا الموضوع صريحة إلى حد لا يمكن تصوّر خلافها، ولا مانع أن يخبر الله نبيّه عمّا مضى ويأتي من الحوادث ولكنّه يخص علم الساعة لنفسه، وإليكم بعض الآيات القرآنية التي صرحت بأنّ علم الساعة من مختصاته تعالى:

١ـ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (الأعراف ـ ١٨٧).

٢ـ ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (طه ـ ١٥).

٣ـ ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان ـ ٣٤).

٤ـ ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (الأحزاب ـ ٦٣).

٥ـ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (فصلت ـ ٤٧).

٦ـ ﴿وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزخرف ـ ٨٥).

دلّت هذه الآيات بصورة واضحة على أنّ علم الساعة ممّا استأثر الله بعلمها لحكمة يعلمها سبحانه وعدم اطلاع النبي على وقت الساعة لا يستلزم أبداً عدم اطلاعه على أُمور أُخرى ولكلّ الأشياء.

ولقد ورد هذا المعنى أيضاً في آية أُخرى من سورة الجن، قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً * قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا

تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً * عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٤ ـ ٢٧).

إنّ النبي ﷺ ـ في هذه الآيات كما نرى ـ ينفي عن نفسه العلم بموعد القيامة لأنّ العلم بذلك من مختصاته سبحانه كما تصرح هذه الآيات.

وأمّا الآية السابعة أعني قوله: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاعِلْمَ لَنَا إنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الغُيُوب﴾** (المائدة ـ ١٠٩) فقد استدل بها على نفي علم الغيب عن الأنبياء لأنّهم ينفون عن أنفسهم أي شكل من أشكال الغيب ويصفون الله بأنّه: **﴿علاّم الغيوب﴾** ولكن الاجابة عن الاستدلال واضحة بعد معرفة موارد استعمال «لا» النافية للجنس، فإنّها وإن كانت لنفي الجنس ولكنّها تأتي على وجهين:

١ ـ نفي الجنس حقيقة وبصورة واقعية مثل قولنا: «لا إله إلاّ الله» وقوله سبحانه: **﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾** (الأنعام ـ ٥٩) وقولنا: لا رجل في الدار، حين لا يوجد رجل في الدار صغيراً كان أم كبيراً، صحيحاً أم سقيماً.

٢ ـ نفي الجنس على سبيل التجوز فتقول: «لا أحد هنا» حين يطرق الباب طارق فيسأل هل يوجد أحد هنا؟ فرغم وجود شيخ كبير، أو انسان لا طاقة له على الحركة في الدار، ولكنّك تنفي وجود أحد في الدار مجازاً لأنّ ذلك الشيخ الكبير أو المريض لا يفيدان السائل بشيء، فاعتبرت وجودهما كالعدم بالنسبة إلى السائل فنفيت الجنس مجازاً. ومن هذا القبيل كلمات الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ التي خاطب بها أصحابه المتخاذلين، والذين كانوا يجعلون من الحر والبرد وسيلة للتقاعس عن ساحة الحرب والجلوس عن مجاهدة البغاة معاوية وأمثاله، حيث قال: يا أشباه الرجال ولا رجال [١].

ونظير قوله ـ عليه السلام ـ: «لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد». والآية الكريمة من هذا القبيل، فإنّ الأنبياء حين ما يقيسون علمهم المحدود الاكتسابي إلى علم الله تعالى اللامحدود واللامتناهي والذاتي، يرون ضآلة ما عندهم من العلم تجاه ما عند الله

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٦ طبع عبده.

تعالى، حتى العلم المحدود الموجود عندهم الذي هو مظهر من مظاهر فيضه تعالى عليهم، وعند ذاك ينفون عن أنفسهم العلم أمام المولى خضوعاً وتسليماً ويقولون: ﴿لا علم لنا إنّك أنت علاّم الغيوب﴾ ويدل على ما ذكرناه من التفسير وجوه:

١ـ إنّ الآيات الورادة في موضوع شهادة النبي والشهداء الآخرين تصرح بأنّ الأنبياء سوف يدعون في الآخرة لأداء الشهادة قال سبحانه: ﴿وَ وُضِعَ الكِتٰبُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيينَ وَ الشُّهَدَاءِ﴾ (الزمر ـ ٦٩) وهل يمكن أن يشهد الأنبياء والشهداء الآخرون في المحكمة الإلهية العادلة دون علمهم بشيء من أحوال المشهود عليهم. إنّ آيات الشهادة في القرآن وخاصة قوله سبحانه: ﴿وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء ــ ٤١) وقوله سبحانه: ﴿وَ يَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ﴾ (غافر ــ ٥١) تدفعنا إلى أنّ المراد من قوله سبحانه: ﴿لا علم لنا﴾ عن لسان الأنبياء يوم القيامة هو ما قدمناه من التفسير.

٢ـ إنّ سلب العلم عن الأنبياء لأحوال أُممهم على وجه الاطلاق يتنافى مع ما يحكيه الله تعالى عن لسان نبيّه يوم القيامة وذلك عند تجمع الأنبياء وقيام المحكمة الالهية العادلة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إنَّ قَوْمِيَ ٱتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهْجُوراً﴾ (الفرقان ـ ٣٠) وسياق الآيات الأُخر مثل قوله سبحانه: ﴿وَ يَومَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ (الفرقان ـ ٢٧) يوضح أنّ شكوى النبي ﷺ على قومه تكون يوم القيامة.

٣ـ كيف يمكن نسبة عدم العلم إلى الأنبياء يوم القيامة بصورة كلية وهم الذين يعرفون المحسنين والمسيئين على الأعراف بسيماهم كما يقول القرآن: ﴿وَ عَلَىٰ الأعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ (الأعراف ــ ٤٦). ثمّ إنّ نبياً ينزل عليه الوحي فيخبره عن غدر الوليد [١] وخيانته في قضية مشهورة، أو تنزل عليه آيات قرآنية في كشف حقيقة أبي لهب، أقول إنّ نبياً بهذه المنزلة هل يمكن أن يقول يوم القيامة: ﴿لا علم لنا﴾ على سبيل الحقيقة؟ دون قصد أهداف أُخرى من هذا الكلام وهو الخضوع أمام عظمة المولى جل شأنه.

(١) الحجرات ـ ٦ ولاحظ ما ورد حولها من الأخبار في التفاسير.

إنّ هذه الوجوه تشير إلى الحقيقة التي قدمناها الآن وهي: أنّ الهدف من هذا النفي في قوله تعالى: ﴿لا علم لنا﴾ ليس إلاّ التأدّب أمام المولى واستعمال كل أسلوب يدل على الخضوع التام أمام علم الله اللامتناهي، وليس المراد به نفي العلم عن الأنبياء على سبيل الحقيقة والواقع.

٤ـ يصرح القرآن بتوجيه السؤال يوم القيامة إلى كل من الأنبياء والأُمم فيقول: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف ـ ٦). ودلّت آيات أُخرى من القرآن على علم المجرمين والعاصين بأحوالهم الماضية في الدنيا وما تجره في ذلك اليوم إليهم من آلام، حيث يبدون أسفهم على ما قدموا وتكون كلمة (ليت ولعل) طوع ألسنتهم يقول تعالى: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان ـ ٢٧) ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فلاَناً خَلِيلاً﴾ (الفرقان ـ ٢٨) ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة ـ ١٢).

ترى كم يملك نصيباً من الصحة القول: بأنّ الأُمّة تعلم يومذاك عن مرارة أوضاعها وسوء مصائرها فتطرق برؤوسها متمنية العودة إلى الحياة الدنيا لتستأنف العمل في حين ينفي الأنبياء ـ الذين عاصروا أُممهم فترات طويلة من الزمن ـ عن أنفسهم يوم القيامة أي لون من ألوان العلم على سبيل الحقيقة؟

وبالنظر إلى كل ما قدمناه يتضح مفهوم الآية ونعلم جيداً أنّها لا تختلف أبداً عن الآيات التي تثبت علم الغيب للنبي ﷺ.

وأمّا الآية الثامنة أعني قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (ص: ٦٩ـ٧٠) المراد من الخصومة في الآية هي خصومة الملائكة في موضوع خلق الانسان، وقد جاءت واضحة في سورة البقرة ضمن الآية (٣٠ ـ ٣٣).

ويؤكد كون المراد من الخصومة ذلك، قوله سبحانه بعد الآيتين: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧١ ـ ٧٢) هذا وأنّ التعرف على مفـاد الآية يتوقّف على الاطلاع على موارد استعمال لفظة (ما كان) في القرآن الكريم وكيفية استعمالها قال سبحانه:

١ ـ ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ـ ١٤٣).

٢ ـ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُـؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَ الحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُـولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي﴾ (آل عمران ـ ٧٩).

٣ـ ﴿وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (آل عمران ـ ١٤٥).

٤ـ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ (الأنفال ـ ٦٧).

٥ـ ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾ (التوبة ـ ١٧).

٦ـ ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا القُرآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (يونس ـ ٣٧).

٧ـ ﴿وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (الرعد ـ ٣٨).

إنّ التعمّق في هـذه الآيات ونظـائرهـا يعطي أنّ الهدف من هـذا النفي هـو نفي الاقتضاء الـذاتي لمضمون الجملـة، ومعناه أنّ الموضـوع لا يقتضي مثل هذا الأمـر ذاتياً، ولكن مثل هذا النفي ينقسم إلى قسمين:

١ـ النفـي الأبدي حيث لا يحتمل التغيير والخلاف في مـوضوعـه أبداً مثل قـوله تعالى: ﴿وما كـان الله ليضيع إيمانكم ﴾ فليس مـن شأن الله تضييع جـزاء الأعمال لأنّ تضييع جزاء الأعمال لون من ألوان الظلم وتخلف عن الوعد، وهو منزّه عنهما.

٢ـ النفي غير الأبدي: وهـو ما يمكن تغيير موضوعه أو مضمـونه في ظل عنوان آخر كما في الآية التالية: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله﴾ (الرعد ـ ٣٨).

والهدف من هذه الآية هو: أنّ أي رسول من قبل الله لا يملك القدرة على الاتيان بمعجزة، ولكن عـدم تمكن الرسول من نفسـه لا يعني عدم تمكنه على الاتيان بـا لمعجزة على الاطلاق فإنّ ذلك ممكن له في ظلال قدرة الله تعالى.

إذا وقفت على مـا ذكرناه يتضـح لك مفهوم الآية المبحـوث عنها، أنّها تقـول: ما

كان لي من علم من جانب نفسي وذاتي بالخصومة التي وقعت بالملأ الأعلى. وهذا العلم الذاتي ليس من شأن البشر.

ولكن هذا لا يدل على عدم العلم على الاطلاق ليشمل عدم علمه عن طريق الوحي أيضاً أو في المستقبل مثلاً، وأحسن دليل على هذا الموضوع هو الآية التالية لها حيث تقول: **﴿إن يوحى إليّ إلاّ انّما أنا نذير مبين﴾** فتدل الآية على أن ترقب علم الغيب الذاتي من النبي ﷺ عبث، إنّما هو نذير، لا يوجد عند نظير مثله ما يتوقعون ولا يمكنه الاطلاع على الغيب بغير إيحاء منه سبحانه ولكنه لا يمنع من اطلاعه عليه عن طريق الكسب كما تقدم، وكونه نذيراً لا يمنع أن يطلعه الله على بعض الأُمور الغيبية التي تعزز هدفه، وتؤيده في الطريق، حيث يتمكن بواسطة بث الأُمور الغيبية للناس إدخال خوف الله إلى قلوبهم فيكون نذيراً حقاً.

وإذا كان النبي ﷺ قد نفى عن نفسه في هذا الموضع العلم بخصومة الملأ الأعلى، نجده ﷺ في مواضع أُخرى من القرآن يذكر هذه الخصومة بصورة تفصيلية، ألا يدل ذلك النفي وهذا الاثبات على ما قلناه من أنّ هدف النفي في الموضع الأوّل هو نفي العلم الاستقلالي عن نفسه لا التبعي؟

تساؤلات
حول علم النبي بالغيب

السؤال الأول:

إنّ علمه سبحانه بالأشياء و إن كان مطلقاً ومرسلاً غير محدود وذاتياً له غير مفاض، على ما دلّت عليه البراهين الكلامية والفلسفية إلاّ أنّ ذلك لا يصحح حمل الآيات على هذه المعاني البعيدة عن مستوى الافهام، وكون علمه سبحانه عين ذاته وعلم غيره زائداً عليها أمر معلوم من الخارج، ولا يكون مثل هذا العلم كقرينة على تفسير ما دلّ على اختصاص العلم بالغيب له سبحانه، فكيف تحمل هذه الآيات على العلم الذاتي، المحيط بكل شيء، المرسل عن كل شيء؟!

الجواب: انّ من لاحظ سياق الآيات والقرائن الحافة بها، وسبر التاريخ والحديث يقف على أنّ المتبادر من «العلم بالغيب» في عصر الرسالة وبعده كان هو العلم الذاتي لا العرضي ولأجل ذلك كان الأئمة من أهل البيت مع ما أُخبروا من المغيبات ما لا يحصى يتحاشون عن توصيفهم بأنّهم عالمون بالغيب ناسبين علومهم ومعارفهم وما يخبرون به من ملاحم وأحداث وفتن، إلى التعلّم من ذي علم [1] والوراثة من الرسول [2] ويصف هشام بن الحكم الإمام الصادق وهو من أكابر أصحابه، بأنّه يخبرنا بأخبار

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٢٤ وسيوافيك لفظ الإمام.

(٢) كما في الحديث عن الإمام الطاهر موسى الكاظم ـ عليه السّلام ـ وسيوافيك لفظه.

السماء وراثة عن أب وجد، وهذا أقوى دليل على أنّ المتبادر في عصر الرسالة وبعده، من العلم بالغيب هو القسم اللائق بساحته سبحانه.

وكون العلم اكتسابياً أو غير اكتسابي ليس من المفاهيم الغامضة التي لا ينقدح في الافهام الوسطى فضلاً عن العليا، فإنّ الانسان العارف بالله، مهما تنازل وبعد عن المعارف، يقف على أنّ هنا مّوجوداً غنياً من جميع الذات والغنى نفسه وذاته فوجوده وعلمه وقدرته وحياته ثابت له من دون استناد إلى غيرها، وانّ هنا موجوداً فقيراً ومخلوقاً لغيره يعتمد في كل كمال وجمال إلى خالقه وبارئه ولا نعني من الذاتي والاكتسابي غير هذا.

وإلى ما ذكرنا يشير شيخ الأُمّة الشيخ المفيد رحمه الله بقوله:

«إنّ الأئمة من آل محمد ﷺ قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، يعرفون ما يكون قبل كونه، وليس بواجب في صفاته ولا شرطاً في إمامتهم وإنّما أكرمهم الله تعالى وأعلمهم إياه للطف في طاعتهم والتمسك بإمامتهم وليس ذلك بواجب عقلاً ولكنه وجب لهم من جهة السماع، فأمّا اطلاق القول عليهم بأنّهم «يعلمون الغيب»، فهو منكر بيّن الفساد، لأنّ الوصف بذلك إنّما يستحقه من علم الأشياء بنفسه، لا بعلم مستفاد وهذا لا يكون إلاّ لله عزّ وجلّ وعلى قولي هذا جماعة أهل الإمامة إلاّ من شذ عنهم من المفوضة ومن انتمى إليهم من الغلاة» (١).

فالتوفيق بين قوله: «اطلاق القول عليهم بأنّهم يعلمون الغيب بيّن الفساد» وقوله ـ عليه السّلام ـ: «بأنّهم يعلمون ما في الضمائر» لا يحصل إلاّ بما ذكرنا، بل هو صريح كلامه لمن أمعن فيه النظر.

قال رشيد الدين محمد بن شهر آشوب (٢): النبي والإمام يجب أن يعلما علوم

---

(١) أوائل المقالات ص ٣٨.

(٢) أحد أقطاب التفسير والحديث في القرن السادس توفّي عام ٥٨٨، وله المناقب وأسباب نزول القرآن، ومتشابهات القرآن كما صرح به في معالمه.

الدين والشريعـة ولا يجب أن يعلما الغيب وما كان وما يكـون لأنّ ذلك يؤدي إلى أنّهما مشاركـان للقديم تعالى في جميـع معلوماته التـي لا تتناهى وإنّما يجب أن يكونـا عالمين لأنفسهما [١]، وقـد ثبـت أنّهما عـالمان بعلم محدث، والعلـم لا يتعلّق على التفصيـل إلاّ بمعلوم واحد. ولو علما ما لا يتناهى لوجـب أن يعلما وجود ما لا يتناهى من المعلومات وذلك محال، ويجوز أن يعلما الغائبـات والكائنات الماضيات أو المستقبـلات باعلام الله تعالى لهما شيئاً منها [٢].

فإنّ الـظاهر من كلامه أنّ الشرك إنّما يلزم من أمرين: «الأوّل» القول بعدم تناهي علومهم، «الثـاني» كون علومهم مستنـدة إلى أنفسهما لا باعلام منه سبحـانه والمنفي في كلامـه هو العلم الذاتي غير المتنـاهي، أما المتناهـي المستند إلى الله عزّ وجلّ فهـو ثابت لهم.

السؤال الثاني:

لو كـان النبي عالماً بالغيـب بعلم مستفاد ومفاض منـه سبحانه لما مسّـه السوء والشر مع أنّه كان يمسّه السوء بنـص منه سبحانه حيث قال: ﴿**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ (الأعراف ـ ١٨٨) فـإنّ الانسان إذا وقف على أنّ في ركوب أمر خطراً على نفسه وماله، أو أنّ في هذا الغذاء سمّاً لاجتنب عنهما وتركهما بتاتاً سواء أوقف عليها من جانب نفسه أم باطلاع غيره فمس السوء وفوت الخير، دليلان على عدم اطلاعه على الغيب لا من جانب نفسه ولا من ناحية غيره مطلقاً.

الجواب من وجوه: الجواب الأوّل:

إنّ السـؤال موجـه إذا قلنـا بسعة علـم النبي ﷺ بعامـة الحوادث القادمـة مع تفاصيلها وجزئياتها، وأنّ علمه ﷺ بغابر الأُمور وقادمها غير محدود بشيء من التحديد،

---

(١) كذا في النسخة والصحيح لا لأنفسهما كما هو واضح لمن أمعن النظر.

(٢) متشابهات القرآن ومختلفه ج١ ص ٢١١.

غير كونه علماً إمكانياً مفاضاً ومستفاداً منه سبحانه، فعند ذاك يتوجه السؤال و يقال:

بأنّه لو كان النبي عالماً بما سيقع من الحوادث كلّها، يجب أن لا يمسّه السوء أبداً ويحترز من كل شر، قبل إصابته وأمّا إذا حددناه بشيء من التحديد وقلنا إنّ علمه بالحوادث ليس بهذه المثابة كما يدل عليه قوله ـ عليه السّلام ـ: «إنّ لله علمين: علم مخزون لا يعلمه إلاّ هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه»[١]، وقوله ـ عليه السّلام ـ: «لولا آية في كتاب الله لحدّثتكم بما يكون إلى يوم القيامة» فقلت أيّة آية؟ قال: «قول الله: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب**﴾» [٢] فالسؤال غير وجيه جداً لأنّه إذا كان علمه بالحوادث المستقبلة، محدوداً بشيء من هذه الحدود، لا ينافيه مس السوء وعدم استكثار الخير في بعض الأحايين، لإمكان أن يكون المورد من العلم المكنون الذي لم يطلع عليه أحد، أو من الأُمور التي تحقق فيها البداء بمعناه الصحيح الذي نصّت عليه الأحاديث.

روى معمر بن خلاد قال: سأل أبا الحسن ـ عليه السّلام ـ رجل من أهل فارس فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال: قال أبو جعفر: يبسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنّا فلا نعلم، فقال: سرّ الله عزّ وجلّ أسرّه إلى جبرئيل، وأسرّه جبرئيل إلى محمد وأسرّه محمد إلى من شاء الله [٣]، وبهذا المضمون روايات وأحاديث، واختاره لفيف من مشايخ الإمامية[٤].

نعم هذا الجواب ربّما لا يلائم ما دلّت عليه بعض الأحاديث التي نقلها الكليني في كافيه وعقد له باباً بـ «أنّهم ـ عليهم السّلام ـ يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شيء».

---

(١) الكافي ج١ ص ١٤٧ وتضافرت الروايات بهذا المضمون وقد جمعها العلامة المجلسي في بحاره في الباب الثاني من كتاب توحيده فراجع ج٢ ص ٤٧ ـ ٩٢.

(٢) بحار الأنوار ج٤ باب البداء والنسخ ص ١١٨، الحديث ٥٢.

(٣) الكافي ج١ ص ٢٥٦.

(٤) كالشيخ الصدوق وأمين الإسلام الطبرسي وغيرهما ممّن لا يقولون بعموم علمهم بكل شيء.

غير أنّ ابداء الرأي القاطع في سعة علومهم واطلاعهم على المغيبات يحتاج إلى امعان النظر في أحاديث الباب كلّها فإنّها ليست على صعيد واحد بل تختلف مضامينها وبما أنّ الاسهاب يوجب الخروج عن الهدف من هذا الفصل فنرجىء البحث عنه إلى مقام آخر.

الجواب الثاني:

لو كان علمهم -عليهم السلام- بالمغيبات علماً بالفعل بحضورها لديهم تفصيلاً بدقائقها وتفاصيلها فلا يجتمع ذاك مع مفاد الآية، وأمّا إذا قلنا بأنّ علمهم بالغيب على حسب مشيئتهم بحيث لو شاؤوا علموا، ولو لم يشاؤوا لم يعلموا[1] فينقطع الإشكال من أصله فإنّ مثلهم بالنسبة إلى الحوادث القادمة -عليهم السلام- كمثل الذي أُلقي عليه سؤال وبيده كتاب، فيه جوابه لو رجع إليه علم، وإذا لم يرجع إليه لم يعلم، أو مثل الفقيه الذي له ملكة الاجتهاد، واستنباط الأحكام عن أدلّتها، أو الطبيب البارع الذي له قدرة التشخيص والعلاج، أو العالم الرياضي القادر على حل المعادلات الجبرية فإنّهم إذا شاؤوا علموا وأجابوا عن السؤال، ورفعوا الستار عن مجهولهم بالرجوع إلى ملكاتهم العلمية، فلا ينافي عدم استحضارهم جواب السؤال، مع امكان اطلاعهم عليه إذا شاؤوا، وعلى ذلك فكل ما أصابهم شر وكل ما فاتهم خير فيمكن أن يكون ممّا لم يشاؤوا أن يعلموه.

قال العلاّمة الطباطبائي: «قد ورد في بعض الأخبار، وسياق التفسير لسائرها أنّهم -عليهم السلام- إذا شاؤوا علموا، وإذا لم يشاؤوا لم يعلموا، ويتحصل منه أنّ لهم بحسب مقام نورانيتهم علماً بالفعل بكل شيء، وأمّا بحسب الوجود العنصري الدنيوي فهم إذا شاؤوا علموا، بفضل الاتصال بمقام النورانية باذن الله، وأمّا إذا لم يشاؤوا لم يعلموا.

---

(١) وقد عقد الكليني باباً خاصاً لأحاديثه، غير أنّ ما رواه في هذا الباب ضعيف السند لاحظ الكافي ج١ ص ٢٥٨.

وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض القصص والسير المأثورة عنهم ممّا ظاهره أنّهم ما كانوا على علم بما كان يستقبلهم من الحوادث فلا تغفل» (١).

الجواب الثالث:

ما تفضل به سيدنا العلاّمة الطباطبائي (رضوان الله عليه) عندما عرضنا عليه هذا السؤال، فألّف في جوابه رسالة موجزة في ثمان صفحات على القطع الصغير باستدعاء منّا، ونحن نقتطف منه مايلي بتصرّف يسير:

لما كان علمهم ـ عليهم السّلام ـ هذا بالحوادث علماً بها بما أنّها واجبة التحقق، ضرورية الوقوع، لا تقبل بداء، ولا تحتمل تخلفاً، كما في الأخبار، فلا تأثير لهذا العلم الذي هذا شأنه في فعل الانسان، وتوضيحه يكون ببيان أُمور:

١ ـ انّ من المقرر عقلاً، وقد صدقه الكتاب والسنّة،أنّ كل ظاهرة وحادثة تحتاج في تحققها إلى علّة ، ثمّ إنّ العلّة التي يتوقّف عليها وجود الشيء، تنقسم إلى ناقصة وتامة، والتامة منها ما يتوقف عليه وجود الشيء، بحيث يجب وجوده بوجودها، وعدمه بعدمها، والناقصة منها، وإن كان يتوقف عليه وجود الشيء أيضاً، ويجب عدمه بعدمها، إلاّ أنّه لا يجب وجود الشيء بوجودها.

٢ـ إنّ الحادثة لا تتحقق إلاّ وهي موجبة بإيجاب علّتها التامة ومحتمة بحتمية منها، وكذا الكلام في علتها حتى ينتهي إلى الواجب بالذات تبارك وتعالى. فالعالم مؤلّف من سلسلة من الحوادث، كل حلقة من حلقاتها واجبة الوجود، بعلّة تسبقها وإن كانت ممكنة بالقياس إلى أحد أجزاء علّتها العرضية أو أحد عللها الطولية.

٣ـ هذه الوجوبات المترتبة، الواقعة في سلسلة الحوادث هي، نظام القضاء الحتمي الذي ينسبه الله سبحانه إلى نفسه ويقول: ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ (الأنفال ـ ٤٢)، وقال: ﴿وَ كَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ (مريم ـ ٢١).

---

(١) عن رسالة خطية له رحمه الله نحتفظ بنسخة منها.

٤ـ إنّ للعلم أثراً في انتخاب أحد الأمرين من الفعل والترك وجلب النفع ودفع الضرر، فالانسان الفاعل بالعلم والإرادة، إنّما يقصد ما علم أنّه يفيده، ويهرب ممّا علم أنّه يضره، فللعلم تأثير في انتخاب أحد الفعلين وفي فعل شيء أو تركه.

٥ـ علم الانسان بالخير والنفع وكذا علمه بالشر والضرر في الحوادث المستقبلة إنّما يؤثّر إذا تعلّق بأمر ممكن غير مقضي، وذلك مثل أن يعلم الانسان أنّه لو حضر مكاناً كذا، في ساعة كذا، من يوم كذا، قتل قطعاً، فلهذا العلم تأثير خاص في ترك الحضور في المكان المعين، تحرّزاً من القتل، وأمّا إذا تعلّق العلم بالضرر مثلاً من جهة كونه ضروري الوقوع واجب التحقق، كما إذا علم أنّه في مكان كذا، ساعة كذا، من يوم كذا، مقتول لا محالة بحيث لا ينفع في دفع القتل عنه عمل، ولا تحول دونه حيلة، فإنّ مثل هذا العلم، لا يؤثر في الانسان شيئاً ولا يبعثه إلى نوع من التحرز والالتقاء لفرض علمه بأنّه لا ينفع فيه شيء من العمل فهذا الانسان مع علمه بالضرر المستقبل، يجري في العمل مجرى الجاهل بالضرر.

إذا علمت ذلك ثمّ راجعت الأخبار الناصة على أنّ الذي علمهم الله تعالى من العلم بالحوادث التي لا بداء فيه ولا تخلف، ظهر لك اندفاع ما أورد على القول بعلمهم بعامة الحوادث، من أنّه لو كان لهم علم بذلك لاحترزوا مما وقعوا فيه من الشر، كالشهادة قتلاً بالسيف أو بالسم، لحرمة إلقاء النفس في التهلكة.

وجه الاندفاع أنّ علمهم بالحوادث علم بها من جهة ضرورتها كما هو صريح نفي البداء عن علمهم [1] والعلم الذي هذا شأنه لا أثر له في فعل الانسان ببعثه إلى نوع من التحرز، وإذا كان الشر بحيث لا يقبل الدفع بوجه من الوجوه، فالابتلاء به وقوع في التهلكة لا القاء فيها، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ

(١) يشير رحمه الله إلى ما روي عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ: العلم علمان فعلم مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه، وعلم علّمه ملائكته ورسله فما علّمه ملائكته ورسله، فإنّه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء الكافي باب البداء ج١ ص ١٤٨.

الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران ـ ١٥٤).

ولما كان ما ذكره في مقام الاجابة موجزاً كمال الايجاز أوضحنا ما أفاده بأمرين:

١ ـ ما سمعناه منه رضوان الله عليه شفاهاً.

٢ ـ ما حرّره بقلمه حول السؤال في رسالة فارسية فها نحن نقدم ما سمعناه منه شفاهاً ثم نتبعه بما جاء في رسالته الخاصة.

أمّا الأوّل فنقول:

إنّ علم النبي بالمغيبات لو كان من عند نفسه يجب أن يكون مستنداً إلى امارات وقرائن تثير في نفسه القطع والعلم بأنّه لو شرب هذا السم يهلك قطعاً فالعلم في هذا القسم يتعلق بقضية شرطية، بحيث لو تحقق الشرط لتحقق الجزاء، فإذا وقف الانسان على علم هذا شأنه، لاحترز عن اقترافه بحكم الغريزة الانسانية وليدفع عن نفسه السوء والشر، فأصبح خلوّاً من كلّ مكروه.

وإن شئت قلت إنّ العلم في هذا النوع يتعلّق بالحوادث من جهة امكانها لا من جهة ضرورتها، كما مثل به رحمه الله: «من أنّه لو حضر مكاناً كذا، في ساعة كذا من يوم كذا لقتل» وعند ذاك يختار ترك الحضور أخذاً بواحد من طرفي الامكان وهو الذي فيه نجاته ونجاحه.

وأمّا إذا كان علمه ﷺ مفاضاً ومستفاداً من جانبه سبحانه فبما أنّ ما علمهم الله لا بداء فيه ولا تخلف، وهو ممّا يتحقق قطعاً فلا محالة يسير النبي حسب ما أوحى الله إليه ولا يقدر أن يتخلّف عنه قدر شعرة فيصيبه من الخير والشر ما قضي عليه بضرورة وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿قل لو كنت أعلم الغيب﴾ من عند نفسي ﴿لاستكثرت من الخير﴾ واخترت أنفع الأمور وأصلحها ﴿وما مسّني السوء﴾ واحترزت عن اقتراف المضار، بحكم الغريزة الانسانية التي تدعو إلى صيانة النفس عما يضرّها ويؤذيها ﴿إن أتبع إلاّ ما يوحى﴾ فأسير، حسب ما أُوحي إليّ، وهو ليس خبراً

يقبل الكـذب أو الخطأ، بل هو خبر قطعـي الثبوت فيصيبني من الخير والشر مـا قضى وقدر [١].

وعلى ذلك، لا يكـون، مس السـوء دليلاً على عـدم علمـه بالغيب، فـإنّه لا أثـر للعلم وعدمه في هذا النوع في الاجتناب والاتقاء.

غير أنّ القارئ الكريم بعد ما أمعـن النظر في هذا الجواب يجب عليه أن يلاحظ أمرين:

١ ـ أنّ العلم العـادي كما يمكن أن يتعلق بالقضيـة من ناحية امكـانها ـ فيصح فعل الشيء وتركه ـ كذلك يمكن أن يتعلق بها من جهة ضرورتها، كأن ينكشف له بأحد الأسباب بأنّـه يموت في وقت كذا، ويهلك في زمن كذا فـلا ينحصر العلم غير المفاض على قسم واحد ولعله رحمه الله يلتزم بذلك.

٢ ـ إنّ القـول بأنّ علمهم بـالحوادث ممّا لا بـداء فيه ولا تخلف، و إن دلّـت عليه بعض الأحاديث ولكن يظهر من كثير منها وقوع البداء في ما وصل إليهم علمه أيضاً.

ثم إنّ الاستاذ عمل رسـالة خاصة باللغـة الفارسيّة قد أوضح فيها مـا قصده من الجواب ونحن نقتطف منها ما يمس بالمقام:

١ ـ إنّ علم الإمام الخاص ليـس له أثر في أعماله ولا يرتبط بتكـاليفه الخاصة لأنّ كل شيء تعلّق بـه القضاء الحتمي، وكان ضروري الـوقوع لا يتعلق بـه الأمر والنهي ولا الإرادة والقصـد من تلك الجهـة، نعم يكون هـذا الشيء الذي تعلـق به القضـاء الحتم مورداً لـرضا العبـد بهذا القضاء الالهي وذلـك كما قال الحسين ـ عليه السّلام ـ في اللحظـات الأخيرة من حيـاته وهـو صريع على الأرض، مضمّخ بـالدم: «رضىً بقضـائك وتسليماً لأمرك لا معبود سواك» وكما قال ـ عليه السّلام ـ حين أراد الخروج من مكة: «رضـا الله رضانا أهل البيت الخ».

٢ ـ من الممكن أن يتصـور البعض بأنّ العلـم القطعي بالحوادث التـي لاتقبل

---

(١) ما أوضحناه به كلامه، سمعناه منه شفاهاً.

التغيير والتبديل يستلزم القول بالجبر في الأفعال، فلو فرض أنّ الإمام ـ عليه السّلام ـ علم أنّ شخصاً معيناً سيقتله في ظرف معين، بحيث لا يقبل هذا الحدث التغيير أبداً، فلازم هذا الفرض أن لا يكون للقاتل اختيار على تر ك القتل، فهو إذن مجبور على قتل هذا الإمام، فلا تكليف ولا عقاب حينئذ على هذا القاتل، ولكن هذا التصور باطل لما يلي:

أ ـ إنّ هذا الإشكال في الواقع ليس إلاّ إشكالاً على شمول القضاء الالهي لأفعال الانسان الاختيارية أيضاً، وليس هو إشكالاً على علم الإمام بالغيب، ولأجل ذلك الإشكال منع المعتزلة شمول القضاء الالهي للأفعال الاختيارية للانسان زاعمين أنّ الانسان هو الذي يخلق أفعاله استقلالاً وبالتالي فهو خالق لأفعاله والله تعالى خالق بقية الأشياء، في حين نجد النص القرآني والأخبار المتواترة عن النبي ﷺ وأهل البيت تعتبر كل الموجودات وكل الحوادث الكونية بلا استثناء مشمولة لقضاء الله وقدره، كما أنّ هذا الأمر ثابت من طريق العمل أيضاً، وإن كنّا لا نستطيع بحثه في هذا المقال المختصر لسعة أطرافه.

والذي نستطيع أن نقوله بإجمال هو: أنّه لا يوجد شيء في هذا الكون إلاّ بمشيئة الله تعالى وإذنه، وحتى أفعال الانسان الاختيارية تعلّقت بها المشيئة على أن تصدر بإرادة نفس الانسان واختياره، فمثلاً: انّ الله أراد أن يصدر فعل معين من انسان مخصوص ولكنّه تعالى أراد في نفس الوقت صدور هذا الفعل المعيّن من الانسان المخصوص باختيار من الانسان وإرادة، ومن البديهي أنّ هذا الفعل المعيّن مع وصفه الخاص ضروري الوقوع، رغم أنّه اختياري للانسان لأنّه لو لم يكن اختيارياً لتخلفت إرادته تعالى عن مرادها: **﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين﴾** .

ب ـ ومع غض النظر عمّا تقدم الآن فإنّ الله تعالى ـ كما نعلم جميعاً ـ خلق لوحاً محفوظاً أثبت فيه جميع الحوادث الماضية والقادمة للعالم ولا مجال للتغيير فيه أبداً، فإذا كان علم الله تعالى السابق بهذه الحوادث كما أثبتها اللوح المحفوظ لا تستلزم أن يكون الانسان مجبوراً في أفعاله، فكيف يكون علم الإمام السابق ببعض هذه الحوادث أو

بجميعها مستلزماً لأن يكـون الانسان مجبوراً في أفعاله الاختيار يـة والتي منها عملية قتل الإمام المعينة مثلاً؟

٣ـ بعـض الأعمال التي تصدر من الإمـام وهي موافقـة للأسبـاب الظاهـرية لا يمكن أن نعتبرها دليـلاً على جهل الإمام بالواقع وفقـدانه لموهبة العلم التي أثبتنـاها له كأن يقال:

لو كان الحسين ـ عليه السلام ـ يعلم حقاً مستقبل أمـره فلماذا بعث مسلماً إلى الكوفة رسولاً عنه؟

ولماذا أرسل مع الصيـداوي كتاباً إلى أهل الكوفـة؟ ولماذا خرج من مكة متـوجهاً نحو الكـوفة؟ ولماذا ألقى بنفسه في التهلكة؟ والله تعـالى يقول: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** ولماذا؟ والخ.

وتتضح الاجابة عن كل علائم الاستفهام هذه بالحقيقة التي ذكرناها قبل لحظات وهي: أنّ الإمـام لم يعمـل في هذه المواضـع ونظائرهـا إلاّ بـالعلم الـذي يحصل لـديـه بالـوسائل العاديـة وعن طريق الأدلـة والشواهـد الظاهريـة، فلم يبذل أي جهد لـدفع الخطر الـواقعي المعلوم عن نفسـه لأنّه علم أنّ أي جهـد من هذا القبيل هـو عبث لأنّ القضاء الحتمـي قد تعلق بهذا الأمـر كما يقول تعـالى في سورة آل عمـران في شأن اولئك الذين قالوا في حق أصحابهم يوم أُحد: **﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا﴾** (آل عمران ـ ١٥٦) يقـول الله في حقهم: **﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِـي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِيـنَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾** (آل عمران ـ ١٥٤).

القسم الثاني من علم الإمام ـ العلم العادي:

إنّ النبي أو الإمام من العترة الطـاهرة ليسوا إلاّ بشراً حسب نص القـرآن الكريم والأعمال التي تصدر من الإمام هي كالأعمال التي تصدر من غيره من الناس تستند إلى اختيـاره وعلى أسـاس علمه العـادي، أنّ الإمـام كغيره يميّـز الخير والشر، ومـدى النفع والضرر في الأعمال عن طريق الأسباب الطبيعية والوسائل العادية ثم تحدث عنده إرادة

العمل الـذي يراه صـالحاً ونافعـاً، ثم يسعى للقيـام به وتحقيقـه، فحين تكون العـوامل الخارجية مساعدة، ومنسجمة مع بعضها يستطيع تحقيق الأمر الذي يريده، وبغير ذلك يخفق في تحقيق الهدف الذي يـريده (وقد مرّ أنّ وقوف الإمـام على جميع الحوادث الجزئية ما مضى منهـا وما يأتي بـاذن الله لا تؤثّر في مجرى أعمالـه الاختيارية) أنّ الإمـام كسائر الناس العاديين عند الله وهـو مثلهم مكلّف بالتكاليف الدينيـة من قبل الله تعالى ونظراً لمنصبه القيادي الـذي أُعطى من قبل الله يجب عليه أن يعمل بتكاليفـه المقررة عليه من قبل الله كإمام، وفقاً للموازين العاديـة للبشر، ويبذل كل ما في وسعه لإحياء كلمة الحق واقامة منهج الدين والعدل.

الجواب الرابع:

إنّ الأنبياء والأئمة مـع تميّزهم عن الغير بشخصياتهم الـربّانية وقوّة الـولاية التي منحت لهم (ذلك أنّ شطـراً من شخصياتهم قائمـة على المواهب الالهية والشطـر الآخر حصل نتيجة الجهود التي بـذلوها للقرب من المولى تعالى) أنّهم مع ذلـك كانوا يعملون وفقاً لعلومهم العادية حيث يـواجهون حوادث الحياة المختلفة، على صعيد شخصي، أو على صعيد اجتماعي كمسائل القضاء والحكم بين الناس مثلاً، أنّهم مع علمهم الكامل بـالحوادث الجزئيـة في ظلال مـوهبـة الـولايـة، ومعـرفتهم بعلل الحوادث وتفـاصيلهـا لارتبـاطهـم بما وراء الطبيعـة، أقـول: إنّهم مـع ذلـك لم يستفيـدوا من علـومهم تلـك في قضـاياهـم الشخصية ولا في الأُمـور التي تـرتبط بـالمجتمع وذلـك لمصالـح وحكم خاصة.

وبتعبير آخـر: لم يحل النبي والإمـام مشاكلهما الحيـاتيـة عن طـريق الانتفـاع من سلاح الغيب، ولم يقطعا دابر الحوادث المرّة بالقضـاء على عللها التي اطلعوا عليها عن طريق الغيـب، كذلك ولم يحلاّ خلافات النـاس وخصوماتهم بالعلـم الغيبي، لقد أُخبر النبي ﷺ وهو في المسجد عن شدة مرض ابنه العـزيز إبراهيم فعاد إلى البيت ليحتضن

ولده العزيز ويحدق في وجهه النظر قائلاً : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ و إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون [١].

كان النبي ﷺ يملك ثلاثة ألوان من سلاح الغيب في كل أدوار رسالته وكان يتمكن بواسطتها من تغيير الوضع كيفما يريد، عند مواجهته للمصاعب، وعند حدوث اللحظات الخطيرة ولكنّه لم يستعمل هذا السلاح في أغلب الأوقات، وكانت ألوان السلاح الغيبي متمثلة في الأمور التالية: ١ـ المعجزة. ٢ـ استجابة دعائه. ٣ـ علم الغيب.

كان النبي الكريم ﷺ يتمكن عن طريق الاعجاز والولاية التكوينية التي ملكها من قبل الله تعالى أن يهب السلامة والعافية لولده العزيز إبراهيم (وذلك كالولاية التكوينية التي ملكها عيسى ـ عليه السّلام ـ وكان بها يحي الميت ويبرئ الأكمه والأبرص) وكان يستطيع أيضاً ببركة دعائه المستجاب الذي منح له من قبل الله تعالى أن يدعو الله ويغيّر حالة ولده، وينقذه من الموت، وكان يقدر كذلك ـ عن طريق معرفته بالغيب ـ أن يمنع من عوامل المرض قبل أن تتسرب إلى جسم ولده العزيز لئلاّ يبتلى ولده بالمرض، أو يختار لولده الأدوية الناجعة لتخليصه من المرض وذلك عن طريق اطلاعه على الغيب. كان يتمكن ﷺ على هذا ومثله ولكنّه رغم ذاك لم يستفد من هذه الأسلحة الغيبية التي كانت في يده لدفع الأضرار المرتقبة عنه وعن اسرته ولم يخط إلاّ في ظل المجاري الطبيعية للحياة، ذلك لأنّ هذه الأسلحة، أو الأسباب الغيبية إنّما أُعطيت للنبي ﷺ ليستفيد منها في اثبات رسالته وولايته الالهية حين يقتضي الأمر ذلك، و أمّا الاستفادة منها في غير ذلك المجال فغير مأذون.

ومن المحتمل أن يكون أحد الأسباب التي تمنع النبي أو الإمام من الانتفاع من هذه السبل لجلب الخير أو لدفع الشر هو: أنّ استعمال هذه الأسباب الغيبية يقضي على الآثار العملية لدعوتهم، لأنّه لا شك أنّ حياة القادة بما تحمل في طياتها من صبر وتحمّل

---

(١) راجع بحار الأنوار ج ٢٢ ص ١٥٧ والسيرة الحلبية ج٣ ص٣١١ .

للمشاق، واستقامة وفداء في ساحة الجهاد، منار ساطع لأتباعهم.

فإذا افترضنا أنّ النبي أو الإمام يدفع عن نفسه وعن اسرته الأخطار في معترك الحوادث بواسطة الإعجاز أو الدعوة المستجابة أو معرفته بما وراء الطبيعة، فيهب السلامة لولده ـ مثلاً ـ عن طريق الإعجاز أو يستفيد من دعائه المستجاب أو معرفته الغيبية لاعادة السلامة إلى ولده، فإنّه حينئذ لا يستطيع أن يمنح الآخرين من أتباعه النصح على تحمل المصائب والتسليم لقضاء الله تعالى، ولو أنّه استفاد من هذه الأسباب الغيبية في ساحة الجهاد في سبيل الله فحصّن نفسه عن وصول سهام العدو إليه وأبعد كل خطر مرتقب عن نفسه وعن أهل بيته المقرّبين بواسطة تلكم الأسباب فحينذاك لا يمكنه أن يدعو الناس إلى تحمل الألم والعناء في سبيل الله لأنهّم ـ حتماً ـ سيعرضون عليه قائلين: إنّ الشخص الذي يدعونا إلى هذه المناهج الخلاّقة والمبدعة يجب أن يكون نفسه مثالاً رائعاً لهذه المناهج الرائعة. انّ الشخص الذي لا مفهوم عنده للألم والعناء، ولا تمسّه الكوارث طيلة حياته لا يستطيع أن يكون قدوة الأُمم ومنار الحياة للآخرين.

ولهذا ـ ولجهات أُخرى ليس هنا مجال عرضها ـ نجد أنّ الشخصيات الالهية كغيرهم يبذلون شتى الوسائل الطبيعية، ويسعون جاهدين لدفع الأخطار والمصائب عن أنفسهم، عند ما يواجهونها، وقد يخفقون في سعيهم بسبب عدم وجود الوسائل الطبيعية بالقدر المطلوب. إنّنا حين نرى عدم الاختلاف بين سلوك المعصومين في الحياة وسلوك الناس العاديين، أي أنّهم كانوا حين يمرضون يستعملون الدواء للعلاج ولاعادة السلامة كالآخرين، ويستعملون كل الوسائل الطبيعية والعلوم العادية في القضايا الاجتماعية وفي ساحة الجهاد كغيرهم، ويعينون أشخاصاً لنقل مختلف الأخبار إليهم وإلى غير ذلك. كل ذلك لأنّ الأسباب الغيبية ما كان يجوز لهم استعمالها إلاّ في مواضع خاصة.

وهناك شواهد تؤيّد ما قلناه، فقد روي أنّ عبيد الله بن أبي رافع كان مديراً لبيت المال أيام الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وحين أرسل الإمام ـ عليه السلام ـ (أبا موسى

الأشعري) إلى دومة الجندل للحكم في قضية الحكمين يوم صفّين أوصاه الإمام ـ عليه السّلام ـ قائلاً: «احكم بكتاب الله ولا تجاوزه»، فلمّا أدبر قال ـ عليه السّلام ـ: «وكأنّي به وقد خدع». يقول ابن أبي رافع: قلت للإمام ـ عليه السّلام ـ: فلمَ توجهه وأنت تعلم أنّه مخدوع؟ فأجابه الإمام ـ عليه السّلام ـ قائلاً: يا بني لو عمل الله في خلقه بعلمه ما احتج عليهم بالرسل [١] أنّه تعالى كان يعلم أنّ طائفة من الناس يستوي عندهم بعث الأنبياء وعدم بعثهم، أنّهم لا يؤمنون سواء أأرسل إليهم رسول أم لا ومع ذلك فقد أرسل إليهم أنبياء. انّ الإمام ـ عليه السّلام ـ حين يشير في جوابه هذا إلى علم الله غير القابل للخطأ كأنّه يبيّن هذه النقطة وهي: على أن أعمل في الحياة بمقتضى العلل والعوامل الطبيعية، ولست أعمل وفقاً لما أعلمه من الغيب.

وهكذا نرى الأئمّة ـ عليهم السّلام ـ في الأحاديث المنقولة عنهم يؤكدون على أنّ طريق قضائهم وحكمهم بين الناس هي الأسباب العادية كالشهادة واليمين لا علومهم الغيبية وذلك كما يروي الإمام الصادق ـ عليه السّلام ـ عن الرسول ﷺ: «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان»، وأمّا ما ورد في بعض الروايات من جواز أن يحكم الإمام بعلمه في مجال اجراء الحدود فالمقصود منه هو العلم الذي يحصل عليه من الطرق العادية والأسباب الظاهرية كأن يرى الإمام بعينه شخصاً يشرب الخمر، لا حظوا الرواية التالية: «الواجب على الإمام إذا نظر إلى رجل يزني أو يشرب خمراً أن يقيم عليه الحد ولا يحتاج إلى بيّنة مع نظره لأنّه أمين الله في خلقه» [٢] هذه الرواية تدلّ على أنّ المقصود من عمل الإمام بعلمه هو علمه العادي والطبيعي كما دلّت عليه لفظة «نظر» في الرواية. و إذا لاحظنا أيضاً المسائل القضائية التي وقعت في عصر الإمام أمير المؤمنين لرأينا بوضوح أنّ الإمام ـ عليه السّلام ـ لم يحكم بين الناس استناداً إلى علمه الخاص عن القضية أبداً بل

---

(١) المناقب لابن شهر آشوب ج٢ ص ٢٦١.

(٢) وسائل الشيعة ج١٨ ص ٣٤٤، نعم للإمام أن يحكم بعلمه العادي في الحقوق الالهية فقط و يقيم الحد على مرتكب الجريمة، ولا يجوز له العمل بعلمه في حقوق الناس كأن يرى شخصاً يسرق من آخر والمسألة معنونة في الفقه فراجع الجواهر.

كـان يسعى سعياً حثيثـاً معداً بعـض المقدّمـات التي تجعل الخصمين المدّعي والمنكـر يعترفان بالواقع أمامه ثم يقضي بينهما.

ويقـول السيـد الطباطبـائي في (ملحقـات العـروة الـوثقى) حين يقـول: يجوز للقاضي أن يعمل بعلمه في حل دعاوى المتخـاصمين نقصد بذلك العلم الحاصل عن الطرق العادية لا العلم الحاصل عن طريق الرمل والجفر وغيرهما [١].

ولكن الذي يستفـاد من الروايات أنّ الإمـام المهدي (عج) هـو الذي يحكم بين النـاس بعلمه حين ظهـوره فقط وذلك كما حكـم نبي الله داود ـ عليه السلام ـ ويقول الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ في هذا الصدد: «إذا قام قـائم آل محمد حكم بحكم داود ـ عليه السلام ـ لا يسأل عن بيّنة» [٢].

هذا وقد طال بنا الوقوف في المقام وذلك لقلع جذور الشبهة عن أذهان الشباب، وإن كان أعداء آل البيت يبثّـون كل يوم جذور الشك ولكن نور المعـرفة لا يفتأ متبلجاً، والحقائق الراهنـة لا تزال متأرجة وسحب الشبه وإن أطلّت على الأُمّة ردحـاً من الزمن، لكنّها تكتسح بشمس المعرفة.

أراها وإن طالت علينا فإنّها سحابة صيف عن قليل تقشع

نعم قام لفيف من علمائنـا بتأليف كتب ثمينة حول علم النبـي والإمام سدوا بها الفراغ بعض السد ودونك ما وقفنا عليه:

١ ـ المعـارف السلمانية بمـراتب الخلفاء الـرحمانية، طبع بـإيران على الحجـر عام ١٣١٣ هجرية قمرية للعلاّمة السيّد عبد الحسين النجفي الشيرازي (قدّس الله سرّه) له ترجمة ضافية في طبقات أعلام الشيعة ج ٣ ص ١٠٤٨.

٢ ـ الالهام في علـم الإمام، للعلاّمـة الشيخ محمد علي الحائري السنقـري طبع في

---

(١) ملحقات العروة ج٢ ص ٣١.

(٢) وسائل الشيعة ج١٨ ص ١٦٨.

النجف عام ١٣٧٠.

٣ـ علم الإمام، للعلاّمة الحجة المغفور له الشيخ محمد الحسين المظفر طبع بالنجف ١٣٨٠ هـ أضف إلى ذلك ما أفاده العلامة المجلسي في بحاره في غير موضع من مباحث الإمامة، شكر الله مساعيهم.

٤ـ رسالة فارسية في علم الإمام، صنّفها المفكّر الإسلامي السيد محمد حسين الطباطبائي وانتشر سنة ١٣٩١ هـ وله رسالة عربية صغيرة في هذا الموضوع أيضاً مخطوطة نحتفظ منها بنسخة.

السؤال الثالث:

مشكلة المشاركة مع الله:

تمسك بهذه الشبهة في سلب العلم بالغيب من غيره سبحانه «عبد الله القصيمي» فقال رداً على عقيدة الشيعة في علم الأئمّة بالغيب: «فالأئمّة يشاركون الله في هذه الصفة صفة علم الغيب وعلم ما كان وما سيكون، وأنّه لا يخفى عليهم شيء والمسلمون كلهم يعلمون أنّ الأنبياء والمرسلين أنفسهم لم يكونوا يشاركون الله في هذه الصفة والنصوص في الكتاب والسنّة وعن الأئمّة في أنّه لا يعلم الغيب إلاّ الله متواترة لا يستطاع حصرها في كتاب، وهذا غني عن الإدلاء بشواهده، ومن المؤسف المخجل لعمر الله أن يزعموا أنّ الأئمّة يعلمون الغيب» (١).

الجواب:

هذه شبهة تافهة لا تستحق الرد والبحث، وكتابه هذا مملوء بالسب والطعن لأعلام الشيعة بما ينزه اليراع عن نقله ونحن نمرّ عليه مرّ الكرام وخفي عليه أنّ بين العلمين بوناً شاسعاً فإنّ الله سبحانه عالم بالغيب بذاته، وغيره مطلع عليه باظهار منه

(١) الصراع بين الإسلام والوثنية ج١ أُنظر المقدمة.

وأي تجانس بين العرضي والذاتي والمحدود وغير المحدود وأي صلة بين الأصيل في علمه، المرسل في إدراكه وبين المتدلي في ذاته وعلمه، الفقير في كلّ شأن من شؤونه حتى في علمه هذا فلو استلزم ذلك شركاً لزم أن يكون توصيف الممكن بالحياة والقدرة والسمع والبصر مما يجري على الله سبحانه أيضاً شركاً.

السؤال الرابع:

إنّ ما تقدم من الآيات لا تدل على أكثر من اطلاع النبي الأكرم ﷺ على الغيب، فما الدليل على اطلاع غيره على الغيب؟

الجواب:

انّ هناك روايات متضافرة تدلّ على أنّ لأئمّة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ حظاً وافراً في هذا المجال، ويدل على ذلك:

أوّلاً: الأخبار الغيبية التي وردت في نهج البلاغة وسيوافيك بعضها في هذه الصحائف وهي تدل بوضوح على معرفة علي ـ عليه السلام ـ واطلاعه على الغيب.

ثانياً: الأخبار الغيبية الواردة عن أئمّة أهل البيت التي ملأت كتب علمائنا الأبرار فهذا هو الشيخ الحرّ العاملي أتى في كتابه القيم «إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات» كثيراً من الأخبار الغيبية المروية عن الأئمّة ـ عليهم السلام ـ، ودونك احصاء ما نقله عن الحسن السبط المجتبى وغيره من الأئمّة حتى ينتهي إلى الإمام الثاني عشر فقد نقل عن الحسن بن علي المجتبى ـ عليه السلام ـ أزيد من عشرة أحاديث ومثله عن الإمام السبط الحسين ـ عليه السلام ـ، ونقل عن الإمام سيد الساجدين عشرين حديثاً وعن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ خمسين حديثاً، وعن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ مائة وخمسين حديثاً، وعن الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ ثمانين حديثاً، وعن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ مائة وثلاثين حديثاً، وعن الإمام الجواد ـ عليه السلام ـ أزيد من ثلاثين حديثاً، وعن الإمام الهادي

ـ عليه السلام ـ قرابة خمسين حديثاً، وعن الإمام الحسن العسكري ـ عليه السلام ـ أزيد من ثمانين حديثاً، وعن الإمام القائم ـ عليه السلام ـ أزيد من مائة حديث.

نعم لقد تكرر مضمون بعض الروايات ومع ذلك فإنّ الباقي يشكل مجموعة كبيرة من الإخبارات الغيبية التي فيها الكفاية لمن تأمّل.

ثالثاً: إنّ الروايات تضافرت عنهم ـ عليهم السلام ـ بأنّ الأئمّة ورثوا علم النبي ﷺ وجميع الأنبياء والأوصياء الذين سبقوهم [1].

وأنت إذا لاحظت كتاب الحجة من الكافي في مختلف أبوابها تقف على أنّ الأئمّة ـ عليهم السلام ـ وقفوا على علوم غيبية لم يعرفها غيرهم فلاحظ الأبواب التالية:

١ ـ انّ الأئمّة شهداء الله على خلقه.

٢ ـ انّ الأئمّة قد أُوتوا العلم وأُثبت في صدورهم.

٣ ـ انّ الأئمّة اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه.

٤ ـ انّ الأئمّة معدن العلم وشجرة النبوّة.

٥ ـ انّ الأئمّة ورثة العلم يرث بعضهم بعضاً العلم.

٦ ـ انّ الأئمّة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم إلى غير ذلك من الأبواب التي وردت فيها كيفية علومهم وكميتها.

فعلى القارئ الكريم أن يرجع إلى هذه الأبواب.

السؤال الخامس:

لا شك أنّ النبي الأعظم والأئمّة من أهل البيت، قد تنبّأوا بكثير من المغيبات التي كانت الفراسة والتكهن تقتضيان خلافها، غير انّا نراهم في بعض المقامات يتحاشون عن نسبة العلم بالغيب إليهم، فما وجه ذلك؟

---

(١) لاحظ الكافي ج١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦.

الجواب:

انّ النـاظر في هـذه الـروايات يقف على أنّ المتبـادر من العلـم بالغيـب في تلك العصور كان هـو العلم الاستقلالي الذاتي الذي يختص بـالله سبحانه، فهم -عليهم السّلام- لصيانـة شيعتهم عن الغلو والشرك، أو لدفع أعـدائهم، صرّحوا بأنّ مـا يخبرون عنه من الفتن وملاحم أحداث ليس بعلم غيب بل وراثة من رسول الله أو تعلّم من ذي علم إلى غير ذلك ممّـا لا ينافي ما أثبتناه من تحقق اطـلاعهم على الغيب بعلم مفاض واعلام منه سبحانه، ودونك ما وقفنا عليه من تلكم الروايات:

١ـ هذا أمير المؤمنين، قـد أماط الستر عن المسألة، وعن علمـه وعلم الأئمّة من بعده بالغيب، وقد أخبر عن ملاحم (١) تحدث بالبصرة، فاعترض بعض أصحابه وقال: «لقد أُعيطـت يا أمير المؤمنين علم الغيـب»؟ فضحك -عليه السّلام- وقال للرجـل ـ وكان كلبيـاً ـ: «يـا أخا كلـب ليس هـو بعلم غيب وإنّما هـو تعلّم من ذي علـم، وإنّما علم الغيب علم الساعة، وما عدده الله بقوله: ﴿**إنّ الله عنده علم الساعة ...**﴾ الآية.

فيعلم سبحـانـه ما في الأرحـام مـن ذكر وأُنثـى وقبيح وجميل، وسخـي وبخيل، وشقي وسعيد، ومن يكون في النار حطباً، أو في الجنـان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله، وما سوى ذلك، فعلم علّمه الله تعالى نبيّه، فعلّمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي» (٢).

وهذا البيان مـن مولانا أمير المؤمنين -عليه السّلام- لا يدع لقـائل شبهة، ويعطي أنّ العلم بالمغيبات، إذا كان على وجه التعلّم من الغير ليس هو علم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله بل ليس علماً بالغيب وإنّما هو إظهار من الغير.

٢ـ هذا الإمـام الطاهر موسـى الكاظم -عليه السّلام- قد كشـف النقاب عن وجـه الحقيقة حينما سأله يحيى بن عبد الله بن الحسن عـن علمه بالغيب وقال: «جعلت فداك

---

(١) سوف يوافيك لفظه.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢٤.

انّهم يزعمون أنّك تعلم الغيب»؟ فقال: «سبحان الله، ضع يدك على رأسي، فوالله ما بقيت في جسدي شعرة ولا في رأسي إلاّ قامت، ثم قال: لا والله، ما هي إلاّ وراثة عن رسول الله» [١].

٣ـ ما روي عن الإمام الصادق: أنّه خرج وهو مغضب فلمّا أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجلّ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت منّي، فما علمت في أي بيوت الدار» [٢]، فهذه الرواية محمولة ومفسرة بما أوضحناه، وما سيوافيك من الأحاديث فالمقصود نفي العلم الاصالي القائم بذاتهم غير المستند إلى غيرهم، وأمّا أنّه ـ عليه السّلام ـ همّ بضرب جاريته فهربت فما علم مكانها، فيوجّه بوجوه:

أ ـ ما أسلفناه من كون علومهم على حسب مشيئتم وإنّهم إذا شاؤوا علموا.

ب ـ ما وافاك من أنّ هنا مراحل ثلاثة، مرحلة الاطلاع، مرحلة العمل، مرحلة الإعلام ولكلّ منها، مقتضيات وشرائط وموانع، وأنّه لا يستلزم العلم بالشيء العمل به، فلعلّه ـ عليه السّلام ـ أراد أن يطلع على مكانها من الطرق العادية لا غيرها.

أضف إلى ذلك أنّ ذيل الرواية تفصح عمّا ذكرناه بوضوح، ويعطي للإمام منزلة عظيمة ومكانة أرقى ممّن كان عنده علم من الكتاب ودونك لفظه: «قال سدير فلمّا أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر وقلنا له: جعلنا فداك سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنّك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب؟ قال: فقال: يا سدير ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْـمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ؟ (النمل ـ ٤٠).

---

(١) رجال الكشي ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ط الأعلمي، ورواه شيخنا المفيد في أماليه في المجلس الثالث ص ١١٤ بأدنى تفاوت.

(٢) الكافي ج١ ص ٢٥٧.

قال: قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال: فهل عرفت الرجل؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت: اخبرني به؟ قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب؟ قال: قلت: جعلت فداك ما أقل هذا، فقال: ياسدير ما أكثر هذا، أن ينسبه الله عزّ وجلّ إلى العلم الذي أخبرك به يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ أيضاً: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ ؟ (الرعد ـ ٤٣).

قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفهم، أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه، قال: فأوما بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا.

ج ـ أن يكون صدر الرواية وارداً على وجه التقية من النصاب والمخالفين لهم ولشيعتهم، كما أنّهم ببغضهم وحسدهم على أمير المؤمنين، إذا سمعوا ما لا يحتملونه ربّما اعترضوا بالسؤال عنه، فيصدّهم بقوله: «إنّما هو تعلّم من ذي علم» كما نقلناه عن علي ـ عليه السّلام ـ عند اخباره عن الفتن والملاحم في البصرة، فإنّ طريق علمهم بالحوادث وغيرها ليس منحصراً بالوراثة، كما هو ظاهر لمن راجع الأحاديث الواردة في باب علومهم، وإنّما الوراثة أحد هذه الطرق، غير أنّ إسناد علمهم عند الاخبار بما لا تحتمله عامّة الناس إليها كان يصدهم عن الاعتراض عليه.

ثمّ إنّ العلاّمة الشيخ محمد الحسين المظفر، أجاب عن حادثة الجارية وإنكاره ـ عليه السّلام ـ على من يقول بأنّهم يعلمون الغيب بوجهين: ثانيهما ما قدمناه أخيراً قال: «إنّهم ـ عليهم السّلام ـ أعلم الناس بالناس وأعرفهم بضعف عقولهم، وعدم تحملهم فلو إنّهم كانوا يتظاهرون دوماً، بما منحوا من ذلك العلم، لأعتقد بهم أهل الضعف بأنّهم أرباب أو غير ذلك ممّا يؤوّل إلى الشرك، ولقد اعتقد بهم ذلك، كثير من الناس، من البدء حتى اليوم، على أنّهم كانوا ينفون عنهم تلك المقدرة وذلك العلم أحياناً ولم يكونوا بأهل السلطة ليقيموا أود الناس بالتأديب بعد الوعظ والزجر كما سبق لأمير المؤمنين

ـ عليه السّلام ـ مع بعض أصحابه».

وقال: «بل كانـوا غرضاً لفراعنة أيـامهم، وهدفاً لنبالهم ولم يكونـوا بذلك المظهر عنـدهم، فلو تظـاهروا بتلـك الخلة، كيـف ترى يحمل الحسـد أُولئك الطـواغيت، على الفتك بهم وهم المحسودون على ما آتاهم الله من فضله وأي حـائل يحجز عمّـا يريدونه بهم وبأوليائهم، وأنّهم لم يطلعوا أعدائهم ولا سـواد أوليائهم على جميع ما رزقوا من ذلك الفضل، وقد لاقوا من المصائب والنوائب والحوادث والكـوارث والوقائع والفجائع، ما تشيخ منه شم الجبال وتشيـب من هوله الرضّع، ولو لم يكونـوا رزقوا ذلك الجلد والصبر على قدر ما رزقـوا من الفضل، لما استطاع أن يحمل ــ ما تحمّلوه ـ بشر وهل مـات أحد منهم حتـف أنفه، دون أن يتجـرع غصـص السم النقيع، أو يصـافح حـدود الصـوارم ويعتنق قدود الـرماح، هذا فوق ما يـرونه من الهتك للحرمـات وتسيير العقائل والسب والسلب والغصب للحقوق والتلاعب بالدين، وتضييع أحكام الشريعة.

نعم لا يظهر بتلك المنح الالهية جميعها إلاّ الإمـام المنتظر عجل الله فرجه، لأنّه لا يخشى ذلك التسرّب إلى ضعـاف البصائر، لو صـارح بما وهب من الفضل لقـدرته على الـردع والتأديـب، ولا يخاف حسـد حـاسـد أو سطـوة ظـالم، وهـو صـاحـب السلطـة والسيف»(١).

٤ـ ما رواه الكشي عن عنبسة بن مصعب قال: قال لي أبو عبد الله ـ عليه السّلام ـ: أي شيء سمعت مـن أبي خطاب؟ قـال: سمعته يقـول: إنّك وضعـت يدك على صـدرك وقلت له عِهِ ولا تنـس، وأنّك تعلم الغيب و ...، قال ـ عليه السّلام ـ: والله ما مس شيء من جسدي إلاّ يـده، وأمّا قـوله: إنّي قلت أعلم الغيـب فوالله الـذي لا إله إلاّ هو مـا أعلم الغيب فلا آجرني الله في أمواتي ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له (٢).

٥ـ ما أخبره صاحب البصائر عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله: جعلت فداك أي شيء هو العلم عندكم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار، الأمر بعد الأمر، والشيء بعد

(١) علم الإمام ص ٤٨ ـ ٤٩. (٢) رجال الكشي ص ١٨٨.

الشيء إلى يوم القيامة [١] والحديث بصدد نفي العلم القديم عنهم -عليهم السلام-.

٦ـ ما نقلـه صاحب البصائر باسناده عن ضريس قـال: كنت مع أبي بصير عند أبي جعفر -عليه السلام- فقال لـه أبو بصير: بما يعلم عـالمكم، جعلت فـداك؟ قال: يـا أبا محمد إنّ عالمنا لا يعلم الغيب ولو وكّـل الله عالمنا إلى نفسه كان كبعضكم ولكن يحدث إليه ساعة بعد ساعة [٢] وظهور الحديث فيما نرتئيه أغنانا عن البحث حوله.

٧ـ مـا خرج عن صاحب الـزمان -عليه السلام- ردّاً على الغـلاة من التوقيـع جوابـاً لكتاب إليه على يـدي محمد بن علي بن هلال الكـرخي: يا محمد بن علي، تعـالى الله عزّ وجلّ عمّـا يصفـونه سبحانـه وبحمده لسنا نحـن شركاءه في علمه ولا في قـدرته بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في محكم كتـابه تبارك وتعالى: **﴿قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلاّ الله﴾** إلى أن قال: ... أشهـدك وأشهد كلّ من سمع كتـابي هذا أنّي بريء إلى الله وإلى رسوله ممّن يقول: إنّـا نعلم أو نشارك الله في ملكه أو علينا محلاً سوى المحل الذي نصّبه الله وخلقنا له [٣].

وفي التـوقيع قـرائن كثيرة تدل على أنّ المقصـود من نفي علـم الغيب هـو العلم الاصـالي الموجب لكونهم شركـاء لله في علمـه وملكه وقـد أكد في التـوقيع بـأنّهم وجميع الأنبياء والمرسلين كلّهم عبيـد لله عزّ وجلّ فراجع إلى غير ذلك ممّـا يمكن أن يقف عليه المتتبع الخبير.

خاتمة المطاف:

قد سبق منّا في أوليـات الفصل السابق [٤] أنّ كلّ مـا غاب عن الحس والشهـود فهو غيب لا يقـف عليه أحد إلاّ بإذن خـاص من الله عزّ وجلّ وهو لا يظهـره على أحد

(١) بصائر الدرجات ص ٩٤ ونقله المجلسي في بحاره ج٢٦ ص ٦٠.

(٢) بصائر الدرجات ص ٩٤، راجع البحار ج٢٦ ص ٦١.

(٣) الاحتجاج ج٢ ص ٢٨٨ ط النجف.

(٤) راجع ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠ من هذا الجزء.

إلاّ من إرتضاه قال سبحانه: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة - ٢٥٥).

غير أنّ الغيب الذي يتوقف على اذنه ومشيئته الخاصة، هو التعرّف عليه من دون أن يتوسل بعلل وأسباب عادية كما هو الحال في علم الرسول وخلفائه، وأمّا الاطلاع على الغيب بطرقه العادية وأسبابه الطبيعية، كاخبار المنجّم عن خسوف القمر في ليلة مقمرة، وكسوف الشمس في يوم معيّن، بالاعتماد على الجداول العلمية والمحاسبات الرياضية، فهو وإن كان علماً بالغيب وتعرّفاً على ما هو غائب عن حس العامة غير أنّه ليس علماً بالغيب في مصطلح القرآن والاخبار.

وإن أبيت إلاّ دخوله في علم الغيب في مصطلح الذكر الحكيم فنقول: إنّ الاطلاع على الغيب بأسبابه العادية من المغيبات التي أذن الله لكل أحد أن يطلع عليها إذا طرقها من أبوابها ونظر إليها في ضوء العلم والتجربة.

فقد أذن لكل من تداول علم النجوم ومارس الطب والطبابة أن يعرف وقت التربيع والخسوف والكسوف وأوضاع الكواكب وأحوالها بفضل الجداول والقوانين الرياضية ، وأن يقف على مستقبل المريض وحالاته بل واوان موته، كما أذن لكل من درس علم الفلاحة ومارسها، أن يعرف الشجرة ونتاجها، والوردة وآوان تفتحها والتربة ومدى صلاحها، وقابليتها للزراعة إلى غير ذلك ممّا يدور في حقله، فالتنبّؤ بهذه الأُمور الغائبة ونظائرها يتحقق في ظل دراسات ومسبقات علمية، ولا يعد ذلك آية ومعجزة ودليلاً على صلة المخبر بالله والعوالم الغيبية بل إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على نبوغه وتوغّله في فنّه الذي تخصص فيه.

ثمّ إنّ الرسول إذ كان ممّن ارتضاه الله سبحانه للتعرف على الغيب والاطلاع عليه، فللّه سبحانه أن يظهره على غيبه عن طريق كتابه وقرآنه، وقد وقفت على نماذج من ذلك، كما أنّ له أن يوقفه عليه بغير هذا الطريق بقذف في روعه وتحديث من ملائكته أو غير ذلك من الطرق الغيبية فلا نرى عند ذاك فرقاً بين أن يتنبّأ بفضل كتابه المنزّل عليه

أو بطريق آخر، فالتنبّؤ في كلا الموردين آيـة معجزة ودليل على صلته بالله سبحانه غير أنّ القرآن وحي بلفظه ومعناه، وغيره وحي بمعناه دون لفظه وكلاهما حق لا ينطق بهما النبي إلاّ عن وحي يوحى.

وقد شغلت بال المحدّثين تلك التنبّؤات التي صدرت عن النبي عن طريق غير الوحي القرآني فعقدوا لبيانها باباً أو أبواباً، بل ألّفوا حولها كتباً ورسالات [١].

ونحن نـذكر هنـا بالـرغم على ما تثيره العنـاصر المعانـدة لأهل البيت والعـادية عليهم من انكار تعـرّفهم على الغيب واطلاعهم عليه، معشار ما وقفنـا عليه في صحاح القوم ومسانيدهـم وكتب الحديث والتاريخ حتى يلمس القارئ خلالـه ما هو الحق في المقام.

تنبّؤات نبوية:

١ ـ تنبّأ الرسول بغلبة المسلمين على كسرى وفتـح كنوزه واستقرار السلام العام في مناطقهـم وبيئاتهم. قـال عدي بن حـاتم: بينا أنـا عند النبي إذ أتـاه رجل فشكـا إليه الفاقة، ثمّ أتاه آخر فشكا قطع السبيـل، فقال يا عدي: هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها، قال: فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبـة لا تخاف أحداً إلاّ الله ... ولئـن طالت بـك حياة لنفتحن كنـوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملئ كفّه من ذهب أو فضة فـلا يجد من يقبله ... قال عـدي: رأيت الظعينة ترتحل مـن الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاّ الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، رواه البخاري [٢].

---

(١) أجمع كتاب أُلـف في هذا الموضوع لـدى الشيعة مـا ألّفه المحـدث السيد هاشـم البحراني وأسماه مدينة المعـاجز، وهو مجلد كبير طبع بإيـران ويليه ما ألّفه المحدّث الحر العـاملي وأسماه بـ «اثبات الهداة بالبيّنات والمعجـزات» وقد طبع في مجلدات سبع وقـد مرّ الايعاز إلى ما ورد فيـه من الأخبار الغيبية.

(٢) راجع التاج ج٣ ص ٢٥٦.

٢ـ قد شكا خباب بن الارت إلى النبي وكان هو متوسّد بردة له في ظل الكعبة فقال له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ فقال النبي ـ مشيراً إلى ألوان التعذيب التي كانت تحل بالمؤمنين في الأُمم السالفة ـ: «والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير المراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري وأبو داود في الجهاد وبهذا المضمون أحاديث كثيرة [١].

٣ـ تنبّأ النبي بالمستقبل المظلم الذي يواجهه الخويصرة رئيس الخوارج والمارقين وهو الذي قال لرسول الله: «اعدل» فقال رسول الله: ويلك من يعدل إن لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتأذن لي فيه أضرب عنقه؟ قال: دعه فإنّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء [٢] وللحديث صور أُخرى نقلها في التاج [٣].

٤ـ وقد تنبأ ﷺ بكذّاب ثقيف وقتال الروم وفتح القسطنطينية وغيره من علامات خروج المهدي وقد جمعها صاحب التاج في كتاب الفتن، فراجع الجزء الخامس ص ٢٩٦ ـ ٣٢٦ تجد فيها من التنبّؤات ما لا يحصى.

٥ـ تنبّأ رسول الله بقتل علي بسيف أشقى الأوّلين والآخرين وهو يبكي، فقال علي: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: يا علي أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر كأنّي بك وأنت تصلّي لربّك وقد انبعث أشقى الأوّلين والآخرين شقيق عاقر ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك [٤] وهو أخبر في كلامه هذا عن عدة مغيبات من أنّ علياً لا يموت بحتف أنفه، بل يقتل في شهر رمضان، في حال الصلاة، بالسيف،

---

(١) راجع التاج الجزء الثالث ص ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه ج٥ ص ٢٨٦ كتاب الفتن.

(٣) المصدر نفسه ج٥ ص ٢٩٥.

(٤) عيون أخبار الرضا ج١ ص ٢٩٧، تاريخ بغداد ج١ ص ١٣٥ الكامل للمبرد ج٢ص ١٣٢، نهج البلاغة، عبده، الخطبة ١٥١.

ويصيب السيف بقرنه، وتخضب منها لحيته، وانّ قاتله شقيق عاقر ثمود في الشقاء.

٦ـ أخبر في غزوة تبوك عن موت أبي ذر وحده بفلات من الأرض وذلك عندما أبطأ على أبي بذر بعيره فتركه وأخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله في بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله أنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال: رسول الله ﷺ كن أبا ذر، فلمّا تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

ولما سير عثمان أبا ذر إلى الربذة مات هناك، ولم يكن معه إلاّ امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفّناني ثمّ ضعاني على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه، وقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق وقام إليهم الغلام فأخبرهم بما أمر، فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثمّ نزل هو وأصحابه فواروه، ثمّ حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال رسول الله في مسيره إلى تبوك [١].

٧ـ وقد خاطب ﷺ عائشة بقوله: يا حميراء كأنّي بك تنبحك كلاب الحوأب تقاتلين علياً وأنت ظالمة، يا حميراء إيّاك أن تكوني أنت [٢].

٨ـ كان رسول الله يحث أصحابه على نصرة أمير المؤمنين في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين وقال أمير المؤمنين: أمرني رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين [٣].

٩ـ تنبّأ النبي بما يجري على الأمّة من بني أُميّة وقال كما قال أبو ذر لعثمان: سمعت رسول الله يقول: إذا كملت بنو أُميّة ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٥٢٣.
(٢) العقد الفريد ج٢ ص ٢٨٣، مستدرك الحاكم ج٣ ص ١٩٤.
(٣) تاريخ الخطيب ج٨ ص ٣٤٠ وغيره.

خولاً، ودين الله دغلاً، فارتجّ الخليفة بسماعه فبعث إلى علي بن أبي طالب فأتاه فقال: يا أبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ما حكاه أبو ذر وقص عليه الخبر، فقال علي: نعم[١].

يحدثنا التاريخ عن سيرة الخليفة في الغنائم والأموال وعن اقتناء جماعة من أصحاب الفتن والثورات من آل العاص وبني أُميّة ضياعاً عامرة ودوراً فخمة وقصوراً شاهقة، وثروة طائلة وأسس الخليفة حكومة أُموية قاهرة في الحواضر الإسلامية وسلّطهم على رقاب الناس وأدلى الأمر، في المراكز الحساسةإلى أغلمة بني أُمية وشبابهم وأشياخهم وذلّل لهم السبل وكسح عن مسيرهم العراقيل إلى غير ذلك من أحداث موبقة جرت الويلات على الأُمّة الإسلامية في أمصارها إلى أن قتل من جرائها.

وإلى ذلك يشير النبي بقوله: سيكون أُمراء بعدي يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون [٢].

١٠ـ ما أخبر به عمار إذ دخل عليه وقد أثقلوه باللبن فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون بقوله: ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلوك إنّما تقتلك الفئة الباغية، وأنّ آخر رزقك من الدنيا صاع من لبن أو مذقة من لبن، وقد طلب عمار شربة فأُتي بشربة لبن، فقال: انّ رسول الله ﷺ قال: آخر شربة تشربها في الدنيا شربة لبن وشربها ثمّ قاتل حتى قتل [٣].

١١ـ تنبّأ النبي بقتال الزبير مع أمير المؤمنين وقد برز علي، قبل وقوع الحرب يوم الجمل وأراد أن يستفيئه إلى طاعته، وقال ليبرز إليّ الزبير فبرز إليه مدججاً، فقيل لعائشة: قد برز الزبير إلى علي ـ عليه السلام ـ فصاحت: وازبيراه، فقيل لها: لا بأس عليه منه، أنّه حاسر والزبير دارع، فقال له علي ـ بعد كلام دار بينه وبين الزبير ـ: ناشدتك الله أتذكر يوماً مررت بي ورسول الله ﷺ متكيء على يدك وهو جاء من بني عمرو بن

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٢ ط النجف وغيره من المصادر الوافرة.
(٢) مسند أحمد ج١ ص ٤٥٦.
(٣) سيرة ابن هشام ج١ ص ٤٩٧، أُسد الغابة ج٤ ص ٤٦.

عوف فسلّم علي وضحك في وجهي فضحكت إليه لم ازده على ذلك فقلت: لا يترك ابن أبي طالب يا رسول الله زهوه، فقال لك: مه أنّه ليس بذي زهو أما أنّك ستقاتله وأنت له ظالم. فاسترجع الزبير وقال: لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه ...[1].

١٢ـ تنبّأ النبي بقتال علي ـ عليه السّلام ـ على تأويل القرآن، روى أبو سعيد قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فانقطعت نعله فتخلّف علي يخصفها فمشى قليلاً ثمّ قال: «إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر وقال أبو بكر: يعني علياً، فأتيناه فبشرناه فلم يرجع به رأسه كأنّه قد سمعه من رسول الله ﷺ [2].

١٣ـ أخبر النبي بقتل كسرى وأنّ الله سلّط ابنه «شيرويه» عليه، فقتله في شهر كذا وليلة كذا، وذلك عندما كتب كسرى إلى «باذان» وهو باليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فبعث باذان «بابويه» وكان كاتباً حاسباً ورجلاً آخر من الفرس فأعلما النبي بما قدما له، فقال لهما رسول الله: أرجعا حتى تأتيان غداً، فلمّا أتيا تنبّأ بقتل كسرى وأمر بهما أن يقولا لباذان: «ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر» [3].

١٤ـ تنبّأ النبي بأنّه لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة وقد روى حصين عن أبيه جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي سمعته يقول: أنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة ، قال ثمّ تكلم بكلام خفي علي، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلّهم من قريش [4].

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير ممّا يقف عليه المتتبع في مسانيد الحديث

---

(١) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٣٦٦.

(٢) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٢٣.

(٣) الطبقات الكبرى ج١ ص ٢٦٠، تاريخ الكامل ج٢ ص ١٤٦، السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٧٨.

(٤) صحيح مسلم ج٢ ص ١٩١، ورواه غيره بصور متقاربة.

وصحاحه وجوامع التاريخ أتينا بها، ليكون القارئ على بصيرة من الأمر ولايصغي لدعوة العناصر المعاندة من رماة القول على عواهنه.

وأنت أيّها القارئ الكريم إذا درست حقيقة النبوّة وما أكرم الله سبحانه به أنبيائه من نفسيات وملكات كالعصمة والقداسة الروحية والنزاهة النفسية، والعلم الذي لا يضلّون معه في شيء، إلى كثير من كرائم وفضائل، حتى جعلهم أكمل البشر خلقاً وخُلقاً، وأصدقهم قولاً وأحاطهم بالرعاية، وشملهم بالعناية، كما قال سبحانه مخاطباً نبيّه الأكرم: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور ـ ٤٨)، لوقفت أنّ التنبّؤ بالغيب والاخبار عن غابر الحوادث وطارئها ليس أمراً عجيباً في جنب ما منح الله لهم من عظائم المواهب، وكرائم الفضائل.

فعند ذاك فلا غرو فيما اخبروا عن غابر الأُمور وطارئها مما نقلناه وما لم ننقله فإنّ النبوّة منصب إلهي خطير لا يستحقه إلاّ الأمثل فالأمثل من الناس وأفضلهم وأجمعهم للكمالات وأعلمهم بالحقائق والأمور، ممّن شملته العناية الالهية وتعلّم منه ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه كما قال: ﴿ وَ يُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَ الحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران ـ ٤٨).

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾(هود ـ ٤٩)، وقال سبحانه: ﴿وَ أَنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْنَاهُ﴾ (يوسف ـ ٦٨)، وقال: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ـ ٩٦)، فعند ذاك فلا عجب إذا أخبروا بغابر الأُمور وطارئها، أو بكل ما كان وما يكون من الحوادث باذن من الله سبحانه فـ ﴿أنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم و إنّ الله علاّم الغيوب﴾.

تنبّؤات علوية:

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صنو النبي، وباب علمه ووارثه، قد تنبّأ بملاحم أحداث وفتن في حياته وأيام امارته أخذها من منهلها العذب ونميرها الصافي،

فصدق الخبر الخبر، فتحقق بعضهـا بعد مئات السنين، ولم يكن تنبّؤ الـوصي عن تكهّن وتخرّص ولا عن فراسة ومحاسبات عادية، وشتّان بين تخرّص متخرّص، أو كهانة متكهّن، أو تفرّس متفرّس، وما تنبّأ به الوصي على صهوات المنابر في الحواضر الإسلامية وميادين الحروب الطاحنة وأندية الوعظ والتبليغ معلناً بأنّ ما ذكره وراثة عن رسول الله ﷺ وعلم وصل إليه منه، ودونك نماذج ممّا وقفنا عليه:

قام خطيباً في البصرة مخاطباً أهلها الناكثين عندما وضعت الحرب أوزارها وقال:

١ـ كأنيّ بمسجدكم كجـؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العـذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها [١].

وقد وقـع المخبر به، فإنّ البصرة غـرقت مرتين في أيام القـادر بالله، ومـرّة في أيام القائم بأمر الله، غـرقت بأجمعها ولم يبق منها إلاّ مسجدها الجامع، بـارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب مـا أخبر به أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ فقد جاءها الماء مـن بحر فارس من جهة الموضـع المعروف الآن بجـزيرة الفـرس، ومن جهة الجبـل المعروف بجبل السنـام، وخربت دورها، وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها [٢].

٢ـ قوله: وكأنيّ وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم، كأنّها أقدام النعام [٣].

٣ــ قولـه: وكـأنيّ أراهم قـوماً كأنّ وجـوههم المجـان المطـرقة، يلبسـون السرق والديباج، يعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استحرار قتل، حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت، أقل من المأسور [٤].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢.

(٢) الشرح الحديدي ج١ ص ٢٥٣.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٢٤، قال الشريف الرضي: يومي بـذلك إلى صاحب الزنج، وقد ذكر أخباره الطبري في تاريخه ج٣ ص ١٧٤٣ طبع أوربا، والمسعودي في مـروج الذهب ج٤ ص ١٩٤، ونقله الشارح المعتزلي في شرح النهج ج٨ ص ١٢٦ ـ ٢١٤.

(٤) نهج البلاغة الخطبة ١٢٤.

يومي به إلى فتنة التتار وجيشه العرمرم الذي أعدّه رئيسها لغزو المسلمين وهدم بلادهم ونهب أموالهم وقتل صغيرهم وكبيرهم، وقد ذكر ابن الاثير، هذه الحادثة المؤلمة في تاريخه (في حوادث سنة ٦١٧ وما بعدها ج ٩ ص ٣٢٩ ـ ٣٨٧).

وقال في أوّلها: ولقد بقيت عدّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأُخّر أُخرى، فمن الذي يسهل عليه، أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ من ذا الذي يهون عليه ذكره، فياليت أُمّي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً، إلاّ أنّه حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثمّ رأيت أنّ ترك ذلك لا يجدي نفعاً.

وقد نقل الشارح الحديدي ج ٨ ص ٢١٨ ـ ٢٤١ اجمال هذه الملحمة أيضاً، فراجع.

٤ـ ومثل إخباره عمّا يجري بعد وفاته على الأُمّة وتعرفهم على شخصيته البارزة بعد ما كانت مجهولة كقوله: «غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي» (١).

٥ـ ومثل إخباره عن ملك بني أُمية وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الأرض حيث قال: «أقسم ثمّ أقسم لتنخمنها (٢)أُمية من بعدي كما تلفظ النخامة ثمّ لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ماكر الجديدان» (٣).

٦ـ وقوله مخبراً عن تسلّط معاوية على العراق والزامه الناس بسب علي ـ عليه السلام ـ والبراءة منه كما يقول: «أمّا أنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه؛ ولن تقتلوه ألا وإنّه سيأمركم بسبّي

---

(١) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ١٤٥.

(٢) نخم ـ كفرح ـ أخرج النخامة من صدره فألقاها، والنخامة ـ بالضم ـ ما يلفظه الصدر أو الدماغ من المواد المخاطية.

(٣) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ١٥٣.

والبرائة منّي، أمّا السب فسبّوني فإنّه لي زكاة ولكم نجاة، وأمّا البراءة فلا تتبرّأوا منّي فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة» [١].

قال الشارح الحديدي: وكثيراً من الناس يذهب إلى أنّه ـ عليه السّلام ـ عنى زياداً وكثير منهم يقول: أنّه عنى الحجاج وقال قوم: أنّه عنى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي: معاوية لأنّه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل وكان بطيناً يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه ـ إلى أن قال ـ: وتضافرت الأخبار بأنّ رسول الله ﷺ دعى على معاوية لما بعث إليه يستدعيه فوجده يأكل ثم بعث فوجده يأكل فقال اللّهمّ لا تشبع بطنه وقال الشاعر:

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأن في أحشائه معاوية [٢]

٧ـ ما يومى إلى سلطة الحجاج: لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه، إذاً لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، وتندمون على أنفسكم ـ إلى أن قال: ـ أما والله ليسلّطنّ عليكم غلام ثقيف الذيال الميال، يأكل خضركم ويذيب شحمتكم إيهٍ أبا وذحة [٣].

٨ـ تنبّأ بما ستلقى الأُمّة من مروان وولده بقوله ـ لما أُخذ مروان أسيراً يوم الجمل ـ: «أما أنّ له امرة كلعقة الكلب أنفه [٤]، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقي الأُمّة منه ومن ولده يوماً أحمر» [٥] وفسّروا الأكبش الأربعة بولد عبد الملك بن مروان وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام الذين سوّدوا تاريخ الخلافة بل تاريخ الانسانية بجناياتهم الموبقة

---

(١) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ٥٦.

(٢) الشرح الحديدي ج٤ ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١١٢: الوذح ما يتعلق بذنب الشاة من البعار فيجف، والمراد هنا الخنفساء وقد لسعت يد الحجاج فورمت يده وأخذته حمى من اللسعة فأهلكته، ولا يخفى أنّ في هذا الكلام القصير تنبّؤات.

(٤) تصوير عن قصر مدتها، وكانت تسعة أشهر، وهذا تنبّؤ آخر.

(٥) نهج البلاغة ط عبده ص ٧٠.

وخزاياتهم المهلكة.

٩ـ هذا «عرفة» الأزدي وهو من أصحاب النبي و «الصفة» وقد دعا له النبي أن يبارك له في صفقته يقول: دخلني شك في شأن علي ـ عليه السّلام ـ فخرجت معه على شاطئ الفرات، فعدل عن الطريق ووقف ووقفنا حوله، فقال ـ مشيراً بيده ـ: «هذا موضع رواحلهم، ومناخ ركابهم، ومهراق دمائهم بأبي من لا ناصر له في الأرض ولا في السماء إلاّ الله» ، فلمّا قتل الحسين، خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوا فيه، فإذا هو الحال ما أخطأ شيئاً، قال: فاستغفرت الله مما كان من الشك وعلمت أنّ علياً ـ عليه السّلام ـ كان على حق لم يقدم إلاّ بما عهد إليه منه [1].

١٠ـ ما تنبأ به ـ عليه السّلام ـ عندما عزم على حرب الخوارج، قيل له: انّ القوم قد عبروا جسر النهروان، قال: مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة.

قال الرضي: يعني بالنطفة ماء النهر وهي أفصح كناية عن الماء وقال الشارح الحديدي: هذا الخبر من الأخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب.

والاخبار على قسمين:

أحدهما: الأخبار المجملة ولا اعجاز فيها: نحو أن يقول الرجل لأصحابه: انّكم ستنتصرون على هذه الفئة التي تلقونها غداً، فإن نصر، جعل ذلك حجة له عند أصحابه وسماها معجزة ، وإن لم ينصره قال: تغيّرت نيّاتكم وشككتم في قولي، فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول، ولأنّه قد جرت العادة على أنّ الملوك والرؤساء يعدّون أصحابهم بالظفر والنصر، ويمنّونهم الدول، فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على إخبار عن غيب يتضمّن اعجازاً.

والقسم الثاني: في الأخبار المفصلة عن الغيوب، مثل هذا الخبر فإنّه لا يحتمل

---

(٣) أُسد الغابة ج ٤ ص ١٦٩.

التلبيس، لتقييده بالعدد المعيّن في أصحابه وفي الخوارج ووقوع الأمر بعد الحرب بموجبه، من غير زيادة ولا نقصان وذلك أمر إلهي عرفه من جهة رسول الله ﷺ وعرفه رسول الله ﷺ من جهة الله سبحانه، والقوّة البشرية تقصر عن ادراك مثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره.

وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته، وأحواله المنافية لقوى البشر غلا فيه من غلا، حتى نسب إلى أنّ الجوهر الإلهي حلّ في بدنه كما قالت النصارى في عيسى ـ عليه السلام ـ وقد أخبره النبي ﷺ بذلك فقال: «يهلك فيك رجلان محبّ غال ومبغض قال».

وقال له تارة أُخرى: «والذي نفسي بيده لولا أنّي أشفق أن تقول طوائف من أُمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من الناس إلاّ اخذوا التراب من تحت قدميك للبركة» (١).

ثمّ قال: وإعلم انّا ننكر أن يكون في نوع البشر أشخاص يخبرون عن الغيوب ولكن كل ذلك مستند إلى البارئ سبحانه باقداره وتمكينه وتهيئة أسبابه، فإن كان المخبر عن الغيوب ممن يدّعي النبوّة، لم يجز أن يكون ذلك إلاّ بإذن الله سبحانه وتمكينه، وأن يريد به تعالى استدلال المكلّفين على صدق مدّعى النبوّة.

وأمّا إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدّعياً للنبوّة، نظر في حاله، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نسب ذلك إلى أنّه كرامة أظهرها الله تعالى على يده أبانة له وتمييزاً عن غيره، كما في حقّ علي ـ عليه السلام ـ وإن لم يكن كذلك أمكن أن يكون ساحراً أو كاهناً، أو نحو ذلك.

وبالجملة فصاحب هذه الخاصية أفضل وأشرف ممّن لا يكون فيه من حيث اختصاصه بها فإن كان للانسان العاري منها مزية أُخرى يختص بها توازيها أو تزيد عليها، فنرجع إلى التمثيل والترجيح بينهما، وإلاّ فالمختص بهذه الخاصية أرجح وأعظم

(١) الشرح الحديدي ج٥ ص ٤.

من الخالي منها على جميع الأحوال [١].

١١ـ لما قتل الخوارج وقيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم فأجابهم:

كلاّ والله ، إنّهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء [٢] كلّما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً [٣] سلاّبين.

قوله ـ عليه السّلام ـ: «كلّما نجم منهم قرن قطع» استعارة حسنة، يريد: كلّما ظهر منهم قوم استؤصلوا، فعبّر عن ذلك بلفظة «قرن» كما يقطع قرن الشاة إذا نجم، وقد صح إخباره ـ عليه السّلام ـ عنهم انّهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان وأنّها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد، وهكذا وقع وصحّ إخباره ـ عليه السّلام ـ أيضاً أنّه سيكون آخرهم لصوصاً سلاّبين، فإنّ دعوة الخوارج اضمحلّت ورجالها فنيت حتى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قطّاع طرق متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض.

وممّن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيباني في أيام الرشيد بن المهدي فأشخص إليه يزيد بن مزيد الشيباني فقتله وحمل رأسه إلى الرشيد.

ثم خرج في أيام المتوكل، ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق وأخاف السبيل، وتسمّى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي.

وقد خرجت بعد هذين جماعة من الخوارج، وكلّهم بمعزل عن طرائق سلفهم وإنّما وكدهم وقصدهم إخافة السبيل والفساد في الأرض واكتساب الأموال من غير حلّها [٤].

١٢ ـ وقد أماط الإمام الستر عن وجه الحقيقة وعن كمية علمه وكيفيته في بعض خطبه وأقسم فيه بالله الذي نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢ ـ ١٣.

(٢) قرارات النساء كناية عن الأرحام.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٥٩.

(٤) الشرح الحديدي ج٥ ص ٧٣ ـ ٧٧.

القيامة إلاّ أخبرهم به وأنّه ما صح من طـائفة من الناس، يهتدي بها مائة وتضل بها مائة إلاّ وهو مخبر لهم إن سألوه بـرعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نـزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت منها موتاً، حيث قال بعد أنّ فرغ من قتال الخوارج:

«أيّها الناس فـإنّي فقأت عين الفتنة ولم يكـن ليجترئ عليها أحـد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها.

فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده، لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين السـاعة ولا عـن فئة تهدي مـائة وتضـل مائة، إلاّ أنبـأتكم [1]بناعقها وقـائدها، وسائقها، ومناخ ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً.

ولو قـد فقدتموني ونزلت بكم كـرائه الأُمور، وحوازب الخطـوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشـل كثير من المسؤولين، وذلك إذا قلصت حـربكم، وشمرت عـن ساق، وكانت الـدنيا عليكم ضيقاً تستطيلـون أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقيـة الأبرار منكم.

انّ الفتـن إذا أقبلت شبهـت، وإذا أدبـرت نبهت، ينكـرن مقبـلات، ويعـرفـن مدبرات، يحمن حول الرياح، يصبن بلداً، ويخطئن بلداً.

ألا وأنّ أخـوف الفتن عندي عليكـم، فتنة بني أُميـة، فإنّها فتنـة عمياء مظلمـة! عمت خطتها ، وخصت بليتها، وأصاب البـلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها.

وأيم الله لتجدن بني أُمية لكم أرباب سوء بعدي، كالناب الضروس، تعذم بفيها، وتخبط بيدها، وتزبن برجلها، وتمنع درهـا، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم، إلاّ نافعاً لهم، أو غير ضائر بهم.

ولا يزال بلاؤهم عنكـم، حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ كـانتصار العبد

---

(١) مخطوطة النهج: «نبأتكم».

من ربّه، والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منها منار هدى ولا علم يرى.

نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلاّ السيف، ولا يحلسهم إلاّ الخوف، فعند ذاك تود قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه، فلا يعطوننيه» [1].

قال ابن أبي الحديد: ولقد امتحنّا اخباره فوجدناها موافقة، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كاخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، واخباره عن قتل الحسين ابنه -عليهما السّلام-، وما قاله في كربلاء حيث مرّ بها، واخباره بملك معاوية الأمر من بعده واخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبره به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لمّا شخص -عليه السّلام- إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير وقوله فيه: «خب ضب يروم أمراً ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لإصطياد الدنيا وهو بعد مصلوب قريش».

وكاخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة أُخرى بالزنج وهو الذي صحفه قوم فقالوا: بالريح، وكاخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق، (بتقديم المهملة) وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية،

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٩، قال الشارح الحديدي: وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير، وهي متداولة مستفيضة، خطب بها علي -عليه السّلام- بعد انقضاء أمر النهروان وفيها ألفاظ لم يوردها الرضي من ذلك قوله: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي ميّت عن قريب أو مقتول، بل قتلاً، ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم» وضرب بيده إلى لحيته. لاحظ نهج البلاغة ج ٧ ص ٥٧.

وكاخباره عن الأئمّة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله ـ عليه السّلام ـ: «و إنّ لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم باذن الله فيدعوا إلى دين الله».

وكاخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله: «إنّه يقتل عند احجار الزيت» وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة [1]: «يقتل بعد أن يظهر ويقهر بعد أن يقهر» وقوله أيضاً: يأتيه سهم غرب [2] يكون فيه منيته فيا بؤساً للرامي شلّت يده ووهن عضده» واخباره عن قتلى «وج» وقوله فيهم: «هم خير أهل الأرض».

وكاخباره عن المملكة العلوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعي المعلم، وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي: وهو أوّلهم ثمّ يظهر صاحب القيروان الغض البض، ذو النسب المحض، المنتجب من سلالة ذي البداء، المسجى بالرداء، وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفاً مشرباً بحمرة رخص البدن، تار [3] الأطراف، وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد ـ عليهما السّلام ـ وهو المسجّى بالرداء لأنّ أباه أبا عبد الله جعفر أسجاه بردائه لما مات، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدوه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبهة في أمره.

وكاخباره عن بني بويه وقوله فيهم: «ويخرج من ديلمان بنو الصياد» اشارة إليهم وكان أبوهم صياد السمك، يصيد منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فاخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم، وكقوله ـ عليه السّلام ـ فيهم: «ثمّ يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء» فقال له قائل: فكم مدته يا أمير المؤمنين؟ فقال: «مائة أو تزيد قليلاً» وكقوله فيهم: والمترف ابن

---

(١) كذا في النسخة وكتب الينا المحقق الشيخ محمد تقي التستري أن الصحيح: «باخمرى».

(٢) سهم غرب، أي لا يدرى راميه.

(٣) التار: الممتلئ جسمه وعظمه ريا.

الأجدم يقتلـه ابن عمه على دجلة وهـو إشارة إلى عز الدولـة بختيار بن معز الـدولة أبي الحسين، وكان معـز الدولة أقطـع اليد، قطعت يـده للنكوص في الحرب، وكان ابنـه عز الدولة بختيار، مترفاً صاحب لهو وشرب، وقتلـه عضد الدولة فنّاخسرو، ابن عمه، بقصر الجص على دجلة في الحرب، وسلبه ملكـه، فأمّا خلعهم للخلفاء فإنّ معز الـدولة خلع المستكفي ورتب عـوضه المطيع، وبهاء الـدولة أبا نصر بن عضـد الدولة، خلـع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به ـ عليه السّلام ـ.

وكاخباره ـ عليه السّلام ـ لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده فإنّ علي بن عبد الله لما ولد، أخرجه أبوه «عبد الله» إلى علي ـ عليه السّلام ـ فأخذه وتفل في فيه وحنكـه بتمرة، قـد لاكهـا، ودفعه إليـه وقـال: خذ إليـك أبا الأمـلاك، هكـذا الروايـة الصحيحة وهي التي ذكرها أبو العباس المبرد في كتاب «الكامل» [١] وليست الرواية التي يذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه.

وكم لـه من الاخبار عـن الغيوب الجارية هـذا المجرى، ممّا لو أردنـا استقصاءه لكرّسنا له كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة [٢].

١٣ ـ قوله ـ عليه السّلام ـ في خطبة تسمّى القاصعة ... ولم يجمـع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثـالثهما، أرى نور الوحي والرسـالة وأشم ريح النبوّة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟! فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنّك لست بنبي ولكنّك وزير [٣].

قال الشـارح الحديدي: روي عن جعفر بن محمـد الصادق ـ عليه السّلام ـ قال كان

---

(١) الكامل ٢: ٢١٧.

(٢) شرح النهج ج ٧ ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٣) نهج البلاغة طبعة عبده ج٢ ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

علي ـ عليه السلام ـ يرى مع رسول الله ﷺ قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت وقال له ﷺ : «لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصي نبي ووارثه بل أنت سيد الأوصياء و إمام الاتقياء» (١).

ولا دليل على حمل قوله: «انّك تسمع ما أسمع» على سماع خصوص رنّة الشيطان بل هو ظاهر في العموم حسب ما يظهر من الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ.

١٤ـ مثل اخباره عن فتنة صاحب الزنج وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس حيث جمع الزنوج الذين كانوا يسكنون السباخ في نواحي البصرة وخرج بهم على المهتدي العباسي في سنة خمسة وخمسين ومائتين واستفحل أمره وانتشر أصحابه في أطراف البلاد للسلب والنهب إلى أن قتله الموفق أخو الخليفة المعتمد سنة سبعين ومائتين.

«فتن كقطع الليل المظلم، ولا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها ويجدها راكبها أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم يجاهدهم في سبيل الله قوم أذلّة عند المتكبرين، في الأرض مجهولين وفي السماء معروفون، فويل لك يا بصرة، عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس وسيبتلى أهلك با لموت الأحمر والجوع الأغبر» (٢).

قال الشارح الحديدي فسّر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج، وهو بعيد لأنّ جيشه كان ذا حس ورهج ولأنّه أنذر البصرة بهذا الجيش ألا تراه قال: «فويل لك يا بصرة» ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ (٣).

---

(١) الشرح الحديدي ج١٣ ص ٢١٠.
(٢) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ٩٨.
(٣) شرح النهج ج٧ ص ١٠٤.

هذه أربعة عشر خبراً غيبياً من روائع نصوص الإمام تدل على وقوفه على ما غاب عن الحس بإذن من الله سبحانه. وقد نقل الشارح الحديدي كثيراً من أخباره الغيبية في أجزاء كتابه، وقد نقلنا بعضها في ما تقدم فلاحظ بعضها في الجزء الثاني من شرحه ص ٢٨٦ ـ ٢٩٥ ترى فيه أخباراً غيبية كثيرة كيف وقد روي عنه ـ عليه السّلام ـ إخبارات غيبية مبثوثة في كتب الحديث والتاريخ بحيث لو جمعها جامع لخرج بسفر جليل وضخم وفيما نقلناه كفاية للقارئ الكريم.

عثرة لا تقال:

هذا هو الحق الذي أحق أن يتبع، وقد صدقه كتاب الله العزيز وأيّدته النصوص المستفيضة وأطبقت عليه الأعلام في العصور المختلفة.

غير أنّ هذه المسألة قد أثارت في عصرنا قلقاً واضطراباً في الأوساط الدينية فحامت حولها الشبهات، واكتنفتها أجواء تثير السخط والاستياء، من أُناس ابتلوا بعقدة النقص أو جنون العظمة، مع أنّ كتاب الله بين ظهرانيهم والنصوص المتضافرة بين أيديهم، فلو رجعوا إلى ذينك المصدرين، بقلب سليم وفكر مستقيم لعرفوا الحق واتبعوه، والحق أحق أن يتبع.

وقد وقفت بعدما كتبت هذا الفصل على «كتيب» لبعض من يضمر لأئمّة أهل البيت حقداً وعداءاً، ويحارب كل فضيلة تثبتها النصوص لهم، ويمتلئ صدره بالتعصب المقيت وقد أعاد فيه ما ذكره ابن تيمية ونظراؤه من الذين أكل عليهم الدهر وشرب حيث أنكر علم النبي وأوصياؤه بالغيب على وجه الاطلاق وعزاه إلى جمهور الإمامية وفطاحلهم، قائلاً بأنّ فكرة علمهم بالغيب، اسطورة حدثة في الآونة الأخيرة بيد الغلاة. واستشهد على ذلك بما ذكره أمين الإسلام في كتابه، حيث قال في تفسير قوله سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾

(المائدة ـ ١٠٩) ما هذا لفظه:

وذكر الحاكم أبـو سعيد في تفسيره: انها تدل على بطلان قول الإمـامية: إنّ الأئمّة يعلمون الغيب وأقول: إنّ هذا القول ظلم منـه لهؤلاء القوم، فإنّا لا نعلم أحداً منهم بل أحداً من أهـل الإسلام يصف أحداً من النـاس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقـاً بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الإمامية بـراء من هذا القول ومن نسبهم إلى ذلك فالله ما بينه وبينهم [1].

غير أنّه عزب عـن هذا المسكين أنّ ما ذكره «أمين الإسـلام» لا يمثّل رأي الشيعة الإمامية في الموضـوع، وإنّما هو رأي واحد منهم ولا يمثّل رأي الجميع ولا يـؤخذ الجمع بفعل الواحد ورأيه.

أضف إلى ذلك: أنّ ما ذكره أمين الإسلام لا يهدف إلاّ إلى مـا ذكرناه، وانّ الممنوع توصيفهم باطـلاعهم على الغيب على غرار علمه سبحانه، بشهـادة قوله: «ومن وصف مخلوقـاً بذلك فقد فارق الـدين» إذ أي صلة بين مفارقـة الدين والقول بأنّ الله سبحـانه أظهر غيبـه لأحد أوليـائه، واطلع هو على الغيـب من تلك الناحيـة وتعرف بتعليـم منه سبحانه.

ولو رجع الكاتب إلى موضع آخر من كتابه ولم يقصر نظره على موضع واحد منه، لوقف على مغزى ما رامه فإنّه قدّس الله سرّه قد حقّق المسألة في موضع آخر من كتابه.

قال في تفسير قولـه سبحانه: ﴿ **وَللهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْـهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (هود ـ ١٢٣) ما هذا لفظه: وجدت بعض المشـايخ ممّن يتّسم بالعدوان والتشنيـع قد ظلم الشيعة الإماميـة في هذا الموضع من تفسيره فقـال: «هذا يدلّ على أنّ الله سبحـانه يختص بعلم الغيب خـلافاً لما تقول الـرافضة: إنّ الأئمّـة يعلمون الغيب» ولا شك أنّـه عنى بذلك مـن يقول بإمـامة

---

(١) مجمع البيان ج٢ ص ٢٦١ ط صيدا.

الاثنى عشر ويدين بأنّهم أفضل الانام بعد النبي ﷺ فإنّ هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم، وينسب الفضائح والقبائح إليهم، ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، فإنّما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين ومن اعتقد أنّ غير الله سبحانه يشاركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملّة الإسلام.

فأمّا ما نقل عن أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ ورواه عنه الخاص والعام من الأخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله وهو يومي به إلى صاحب الزنج، كأنّي يا أحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم ، ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدام النعام.

وقوله يشير إلى مروان أمّا أنّ له امرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقي الأُمّة منه ومن ولده موتاً أحمر، وما نقل من هذا الفن عن أئمّة الهدى ـ عليهم السّلام ـ من أولاده مثل ما قاله أبو عبد الله ـ عليه السّلام ـ لعبد الله بن الحسن وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمداً، والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ولكنّها لهم وأشار إلى العباسيين وأنّ ابنيك لمقتولان، ثمّ نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له: أرأيت صاحب الرداء الأصفر؟ ـ يعني أبا جعفر المنصور ـ قال: نعم، فقال: إنّا والله نجده يقتله. فكان كما قال.

ومثل قول الرضا ـ عليه السّلام ـ: بورك قبر طوس وقبران ببغداد، فقيل له: قد عرفنا واحداً فما الآخر؟ قال: ستعرفونه، ثمّ قال: قبري وقبر هارون هكذا ـ وضم أصبعيه ـ [١] وقوله في القصة المشهورة لأبي حبيب النباحي وقد ناوله قبضة من التمر لو زادك رسول

---

(١) نظير قوله لموسى بن مهران في مسجد المدينة عندما كان هارون يخطب: أترونني وإياه ندفن في بيت واحد، عيون أخبار الرضا ج٢ ص ٢٢٦.

الله ﷺ لزدناك، وقوله من حديث علي بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة: «معك حلّة في السفط الفلاني دفعتها إليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً» والحديث مشهور إلى غير ذلك ممّا روي عنهم ـ عليهم السلام ـ . فإنّ ذلك متلقّى عن النبي ﷺ ممّا أطلعه الله عليه، فلا معنى لنسبة من روي عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنّه يعتقد كونهم عالمين بالغيب، وهل هذا إلاّ سب قبيح وتضليل لهم بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير (١).

هل استأثر الله بعلم هذه الأُمور؟

قد اشتهر بين المفسّرين أنّ هناك أُمور خمسة استأثر الله بعلمها وحده، لا يجليها لغيره واستندوا في ذلك إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان ـ ٣٤)

ويؤيده ما روي من اختصاص العلم بهذه الأُمور الخمسة بالله تعالى وأنّ غيره لا يطلع عليها أبداً وقد جرت مشيئة الله على كتمان العلم بهذه الأُمور عن خلقه.

ولقائل أن يقول: لا محيص عن صحة ما ذكروه في الأربعة التالية: علم الساعة، العلم بما في الأرحام، العلم بما يكسبه الانسان في مستقبل أيامه، وعلمه بالأرض التي يموت فيها الانسان، وأمّا اختصاص العلم بوقت نزول الغيث به سبحانه فلا تفيده الآية إذ أنّه تعالى يقول: ﴿وينزّل الغيث﴾، ولم يقل: وعنده علم نزول الغيث.

ويدفع بأنّ العلم بوقت نزول الغيث لو لم يكن مثل الأربعة الباقية لكان الاتيان

---

(١) مجمع البيان ج٣ ص ٢٠٥ وقوله للمأمون عندما ذاكره بقوله: ندخل بغداد إن شاء الله فنعمل كذا وكذا، فقال له الرضا: تدخل أنت بغداد يا أمير المؤمنين، ثم سأله أحد أصحابه عن ذلك، فقال: (وما أنا وبغداد؟! لا أرى بغداد ولا تراني) عيون أخبار الرضا ج٢ ص ٢٢٥.

به عنـدئذ اقتضاباً بلا جهـة وعطفاً بلا مناسبـة فلأي وجه أورده في هذه الآيـة في عداد الأُمور التي سلّمنا اختصاص علمها به سبحانـه وليس هو منها، فلأجل الالتزام بوجود المناسبة بين المتعاطفات لا مفر من القول باختصاص علمه به سبحانه أيضاً.

دفع شبهة:

ربّما يتخيل بل يقال: كيف استأثر الله بعلم هذه الأُمور، والنشرات الجوية لدائرة الأنواء الجوية تعيّن أوقات نزول الغيث والثلج والاختبارات الطبية تبين وضع الجنين وأنّه ذكر أو أُنثى، ولكنّها مدفوعة بما يلي:

١ـ إنّ الله سبحانـه واقف على وضع الجنين من بـدء تكـونه في رحم أُمّـه، حينما يكون خليّة فيها، ليس لها من الصور المعتورة عليه شيء، إلى أن تضعه أُمّه، فهو سبحانه يعلم حين ما هـو خليّة في رحمها، أنّه ذكر أو أُنثى، وليـس ذلك مقدوراً للبشر وإن أطل بنظـره عليها بأشعة قوية كهربائية أو باختبارات طبية، فالعلم بذكورة الجنين أو أُنوثته، من بدء وجوده إلى ختامـه، مخصوص به سبحانه، ولا يشاركه في هـذا الحد الوسيع أحد من البشر.

٢ـ إنّ تخصيص قـولـه سبحانـه: ﴿**ويعلم مـا في الأرحـام**﴾ بأحـد الوصفين المذكورين (الذكورة والانوثة) مخالف لاطلاق كلامه، فإنّ الظاهر منه أنّه سبحانه يعلم جميع حالات ما في الأرحام، وأنّه ذكر أو أُنثى، قبيح أو جميل، سخي أو بخيل، شجاع أو جبان، سعيد أو شقـي، مرافق النبيين في الجنان أو حطب لنـار جهنّم إلى غير ذلك من الصفات والـروحيات التـي لا يتمكّن البشر من الـوقوف عليهـا عندمـا كان صـاحب الصفات جنيناً في رحم أُمّـه، وهذا التعميم وشمول الآية للصفات الظاهـرية والباطنية صريح كلام الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في نهج البلاغة [١].

---

(١) راجع نهج البلاغة الخطبة ١٢٦.

وأمّا النشرات الجوية التي تصدرها دائرة الأنواء الجوية الدارجة في الحضارة الفعلية، فهي أنباء ظنية على أُصول وتجارب واستطلاع على أوضاع تكتسبها دائرة الأنواء الجوية من مختلف البلدان قريبها وبعيدها ــ ومع ذلك ـ فلا تخرج عن دائرة الحدس والظن، وليست مصونة عن الخطأ كما هو الشاهد لكل من يصغي إليها ثمّ يرجع إلى فسيح الكون ويطبّقها عليه.

توضيحه: أنّ لكل من الأُمم عبر الأجيال والقرون، تجارب في هذا الباب كانوا يستكشفون بها على سبيل الظن والتخرّص، مواقع نزول المطر والثلج، حتى أنّ القرويين والبدو، كانوا يستطيعون التنبّؤ بحالة الطقس المقبلة من صحو أو مطر، وما أشبه ذلك من بعض الظواهر الجوية كإتجاه الريح مثلاً. بل كانوا يستكشفون بغير ذلك من نزول الكلب من سطح البيت إلى داخله وقد حكي أنّ نصير الدين الطوسي (ذلك الفلكي العظيم) نزل في بعض أسفاره على طحان له طاحونة خارج بعض البلاد فلمّا دخل المنزل صعد السطح لحرارة الهواء، فقال له صاحب البيت: أنزل ونم في داخل البيت لأجل نزول المطر فنظر «نصير الدين» إلى الأوضاع الفلكية، فلم ير شيئاً يورث الظن بنزول المطر، فقال له الطحّان: أنّ لي كلباً ينزل في كل ليلة يحس بأنّ المطر سينزل فيها إلى البيت، فلم يقبل ذلك منه المحقّق، وبات فوق السطح فأدركه المطر أثناء الليل وتعجّب المحقق الطوسي [1].

نعم الأدوات الحديثة لتعيين درجة الحرارة في الجو وارتباط مختلف البلدان بعضها ببعض، بواسطة أجهزة البرق السلكية واللاسلكية، وتبادل المعلومات فيما بينها عن الحالة الجوية ساعة فساعة، هذه الأدوات احتلّت مكان التجارب السالفة وساعد على امكان التنبّؤ بتقلّبات الطقس بالاستنتاج والتخمين.

ومع ذلك فإنّ استنتاجات دائرة الأنواء الجوية لا تكون صائبة دائماً فكثيراً ما

---

(١) مكاسب الشيخ الأنصاري ص ٢٥.

تخطئ في تخمينها، ولا تخبر عما تخبر إلاّ بالظن والترديد، بل على نحو الاجمال في جانب والاهمال في جانب آخر، ولاتستطيع أن تحدد وقت نزول المطر ومحال نزوله دقيقاً، وأنّه في أي ساعة أو على أي مكان من الأرض العظيمة ينزل.

وأعجب منه أنّه إذا شوهد منها التخلف حتى في مجمل ما أخبرته تراها تتمسّك باعذار كاشفة عن قصور باعها وعدم احاطتها بها في الجو الفسيح، من الأحوال والأوضاع.

وأمّا الاختبارات الطبّية، فاعطف نظرك إلى بعض ما ذكره بعض الاخصائيين في المقام لتقف على أنّ تحديد نوع المولود يرجع في جوهره إلى الصدفة، أو إلى الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبّؤ بها قال [1]:

توجد في كل فرد غدتان تناسليتان وتختلف الغدد الذكرية عن الغدد الأُنثوية في مكانها التشريحي بالجسم، وفي وظائفها الأوّلية والثانوية وفي تأثيرها على شخصية الفرد.وتؤثر هذه الغدد، بهرموناتها المختلفة في التفرقة بين الذكر والأُنثى، ولهذه الفروق الجنسية أثر قوي في سرعة النمو، وفي تباين اختلاف مظاهره.

هذا وتنشأ الاختلافات الجنسية منذ اللحظة الأُولى التي تتكوّن فيها البويضة المخصبة أي عندما تلتقي الصبغيات الذكرية بالصبغيات الأُنثوية في نواة البويضة وتتميز البويضة بأنّها تحتوي على صبغة خاصة بالجنس، توجد دائماً بصورة واحدة نرمز لها بالرمز (س) ويتميّز الحي المنوي بوجود صبغي خاص بالجنس يوجد أحياناً، بصورة تماثل صورة الصبغة الأُنثوية ولذلك يرمز لها بالرمز (س) أيضاً ويوجد أحياناً بصورة أُخرى يرمز لها بالرمز (ص) فإذا احتوت البويضة المخصبة على الصبغيين (س س) كان الجنين أُنثى. وإذا احتوت على الصبغيين (س ص) كان الجنين ذكراً، وهكذا يتحدد الجنس منذ اللحظة الأُولى في تكوين البويضة المخصبة وبذلك يسيطر الحي المنوي على

---

(١) الأُسس النفسية للنمو تأليف الدكتور فؤاد البهي مدرّس علم النفس بجامعة عين الشمس.

نوع الجنس، أي أنّ الجنس ذكراً كان أم أُنثى يـرجع في جوهره إلى الرجل لا إلى المرأة و إذا عرفنا أنّ عدد الحيوانات المنوية الذكرية في كل نطفة يربو على ٢٠٠/ ٠٠٠/ ٠٠٠ حي ذكري عرفنا بعـد ذلك أنّ تحديد نوع المولود يرجع في جـوهره إلى الصدفة أو الاحتمالات التي يعجز العلم عن التنبّؤ بها.

نظرنا في الموضوع:

إلى هنا جرينا على مسلك المفسّرين في تفسير الآية ودفعنا عنهم ما أُشكل عليهم وقد أرسلوه إرسال المسلّمات وأيّدوها بروايات سوف نوضّح حالها، ومدى صحتها، غير أنّ هنا احتمالاً آخر، ربّما يكون أقرب إلى ظاهر الآية ممّا ذكروه ودونك بيانه:

انّ لسان الآية في بيان علمه سبحانه بهذه الأشياء الخمسة، ليس على نسق واحد بل على وجوه ثلاثة:

١ ـ لسـان الحصر: وهذا يختص بـالعلم بوقت السـاعة من الأُمـور الخمسة، فتراه يقول: ﴿**وعنده علم الساعة**﴾ بتقديم الظرف على المبتـدأ وهو يفيد الحصر ولا تجد هذا السياق من الكلام في الأربعـة الباقية، ولأجل ذلك تراه غير أسلوب الكـلام عندما أراد أن يبيّن تعلّق علمه بغير الساعة وقال: ﴿**وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام و...**﴾

وعلى هذا لا بـأس بما ذكروه في هـذا القسم، فإنّ ظـاهر الآيـة يشير إلى أنّ العلم بوقت الساعة مختص به سبحانه لا يعدو غيره.

وتؤيّده آيات أُخر، وردت في هـذا المضمار قال سبحانه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـاهَا قُلْ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِـوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ**﴾ (الأعراف ـ ١٨٧) وقال: ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَـنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُهَـا عِنْدَ اللهِ**﴾ (الأحزاب ـ ٦٣) وقـال تعالى: ﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ**﴾ (فصلت: ٤٧) ترى أنّه سبحانه في هذه الآية الأخيرة عندما أنهى غرضه عن

رد علم الساعة إليه، غيّر أُسلوب كلامه من الحصر، إلى أُسلوب لا يفيد سوى علمه بهذه الأُمور، وأنّه لا تخرج ثمرة من أوعيتها وغلفها، ولا تحمل أُنثى، ولا تضع أُنثى، إلاّ في الوقت الذي يعلم سبحانه أنّه تخرج منها أو تحمل وتضع فيه.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزخرف ـ ٨٥) وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ (النازعات ـ ٤٤) وقد فسّر الطبرسي قوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ بقوله: أي لست في شيء من علمها وذكراها.

ولأجل اختصاص علمه بالله سبحانه، لما سئل عن وقت الساعة وتعيين تاريخها أعرض سبحانه عنه، وأخذ ببيان علائمها وأشراطها كما في قوله سبحانه: ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَ خَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (القيامة: ٦ـ١٠).

فإذا أمعنا النظر في هذه الآيات وما فيها من السياق الواحد المفيد للحصر والقصر، لا نشك في صحة ما ذكره المفسّرون في جريان مشيئته سبحانه على كتمان العلم بوقتها عن غيره ولعلّ هنا من يفرّق بين قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ وقوله: ﴿قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلاّ الله﴾ حيث حملنا الثاني على العلم الأزلي الذاتي، وقلنا إنّ المختص بالله سبحانه، هو هذا القسم دون العلم المستفاد المفاض منه، سبحانه إلى عباده، وأنّ الآية لا تشمل ما كان من العلم اكتسابياً، وعلى فرض عمومه لكلا القسمين، يمكن تخصيصها بما دلّ على اطلاع الرسول على الغيب نظير قوله سبحانه: ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦ ـ ٢٧).

وأمّا قوله سبحانه: ﴿وعنده علم الساعة﴾ فلأنّ تضافر الآيات على حصر خصوص العلم بالساعة به سبحانه والتصريح به في كل مورد تحدث عنه، باسلوب يغاير اسلوب ما عداه كما عرفت فيما تقدم من الآيات، ربّما يؤكد نظر المفسرين من أنّه

ممّا استأثر بعلمه لنفسه، نعم امكان اطلاع النبي على وقتها بمكان من الامكان إلاّ أنّ البحث في وقوعه لا في امكانه [١].

هذا كله راجع إلى صدر الآية وهو القسم الأوّل من سياقها و إليك بيان الثاني والثالث منه.

الثاني: اثبات علمه بوقت نزول الغيث وما في الأرحام من دون قصر العلم بهما عليه سبحانه.

الثالث: التصريح بجهل البشر بما يكسب غداً وبالأرض التي فيها تموت ولكن استفادة الاستئثار من هذين القسمين، لا يخلو من غموض وخفاء بل لا يدل عليه فإنّ أقصى ما يستفاد منها عدم اطلاع البشر عليها من عند نفسه، وهذا لا ينافي اطلاعه عليها بتعليم من الله سبحانه كسائر الأُمور الغيبية، وتخصيص هذه الموارد بالذكر مع كون الجميع كذلك، للحث على علم الواجب سبحانه بجلائل الأُمور ودقائقها وجهل البشر بما يهمّه ولا يدل على جريان مشيئة الله على كتمانها عن كل بشر وعدم اعلامها لأحد.

بل يمكن أن يقال: إنّ نفي العلم عن الانسان بهذه الأُمور الأربعة كما لا ينافي امكان اطلاعه عليها بإذن الله واعلامه، فهكذا لا ينافي امكان وقوف البشر عليها في ظل النواميس الكونية التي تم اكتشافها، والأدوات العلمية التي تم اختراعها، فإنّ مثل هذا العلم خارج عن مرمى الآية على احتمال قوي، بل هي ناظرة إلى أنّ البشر، بما هو هو من غير أن يستعين بشيء لا يتمكن من الوقوف على هذه الأُمور. وهذا لا ينافي امكان اطلاعه عليها بتعليمه سبحانه أو باتصاله بعوالم روحية أو باستخدام وسائل وأدوات

---

(١) ومع ذلك كلّه فيمكن أن يقال: إنّه لو لم يكن هنا سوى قوله سبحانه: ﴿**وعنده علم الساعة**﴾ لم يصح لنا الحكم البات بأنّه ممّا استأثر بعلمه لنفسه ،وإنّما يصح الحكم بعد ملاحظة ما ورد في المقام من الآيات التي عرفتها فلاحظ.

تورث الظن أو العلم بأوضاعها.

انّ الطبيب ربّما يحدس أو يخبر على سبيـل القطع عن حـال مريضـه، وأنّ الموت سوف ينشب أظفاره في وقت كذا، ويصيب في اخباره هذا، فكما أنّ هذا النحو من العلم لاستنـاده إلى الامارات والعـلائم والأدوات الطبية، المورثـة للظن أو العلم، خـارج عن مفاد الآية، فهكذا ما يستند إليه الانسان في كشف المغيبات من الوسائل والاختبارات.

ولأجل ذلك نرى النبي والخلفاء من بعده، تنبّأوا بمستقبل أحوالهم، وما يحل بهم من نعمة ونقمة وعن زمان موتهم ومكانه.

وقد رأينـا بعض المخلصين من عباده، تنبّأوا بـزمان موتهم ومكانـه، وما يحل بهم من أزمـة وأزمات ونقل ذلـك أيضاً عن كثير مـن الصلحاء، فكيف يمكـن القول بأنّـه سبحانـه استأثر بهذه الأُمور، أو مـا أخبر يوسف عما يكسبـه صاحباه غـداً فقال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ (يوسف ـ ٤١) وأي فرق بين العلم بما يكسبه الانسان نفسه وما يكسبه الغير.

وما ربّما يقـال: من تخصيص ظاهـر الآية بما ثبت من تنبـؤ بعض المعصومين بما يحل بهم ومكان موتهم وزمـانه لا طائل تحته، فإنّ لازم هذا التخصيـص هو طرح تلكم الروايات لا تخصيصهـا لأنّه عندئذ ينتقض الاختصاص ولا يصدق الاستئثـار أبداً فإنّ الاستئثار يتوقف على كتمان العلم بها عن كل أحد إلى يوم القيامة.

أضف إلى ذلك: أنّ من الممكن القريب أن تصبح الوسائل العلمية دقيقة فنطلع على مواقع نزول المطر ونعرف الجنين أهو ذكر أو أُنثى.

عرض وتحليل:

اعتمـد المشهـور في تفسير الآيـة على روايات لم يصـح أكثـرهـا ولم تثبت صحـة اسنادها ودونك بيان ما وقفنا عليه:

١ـ روى الصدوق في خصاله عن ابن الوليد، عن الصفار، عن ابن هاشم، عن عبد الرحمان بن حماد، عن إبراهيم بن عبد الحميد بن أبي أُسامة، عن أبي عبد الله قال: قال لي أبي: ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه؟ قلت: بلى، قال: «إنّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث...» [١].

ورجال الحديث كلّهم ثقات غير عبد الرحمان بن حماد وعبد الحميد فإنّ الأوّل مهمل لم يتضح حاله بوثاقة أو ضعف، وأمّا عبد الحميد بن أبي أُسامة فإنّه مختلف فيه وإن رجّح شيخنا العلاّمة التستري في قاموسه وثاقته.

٢ـ روى صاحب البصائر عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن أبي الجارود عن الأصبغ بن نباتة قال سمعت أمير المؤمنين يقول: إنّ لله علمين علم استأثر به في غيبه فلم يطّلع عليه نبيّاً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته وذلك قول الله تعالى: ﴿**إنّ الله عنده علم الساعة...**﴾ [٢] والحديث ضعيف الاسناد لأجل «محمد بن سنان» فقد ضعّفه كثير من علماء الرجال وأمّا أبو الجارود فهو زيدي.

٣ــ ما رواه القمي في تفسيره [٣] مرسلاً عن الصادق ومضمونه قريب ممّا رواه الصدوق في خصاله.

وأمّا ما رواه الحافظ جلال الدين السيوطي في الدر المنثور عن عكرمة أنّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت الآية [٤] فلا ينطبق على ظاهر الآية

---

(١) الخصال ص ٢٩٠ طبع مكتبة الصدوق.

(٢) بصائر الدرجات ص ٣١.

(٣) تفسير علي بن إبراهيم القمي ص ٥١٠ وقد جمع أحاديث الباب العلامة المجلسي في بحاره راجع ج٢٦ ص ١٠١ ـ ١٠٣.

(٤) الدر المنثور ج٥ ص ١٦٩.

فإنّ المتبادر من قوله: ﴿**ويعلم ما في الأرحام**﴾ هو العلم بخصوصية الجنين لا العلم بوقت ولادته كما هو ظاهر الحديث مضافاً إلى ما في سنده من الضعف الظاهر لانحراف عكرمة عن أمير المؤمنين، وأخذه الحديث من أُناس لا خلاق لهم من الدين.

هذه الأحاديث لا يصح الاعتماد عليها إلاّ على ما نقله الرضي في نهج البلاغة عن الإمام ـ عليه السلام ـ من أنّ علم الغيب علم الساعة، وما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿**انّ الله عنده علم الساعة...**﴾ فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله [١].

وهو مما يجب تأويله وتوجيهه على وجه لا ينافي ما تواتر من الروايات من تنبؤ المخلصين بزمان موتهم ومكانه، وما يلم بهم من خير وشر خصوصاً إذا وقفنا على أنّ الإمام ألقى كلامه هذا تجاه النواصب والمخالفين الذين سمعوا من الإمام في البصرة من الأسرار ما لا يتحملون، فاعترضوا عليه بأنّه تنبؤ بالغيب، فأجابهم وصد اعتراضهم بأنّه ليس بعلم الغيب، بل تعلم من ذي علم، وإنّما الغيب هو الساعة، وما عدده سبحانه... ».

وبما أنّ الكلام ورد في مقام اسكات الخصم يمكن تأويله باحدى الوجوه التي ذكرها العلامة المجلسي في بحاره [٢].

وأوضحها: أن يكون العلم الحتمي بها مختصاً به تعالى وكل ما أخبر الله به من ذلك كان محتملاً للبداء والغرض من تخصيص هذه الموارد بالذكر مع أنّ الجميع كذلك لأجل الحث على جهل البشر بما يهمّه، والله سبحانه هو العالم بحقائق كتابه.

وإليك نص عبارته:

الأوّل: أن يكون المراد أنّ تلك الأُمور لا يعلمها على التعيين والخصوص إلاّ الله تعالى فإنّهم إذا اخبروا بموت شخص في اليوم الفلاني فيمكن أن لا يعلموا خصوص

---

(١) قد أسلفنا لفظ الحديث فراجع صفحة ٤٦٠ من كتابنا.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

الدقيقة التي تفارق الروح الجسد فيهـا مثلاً، ويحتمل أن يكون ملك الموت أيضاً لايعلم ذلك.

الثاني: انّ العلم الحتمـي بها مختصّ به تعـالى، وكل ما اخبر الله به مـن ذلك كان محتملاً للبداء.

الثـالـث: أن يكـون المراد عـدم علم غيره تعـالى بها إلاّ مـن قبله فيكـون كسـائر الغيوب ويكون التخصيص بها لظهور الأمر فيها أو لغيره.

الرابع: ما أومأنا إليه سابقـاً وهو أنّ الله تعالى لم يطلع على تلك الأُمور كلية أحداً من الخلق على وجـه لا بداء فيـه، بل يرسـل علمها على وجه الحتـم في زمان قـريب من حصولها كليلة القـدر أو أقرب من ذلك، وهذا وجه قريب تـدل عليه الأخبار الكثيرة إذ لابد من علم ملك الموت بخصوص الوقت كما ورد في الأخبـار، وكذا ملائكة السحاب والمطر بوقت نزول المطر، وكذا المدبرات من الملائكة بأوقات وقوع الحوادث.

❁ الفصل الثامن ❁

سيرة النبي الأعظم وصفاته وأسماؤه في القرآن الكريم

بالرغم من أنّ جوانب حياة النبي ﷺ واسعة المدى، فسيحة الأرجاء، متعددة الجهات، مختلفة النواحي، فقد عني المسلمون منذ فجر الإسلام وانبثاق الدعوى الالهية في ربوع العالم، بضبط ما يرجع إلى حياته ﷺ ممّا دق وجل من قول ولفظ، وفعل وعمل، وما في تاريخه من نوادر وطرائف ونقاط، فما صدر منه كلام إلاّ نقلوه، أو فعل إلاّ ضبطوه، أو سنّة إلاّ سجلوها، وقد بلغوا الغاية في ذلك حتى دوّنوا حياة أصحابه وتابعيه وما ينسب إليه و إليهم بأدنى مناسبة. فترى في غضون المعاجم والسير كثيراً ممّا يرجع إليه ﷺ من الأُمور التي قلّما تخطر على بال بشر أن يصفها أو يسجلها كتوصيف نعله، وسواكه، ومشطه، ومكحلته، ومرآته، وقدحه، وسيوفه، ودروعه، وتروسه، ورماحه، وسوطه، ورايته، ومغفره، وأعلام خيوله، وابله، وبغلته، وحماره، ومنائحه من الغنم، ومواليه وحجر أزواجه، وفسطاطه، وقصعته، وقعبه، وعمامته، وخاتمه، وأصناف لباسه، وطولها، وعرضها، وشعره، وشيبه،وكيفية خضابه، ونومه، ومأكله والطعام الذي يعجبه،

حتى سجلوا الأبار التي شرب منها، والخمـرة التي كان يصلّـي عليها، إلى غير ذلك من نوادر الأُمور التي لا يهتم بذكرها وضبطها بالنسبة إلى البشر العاديين.

كل ذلك دليـل على شدة مـا كان يتمتع بـه النبي من ود وحـب عريق، إلى حـد قيض همة ثلة جليلة من فطـاحل المسلمين وأكابرهم لضبط وتسجيل كل مـا يرجع إليه كبيراً أو صغيراً شرعياً أو عرفياً [١].

فألّفوا في كل نـاحية من نواحي حياتـه كتباً زاخرة ورسائل طـافحة أو عقدوا لها فصولاً في كتب السير والتـاريخ، ولقد زخـرت المكتبة الإسلاميـة بأثار هذا النشـاط بل زخرت مكتبـات أُخرى في لغـات وأُمم أُخرى بكتـب ورسائل في هـذا المضمار إلى حد يقف العقل أمامها حائراً مشدوهاً يخالجه مزيج من الاعجاب والمهابة.

والعجب أنّ الركب بعد سائر لم يقـف، ولم يفتر، وهذه الكتب مع كثرتها لم تشبع نهمتهم، وما قضـت وطرهم في تحليل حياة النبـي، حتى انّا نرى الأكـابر من العلماء في كل عصر وجيـل إلى عصرنا هـذا، يكتبون كتبـاً زاخرة في حيـاة النبي ويـؤلّفون رسـائل طافحة بـالتحقيق والتحليل، حتى يغنوا بـذلك الناشىء الجديد عن أسـاطين التاريخ وأفانين الـرواية ورسـائل المستشرقين ويقدمون لـه ما يسـد جوعتـه ويجعل المسلم الحر يرتشف من المنهل العذب.

وعلى ضوء هذه الكتب والجهود الجبارة التي تحمّلها لفيف من علماء المسلمين بل فئة كبيرة منهـم، لم يتركوا في حياة النبـي مبهمة إلاّ كشفوا أستـارها ورفعوا النقـاب عن وجهها، أو جانباً مجهولاً إلاّ حدّدوه وعيّنوه بأدق وجه وأنصع بيان.

عناية القرآن ببيان صفات النبي ﷺ :

ولم تكن عناية القرآن ببيان نواح من حياة النبـي الجليلة وشؤونه الدقيقة بأقل من

---

(١) راجع الطبقات الكبرى ج١ ص ٣٦٠ وتـاريخ الطبري ج١ ص ٤١٧ ـ ٤٢٨ وبحـار الأنوار ج ١٦ ص ٨٢ ـ ٢٢٩ وغير ذلك من المجاميع التاريخية والحديثية.

عنـاية المسلمين ضبطـاً وتسجيلاً، فإنّ القـارئ يجد في مختلف السـور والآيات، صـوراً واضحة رائعة مـن صفات النبي وفضائل أخلاقـه وكرائم نعوته إلى حـد يقف الانسان على روحياته ونفسيـاته ومختلف أقواله وأفعالـه، ويقدر مع التدبر التـام فيما نزل في حقه من الآيات على الاحاطة بمراحل حياته منذ بعث بل منذ نعومة أظفاره إلى أن فارقها إلى الرفيق الأعلى، ولعلنا نرجع إلى ذلك في مستقبل الأيام [١].

فالـرجوع إلى نفس القرآن واستخـراج سيرة النبي وصفاتـه ونفسياته وأفعـاله من خلال آياته الكريمة، أوثق وأسد الطرق لدراسة شخصية النبي الأعظم، فالتدبر في هذا القسم مـن الآيـات، يعطي لنـا صـورة واضحـة عـن حيـاة النبي وشخصيتـه الفـذة، وعبقريته النـادرة، وما أودعه الله فيها مـن مواهب وقوى خلقية ونفسيـة وعقلية، بلغت الذروة والـروعة والعظمة، ويغنينا عن المبـالغات التي يعمد إليهـا بعض فرق المسلمين من غير سند وثيق.

إنّ تلكم الآيات تصلح أن تكون رداً حاسماً وقـوياً على الموقف المنكر الذي يقفه المغرضون من المبشرين والمستشرقين من أخلاق النبي وفضائله، إذ يتجاهلون أو يغفلون عن مـا في القرآن من نصـوص، ويتمسكون دونها بالـروايات التي ربّما تكـون مخترعة أو مدسوسة ومزوّرة، فينسبون إلى ساحـة النبي الأكرم ما هو بريئ منه، في حين أنّ في القرآن من الآيـات ما فيه كـل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كـان عليه من الـرحمة والصدق والبسـاطة والتجـرد والزهـد والاستغراق في الله والتحلّي بـا لمثل العليـا واعطاءه القـدوة الحسنى لذلك كله.

فقد أشار سبحانه إلى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه، وأنّه لا يصلح دعاؤه كدعاء بعضنا بعضاً بقوله سبحانه: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ**

---

(١) وقد وقفنـا بعد ما كتبنا هـذا الفصل على ما ألفه «محمد عـزة دروزة» في هذا المضمار وأسماه «سيرة الرسول» وهي صورة مقتبسـة من القرآن الكريم وذكر في مقدمة الكتـاب، الحوافز التي دفعته إلى تأليف كتـابه وقد طبع في مطبعـة الاستقامة بـالقاهرة في جزءيـن وقد راجعنا هـذا الكتاب بعض المراجعة عند تقديم هذا الفصل إلى الطبع.

النَّبِيِّ وَلاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢) وبقوله سبحانه: ﴿لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعٰاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ (النور ـ ٦٣)، وإلى حرمة التسرّع في ابداء الرأي والبدء في العمل بقوله عزّ وجلّ: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات ـ ١).

وإلى تأثّره وغمّه وهمّه وحزنه من عدم استجابة قومه لدعوته واهتدائهم بهداه بقوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف ـ ٦)، وبقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إِلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ـ ٣)، وإلى تحمسه وثباته في المعارك الطاحنة وما فيه من شجاعة وثبات جنان في مواقف الشدة وميادين الكفاح، وإلى موقفه أمام العدو حين ما دارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وتفرّق كثير من أعيانهم وأبطالهم، ووقف النبي وثبت في ميدان المعركة، ومعه من لا يتجاوز عدد الأصابع بقوله سبحانه: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلوونَ عَلىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرٰيكُمْ فَأَثٰابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلىٰ مٰا فَاتَكُمْ وَ لا مٰا أَصٰابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران ـ ١٥٣).

فكان النبي قطب الرحى في هذا الموقف العصيب إذ ثبت ثبات الجبال، رابط الجأش، مطمئن النفس، فصار اسوة حسنة للمؤمنين.

وإلى أنّه بلغ من الكمال إلى حد، صار إماماً وقدوة للمؤمنين يتأسون به في قيمه الروحيه ومثله العليا بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَ اليَوْمَ الآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب ـ ٢١).

وإلى أنّه قد رزق الكوثر والخير الكثير من كل جوانب الحياة ومظاهرها فرزقه الله من بنت واحدة، ما ملأ الخافقين بقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ (الكوثر ـ ١) وغيرها من الخيرات التي لا تعد ولا تحصى فلمّا رماه خصمه بأنّه الابتر، فرمى شانئه بأنّه أولى بذلك لا نبي العظمة.

وقد بلغ من العظمـة موقفاً إلى أنّ الله وملائكتـه يصلّون عليه، فأمـر الله سبحانه المؤمنين أن يصلّوا عليه و يسلّموا تسليماً وقـال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب ـ ٥٦).

روى الشافعـي عن أبي هريـرة أنّه قـال لرسـول الله كيف نصلّـي عليـك؟ قال: «تقولـون: اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمـد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبـراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ثمّ تسلمون عليّ» [١].

قال ابن حجر صح عن كعب بن عجرة قال: لما نـزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله قد عرفنا كيف نسلّم عليك فكيف نصلّـي عليك؟ قال: قولوا اللّهم صلّ على محمد وآل محمد ـ إلى أن قال ـ وروي عنه ﷺ أنّه قال: لا تصلّوا عليّ الصـلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللّهـمّ صلّ على محمد وتمسكون ، بل قولوا: اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد ﷺ [٢].

وقد نسب الزرقاني هذين البيتين إلى الإمام الشافعي:

يـا آل بيت رسـول الله حبّكـم ... فـرض من الله في القـرآن أنـزلـه
كفـاكم من عظيـم القـدر أنّكم ... من لم يصـلّ عليكم لا صلاة لـه [٣]

و إلى أنّه وصل إلى الذروة مـن عـظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفـس ورجاحة العقل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ـ ٤).

غير أنّ من المحتمل أن يكـون «الخلق» بمعنى الدين ، أي أنّـك على دين عظيم كما عليه قوله سبحانه: ﴿إِنْ هٰذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء ـ ١٣٧) فالمقصود اكبار الـدين الـذي بعث النبي لبيـانه وابـلاغـه، ويؤيـده قـوله سبحـانه بعـده: ﴿فَسَتُبْصِرُ

---

(١) مسند الشافعي ج٢ ص ٩٧.
(٢) الصواعق ص ١٤٤.
(٣) شرح المواهب ص ٧.

﴿وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ﴾ أي فسترى يا محمد ويرون الذين رموك بالجنون ﴿بأيكم المفتون﴾ أي أيكم المجنون الذي فتن بالجنون أأنت أم هم، وحيث إنّك على دين عظيم يؤيدك الله وينصرك عليهم[1].

وإلى دماثة خلقه وحسن معاشرته ورأفته وعطفه على أعدائه، وتنزهه عن فظاظة الخلق، وغلظة القلب بقول سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران ـ ١٥٩).

وإلى ما رزق من قلب نقي وسريرة طيّبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ (التوبة ـ ٦١).

وإلى حيائه وصبره على ما يؤذي نفسه من أصحابه وتجنّبه من كسر قلوبهم وجرح عواطفهم بقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلىٰ طَعَامٍ غَيرَ نَاظِرِينَ إِنىٰهُ وَلَكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ﴾ (الأحزاب ـ ٥٣).

وإلى ما فطر من رحمة ورأفة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه وشعوره بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق، وما يلقي من جهد وعنت في سبيل ازالة آلامهم وتخفيف ما يشق عليهم، واشتياقه إلى ارشاد الناس وهدايتهم واشفاقه ورأفته بالمؤمنين وعطفه عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ـ ١٢٨).

وإلى غزارة علمه بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء ـ ١١٣).

وإلى طهارة روحه وأهل بيته من الرجس ودرن الشرك والمعاصي بقوله سبحانه:

---

(١) راجع مجمع البيان ج٥ ص ٢٣٣.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب ـ ٣٣).

وإلى عكوفه على عبادة ربّه وتهجّده في الليل وسهره في طريق طاعة الله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَآئِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمل ـ ٢٠).

وإلى أنّه رسول الله إلى الناس كافة وخاتم النبيين وأنّ الله سبحانه حافظ لدينه وكتابه إلى يوم القيامة بقوله: ﴿ وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ ـ ٢٨)، وبقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب ـ ٤٠)، وبقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ـ ٩).

وإلى أنّه مصدق لما بين يديه من الكتب بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة ـ ١٠١).

وإلى صبره في طريق هداية الأمّة بقوله: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل ـ ١٢٧).

وإلى أجره عند الله سبحانه بقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم ـ ٣).

وإلى قربه منه سبحانه، وتأثير استغفاره في حق الأمّة، وأنّهم لو طلبوا منه أن يستغفر لهم، لوجدوا الله تواباً وغافراً لذنوبهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء ـ ٦٤).

إلى أن عاد القرآن فأشار إلى عظمة قدره وجلالة شأنه بتوصيفه بأنّه: رسول نبي أمّي، مكتوب اسمه في التوراة والانجيل، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم الاصر، ويرفع عنهم الاغلال حيث قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الخَبَآئِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولِئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف ـ ١٥٧).

كما وصفه بأنّه ﷺ، شاهد، مبشر، نذير، داع إلى الله، سراج منير، ورحمة للعالمين، وأنّه أحد الأمانين في الأرض، وأنّه سبحانه لا يعذّب الناس وهو فيهم تجد كل هاتيك الصفات والثناء في الآيات التالية:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً * وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦).

﴿ وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ (الأنبياء ـ ١٠٧).

﴿ وَما كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَما كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال ـ ٣٣).

وفي الوقت نفسه لا يقتصر القرآن على بيان روحياته ونفسياته فقط بل يطري النبي ويصفه كوصف محب متجلد فيوجه نظره السامي إلى تسمية أعضائه الظاهرة المهمة.

فيصف بصره بقوله: ﴿ ما زَاغَ البَصَرُ وَما طَغَىٰ ﴾(النجم ـ ١٧).

ووجهه بقوله: ﴿ قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة ـ ١٤٤).

وقلبه بقوله: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (البقرة ـ ٩٧).

وفؤاده بقوله: ﴿ ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأىٰ﴾ (النجم ـ ١١).

وصدره بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (الانشراح: ١ ـ ٣).

وصوته بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النَّبِيِّ﴾(الحجرات ـ ٢).

إلى أن يعود القرآن فيحلف بعمره ويقول: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر ـ ٧٢).

ويصف سيره وعروجه في الليل إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السموات العلى بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ (الإسراء ـ ١) [1].

ويبين نهاية سيره وأنّه قد بلغ إلى سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ المأْوىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشىٰ * مٰا زَاغَ البَصَرُ وَ مَا طَغىٰ * لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرىٰ﴾ (النجم: ١٣ـ١٨).

ويصف أوليات حياته وأنّه لم يزل محروساً بعين الله سبحانه ومشمولاً لعنايته، قال سبحانه: ﴿وَالضُّحىٰ * وَالليلِ إِذٰا سَجىٰ * مٰا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ * وَ وَجَدَكَ ضٰالاًّ فَهَدىٰ * وَ وَجَدَكَ عٰائِلاً فَأَغْنىٰ * فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَر * وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١ـ١١).

كما يصف شرح صدره لتحمل عبء النبوّة، ورفع الوزر الذي انقض صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَاكَ عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * فَإِذٰا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَ إِلىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ١ـ٨).

ويشير إلى نزول الوحي عليه وأنّ معلّمه شديد القوى إذ قال سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ * مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَمٰا غَوىٰ * وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ * وَ هُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلىٰ﴾ (النجم: ١ـ٧)

---

(١) راجع في قصة المعراج إلى سورة النجم الآية السادسة إلى الثامنة عشر.

وقال سبحانه: ﴿ ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾(آل عمران ـ ٤٤).

وإلى براءته من كل ما يلصق به من تهمة، فقال سبحانه: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ * وَالَّيْلِ إِذٰا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذٰا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رُسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمٰا صٰاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * وَمٰا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمٰا هُوَ بِقَولِ شَيْطٰنٍ رَجِيمٍ﴾ (التكوير: ١٥ ـ ٢٥).

وإلى لزوم الاستجابة لدعوته وإنّ فيها حياتهم، قال سبحانه: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اسْتَجِيبوا للهِ وللرَّسُولِ إذا دَعاكُم لما يُحييكُم﴾ (الأنفال ـ ٢٤) وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران ـ ٣١).

أسماؤه في القرآن:

إنّ القرآن يتفنّن في توصيف النبي وذكره بل في تسميته والايماء إليه، فتارة يشير إليه بإحدى الصفات العامة الشاملة لكل انسان كما في قوله: ﴿فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مٰا أَوْحىٰ﴾ (النجم ـ ١٠) غير أنّ في إضافة العبد إلى نفسه الماعاً إلى تكريمه وتقربّه منه سبحانه: وأُخرى يخاطبه بالألقاب الخاصة بأنبيائه ورسله ويقول: ﴿يٰآ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ﴾ (الأنفال ـ ٦٥)، ﴿ يٰآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِكَ﴾ (المائدة ـ ٦٧)[1].

وثالثة يخصّه باسميه اللذين كان يدعى بهما في الإسلام أعني محمداً وأحمد، أمّا الأوّل فقد جاء في مواضع أربعة من القرآن:

١ ـ ﴿ مٰا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَ خَاتَمَ

---

(١) نعم جاء في بعض الوثائق التاريخية والمجاميع الحديثية أنّ أسماءه ﷺ يس، طه، ن، غير أنّه لم يحقق ذلك إذ من المحتمل جداً أن تكون من الحروف المقطعة كما عليه أعلام التفسير.

النَّبِيِّينَ﴾(الأحزاب ـ ٤٠).

٢ـ ﴿ وَمٰا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران ـ ١٤٤).

٣ـ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ﴾ (محمد ـ ٢).

٤ـ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح ـ ٢٩).

وأما الثاني فقد جاء في موضع واحد حيث يقول سبحانه: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف ـ ٦).

وليس الرسول ﷺ بدعاً من بين الرسل في كونه ذا اسمين فقد سبقه في ذلك ثلّة من الأنبياء كيوشع بن نون وهو ذو الكفل في القرآن ويعقوب بن إسحاق وهو إسرائيل ويونس وهو ذو النون وعيسى وهو المسيح [١] وعلى ذلك فلا إشكال في أن يكون للرسول الأعظم إسمان: محمد وأحمد، ويظهر من الروايات المتضافرة أنّ اسمه في السماء أحمد، فقد جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ ومما سأله أنّه لم سمّيت محمداً وأحمد وأبا القاسم وبشيراً ونذيراً وداعياً؟ فقال النبي: «أمّا محمد فإنّي محمود في الأرض، وأمّا أحمد فإنّي محمود في السماء» [٢].

ولعلّ المراد من السماء عالم الوحي ويطابق مضمونه ما تعطيه آية الصف من تبشير المسيح بمجيئ نبي اسمه أحمد. وروى أهل السير والتاريخ عن الباقر ـ عليه السّلام ـ: انّ «آمنة» أُم النبي أُمرت في المنام وهي حامل برسول الله أن تسميه أحمد وسماه جده محمداً بالهام من الله تفاؤلاً بأن يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها، و إلى ذلك يشير أبو طالب بقوله:

وشقّ له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(١) سأل الشامي أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ عن ستة من الأنبياء لهم أسمان فأجاب بما ذكرناه وأضاف الخضر وهو حلقيا ومحمد ﷺ وهو أحمد صلوات الله عليهم. عيون أخبار الرضا ص ١٣٦، بحار الأنوار ج١٦ ص٩٠.

(٢) أمالي الصدوق: ص١١٢، علل الشرائع ص٥٣، معاني الأخبار ص ١٩، بحار الأنوار ج١٦ ص ٩٤.

وفي الخصائص الصغرى: «أحمد» ولم يسم به أحد قبله [١] فإنّ العرب كانوا مأنوسين بلفظ «محمد» لأنّه سمّي به في زمن النبي وقد عد بعضهم من سمّي بمحمد ستة عشر ونظمهم بقوله:

انّ الذين سمّوا باسم محمد ... من قبل خير الخلق ضعف ثمان

وأمّا أحمد فلم يسم به أحد قبله بل منع الله بحكمته أن يتسمّى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي خلال حياته الشريفة حتى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب، وأوّل من سمّي بأحمد في الإسلام ولد جعفر بن أبي طالب [٢]. وكذلك محمداً أيضاً لم يسم به أحد قبل وجوده ﷺ وميلاده ولم يتحقق ذلك إلاّ بعد أن شاع أنّ نبياً يبعث في الحجاز اسمه محمد وقد قرب زمنه فسمّى بعضهم حينئذ أبناءهم بذلك وحمى الله تعالى هؤلاء من أن يدعي أحد النبوّة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه شيء من سماتها إلى أن تحققت دعوة النبي [٣].

لا ريب أنّ أحمداً أحد أسمائه المعروفة ولا يتردد في تسميته بهذا الأسم من له أدنى تتبع في سيرته وتاريخ حياته، وما قيل في حقه من المدائح في الإسلام وقبله يوضح أنّه كان يدعى بهذا الإسم منذ نعومة أظفاره.

وهذا أبو طالب شيخ الأباطح حامي النبي وكفيله يذكره في أشعاره بهذا الاسم ويسمّيه به ومثله حسان به ثابت شاعر الرسول في عهد الرسالة، ومادحه وغيرهما من الشعراء المخضرمين، تراهم أصفقوا على تسميته بأحمد من دون تردد ولا ريب، كل ذلك يدل على أنّ البيت الذي ولد ونشأ فيه النبي ﷺ قد أسماه بهذا، والبيئة التي شب وترعرع فيها، كان تعرفه به.

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٩٣.

(٢) كتب إلينا المحقق التستري في ملاحظاته على الكتاب أنّه لم يجدهم مسمّين بأحمد بل كانوا مسمّين بـ «عون» و «عبد الله» و «محمد».

(٣) المصدر نفسه ص ٩٥ ـ ٩٧ بتلخيص منّا.

شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة:

إنّ الغـرب بعد أن تـم غزوه لبـلاد الشرق واحتلّهـا بـالحديد والنـار، طفق يغـزو الأفكار ويبث الشبهات وقد بعث رجال التبشير إلى هـذه البلاد لتحريف أفكار شباب الإسلام منـه ثمّ تـوجيههم إلى المسيحية أوّلاً والـلادينية ثانيـاً، حتى يسهل اصطيـادهم وسحق حقـوقهم ونهب منابعهـم وأموالهم، ومن الشبهـات التافهـة التي نشرهـا بعض رجال الكنيسة في بلادنا قولهم:

إنّ المسيح بشّر بـرسـول يـأتي من بعـده اسمـه أحمد غير أنّـه لا ينطبـق على نبي الإسلام فإن إسمه «محمد» بنص القـرآن الكريم واتفاق المسلمين وغيرهم، والذي بشّر به المسيح إنّما هو أحمد، وحينئذ فإنّ ما بشّر به هو غير ذاك، ونحن نتربص بفارغ الصبر مجيء نبي آخر اسمه أحمد، يكون خاتم الأنبياء والمرسلين.

وتلك شبهـة لا تحتاج إلى الجواب، ولا غرو من مبـدعها فإنّ مـن يعمد إلى تغيير الشرائع بالتحريف، لا يتعفف عن تحويل الأسماء عن مسمياتها إلى غيرها مما يرشده إليه هواه، إذ من الضروري أنّ أحمد أحد أسماء نبيّنا ﷺ وكانت الحجاز والحرم والبيت ومن يعيش فيها، تعرفه بهذا الاسم كما كانت تعرفه باسمه الآخر.

أضف إلى ذلك أنّـه لما نزل قوله سبحـانه: ﴿**ومبشّراً برسول يأتي مـن بعده اسمه أحمد**﴾ لم يعترض على النبي أحـد من المسيحيين ولا من غيرهم، بل لم ينبس أحـد ببنت شفة، بأنّ من بشّر بمجيئه المسيح إنّما هـو أحمد، وأي صلة بينك وبين هذه البشارة، بل سكتوا عنه وتلقّوه أمراً مسلماً وهذا دليل على أنّه ﷺ كان معروفاً بهذا الاسم يوم ذاك بل منذ ولادته ونعومة أظفاره [١].

ودونك نماذج مما وقفـت عليه من شعر عمّـه وغيره ممن ذكروا النبي في أشعـارهم

---

(١) والأوهن من تلك الشبهة ما حسبه بعض المغفلين من أنّ الآية اخبار عن نبوّة غلام أحمد القادياني ذلك المتنبئ المشعوذ الذي خدم الاستعمار البريطاني عند احتلال الهند.

بهذا الاسم وسمّوه به، ونكتفي من الكثير بالقليل، حذراً من الاطالة:

قال أبو طالب رحمة الله عليه:

ألا أنّ خير الناس نفساً ووالداً إذا عدّ سادات البرية أحمد [(١)]

وقال:

إن يكن ما أتى به أحمد اليوم سناء وكان في الحشر ديناً [(٢)]

وقال:

وقوله [(٣)] لأحمد أنت امرء خلوف الحديث[(٤)] ضعيف النسب
وإن كان [(٥)] أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب [(٦)]

وقال:

تنالون أحمد أو تصطلوا ظباة الرماح وحد القضيب [(٧)]

وقال:

أرادوا قتل أحمد ظالموه وليس بقتلهم فيهم زعيم [(٨)]

وقال:

فلسنا وبيت الله نسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب[(٩)]

---

(١) ديون أبي طالب ص ١٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩.
(٣) وفي مجمع البيان: وقالوا.
(٤) وفي المجمع: اللسان.
(٥) وفي المجمع: «إلاّ أن».
(٦) مجمع البيان ج٢ ص ٢٨٧ ط صيدا.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٦.
(٨) المصدر السابق ص ٢٩.
(٩) المصدر نفسه ص ٢٠ وتجد بعض تلكم العسجدية مبثوثة في طيات الكتب والمعاجم ونرى المقام غنياً عن الاشارة لمصادرها غير إنّا أخذناها من ديوانه المطبوع بالنجف الأشرف في المطبعة الحيدرية وجامع ديوانه هو عبد الله بن مهزم البصري كما صرح به النجاشي في فهرسته ص ١٥١ وذكر طريق روايته إليه، وذكره شيخنا في الذريعة ج١٤ ص ١٩٥.

وقال:

لقد أكرم الله النبي محمداً   فأكرم خلق الله في الناس أحمد
وشقّ له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد [١]

قال الديار بكري: أنشأ أبو طالب في مدح النبي أبياتاً منها هذا البيت.

وشقّ له من اسمه ليجله...

وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا فقال:

ألم تر أنّ الله أرسل عبده   بآياته و الله أعلى و أمجد

وشقّ له من اسمه ليجله ...

قال ابن هشام: ولما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من أنّه غير مسلّم رسول الله ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه. ومن تلك القصيدة قوله:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد   واحببته حب الحبيب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها   وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فأصبح فينا أحمد في أرومة   تقصر عنه سورة المتطاول [٢]

روى ابن الأثير: أنّ أبا طالب رأى النبي وعلي يصلّيان، وعلي على يمينه فقال لجعفر ـ رضي الله تعالى عنه ـ: صل جناح ابن عمك وصلّ على يساره، وكان إسلام جعفر بعد إسلام أخيه علي بقليل، وقال أبو طالب:

فصبراً أبا يعلي على دين أحمد   وكن مظهراً للدين وفقت صابراً

---

(١) تاريخ ابن كثير ج١ ص ٢٦٦، الإصابة ج ٤ ص ١١٥، تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٤.

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٢ وشرح النهج ج ١٤ ص ٧٩.

وباد قريشاً بالذي أتيته جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً [١]

روى شيخنا أبو الفتوح الرازي في تفسيره:

زعمت قريش أنّ أحمد ساحر كذبوا ورب الراقصات إلى الحرم [٢]

إلى غير ذلك مما نقل وأثر منه سلام الله عليه، ولو استقصينا ما نقل عنه من الشعر في هذا الباب لخرجنا عن المقصود، وقد نقل السيد الفخار عنه هذين البيتين في ضمن أبيات:

وانصر أحمداً فإنّ من الله رداء عليه غير مدال

فخير بني هاشم أحمد رسول الإله على فترة [٣]

وقال:

يا شاهد الله علي فاشهد انّي على دين النبي أحمد [٤]

وقد أثر عن أمير المؤمنين علي -عليه السّلام- أنّه قد أمره والده أبو طالب بالصبر في الدفاع عن النبي بقوله:

أصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حي بصبره مشعوب

فأجاب علي -عليه السّلام- بقوله:

أتأمرني بالصبر في دين أحمد ووالله ما قلت الذي قلت جازعاً

---

(١) أُسد الغابة ج١ ص ٢٨٧، كما في الغدير ج٧ ص ٣٥٨، بحار الأنوار ج١٨ ص ٢٢١، مجمع البيان ج٢ ص ٢٨٧، وفي الأخير: يحض أبو طالب أخاه حمزة على اتباع النبي ﷺ.

(٢) تفسير أبي الفتوح ج٤ ص ٢١٢ ونقله أبو علي شمس الدين السيد فخار بن محمد الموسوي المتوفّى ٦٣٠ صاحب كتاب الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب ص ٧٢.

(٣) كتاب الحجة ص ٧٤.

(٤) شرح النهج ج ١٤ ص ٧٨، وقال وقد يروى لعلي في ديوانه، ولكنّه موجود في ديوان أبي طالب ص ٧٥ ولم نذكر في عداد ما نقلناه عن ديوانه لمكان هذا الترديد.

سأسعى لوجه الله في نصر أحمد   نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً [١]

وأمّا ما نقل عن غير أبي طالب متضمناً تسمية النبي بأحمد، فكثير جداً تصعب الاحاطة به ويطول الكلام بنقل ما وقفنا عليه في مجاميع التاريخ والأدب ولنكتفي بما يلي:

قال حسان بن ثابت شاعر عهد الرسالة في رثاه:

مفجعة قد شفها فقد أحمد   فظلّت لآلاء الرسول تعدد

أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها   على طلل القبر الذي فيه أحمد [٢]

وقال أيضاً في رثاه ﷺ:

صلّى الاله ومن يحيق بعرشه   والطيّبون على المبارك أحمد [٣]

وقال:

فمن كان أو يكون كأحمد   نظام الحق أو نكال لملحد

وقال في رثاه جعفر الطيار:

بها ليل منهم وابن أُمّه   علي ومنهم أحمد المتخير

وقال يرثي زيد بن حارثة:

ذاكم أحمد الذي لا سواه   ذاك حزني معاً له وسروي [٤]

وقال حسان:

(١) شرح النهج الحديدي ج١٤ ص ٦٤.

(٢و٣) نقلها ابن هشام في سيرته ج٢ ص ٦٦٧و٦٦٩، ونقل الثاني منهما ابن سعد في طبقاته ج٢ ص ٣٢٣.

(٤) أخذنا ما نقلناه إلى هنا من شاعر عهد الرسالة من مواضع مختلفة من ديوانه راجع ص ٥٩، ٦٣، ٦٥، ١٠٢، ١٠٩ ط بيروت، تحقيق محمد عزت نصر الله، مضافاً إلى المصادر الأُخرى التي أوعزنا إليها.

فمن كف أحمد قد فجرت   عيون من الماء يوم الظمأ [١]

وقال:

ففي كف أحمد قد سبّحت   بتقديس ربي صغار الحصى [٢]

وقال كعب بن مالك:

فهذا نبي الله أحمد سبّحت   صغار الحصى في كفّه بالترنم [٣]

وقد نقل عن ورقة بن نوفل أنّه بعد ما اطلع على أمر النبي ﷺ وأنّه ينزل عليه الناموس الأكبر الذي كان ينزل على موسى وعيسى أنشأ يقول:

فإن يك حق يا خديجة فاعلمي   حديثك أيانا فأحمد مرسل [٤]

وقال:

بأنّ أحمد يأتيه فيخبره   جبريل أنّك مبعوث إلى البشر [٥]

وقال:

وانّ ابن عبد الله أحمد مرسل   إلى كل من ضمّت عليه الأباطح [٦]

وقال أحد بني عامر رداً على حسان في افتخاره بالأنصار:

بسيف ابن عبد الله أحمد في الوغى   بكف علي نلتم ذاك فاقصروا [٧]

وقال حمزة حين أسلم، أبياتاً منها:

إذا تليت رسائله علينا   تهدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها   بآيات مبيّنة الحروف [٨]

(١و٢و٣) بحار الأنوار ج١٦ ص ٤١٣و٤١٤و ٤١٥.
(٤و٥و٦) بحار الأنوار ج١٨ ص ١٩٥ و ١٩٦ وراجع بلوغ الارب ج٢ ص ٢٧٤ و٢٧٥.
(٧) بحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٥٩.
(٨) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٩٣.

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب ترثي النبي ﷺ:

يـا عين جـودي مـا بقيـت بعبرة   سحـاً على خير البريـة أحمد [١]

ونقل المجلسي عـن الخرائج: انّ تبع بن حسـان سار إلى يثـرب وقتل من اليهـود ثلاثمائة وخمسين رجـلاً بالصبر وأراد خـرابها، فقام إليـه رجل من اليهود وقـال: إنّك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية، قال: ولِـمَ؟ قـال: لأنّه يخرج منها من ولد اسماعيل نبي يظهر من هـذه البنية، يعني البيت الحرام، فكف «تبع» ومضـى يريد مكة ومعـه اليهود وكسا البيت وأطعم الناس وهو القائل:

شهـــدت على أحمد أنّـــه   رسـول مـن الله بـاري النسـم [٢]

وقالت صفية في تزويجه ﷺ:

ثـــمّ السعـــــود لأحمد   والسعـــد عنـــه مـــا بـــرح
بخـــديجة بنـــت الكمال   وبحـــر أنـــاملهـــا طفـح [٣]

واجتمع سـادة قريش وأكابـرها في اليوم الثـالث كعادتهم، ونهض العبـاس وهو يقول:

شـــاع في النـــاس فضلكـــم   وعـــــلا في المراتـــب
قـــد فخـــرتـــم بـــأحمد   زيـــن كـــل الاطـــائب
أحمد سيـــــد الـــــورى   خير مـــــاش وراكـــب [٤]

وقال بعض المسلمين عند اجـلاء بني النضير وربّما ينسب إلى علي بن أبي طالب ـ عليه السّلام ـ:

---

(١) الطبقات الكبرى ج٢ ص ٣٢٦.
(٢) بحار الأنوار ج ١٥ ص ٢١٤.
(٣) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٧٥.
(٤) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٧٢.

رسـائل تـدرس في المؤمنين ... بهن اصطفى أحمد المصطفى

إلى أن قال:

وقلن لأحمد ذرنا قليلا ... فإنّا من النوح لم نشتف [١]

خاتمة المطاف:

ولنختم البحث بذكر ما ورد حول أسمائه فانّ صريح الأحاديث أنّ أسماءه في القرآن أكثر من هذين، فقد روى الصدوق في خصاله [٢] أنّ لرسول الله عشرة أسماء: خمسة منها في القرآن، وخمسة ليست في القرآن، فأمّا التي في القرآن: محمد، أحمد، عبد الله، يس، ن ، وأمّا التي ليست في القرآن: فالفاتح، الخاتم، الكاف، المقفي، الحاشر.

روى الشيخ الأكبر عن الكلبي [٣] عن أبي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قال: قال لي: كم لمحمد اسم في القرآن ؟ قال: قلت: اسمان أو ثلاثة، فقال: يا كلبي له عشرة أسماء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ، ﴿وَ مَبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ، ﴿وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ ، ﴿طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقىٰ﴾ ، ﴿يس * وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ﴾ ، ﴿ن وَالقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ﴾ ، ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ﴾، فالذكر اسم من أسماء محمد ونحن أهل الذكر، فسل يا كلبي عمّا بدا لك؟

ومفهوم الحديثين واضح فانّ المراد من الاسم فيها أعم من الصريح والمؤوّل ومن العلم والوصف فانّ بعض ما عد اسماً له ﷺ لا يعدو عن كونه وصفاً له كالمدثر والمزمل كما أنّ عد الحروف المقطعة علماً له إنّما هو بالتأويل المخصوص علمه لهم ـ عليهم السّلام ـ، فلاحظ.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ١٩٧.

(٢) الخصال ج٢ ص ٤٨.

(٣) بصائر الدرجات ص ١٥٩.

وقال الشيخ الطوسي في التبيان: روي عن علي -عليه السلام-: سمّى الله تعالى النبي في القرآن بسبعة أسماء [١].

هذه سيرة النبي الأكرم وهذه صفاته ونعوته وأسماؤه، وما قدمناه خطوة رائدة للتعرف على نفسياته وسيرته من أُفق القرآن المبين، أو نواة طيبة يمكن البناء عليها، وهو باجماله يمثل شخصيته اللامعة، ومكانته المرموقة، التي قرن الله طاعته بطاعته وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (النساء ـ ٨٠) ومحبّته بمحبّته وقال سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران ـ ٣١).

وبيعته ببيعته وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ (الفتح ـ ١٠) إلى غير ذلك.

وما أردت أن ألمح إلى جميع ما ورد في حقه ﷺ في القرآن المجيد فإنّ استخراجه عمل ضخم لا تسعه طاقة انسان واحد.

وإنّما الذي استهدفت هو أن أشير إلى نماذج حتى يكون فتحاً للباب واستنهاضاً للهمم وتقديماً للاسوة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرِ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾.

وآخر دعوانا
أن الحمد لله ربّ العالمين

---

(١) التبيان ج٢ ص ٤٧٥.

فهرس
مصادر الكتاب

١ـ القرآن الكريم

(حرف الألف)

٢ـ إبانة المختار: شيخ الشريعة الأصفهاني (١٢٦٦ ـ ١٣٣٩هـ) دار القرآن ، قم

٣ـ إثبات الهداة: الحرّ العاملي: محمد بن الحسن (م ١١٠٤هـ) المطبعة العلمية، قم.

٤ـ الإحتجاج: أبـو منصور: أحمد بن علي الطبرسي (من أعلام القـرن السادس الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٥ـ إحقاق الحق: الشهيـد السيـد نور الله الحسينـي التستـري (١٠٩١ هـ) المكتبـة الإسلامية، طهران.

٦ـ الاختصـاص: المفيد: محمـد بن محمد بن النعمان (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) مـؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة.

٧ـ الإرشاد: له أيضاً ـ قدّس سرّه ـ قم المقدّسة ـ ١٤٠٢هـ.

٨ـ إرشـاد القلوب: الـديلمي: أبـو محمد: الحسن بـن محمّد (من أعـلام القرن الثـامن الهجري) منشورات الرضي، قم المشرفة.

٩ـ الاستيعاب: أبو عمر: يوسـف بن عبد الله بن عبد البر (م٤٥٦ هـ)، دار نهضة مصر،

القاهرة.
١٠ـ أُسد الغابة: ابن الأثير: أبو الحسن: علي بن أبي الكرم (م ٦٣٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١ـ الأُسس النفسية للنمو: الدكتور فؤاد البهي مدرس علم النفس بجامعة عين شمس.
١٢ـ الإشارات: الشيخ الرئيس ابن سينا (م ٤٢٨هـ) طبع طهران.
١٣ـ إشراقات: عبد الحميد خاوري.
١٤ـ الإصابة: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (م ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٥٨هـ.
١٥ـ أصل الشيعة و أُصولها: الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ) مطبعة العرفان، صيدا ـ ١٣٥٥هـ.
١٦ـ أُصول الفلسفة: العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي (١٤٠٢ هـ) منشورات المؤسسة الثقافية، النجف الأشرف ـ ١٣٨٥هـ.
١٧ـ أعلام الورى: الطبرسي: أمين الإسلام الفضل بن الحسن (٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) طبع إيران.
١٨ـ الإقبال: ابن طاووس: علي بن موسى الحلّي (م ٦٦٤هـ) طبع تبريز.
١٩ـ إكمال الدين: الشيخ الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ) طهران ـ ١٤٠٥هـ.
٢٠ـ الأمالي: له أيضاً ـ قدس سرّه ـ المكتبة الإسلامية، طهران.
٢١ـ الأمالي: الطوسي: محمّد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ ١٤٠١هـ.
٢٢ـ الأمالي: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (م ٤١٣هـ) قم ـ ١٤٠٤هـ.
٢٣ـ أوائل المقالات: له أيضاً ـ قدس سرّه ـ مكتبة الحقيقة، تبريز ـ ١٣٧١هـ.
٢٤ـ ايقان: عبد الحميد خاوري.

(حرف الباء)

٢٥ـ بحار الأنوار: محمّد باقر المجلسي (م ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ ١٤٠٣هـ
٢٦ـ بديع : حسين على النوري
٢٧ـ بصائر الدرجات: الصفار: محمد بن الحسن (م ٢٩٠هـ) تحقيق الميرزا محسن كوچه باغي، الطبعة الثانية، إيران ـ ١٣٩١هـ.
٢٨ـ بلوغ الا رب: السيد محمود الآلوسي (م ١٢٧٠هـ).

(حرف التاء)

٢٩ـ التاج: أبو عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥هـ) مطبعة تابان ـ ١٣٤٩هـ.
٣٠ـ التاج الجامع للأُصول: الشيخ منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٦هـ.
٣١ـ تاريخ ابن كثير المسمى (البداية و النهاية): ابن كثير الشامي (م ٧٧٤هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٢هـ.
٣٢ـ تاريخ الإسلام السياسي: الدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٩٦٧م .
٣٣ـ تاريخ بغداد: أبو بكر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي (م ٤٦٣هـ) المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
٣٤ـ تاريخ بيهق: ابن فندق (م٥٦٥هـ) تعليق الأُستاذ بهمنيار. ط.طهران.
٣٥ـ تاريخ حصر الاجتهاد: آقا بزرگ الطهراني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩هـ) مدرسة الإمام المهدي ـعج ـ خونسار، إيران ـ ١٤٠١هـ.
٣٦ـ تاريخ الخميس: الديار بكري: الشيخ حسين بن محمّد، مؤسسة شعبان، بيروت.
٣٧ـ تاريخ الطبري المسمّى (تاريخ الأُمم و الملوك): أبو جعفر محمّد بن جرير (م٣١٠هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٣٨ـ تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (من علماء القرن الثالث الهجري) المكتبة

الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨٤هـ.

٣٩ـ التبيان في اعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (م٦١٦).

٤٠ـ تجريد الاعتقاد: نصير الدين الطوسي (م ٦٧٢هـ)

٤١ـ تحفة الزائر: العلاّمة محمّد باقر المجلسي (١١١٠هـ) طبعة حجر، إيران.

٤٢ـ تذكرة الفقهاء: العلاّمة الحلّي (م ٧٢٦ هـ) المكتبة الرضوية، تبريز، طبعة حجر.

٤٣ـ تعاليق الأسفار الأربعة: الحكيم السبزواري.

٤٤ـ تفسير أبو الفتوح المسمّى(روح الجنان): أبو الفتوح الرازي، طهران ـ ١٣٩٤هـ.

٤٥ـ تفسير أنوار التنزيل و أسرار التأويل: عبد الله بن عمر البيضاوي، طبع مصر.

٤٦ـ تفسير البرهان: السيد هاشم التوبلي البحراني (م ١١٠٧هـ) قم ـ ١٣٧٥هـ.

٤٧ـ تفسير البيان: السيد أبو القاسم الخوئي (١٣١٧ ـ ١٤١٣هـ) مطبعة الآداب، النجف الأشرف.

٤٨ـ تفسير التبيان: الطوسي: محمّد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٩ـ تفسير الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٥٠ـ تفسير الرازي: الفخر محمّد بن عمر الخطيب (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥١ـ تفسير فرات: أبو القاسم: فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (من أعلام الغيبة الصغرى) طهران ـ ١٤١٠هـ.

٥٢ـ تفسير الكشاف: الزمخشري: محمود بن عمر (م ٥٣٨هـ) مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ـ ١٣٦٧هـ.

٥٣ـ تفسير مجمع البيان: الطبرسي: الفضل بن الحسن (٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) مطبعة العرفان، صيدا ـ ١٣٥٤هـ.

٥٤ـ تفسير المنار: محمد رشيد رضا (م ١٣٥٤هـ) دار المنار، مصر ـ ١٣٧٣ هـ.

٥٥ـ تفسير الميزان: العلاّمة محمّد حسين الطباطبائي (١٣٢١ ـ ١٤٠٢هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.
٥٦ـ تفسير النعماني : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم .
٥٧ـ تنبيه الأُمّة و تنزيه الملّة: الميزرا النائيني
٥٨ـ تنقيح المقال: عبد الله المامقاني (١٢٩٠ ـ ١٣٥١هـ) النجف الأشرف ـ ١٣٥٠هـ.
٥٩ ـ تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (م ٤٦٠هـ) النجف الأشرف ١٣٧٨ هـ.
٦٠ـ تهذيب الوصول إلى علم الأُصول: العلاّمة الحلّي (م ٧٢٦هـ) طبعة حجر.
٦١ـ التيسير في علم التفسير: عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني (٦١٢ـ٦٩٤هـ).

(حرف الجيم)

٦٢ـ جامع الأُصول: الترمذي
٦٣ـ جامع الرواة: الأردبيلي، محمّد بن علي الغروي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدّسة ـ ١٤٠٣هـ.
٦٤ـ جامع السعادات: الشيخ محمد مهدي النراقي (م ١٢٠٩هـ) مطبعة النجف، النجف الأشرف ـ ١٣٨٣هـ.
٦٥ـ الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) دار الفكر، بيروت.

(حرف الحاء)

٦٦ـ الحجة الذاهب إلى تكفير أبي طالب: أبو علي: شمس الدين فخار بن محمد الموسوي (م ٦٣٠هـ)
٦٧ـ حق اليقين: السيد عبد الله شبر (م ١١٨٨ ـ ١٢٤٢هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٦٨ـ حلية الأولياء: أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الإصبهاني (م ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧هـ.

(حرف الخاء)

٦٩ـ الخاتمية: علي أمير پور، منظمة مرجان للمطبوعات، طهران ـ ١٣٨٥هـ.

٧٠ـ الخرائج و الجرائح: قطب الدين الراوندي (م ٥٧٣هـ) مؤسسة الإمام المهدي، قم ـ ١٤٠٩هـ.

٧١ـ الخصال: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ ١٤٠٣هـ.

٧٢ـ الخطط المقريزية: تقي الدين المقريزي (م ٨٤٥هـ) دار صادر، بيروت.

(حرف الدال)

٧٣ـ الدرجات الرفيعة: صدر الدين السيد علي خان المدني الحسيني (م ١١٢٠هـ) منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨١هـ.

٧٤ـ الدعوة إلى الإسلام: السير توماس ارنولد.

٧٥ـ ديوان أبي طالب: الجامع علي بن حمزة البصري التميمي المكنّى بأبي نعيم (م٣٧٥هـ)

(حرف الذال)

٧٦ـ الذريعة: آقا بزرگ الطهراني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩هـ) دار الأضواء، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

(حرف الراء)

٧٧ـ الرجال: الكشي: أبوعمرو (من علماء القرن الرابع الهجري) مؤسسة اللأعلمي، كربلاء، العراق.

(حرف الزاي)

٧٨ـ زاد المعاد: العلاّمة محمد باقر المجلسي (١١١٠هـ) طبعة حجر، إيران.

(حرف السين)

٧٩ـ السرائر: ابن إدريس الحلي (م ٥٩٨هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ ١٤١٠هـ.

٨٠ـ سفينة البحار: الشيخ عباس القمي (١٢٩٤ـ ١٣٥٩هـ) طبعة حجر، النجف الأشرف.

٨١ـ السنن: ابن ماجة: أبو عبد الله: محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ـ ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٩٥هـ

٨٢ـ السنن: الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمان (١٨١ـ ٢٥٥هـ) دار إحياء السنة النبويّة.

٨٣ـ السيرة النبويّة: ابن هشام: أبو محمد: عبد الملك بن أيوب الحميري (م ٢١٣ أو ٢١٨هـ) دار التراث العربي، بيروت.

٨٤ـ السيرة الحلبيّة: الحلبي: برهان الدين علي بن إبراهيم (م ١٠٤٤هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت.

٨٥ـ السيرة الدحلانية على هامش السيرة: السيد أحمد زيني دحلان، المكتبة الإسلامية، بيروت.

(حرف الشين)

٨٦ـ الشرائع: المحقق الحلّي: أبو القاسم: جعفر بن الحسن (٦٠٢ـ ٦٧٦هـ) دار الأضواء، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٨٧ـ شرح ابن عقيل: عبد الله بن عقيل الهمداني المصري (٦٩٨ ـ ٧٦٩هـ) المكتبة التجاريّة الكبرى، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٨٨ـ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (م ٦٥٥ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٧٨هـ.

٨٩ـ شرح المواهب: الزرقاني .

٩٠ـ الشفاء: الشيخ الرئيس ابن سينا (م ٤٢٨هـ) منشورات بيدار، إيران.

(حرف الصاد)

٩١ـ الصحيح: البخاري: محمد بن إسماعيل (م ٢٥٦هـ) مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر ـ ١٣١٤هـ.

٩٢ـ الصحيح: مسلم بن الحجاج القشيري (م ٢٦١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٣ـ الصحيفة السجادية الجامعة: الإمام زين العابدين: علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ مؤسسة الإمام المهدي ـ عج ـ قم المقدّسة ـ ١٤١١هـ.

٩٤ـ الصحيفة الهادية و التحفة المهدية : الشيخ إبراهيم بن محسن الكاشاني .

٩٥ـ الصراع بين الإسلام و الوثنية: عبد الله القصيمي

٩٦ـ الصواعق المحرقة: أحمد بن حجر الهيتمي (م ٩٧٤هـ) مكتبة القاهرة، مصر ـ ١٣٨٥هـ.

(حرف الطاء)

٩٧ـ الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (م ٢٣٠هـ) دار صادر، بيروت ـ ١٣٨٠هـ.

(حرف العين)

٩٨ـ العرب: الأُستاذ عمر أبو النصر .

٩٩ـ عقائد الإمامية: الشيخ محمد رضا المظفر.
١٠٠ـ العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦ـ ٣٢٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.
١٠١ـ علل الشرائع: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٨هـ.
١٠٢ـ علم الإمام: الشيخ محمد حسين المظفر. النجف الأشرف ـ ١٣٨٠ هـ.
١٠٣ـ عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق (م ٣٨١هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

(حرف الغين)

١٠٤ـ غاية المرام: السيد هاشم البحراني (م ١١٠٧هـ) طبعة حجر، إيران.
١٠٥ـ الغدير: العلاّمة الأميني: عبد الحسين أحمد النجفي (١٣٢٠ـ ١٣٩٠) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧هـ.

(حرف الفاء)

١٠٦ـ فتح الباري: ابن حجر: شهاب الدين أحمد العسقلاني (م ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠٧ـ فتوح البلدان: البلاذري: أبو الحسن (م٢٧٩هـ) المكتبة التجارية، مصر ـ ١٩٥٩م.
١٠٨ـ الفرائد: الشيخ الأنصاري (١٢١٢ـ ١٢٨١هـ) طبعة حجر، إيران.
١٠٩ـ فرحة الغري: عبد الكريم بن طاووس. النجف الأشرف ـ ١٣٦٨هـ.
١١٠ـ فلاح السائل: علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (م ٦٦٤هـ) منشورات دفتر تبليغات إسلامي التابع للحوزة العلمية، قم المقدّسة.
١١١ـ الفهرست: النجاشي: أبو العباس (م ٤٥٠هـ) طبع بومبي.

(حرف القاف)

١١٢ـ قاموس الرجال: محمد تقي التستري (المعاصر، تولد ١٣٢٠هـ) طهران ـ ١٣٩٧هـ.

١١٣ـ القرآن و الكتاب: الحداد

١١٤ـ قرب الإسناد: الحميري القمي: عبد الله بن جعفر (من أعلام القرن الثالث الهجري) مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

(حرف الكاف)

١١٥ـ الكافي: الكليني: محمد بن يعقوب (م ٣٢٩هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٨٨هـ.

١١٦ـ كامل الزيارات: ابن قولويه: جعفر بن محمد (٣٦٧هـ) منشورات ميقات، طهران ـ ١٤٠٦هـ.

١١٧ـ الكامل في الأدب: المبرد النحوي: أبو العباس: محمد بن يزيد (م ٢٨٥هـ) مكتبة المعارف، بيروت.

١١٨ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري: محمد بن محمد (م ٦٣٠ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

١١٩ـ كتاب سليم بن قيس: سليم بن قيس الهلالي (م ٩٠ هـ) مؤسسة البعثة، طهران ـ ١٤٠٧ هـ.

١٢٠ـ كشف الغمّة: الأربلي: علي بن عيسى (م ٦٩٣ هـ) دار الأضواء، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

١٢١ـ كشف المراد: العلاّمة الحلّي: الحسن بن يوسف بن علي بن مطهر (م ٧٢٦هـ) مطبعة العرفان، صيدا ـ ١٣٥٣هـ.

١٢٢ـ كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين: العلاّمة الحلّي (م ٧٢٦ هـ) طهران ـ

١٤١١هـ.
١٢٣ـ كنز الفوائد: الكراجكي: محمد بن علي بن عثمان (م ٤٤٩ هـ) دار الأضواء، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

(حرف اللام)

١٢٤ـ لباب المنقول في أسباب النزول: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) دار إحياء العلوم، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.
١٢٥ـ اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية: جمال الدين مقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلّي (م ٨٢٦ هـ) مطبعة شفق، تبريز ـ ١٣٩٧هـ.

(حرف الميم)

١٢٦ـ المبسوط: الشيخ الطوسي (م ٤٦٠هـ) طبع طهران ـ ١٣٨٧هـ.
١٢٧ـ متشابهات القرآن و مختلفه: ابن شهر آشوب (٤٨٨ ـ ٥٨٨هـ) مطبعة شركت سهامى طبع كتاب، ايران.
١٢٨ـ مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) مصر ـ ١٣٨٥هـ.
١٢٩ـ المحاسن: البرقي: أحمد بن محمد (م ٢٧٤ هـ) طبع طهران ـ ١٣٧٠ هـ.
١٣٠ـ المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي: الدكتور عبد الرحمان الصابوني، المطبعة الجديدة، دمشق ـ ١٣٩٩ هـ.
١٣١ـ مروج الذهب: المسعودي: علي بن الحسين (م ٣٤٥هـ) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ـ ١٩٦٥ م.
١٣٢ـ المزار الكبير: ابن المشهدي، مخطوط ، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المشرّفة.
١٣٣ـ المستدرك: الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله (م ٤٠٥ هـ) دار المعرفة، بيروت.

١٣٤ـ مستدرك الوسائل: النوري الطبرسي: الحسين بن محمد تقي (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ) مؤسسة آل البيت، قم ـ ١٤٠٧ هـ.

١٣٥ـ المسند: أحمد بن حنبل (م ٢٤١ هـ) دار الفكر، بيروت.

١٣٦ـ المسند: الشافعي .

١٣٧ـ مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (م ٤٦٠هـ) بإشراف إسماعيل الزنجاني، إيران.

١٣٨ـ معاني الأخبار : الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ) دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.

١٣٩ـ المعجزة الخالدة: العلاّمة الشهرستاني .

١٤٠ـ المغازي: الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (١٣٠ ـ ٢٠٧هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

١٤١ـ مفاتيح الغيب: صدر المتألهين .

١٤٢ـ المفردات: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم: الحسين بن محمد (م ٥٠٢هـ) مطبعة الميمنية، القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ.

١٤٣ـ مقاييس اللغة: أبو الحسين: أحمد بن فارس بن زكريا (م ٣٩٥ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٦٦ هـ.

١٤٤ـ مقباس المصابيح: العلاّمة محمد باقر المجلسي (م ١١١٠).

١٤٥ـ المقتل: الخوارزمي: موفق بن أحمد المكي (م ٥٦٨ هـ) مطبعة الزهراء، النجف الأشرف ـ ١٣٦٧ هـ.

١٤٦ـ المقدّمة: ابن خلدون: عبد الرحمان بن محمد (م ٨٠٨ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٣٩٨ هـ.

١٤٧ـ مكاتيب الأئمة: العلاّمة محمد بن المحسن بن المرتضى الكاشاني (١٠٣٩ ـ ١١١٥هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم ١٤٠٧هـ.

١٤٨ـ مكاتيب الرسول: علي بن حسين علي الأحمدي (المعاصر) المطبعة العلمية، قم ـ

١٣٧٩هـ.
١٤٩ـ مكارم الأخلاق: الطبرسي: الحسن بن الفضل (من أعلام القرن السادس الهجري) منشورات الشريف الرضي، قم ـ ١٤٠٨هـ.
١٥٠ـ المكاسب: الشيخ مرتضى الأنصاري، منشورات علاّمة، قم ـ ١٤٠٨هـ.
١٥١ـ ملحقات العروة الوثقى: السيد الطباطبائي .
١٥٢ـ مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: أبو جعفر: رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ ـ ٥٨٨ هـ) المطبعة العلمية، قم، إيران.
١٥٣ـ مناهل العرفان: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٨ هـ.
١٥٤ـ من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق: محمد بن علي بن بابويه القمي (م٣٨١هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٠ هـ.
١٥٥ـ من هنا و هناك: محمد جواد مغنية، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ ١٣٨٨هـ.
١٥٦ـ الموطأ: مالك بن أنس (م ١٧٩ هـ) دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

(حرف النون)

١٥٧ـ نظرية السياسة و الحكم في الإسلام: العلاّمة الطباطبائي (م ١٤٠٢هـ) طهران ـ ١٤٠٢هـ.
١٥٨ـ نهاية الدراية: السيد حسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤هـ) الهند، لكهنو ـ ١٣٢٤هـ.
١٥٩ـ نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٤ هـ) بيروت ـ ١٣٨٧ هـ.
١٦٠ـ نهج السعادة: الشيخ محمد باقر المحمودي (المعاصر) مؤسسة الأعلمي، بيروت.
١٦١ـ نور الثقلين: العروسي الحويزي: عبد علي بن جمعة (م ١١١٢هـ) مطبعة الحكمة، قم المقدّسة، إيران.

(حرف الهاء)

١٦٢ـ هدية الزائرين: الشيخ عباس القمي (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩هـ) طبعة حجر.

(حرف الواو)

١٦٣ـ الوافي: الفيض الكاشاني (م ١٠٩١ هـ) منشورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين، اصفهان ـ ١٤٠٦ هـ.
١٦٤ـ الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا (م ١٣٥٤ هـ) طبع مصر.
١٦٥ـ وسائل الشيعة: الحرّ العاملي: محمد بن الحسن (١٠٣٣ ـ ١١٠٤هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ.
١٦٦ـ ولاية الفقيه: الإمام روح الله الخميني (م ١٤٠٩ هـ) منشورات ناس، طهران.

(حرف الياء)

١٦٧ـ اليهود في القرآن : عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٣٨٦هـ.
١٦٨ـ ينابيع المودة: القندوزي: سليمان بن إبراهيم البلخي (م ١٢٩٤هـ) مطبعة اختر، اسلامبول ـ ١٣٠١ هـ.

❁ فهرس المواضيع ❁

الموضوع ❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁ الصفحة

الفصل الأوّل

الفصل الثاني

الفصل الثالث

شبهات حول الخاتميّة ١٦٩

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن